

سحبه الباحث عماد أمير ونسقه إدارة

جروب مَعين التاريخ لأهل التاريخ

جمعية التاريخ الحديث

تاريخ أوربّا

العُصُورُ الوُسْطَى

تأليف

هـ. ا. ل. فشر

نقله إلى العربية

السيد الباز العريني

محمد مصطفى زيادة

١



دار المعارف بمصر

جمعية التاريخ الحديث

تاريخ أوربا العصور الوسطى

القسم الأول

تأليف

هـ. أ. ل. فشر

نقله إلى العربية

السيد الباز العريبي

محمد مصطفى زيادة

الطبعة السادسة



دار المغارف بمصر

تقديم الطبعة الأولى

نقدم هذا القسم من الجزء الثاني من الترجمة العربية لتاريخ فيشر لأوروبا ، وذلك بعد أن قدمنا الجزء الأول (الخاص بالعصر القديم) ، والجزء الرابع والأخير (الخاص بالعصر الحديث والمعاصر) . وعلى هذا لا يبقى لإتمام الترجمة العربية إلا نشر ما تبقى من هذا الجزء الثاني ، ثم الجزء الثالث (الخاص بعصر النهضة والإصلاح الديني والقرن الثامن عشر) .

ولنا أن نغتنب بانصراف طائفة من أفاضل المؤرخين المصريين للقيام على الترجمة إلى اللغة العربية ، باذلين في هذا السبيل وقتاً ثميناً وجهداً مفضياً ، وما دفعهم لذلك إلا حرصهم على انتفاع أبنائهم الطلبة وسائر أبناء الوطن بشمرة من ثمرات التأليف الأوروبي التاريخي ، اعتبرها النقاد تأليفاً من الطراز الأول .

ولكل جزء من أجزاء تاريخ فيشر صعوباته الخاصة به من حيث الترجمة ، ولكن الأجزاء كلها تشارك في صعوبة واحدة عامة ، وهي ضرورة التعبير عن المعاني التاريخية باللغة العربية ، لجمهرة من القارئ لا بد لهم من بذل مجهود خاص ، لإدراك عالم من المعاني لا تحيط به تجاربهم ، ولا يمكنهم أن يتصلوا به إلا عن طريق التصور وطريق التقريب بينه وبين العالم الذي يعيشون فيه . وقد يظن ظان أن الأمر أمر إيجاد مصطلحات ، ولكن - في الواقع - ربما كان شأن المصطلحات أهون ما في المسألة كلها ، والشيء الأساسي هو تصوير المعاني .

وقد قلت إن هذه صعوبة عامة في معالجة الأجزاء كلها ، ولكنني أعدل عن هذا بعض الشيء ، فأقول إنها تنطبق بصفة خاصة على الجزء الثاني هذا ، لاختصاصه بالعصور الوسطى الأوروبية وحضارتها المسيحية الغربية . ولنذكر - على سبيل المثال - الفكرة الإقطاعية كلها ، أو فكرة السلطان الديني والسلطان المدني ، وهكذا . وقد يقول قائل : وكيف يصعب التعبير عن هذه

الأفكار للقارئ المصرى ، وفى تاريخ بلاده أشياء من الفكرة الإقطاعية ، وأشياء من فكرة السلطان ؟ وأقول إن هذا بالضبط هو منشأ الصعوبة ، هو منشؤها لأن الشبه الظاهر يخدع ، ويستلزم من القارئ أن يتخلى عما يعرف قبل أن يتلقى ما لا يعرف ، كما أنه يستلزم من المترجم أن يعرف الناحية الأوروبية على وجهها ، والناحية المصرية على وجهها ، وبهذه المعرفة يتيسر له أن يهتدى قارئه سواء السبيل .

وقام بنقل هذا الجزء من الكتاب الدكتور محمد مصطفى زيادة ، خير من ينقل للغة العربية مؤلفاً فى تاريخ العصور الوسطى الغربية ، إذ درسها فى موطنها على كبار مؤرخيها ، ثم كان بحته الخاص فى المواضيع التى تلاقت فيها الحضارات الأوروبية والإسلامية ، ثم انهماكه سنوات عديدة فى نشر مؤلف أساسى للتاريخ المصرى فى العصور المقابلة لتلك العصور الأوروبية ، ومعالجته تعليم المادة فى المعاهد العالية وكلية الآداب بجامعة القاهرة ، ثم هو بعدُ يعاونه فى الترجمة أحد تلاميذه السيد الباز العرينى ، وهو كذلك يعالج تعليم المادة لتلاميذ التعليم الثانوى .

وللقارئ إذن أن يطمئن إلى أننا جمعنا للترجمة خير المؤرخين ، فى خير الظروف . وقد يجوز أن أضيف إليها ظرفاً آخر ، ألا وهو أن ذلك التعاون بين الأستاذ وتلميذه كفى بأن يكشف للمؤرخين طرقاً وسبلاً ، وأن يهديهم إلى وسائل ربما لم تكن لتتحقق لو قام بالأمر الأستاذ الجامعى وحده ، أو الأستاذ فى التعليم الثانوى وحده . فنحن نرجو ألا يقتصر استخدام الكتاب على المدرسين والطلاب الجامعيين فقط ، بل نحب أن نراه فى مكتبة المدرسة الثانوية ، يعمل فيه التلميذ تحت إشراف معلمه ، وسوف يجد فيه من الفصول الممتعة ما يحب إليه التاريخ ، ويقوى فيه ملكة المقارنة والموازنة والتصور .

محمد شفيق غربال

تصدير الطبعة الأولى

هذا كتاب وددت منذ سنوات لو أننى قمت - أو قام غيرى - على إخراجه تأليفاً خالصاً فى اللغة العربية ، من مختلف المراجع الميسورة فى مصر ، لا نقلاً وترجمة من اللغة الإنجليزية فحسب . ذلك أنى أحسست بظماً شديداً إلى ذلك الكتاب فى عقول الطلاب ، جيلاً بعد جيل ، منذ توليت التدريس فى مواد العصور الوسطى الغربية والشرقية ، بقسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة القاهرة . فلما أعيننى أوقات الفراغ ، وأعوزتنى الحيلة فى التوفر ، رأيت اختصاراً للطريق ، وإرواء لهذا الظم الشديداً ، أن أنقل كتاباً من الكتب الشهيرة فى تاريخ العصور الوسطى من اللغة الإنجليزية إلى اللغة العربية ، وهى كتب غير قليلة . ولم يدر بخلدى وقتذاك - أى سنة ١٩٤٤ م - أنى سوف أصدف عن منشود طريقى إلى طريق غير مختصر ، وأنى سوف أختار - مع جمعية التاريخ الحديث - كتاباً بقلم علم من أعلام المؤرخين الإنجليز ، ذى أسلوب سهل ممتع رفيع ، وعمق غير عادى فى الكتابة ، وتخريج غير مسبوق إليه فى الكتب المعروفة ، وربط بين الحوادث لا يطيقه إلا أصحاب القراءة الواسعة فى تجارب الأمم ؛ وهذا وذاك فضلاً عن إيجاز ليس من السهل محاكاته فى اللغة العربية ، لقلة المادة التى يستطيع الناقل أن يفترض وجودها لدى القارئ العربى فى كتب سابقة ، وفضلاً عن اختلاف القيم والمعانى والمصطلحات بين التاريخ الأوروبى والتاريخ الشرقى والمصرى فى العصور الوسطى .

والقيام على نقل هذا الكتاب وأمثاله إلى العربية يتطلب صفات ومؤهلات لست مؤكداً أنى مطوق بها كما أشتى ، وأهمها عندى بالإضافة إلى الاستعداد التاريخى - وهو شىء ليس بالقليل - أن يكون الناقل متمكناً من أدب اللغتين ، المنقول منها والمنقول إليها ، لتأدية معانى المؤلف فى أسلوب يحكى مستواه ، فى أصله ، لأن الأمر ليس بإيجاد مرادف عربى لكلمة إنجليزية ، والسلام على من اتبع القاموس وقنع بترجماته الحرفية الضيقة ، بل هو نقل كذلك لطريقة المؤلف فى

العرض والشرح والتأليف . ولذا تطلب النقل من الإنجليزية إلى العربية في هذا الكتاب تطويماً اقتضاه الحرص على إيضاح العبارة في صورتها الجديدة ، لقارئها الجديد ، لا على حساب الأصل وصاحبه ، بل على حساب الناقل وشريكه وأوقاتها الضمنية من الفراغ . وتطلب النقل كذلك رجوعاً إلى مختلف المراجع الكبيرة في العصور الوسطى ، لفهم ما انطوى عليه إيجاز المؤلف أحياناً كثيرة من إشارات عابرة ، وتأدية هذه في عبارات عربية غير غامضة ، مع الاستعانة ببعض الحواشي القصيرة . على أنى لم أعمد دائماً إلى ذكر هذه المراجع ، أو تعيين المواضع التي استقيت منها مادة الحواشي ، لأنها كلها مراجع ومواضع معروفة للعارف بتاريخ العصور الوسطى الغربية والشرقية ، في شيء من التفصيل .

وبهذا العمل ملأت معظم ليالي بغداد ، أثناء إقامتي سنتين دراسيتين بالعراق ، على حين ملأ شريكى لياليه في القاهرة بالأدوار الأولى من هذا العمل . غير أننا لم نستطع إخراج الكتاب كله مرة واحدة ، فرأينا إصدار القسم الأول منه في هذه الصفحات التي بين يدي القارئ ، على أن يصدر القسم الثاني مذيلاً بفهرس شامل لمحتويات القسمين في المستقبل القريب . وسوف يرى القارئ فيما يرى بهذه الصفحات عرضاً تاريخياً لأوروبا العصور الوسطى على أنها وحدة حضارية متجانسة ، فيها من الخير والشر والقابلية في الناحيتين ما هو - على أية حال - أصل من أصول الحضارة الأوروبية في القرن العشرين الميلادي . وسوف يرى القارئ فيما يرى كذلك أن المؤلف أطل على موضوعه من «شباك» أوربي واسع عظيم الارتفاع ، وأنه استطاع أن يصور المنظور التاريخي الأوربي الغربي في العصور الوسطى أعدل تصوير ، فعالج ظهور الإسلام^(١) ، وتكوين الدولة الإسلامية الأولى مثلاً ، على مقياس غير مقياس معالجه الدول الجرمانية ، واجتزأ من تاريخ الدولة البيزنطية المديد ، وآثاره البعيدة في الشرق والغرب ، بموقفها العدائي من الصليبيين ، وهم في طريقهم من مختلف البلاد الأوروبية إلى الشام ، واعتبر تاريخ إسبانيا العصور

(١) تطلب نقل الفصل الخاص بالإسلام والمسلمين (ص ٥٩ - ٦٨) تعديلاً كثيراً في عبارة المؤلف في بعض المواضع ، دون ساس بإطار الموضوع أو جوهره . (زيادة) .

الوسطى تاريخاً لحركة المقاومة المسيحية ، وهى الحركة التى أدت إلى إخراج المسلمين نهائياً من أوربا . لكن المؤلف أوسع لتاريخ البابوية ما استطاع أن يوسع من الصفحات ، وأوفر لكل من فرنسا وألمانيا وإنجلترا ما يكفل بيان أهمياتها فى تلك العصور ، ومدد فى النزاع والتخاصم فيما بين البابوية والإمبراطورية ليعين منه بعض جذور النهضة الأوروبية الكبرى أوائل العصور الحديثة ، وما كان له أن يعمل غير هذا ، احتراماً لقواعد التنسيق والتوزيع والتركيز فى شرح أركان التاريخ الأوروبى الغربى فى العصور الوسطى . والناقل الشرقى - مثلى - لا يستطيع إلا أن يظل مرتبطاً إلى تنسيق المؤلف وتوزيعه وتركيزه ، فضلاً عن طريقته وأسلوبه ، وهذا الارتباط هو عندى أكبر صعوبات النقل والترجمة .

غير أن المؤلف الشرقى فى حل من هذا الارتباط وقيوده ولزومياته ، إذا هو أقبل على التأليف فى تاريخ الشرق الأوسط فى العصور الوسطى من أصوله المتنوعة فى الكتب والوثائق والآثار الكبيرة والصغيرة ، وما عليه إلا أن يطل على موضوعه من « شباك » شرقى رحيب ، لا إعلاء لعاطفته القومية ، ولا اعتزازاً بوضعه الثقافى والحضارى ، بل رغبة فى تطبيق قواعد التنسيق والتوزيع والتركيز كذلك ، مع الاهتمام بعملية التجاوب التاريخى بين الشرق والغرب فى تلك العصور . ذلك أن تاريخ الشرق الأوسط فى العصور الوسطى - وهو تاريخ إسلامى فى مزاجه العام - ليس وحدة مقفلة ، ولا ثباتاً لعهود خلفاء فى الخلافة ، وولاة فى الولايات ، وملوك فى الممالك المستقلة ، وقصائد من شعر المداحين والهجائين ، والبلاطيين والوصافين فى مختلف المناسبات ، حتى يخيل للقارئ أنه يطالع أخبار الفردوس المفقود ، بل هو تاريخ - اجتماعى اقتصادى سياسى - مثل تواريخ سائر الأمم ، وفى معالجة مشكلاته وشرح تطوراتهِ وتياراتهِ ما هو أهم كثيراً من الوقفات الطويلة أمام السنوات والشهور ، لمناقشة ما ورد فى تحديدِها من روايات . والحقيقة أن تاريخ الشرق الأوسط فى العصور الوسطى بحاجة إلى عقول شرقية جديدة ، وإلى تقسيمات تاريخية مستمدة من القوانين العلمية الحديثة ، لا التقاليد الموروثة .

وبعد ، فأرجو أن أشكر هنا جميع الذين يرجع إليهم الفضل في نقل هذا الكتاب إلى العربية ، وجميع الذين ساعدوني على إخراجه في هذه الصورة . وأول هؤلاء وأولئك صديقي الأستاذ محمد شفيق غربال ، وكيل وزارة التربية والتعليم « المعارف » ، ورئيس جمعية التاريخ الحديث ، ثم صديقي وتلميذي وزميلي السيد الباز العريني ، فهو الذي شاركني في كل مراحل العمل في هذا الكتاب مشاركة تنبئ بها صفحة العنوان . وأشكر كذلك أصدقائي وتلاميذي وزملائي محمد سعد السيد منصور ، وعبد اللطيف حمزة ، وشوقي ضيف ، وأحمد عيسى ، الذين أمدوني بأنواع من الملاحظات نيابة عن القارئ العربي الحديث ، وهو الذي توخيت من أجله أن يكون هذا الكتاب .

محمد مصطفى زيادة

مصر الجديدة - ١٣ يولية ١٩٥٠ م .
٢٧ شعبان ١٣٦٩ هـ .

تصدير الطبعة الثانية

قرأت هذا الكتاب للطبعة الثانية ، وأدجت نقد الناقلين وهو للأسف قليل ، لأن ما وصلنى من المختصين القادرين على نقده قلة ، بل إن بعض هذا الذى وصلنى اقتصر على كلمات لإطرائية من باب جبر الحاطر للتوفيق فى ترجمة كتاب فى موضوع العصور الوسطى . غير أنى أشكر جميع من كتبوا إلى - أو إلى شريكى فى الترجمة - وأخص بالشكر أولئك الذين تعرضوا لمادة الكتاب فى صورته العربية ، وأولهم صديقى عادل الغضبان ، وعبد الحميد حمدى محمود ، مدرس العصور الوسطى بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية ، وسعيد السيد منصور ، مدرس التاريخ بكلية الحربية . ولآخرهم شكر خاص ، إذ قرأ الكتاب من أوله إلى آخره ، واقترح توضيح ما ظنه غامضاً على قارئ تاريخ العصور الوسطى فى اللغة العربية ، وهدانى باقتراحه إلى شىء من التعديل فى المتن ، وإلى كتابة حاشيتين اثنتين جديدتين ، فى ص ١٠٥ ، ١٣٧ . وأود أن أشكر هنا كذلك أستاذى ج . و . كوبلاند ، إذ نبهنى إلى بعض ما فى الأصل الإنجليزى من مواضع تحتاج إلى عناية خاصة فى النقل إلى العربية ، بعد ظهور الطبعة الأولى ، فاهتديت بهذه التنبيهات فى الطبعة الثالثة . وأود كذلك أن أشكر هيئة الإدارة والعمال بدار المعارف على إنجاز الكتاب فى طبعته الجديدة .

محمد مصطفى زيادة

مصر الجديدة - نوفمبر سنة ١٩٥٤ م .
ربيع الثانى ١٣٧٤ هـ .

تصدير الطبعة الثالثة

تطلبت الطبعة الثالثة من هذا الكتاب شيئاً من المراجعة الجديدة . والفضل في ذلك إلى اتساع دائرة القارئین فی موضوعات العصور الوسطی الغربية وأسئلة بعض أولئك القارئین المشكورین عن كثير من مصطلح تلك العصور ومناهجها ومرادفاتھا فی العصور المقابلة لها من التاريخ المصری .

ونرجو أن يكون فی التعديلات والتصحيحات التي أدخلناها فی هذه الطبعة الثالثة ما يكفي للإجابة عما وصلنا من أنواع الأسئلة والملاحظات الناقدة المشكورة ، كما نرجو شكر هيئة الإدارة والعمال بدار المعارف على عنايتهم الطيبة بإخراج هذا الكتاب فی طبعته الجديدة .

محمد مصطفى زیادة
السيد الباز العرینی

القاهرة
نوفبر سنة ١٩٥٧ م.
ربیع الثاني سنة ١٣٧٧ هـ.

تصدير الطبعة الرابعة

احتل هذا الكتاب . منذ طبعته العربية الأولى سنة ١٩٥٠ . ركناً مرموقاً بعين التقدير في ميدان المعرفة التاريخية . بجميع بلاد الشرق العربي . ومعظم الفضل في ذلك كله يرجع دائماً إلى مؤلفه الأصلي ، فهو صاحب ابتكاره وتنظيمه وتقسيمه وترتيب حقائقه . على نمط هذا الكتاب من الصنف العلمى السهل الممتنع ، في موضوع حوادثه غنية متزاخمة متراكضة ، على مسرح التاريخ .

واستطاع هذا الجزء الأول الذى بين يدى القارئ الفاحص أن يشتمل على معالم التاريخ الأوربي منذ أيام سقوط الإمبراطورية الرومانية القديمة ، وأواخر القرن الخامس . إلى أيام عظمة البابوية المسيحية والبابا إنوسنت الثالث ، أوائل القرن الثالث عشر . وهذه المرحلة التاريخية المستطيلة هى التى يسميها المؤرخون مرحلة التاريخ الأوربي في العصور الوسطى الأولى . تتميزاً لها من مرحلة ثانية نهائية لتلك العصور نفسها . ومساحتها الزمنية ، على وجه التقريب ، من أواسط القرن الثالث عشر إلى أواخر القرن الخامس عشر للميلاد ، وهى موضوع الجزء الثانى من هذا الكتاب . ويحرص كاتب هذه السطور على تصحيح ماينبغى تصحيحه من المتن ، وتعديل ماينبغى تعديله من الحواشى الجديدة . سواء بالحذف أو بالإضافة ، طوعاً لما يصل إليه بعض الأحيان من اقتراحات بناء مفيدة محمودة . وما هو هذا الجزء الأول في طبعته الرابعة . وسوف يتلوه الجزء الثانى منه . في طبعة من هذا الترتيب العددى في المستقبل القريب .

ويسر كاتب هذه السطور كذلك أن يختم كلمة التصدير ، طبعة بعد طبعة ، بشكر هيئة الإدارة والمطبعة بدار المعارف . لعنايتهم المستمرة أن يخرج هذا الكتاب للناس في سوق المعرفة . على أحسن ما يكون من دقة وإتقان في الإنتاج المطبعي . محمد مصطفى زيادة

تقديم الطبعة الخامسة

تصدر الطبعة الخامسة من هذا الكتاب والأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة قد انتقل إلى جوار ربه ، وتبوأ مقعد صدق عند مليك مقتدر . وقد أفنى — رحمه الله — عمره وصحته في خلق جيل صالح من المؤرخين العرب . المزودين بالقدرات المتينة والمؤهلات العالية ، التي تكفل لهم خدمة وطنهم العربي الكبير ، وربطه بشتى ينابيع الحضارة العالمية الحديثة .

وسلك الدكتور محمد مصطفى زيادة في سبيل ذلك طرقات شتى . دون أن يحجم عن ارتياد أصعبها وأوعرها ، ضارباً في كل عمل بسهم وافر وجهد عميق ، لا يتوافر إلا لأصحاب العزم من العلماء المخلصين . وينهض الجهد الذي بذله — رحمه الله — في ترجمة كتاب أوروبا العصور الوسطى ، والذي تقدم الطبعة الخامسة منه ، نموذجاً على ما تحظى به سيادته من أمانة صادقة في العمل ، ومواهب نادرة في تطويع الصعاب العلمية ، وجعلها مركباً ذلولاً للباحثين والعلماء المعاصرين . وقد لمست هذه الحصال العلمية الفريدة في سيادته عندما أتيح لي شرف المساهمة معه في ترجمة القسم الثاني من كتاب تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، وربطه بهذه الترجمة الخاصة بالقسم الأول .

وتعتبر هذه الترجمة التي يطالع الباحث الحديث الطبعة الخامسة منها سجلاً أميناً لما قدمه الدكتور مصطفى زيادة من دراسة ممتازة في ميدان الترجمة ، وراثاً ثميناً يتركه راضياً مرضياً للعاملين في حقل التاريخ بالبلاد العربية . تغمده الله برحمته الواسعة ، وهياً لمدرسته — أساتذة وطلاباً — السير على نهجه ، واتباع عمله بإحسان ، ورفع قواعد الدراسات التاريخية لتؤتي ثمارها في خدمة الأمة العربية . ومساندتها في نهضتها المعاصرة .

دكتور إبراهيم أحمد العدوى

محتويات القسم الأول^(١)

صفحة	
ج - د	تقديم بقلم الأستاذ محمد شفيق غربال
هـ - ح	تصدير الطبعة الأولى بقلم الدكتور محمد مصطفى زيادة
ط	تصدير الطبعة الثانية بقلم الدكتور محمد مصطفى زيادة
ى	تصدير الطبعة الثالثة بقلم الدكتور محمد مصطفى زيادة
ك	تصدير الطبعة الرابعة بقلم الدكتور محمد مصطفى زيادة
ل	تصدير الطبعة الخامسة بقلم الدكتور إبراهيم أحمد العدوى
م	محتويات القسم الأول
ن	خرائط القسم الأول
١٤ - ١	الفصل الأول دقلديانوس وقنسطنطين
٤٣ - ١٥	الفصل الثاني الغزوات الجرمانية
٥٩ - ٤٤	الفصل الثالث عصر جستنيان
٦٩ - ٦٠	الفصل الرابع الإسلام
١٠٤ - ٧٠	الفصل الخامس دولة الفرنجة
١١٤ - ١٠٥	الفصل السادس الكنيسة الكاثوليكية الرومانية
١٣٦ - ١١٥	الفصل السابع الشماليون
١٥٨ - ١٣٧	الفصل الثامن الملوك السكسونيون والفرنكونيون في ألمانيا
١٧٠ - ١٥٩	الفصل التاسع أسس الحكم في فرنسا وإنجلترا
١٩٤ - ١٧١	الفصل العاشر الحروب الصليبية والدولة البيزنطية والمسلمون
٢٠٩ - ١٩٥	الفصل الحادى عشر الإمبراطور فردريك بربروسا
	الفصل الثانى عشر الحركة الفكرية والحركة الديرية في العصور الوسطى
٢٢١ - ٢١٠	الفصل الثالث عشر نمو المدن وحكوماتها في العصور الوسطى
٢٣٠ - ٢٢٢	الفصل الرابع عشر البابوية والبابا إنوسنت الثالث
٢٤٠ - ٢٣١	الفصل الخامس عشر الحملة الصليبية المعروفة بالرابعة
٢٤٨ - ٢٤١	الفصل السادس عشر سقوط أسرة الهوهنشتاوفن
٢٦٠ - ٢٤٩	

(١) اقتضى تقسيم الأصل الإنجليزى لهذا الكتاب إلى أجزاء منفصلة - بحسب العصور التاريخية - أن يكون للفصول الخاصة بالعصور الوسطى أرقام غير أرقامها الأصلية ، فالفصل الأول هنا هو التاسع هناك ، وهكذا . (زيادة) .

خرائط القسم الأول

صفحة	
٢٧	الممالك القوطية في عز أيامها
٩٩	إمبراطورية شارلمان وتقسيم فردان
١٤١	أوربا على عهد الإمبراطور أوتو
١٨٣	أوربا زمن الحملة الصليبية المعروفة بالأولى
١٨٧	نتائج الحملة الصليبية المعروفة بالأولى
١٩٣	نتائج الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة
٢٢٤—٢٢٥	طرق التجارة والمواصلات الرئيسية في العصور الوسطى ، بين صفحتي

تاريخ أوربا

العصور الوسطى

القسم الأول

الفصل الأول

دقلديانوس وقنسطنطين

إصلاحات دقلديانوس — أعمال قنسطنطين في ميادين الحرب والإدارة — اعتناقه المسيحية — نتائج اعتراف الإمبراطور قنسطنطين بالديانة المسيحية — شدة الرابطة بين الكنيسة والدولة في عهد قنسطنطين — اختياره بيزنطة عاصمة للإمبراطورية — نسبته العاصمة الجديدة إلى اسمه — التباين بين القسمين الشرقي والغربي من الإمبراطورية — تضائل الثقافة الإغريقية في الغرب — بقاء الآداب اللاتينية القديمة — الاختلاف بين الكنيستين الرومانية والإغريقية .

* * *

بدأت الإمبراطورية الرومانية — أواخر القرن الثالث الميلادي — بحاجة شديدة إلى أباطرة يستطيعون أن يستبدوا بثنونها ، ليكفلوا باستبدادهم إنقاذها مما تتمكن بأرجائها من مظاهر الخور والانحلال . وافتتح ذلك الاستبداد الجديد إمبراطوران عظيمين من أهل إقليم إيليريا القديمة ، بالشمال الغربي من شبه جزيرة البلقان الحالية . هما دقلديانوس وقنسطنطين اللذان تعاقبا على حكم الإمبراطورية في المدة الواقعة بين سنتي ٢٨٤ و ٣٣٧ ميلادية . غير أنه لا يسع كل محب للحرية إلا أن يرى بعضاً من الأخطاء الجسيمة فيما قام به هذان الإمبراطوران من أعمال بعثتها في كل منهما روح بالغة في الكراهية للفردية ، وساعدت عليها في عهديهما أجواء مسممة بالجواسيس والمناقين ؛ وذلك فضلاً عما غلب على السنوات الثمانية الختامية (٢٩٧ — ٣٠٥ م) لعهد دقلديانوس من الاضطهاد المرير ، الذي يذكره المسيحيون على مدى الأيام والدهور . لكنه على الرغم من تلك الأخطاء ليس ثمة شك أنه لم ينجح بين رجال السياسة إلا القليلون — في التاريخ كله — مثل نجاح دقلديانوس

وقنسطنطين في إمداد العالم الذي عاش فيه بما حاجه وأعوزه من إصلاح ،
 بدليل المحافظة على ما تم على يد هذين الإمبراطورين في رضى عام وقنوع غير
 مقطوع ، إذ ظل النظام الإدارى الذى ابتدعه دقلديانوس معمولاً به فيما
 تبقى من الدولة الرومانية وشرق أوربا مدة ألف سنة ، وما برحت النقود
 الذهبية^(١) التى ضربها قنسطنطين متداولة حتى القرن الحادى عشر الميلادى .
 ولو كان قنسطنطين أبى أن يعترف بالديانة المسيحية ضمن الديانات المسموح
 بها في الدولة ، أو لو أنه لم يعقد مجمع نيقية الذى حدد مذهب ألوهية المسيح ،
 أو لو أنه لم يصمم على نقل العاصمة الإمبراطورية إلى بيزنطة وتسميتها باسمه ، وهى
 المدينة اليونانية القديمة المطلة على البوسفور ، لتغير مجرى التاريخ كله تغيراً تاماً .

ذلك أن دقلديانوس - وهو جندى فلاح الأصل من إقليم إيليريا
 المطل على البحر الأدرياتي - جاء إلى الوظيفة الإمبراطورية والحكم تنفيذاً
 لرغبات الفيلق البانونية التى كان متولياً قيادتها ، وخلق بما استحدثه في
 شئون الدولة جواً من التجديد لولاه ما امتاز عهده بشيء عما سبقه من العهود ،
 إذ طفق خلال حكمه الذى امتد عشرين سنة يبذل من مواهب عقله الجبار
 الناشط ما استطاع أن يبذل في الإدارة والحكم ، حتى تراءى لبعض
 المعاصرين أن كثيراً من الأعمال التى قام بها ذلك الفلاح الدالماشى الخشن
 يبدو عليها التناقض والتزمت ، فضلاً عما يغلب على نفس الإمبراطور من
 دوافع التسرع والتطير ، بدليل إتمامه مشروعاً من مشاريع البناء والتعمير
 ثم هدمه بعدما تعب في بنائه وتعميره ، أو إصداره قانوناً من القوانين ثم إلغائه
 ما أصدر دون سبب مفهوم أو معروف . غير أن حكم الأجيال بعد دقلديانوس ،
 وتلك لا تهتم بتفاصيل الأعمال التى قام عليها هذا الإمبراطور قدر اهتمامها بأثرها
 العام ، يرى فيه رجلاً نظيماً صارماً . أراد أن يضبط شئون الحكم والإدارة في
 دولة انعدمت فيها الضوابط ، فأدخل المركزية في الحكم ، ووجد وسائل
 الإدارة ، كما أدخل نظام توزيع السلطات ، وقسم الولايات تقسيماً جديداً ،

(١) اسم هذه النقود الذهبية في الأصل الإنجليزي (aureus) ، وكذلك (solidus) ؛ وقيمة كل منها نصف جنيه تقريباً في العملة المصرية الحالية . (زيادة) .

وذلك لأنه أدرك أهمية فصل السلطة السياسية عن السلطة الحربية في الولايات ،
 وبسبب شدة الحاجة إلى تنظيم الوظائف الإدارية وضبطها أملاً في إزالة
 ما حل بالمجتمع الروماني من الركود السياسي والانحلال . ولالإمبراطور
 دقلديانوس كذلك ينسب إدخال الآيينات — أى البروتوكولات والرسوم
 للإمبراطورية — التى ظلت نموذجاً للبلاط والحاشية بالممالك الأوربية المختلفة
 عدة قرون . إذ أنه على الرغم من إبقائه على القاعدة القائلة نظرياً
 بأن الإمبراطور هو الحاكم المختار من الناس لحمايتهم ورعايتهم ، ذهب في
 الحكم مذهباً استبدادياً شريعياً ، وادّعى لنفسه حقوقاً إلهية ، وجعل شخصيته
 مهيمنة على أداة بيروقراطية هائلة ، تديرها فئات سلسلة من الموظفين المدنيين ،
 وكلهم طوع بئانه ورهن إشارته — أى أن دقلديانوس محاط بقرىب العصر الروماني
 وأوضاعه ، ومهد بما أحدثه في الحكم والإدارة للعصر البيزنطى وما اشتهر به من
 طقوس وأوضاع .

وثمة ظاهرة أخرى تجعل عهد دقلديانوس حداً فاصلاً في التاريخ ،
 وهى أنه رأى أن الإشراف على شئون الدفاع عن الإمبراطورية في أربع
 جهات منفصلة لا يمكن أن يتأتى لرجل واحد ، وأن أداة ذلك الدفاع
 يجب ألا تبقى جامدة . فى أمكنة ثابتة ، بل ينبغي أن تكون متحركة
 متنقلة ، وأن مناداة الفرق الحربية بمن يروقها فى المنصب الإمبراطورى
 (Pronunciamentos) طريقة ينبغي أن تنقطع ، لأنها طالما أدت بالإمبراطورية
 إلى كثير من الخبل وإهراق الدماء . لذا قرر دقلديانوس أن تكون مقاليد
 الحكم بيد إمبراطورين اثنين ، أى هو ومكسيميانوس الفلاح الأصل من تراقيا ،
 فيحمل كل منهما لقب أغسطس ، ويعاونهما فى تصريف شئون الدولة
 اثنان لكل منهما لقب قيصر ، على أن يتخلى الإمبراطوران عن الحكم
 بعد عشرين سنة . ليحل محلهما كل من القيصرين . ثم رأى دقلديانوس
 أن روما لم تعد صالحة للبقاء عاصمة وحيدة للدولة ، فجعل بدلها أربع
 مدن رئيسة لتكون كل منها مقاماً لواحد من حكام الإمبراطورية الأربعة ،
 وتلك هى : تريف على نهر الراين بألمانيا الحالية ، وميلان بشمال إيطاليا ،

وسرميوم وهى بلغراد الحالية ، ونيقوميديا وهى لازمت الحديثة على الشاطئ الآسيوى للفسفور . واختار دقلديانوس لنفسه نيقيوميديا ، وأخذ على عاتقه مراقبته أحوال الشرق المضطرب من ذلك الوقع الآسيوى البهيج .

غير أن التجربة لم تلق نجاحاً ، على الرغم من براعة الفكرة فى إسناد شئون الحكم والإدارة فى الإمبراطورية إلى هيئة مكونة من أربعة أشخاص ، إذ أعقب انقضاء مدة الإمبراطورين دقلديانوس ومكسيميانوس سنة ٣٠٥ ميلادية اضطراب داخلى وفتنة لا خير فيها ولا جدوى ، إلا من حيث إنها هيات الأسباب لقيام قنسطنطين الأكبر وإمبراطوريته على أساس مانع مكين .

وكان قنسطنطين ابناً غير شرعى لضابط روماني يرجع أصله إلى إقليم إيليريا من صاحبة حانة بمدينة نيش بالصرى الحالية ؛ وتولى أبوه المنصب الإمبراطورى على النظام الدقلديانوسى ، فلما مات بمدينة يورك بريطانيا ، نادت حاميتها الرومانية بقنسطنطين الصغير إمبراطوراً سنة ٣٠٦ م ، حسب الطريقة الويلة التى عمل دقلديانوس ماعمل من إصلاحات ابتغاء الحيلولة دون وقوعها بعده . على أن اختيار الحامية الرومانية ببريطانيا لقنسطنطين تلك المرة جاء اختياراً موقفاً تمام التوفيق ، مع التسليم بما كان لتلك الطريقة من وخيم العواقب فى أغلب الأحيان السابقة . إذ برهن الشاب الفذ الذى لم يتجاوز الثانية والثلاثين من عمره على أنه قائد بالغ المهارة والحيلة والإقدام فى ساحات القتال . حين شقّ لنفسه طريقاً إلى الإمبراطورية بأن سار على رأس الحامية الرومانية من شواطئ بريطانيا إلى غالية التى استولى عليها ، ثم دافع عن حدود غالية دفاعاً ماهراً ، وما لبث أن دحر منافسيه على العرش الإمبراطورى . وهما ما كستتيوس حاكم إيطاليا ، وليسينيوس إمبراطور الدولة الرومانية فى الشرق . يضاف إلى ذلك أن قنسطنطين لم تصدمه هزيمة طول حياته الحربية ، بل دلت خططه الهجومية الخاطفة على أنه رجل لم تعرف المخاوف إلى قلبه سبيلاً ، إذ أمدته اعتقاداته فى عالم الأرواح بقوة دافقة ازدادت نشوتها فى نفسه كلما ازدادت انتصاراته فى عالم الحروب . وهل بعد ذلك من عجب أن يرى قنسطنطين فى

قرارة نفسه أنه الابن الحبيب المختار من الله الناصر القادر على كل شيء ؟ وهل بعد ذلك من عجب إذا زاد قنسطنطين في مظاهر الاستبداد التي ابتدعها دقلديانوس ما جعل تلك المظاهر تبلغ أقصى الحدود .

الواقع أن المحافظة على نظم الحكم والإدارة التي ورثها قنسطنطين الكبير تطلبت أوفر ما يستطيع من العدل الخالص والقسطاس المستقيم ، حتى لا تتردى الدولة في أسوأ ألوان الفساد والانهيار . ذلك أن الإدارة الرومانية في القرن الرابع الميلادي بدت قاصرة أشد القصور عن مبادئ العدل والمعرفة بطبائع البشر ، برغم ما دخل عليها من عوامل الإصلاح ، إذ فرضت الضرائب الصغيرة على الثروات الكبرى ، على حين ظلت الثروات الصغيرة مثقلة بياhez الضرائب ، وتحصلت معظم ضرائب الإيراد غلة لا عيناً ، بسبب غش النقود وتدهور أسعارها ، وهي طريقة تدعو إلى الخلل والظلم والشذوذ ، وإن بدا فيها بعض المحاولة لتحديد الأسعار والقيم النقدية لمختلف الأشياء ؛ وفي هذا وحده دلالة كافية على سوء الحال . على أن هذا لم يكن كل ما هنالك من الدلائل ، إذ الحقيقة أن سوء النظام ليس إلا واحداً من الأسباب الخطيرة التي دعت إلى انهيار الإمبراطورية الرومانية ، ولم يقل عنه خطورة ما عمّ البلاد والناس من مظاهر الإكراه التي توصل بها الاستبداد الجديد للحصول على المواد اللازمة لبقاء الدولة . مثال ذلك إكراه الرجل من أصحاب الأتيان على أن يقوم للدولة دون مقابل بجمع الجند وجباية الضرائب بالنواحي المجاورة له ، وإكراه الفلاح على أن يعيش قنناً مربوطاً إلى الأرض التي يعمل فيها ، وإكراه نواب البلديات على أن يظلوا مسئولين فردياً عما تؤديه بلدياتهم للدولة من حقوق ومقررات ، وهذا فضلاً عن تحريم انتقالهم من بلادهم التي يكون فيها مولدهم . ثم إن التجارة باتت مقيدة مثقلة بمختلف القيود ، وإن النقابات التجارية الحرة تحولت إلى طوائف مغلقة الأبواب إلا عن أبناء أعضائها الأصليين ، وذلك بالإضافة إلى ما تتحمله تلك الطوائف من الالتزامات المالية وغيرها في خدمة الدولة .

وأكثر أهمية وأبعد أثراً من تلك التغييرات الخطيرة قراران أصدرهما

قنسطنطين ، وبسببهما يتبوأ مكاناً بين القلائل الذين غيروا مجرى التاريخ ، مع العلم بأنه ليس في استطاعة باحث أن يجرؤ على الجزم بأنه ذلك الإمبراطور العسكرى القادر القاهر كان على الدين المسيحى ، لأنه وإن لم يكن من المستطاع اتهامه بإلقاء الأسرى من الجرمان إلى الوحوش الضارية بالملاعب العام لتسلية النظارة ، فمن المؤكد أنه قتل زوجه وابنه . على أن جرائم القتل لا تلبث أن تصير نسباً منسياً في عصر يطفح بحوادث العنف والحرب ، وسرعان ما اختفت نقائص قنسطنطين تحت ستار الأعمال المجيدة التى جعلته القديس الثالث عشر فى عداد القديسين بالكنيسة الرومانية الشرقية .

وكيفما كان الأمر ، فالمعلوم أن الدين فى ذلك العصر الغاشم قيس ما فيه من الحق بمقدار ما يأتى به هذا الدين من نتائج ، فإذا جاء بالفتح والنصر لأتباعه قال الناس إنه الحق والهدى ، وإذا جاء بالهزيمة قالوا إنه ضلال مبين . وهنا يتضح ما لقنسطنطين من الفضل ، إذ أيقن وهو يرتب شؤون الدفاع عن غالبية أول حياته العملية الطويلة أن الصليب — وهو رمز للمسيح وإله الشمس على السواء — سوف يأتى بالنصر والتوفيق فيما يخوض من حروب . ذلك أنه رأى رؤيا قصها بنفسه على ليزوب المؤرخ ، ورواها ذلك المؤرخ فى كتاب ألفه متأخراً فى سيرة قنسطنطين ، ولم يذكرها فى تأليفه الكبير فى التاريخ الكنسى ، وهى أن قنسطنطين شهد فى السماء راية الصليب ؛ وعليها طرة نصها « عز نصره » مكتوبة بأحرف من نور ، ثم قال إن الإمبراطور اتخذ تلك الطرة شعاراً للوائه فى حروبه التى ظفر فى أثناءها بأربعة انتصارات متتالية على منافسه ونخصيمه مكستىوس ، وصار بفضلها سيداً على إيطاليا سنة ٣١٢ م . فالواقع أن الكنيسة المسيحية باتت منذئذ متمتعة بحماية السلطات المدنية ، ومع أن الإمبراطور لم يعتنق المسيحية رسمياً ، ولم يسمح بتعميده إلا وهو على فراش الموت ، سنة ٣٣٧ م ، فإنه بذل كل ما لديه من سلطة ونفوذ فى خدمة الديانة التى جاءت له بالظفر بأرجاء إيطاليا ، من تورين إلى فيرونا ، إلى جسر ملفيان الذى يقع قارب قوسين أو أدنى من أبواب روما . هكذا برهن المسيحيون على ما فى دينهم من الحق ،

فضلا عما برهنوا على ما في طائفتهم من القدرة على مغالبة الاضطهاد الذى نزل بهم زمن الأباطرة السابقين ، وفضلا عما أبدوا من تنظيم لشئونهم ، وما اجتذبوا إلى صفوفهم من أولى العزم والهمة الكدود . ولذا عقد قنسططين النية على تأييد هذه الطائفة القوية والاستمداد منها ، كما عمد إلى الإشراف على نواحي نشاطها ، ولا بأس كذلك من التدخل فى شئونها لتهدة ما ينشب بين أوساطها من فتنة ، مع العلم بأن المسيحيين حتى وقتذاك أقلية صغيرة العدد^(١) ، على حين ظل على الوثنية سكان القسم الغربى جميعاً ، وهم الجزء الأكبر من سكان الدولة الرومانية ، فضلا عن فيالق الجيش وجموع البرابرة الضاريين فى تخوم الأطراف الإمبراطورية . ولكن ثمة فرقا كان واضحاً وقتذاك بين الوثنيين والمسيحيين ، وهو أنه بينما أفسح الوثنيون صدورهم لإكراماً لإله المسيحيين إلى جانب آلهتهم المتعددة ، لم تكن آلهة الوثنية فى نظر المسيحيين سوى شياطين ملؤها الخبث والضرر . مثال ذلك أن أسقفاً من أساقفة المسيحية لم ينكر ما للإله أبولو من قدرة على التنبؤ بالغيب ، وما للإله إسقليوس من قدرة على الشفاء من الأمراض ، لأنه لم يجادل فى وجود تلك الكائنات ، بل قال بأنها آلهة كاذبة فحسب ، وإن الاسترشاد بها إثم عظيم . أما الوثنية فكانت أكثر تسامحاً ، غير أنه لم يغيب عن بصيرة إمبراطور حصيف مثل قنسططين أن اتخاذ الأولياء من فئة قليلة من الناس يحدوها النظام ، ويهديها الإيمان الراسخ ، وتسندها كتب مقدسة وعقيدة واضحة ، أجدى عليه من فئة كبيرة ذات عقائد شتى ، ولو بدت تلك الفئة على جانب من السماحة والكرم .

ومع ذلك يبدو أن الغرض الذى هدف إليه قنسططين بميله إلى جانب المسيحيين ظل غير واضح للعيان ، وذلك حتى انتصاره المين فى وقعة جسر ملفيان سنة ٣١٢ م ، إذ بات الإمبراطور يؤمن بالمسيح ويأله الشمس القهار ، فحبا المسيحيين بكثير من التسامح ، على حين احتفظ لنفسه بمنصب

(١) قدر المؤرخ بيورى (Bury) عدد المسيحيين وقتذاك بمقدار الخمس من سكان الإمبراطورية الرومانية ، فى كتابه المعروف (History of the Later Roman Empire, p. 366)

الكاهن الأعظم (Pontifex Maximus) ، وهو المنصب الإمبراطورى فى الديانة الرومانية الوثنية . ثم إن العملة فى أيام قنسطنطين ضُربت وعلى وجه منها علامة الصليب ، وعلى الوجه الآخر شعار عبادة الشمس . وانقضى من عهد قنسطنطين ما يزيد على عشرين سنين قبل أن يصدر الأمر بعقوبة الجند على تقديم القرابين إلى جوبتر كبير آلهة الرومان ، أو أن يستبعد الشعائر الوثنية من الحفلات الإمبراطورية الرسمية .

غير أنه ليس ثمة شك أن اتخاذ المسيحية — فيما بعد — ديانة رسمية للبلاد ساعد على ازدياد صفوف المسيحيين زيادة سريعة ، لا سيما أن التحول عن الوثنية إلى المسيحية لم يكن انتقالا إلى جو غريب تمام الغرابة ، أو شعوراً بانقلاب باغت مفاجئ ، بل بدا اللوج فى المسيحية عملية رفيقة فى كثير من التدرج الشعورى والعاطفى ، إذ شابهت طقوس الديانة المسيحية وأسرارها المقدسة ما للديانة القديمة من طقوس وأسرار ، كما اشتملت تعاليمها على تعاليم الأفلاطونية الحديثة . يضاف إلى ذلك أن القول بوجود واسطة بين الله والناس أمر مألوف عند الفرس وأهل الأفلاطونية الحديثة سواء ، وأن الثالوث فكرة دينية مستمدة من الحقيقة القائلة بأن الثلاثة هى العدد التام . وذلك فضلا عن أن الزهد والفقر ، والنشوة الروحية والقنوت ، لم يكن واحد منها جديداً على الراسخين من أهل الديانات القديمة . ثم إن فكرة الآخرة — بجميع ما فيها من جنة ونعيم ونار وجحيم — لم تنفرد بها الديانة المسيحية ، بل اتفقت الآراء عند أصحاب ميثراس وديانته الفارسية ، وعند دعاة الفلسفة الرواقية كذلك ببلاد اليونان ، على التسليم بأن مصير العالم إلى الفناء بالنار وبشس المصير .

لكنه على الرغم من ذلك التشابه بين أصول الديانة المسيحية والديانات الوثنية والعقائد الفلسفية المعاصرة لها ، لم يستطع الوثني المنقلب إلى المسيحية إلا أن يجد نفسه فى عالم ذى قيم مخالفة لقيمه السابقة ، إذ رأى الفضائل القديمة أمست هدفاً للمذمة والتحقير ، على حين أصبحت الفضائل الجديدة كالعفة وأمثالها راجحة الموازين ، وصار الفقر أحسن مكاناً ورتباً من الغنى ، والإيمان خير من العمل الصالح ، والتواضع أفضل من الكبرياء ، والمساواة

أقرب إلى الله من التمييز بين الناس . ثم إن أبواب الخلاص والرحمة باتت مفتوحة على مصاريعها للناس أجمعين ، وعمت الإمبراطورية فورات دافقة من الشعور الخلقى ضد مظاهر الرذيلة والوحشية التي تمخضت عنها الجوانب المظلمة من المدنية الرومانية القديمة ، فأزالت تلك الفورات كثيراً من الرجس والنجس ، ولو أنها جرفت في طريقها الهادر الصاحب كثيراً مما ارتكزت عليه قواعد السلوك والحياة من مُثُل النبل والاعتدال والحكمة .

على أن تلك الفورات لم تجد سبيلاً إلى نفس قنسطنطين برغم خضوعه لأوهام الأساطير وأرجاس الشياطين ، لأنه جعل الوحدة شعاراً وهدفاً . واعتبر الكنيسة المتفرقة أحزاباً وشيعاً لن تفيد الدولة في قليل أو كثير . ولذا أدت به الضرورة السياسية إلى أن يجعل من نفسه راعياً ورئيساً فخرياً للمجامع الدينية ، وفيصلاً في المنازعات بين المذاهب ، ومشيراً مطاعاً في تقرير عقائد الكنيسة . والواقع أن اهتمام قنسطنطين بإخماد حركة الدوناتيين^(١) في المجمع الغربي الذي عقد بمدينة آرل بجنوب فرنسا الحالية ، سنة ٣١٤ م ، وهي حركة بيورتانية نبتت بإفريقية ، ثم تلا ذلك من انهيار الحركة الآريوسية في المجمع المسكوني الأول بمدينة نيقية سنة ٣٢٥ م ، دل كلاهما على ما جدّ بالعالم من حلف بين الكنيسة والدولة ، وهو الحلف الذي تطورت بحسبه مصائر جميع الشعوب المسيحية . ومن ذلك وحدة تتضح أهمية القرار الذي اتخذه قنسطنطين أساساً لسياسته نحو الكنيسة ، وإن اختلفت المعايير في تقدير النتائج التي ترتبت على ذلك القرار ، إذ قال المريدون قيام الكنيسة على أسس دستورية : إن الإمبراطور الذي أمال الدولة الرومانية إلى المسيحية قمين بأن يكون في زمرة العظماء الذين أحسنوا إلى الجنس البشري أكبر الإحسان . على حين قال آخرون : إن الحلف

(١) ترجع هذه الحركة الدينية إلى أوائل القرن الرابع الميلادي . ومؤسسها دوناتس (Donatus) النحوي الروماني ، ومنه اتخذت اسمها ومبادئها القائمة على وجوب تقديس الشهداء وإيمان اللعنة على المرتدين عن المسيحية أزمنة الاضطهاد السابقة لعهد قنسطنطين . ثم اختلطت هذه الحركة الإفريقية بروح الانفصالية عن الدولة الرومانية ، فأضحت موضع ثقمة الأباطرة منذ قنسطنطين فصاعداً حتى القرن الخامس الميلادي ، حين زالت الدولة الرومانية عن قسمها الغربي كله . (زيادة) .

الذى اتسق بين الكنيسة والدولة هو المنبع الأصلي للغرور الديوى والطمع الذى كدر صفاء الحياة المسيحية فى مختلف العصور .

أما القرار الثانى الذى اتخذه قنسطنطين ، فيرجع إلى شىء من الاعتزاز بالنفس ، فضلا عن اعتبارات حربية ودينية معينة ، إذ رأى الإمبراطور أن يبنى للإمبراطورية عاصمة جديدة على غرار ما فعل كل من روميلوس منشئ روما ، والإسكندر المقدونى منشئ الإسكندرية . لكن قنسطنطين كان من أبناء البلقان ، فأدرك — كما أدرك النمسايون بعده فى القرون الحديثة — أن تلال إيليريا التى نشأ هو بها مصدر غنى بالرجال الصالحين للجنيد ، وأن الخطر الرئيسى على الإمبراطورية منذ قرن أو يزيد جاء من ناحية البرابرة الضاربين على مقربة من ثغور الدولة وأطرافها شمالى نهر الدانوب ، ومن ناحية الدول الشرقية الواقعة فيما وراء نهر الفرات . هكذا اتضح لقنسطنطين أنه إذا هباً لنفسه موضعاً صالحاً للدفاع عن بلاد البلقان ، فسوف يصبح قادراً على إنقاذ الإمبراطورية من أشد الأخطار المحدقة بها . ورأى دقلديانوس من قبل أن الضرورة الحربية تقضى بأن تكون العاصمة الرومانية قريبة من حدود المنطقة الرومانية الفاصلة بين آسيا وأوربا . فرأى قنسطنطين بثاقب نظره ، وذلك بعد الغلبة على منافسه ليسنيوس عند مدينة كريسوبوليس على الشاطئ الآسيوى للبوسفور . أن بيزنطة هى الموضع الذى لا يعدله غيره من المواضع ، من حيث المناعة الطبيعية والصلاحية لإقامة الحصون والقلاع . وبناء السفن والأساطيل . وقصد الإمبراطور أن تصبح المدينة الجديدة مسيحية لاتينية معاً ، فنهضت مسيحية وظلت كذلك ، غير أن لاتينيتها الحديثة لم تلبث أن ذهبت منها . ثم إذا سلمنا جدلاً أن قنسطنطين رأى أن إقامة عاصمة مسيحية على شواطئ البوسفور أبسر بكثير من إقامتها فى مدينة عريقة فى الوثنية ، مثل روما ذات المجد التاريخى القديم . حيث المعابد والتماثيل التى تحدث عادية المعتدى وغنيت عن حماية الصديق ، فليس من المحتمل عقلاً أن الإمبراطور استطاع أن يكشف عما خبأته الأيام والحوادث من تغلب اللغة اليونانية وحضارتها على القسطنطينية . أو أن يخطر

له أن روما معقل الوثنية تصبح زعيمة العالم المسيحي .

وكيفما كان المحتمل وغير المحتمل ظهرت العاصمة الجديدة في سماء البوسفور ظهور العبق الفائح صعوداً في فضاء أريج ، فبيت القصور والدور والسقائف ، والمحاكم والحمامات العامة في سرعة خارقة ، وأمعن الإمبراطور في البحث عن بدائع العمارة والفن بأرجاء الإمبراطورية كيما يزين بها شهرة القسطنطينية ، حتى إذا تم له ما أراد بدت المدينة فتنة للناظرين والسامعين ، بما اشتملت عليه من تذكارات المجد الروماني في القرون الحالية ، مثل العمود الثعباني الشكل (الملوية) الذي اقتلعه قنسطنطين من معبد الآلهة بمدينة دلي ببلاد اليونان القديمة ، ليعيد به ذكرى الانتصار الروماني على اليونان في وقعة بالانثيا ، ومثل دار العدل الرومانية ذات القبة الفارسية التي صارت طرازاً معمارياً لكنائس المسيحية الجديدة ، وهو طراز يبنى في وضوح عن مزيج من الروح الشرقية والروح الغربية في هندسة البناء والذوق العام . وانتهى العمل في جميع تلك العماثر الباسقة في ١١ مايو سنة ٣٣٠ م ، وهو التاريخ الذي أعلن به قنسطنطين أن عاصمته كمل بناؤها ، أي أن روما الجديدة تأسست في أقل من ست سنين .

ومن الواضح أن تأسيس القسطنطينية بداية تاريخية لعهد أخذ العالم الإغريقي والعالم الروماني يبتعد في أثنائه كل منهما عن الآخر ، رويداً رويداً ، حتى أمست وحدة الإمبراطورية لا تعدو أن تكون مسألة نظرية عسيرة التحقيق ، وأملا بعيد المنال . ذلك أنه على حين ظل الحكم الروماني حياً بالقسم الشرقى من الإمبراطورية — كما تركه دقلديانوس وقنسطنطين — وعلى حين ظلت نظم ذلك الحكم قائمة لم يعتورها خطر حتى استيلاء الفرنجة على القسطنطينية سنة ١٢٠٤ م ، آلت مصائر القسم الغربى — وهو مرادف لغرب أوربا على وجه التقريب — إلى نهاية مختلفة تمام الاختلاف ، إذ انهارت الإمبراطورية هناك تحت ضغط شديد من الغزوات الجرمانية بعد خمسين ومائة عام كلها ضعف مطرد وحياة مزعزعة ، وبعد أن صار للكنيسة المسيحية وحدها أمر المحافظة — قدر الإمكان — على ما تبقى وقتذاك من تراث المدنية

والثقافة القديمة وسط عالم البرابرة المحدثين .

والواقع أن كثيراً من ذلك التراث القديم عصفت به الأيام . وعفت على آثاره قبائل الجرمان بعد حلول رؤسائهم ملوكاً بأراضي الدولة ؛ فاحت روح الأسلوب العقلي الذي امتازت به الحضارة الهلينية أى اليونانية القديمة . وحل محلها عالم أساس عقيدته قول القديس أوجسطين (٣٥٤ - ٤٣٠ م) : إن الله خلق الدنيا متاعاً عابراً ، مصيره الزوال ما بين طرفة عين وانتباهتها بأمره ، وإن الآخرة للمتقين خالدين فيها أبداً . ولذا لم يكن عجباً أن يرى المسيحي أن الدنيا وما فيها من عجز وقلق وشر مستطير لا تساوى شروى فقير ، بالقياس إلى نعمة الهدى بعد الضلال . وكيف لا يكون ذلك وجزاء الصالحين جنات ونعيم مقيم ، ومآل الكافرين - بما فيها الأطفال غير المعمدين - نيران جهنم يصلون فيها أبد الآبدين . وليس على المرء بعد ذلك إلا أن يتبع سواء السبيل ، في نور الكتب المقدسة والكنيسة التي أذن الله بقيامها هدى للمتقين ، حتى إذا تبع ذلك النور والهدى ، ودعا الناس طوعاً وكرهاً إلى مثل ما يدعو إليه نفسه ، كانت عاقبته الجنة . أما من زاغ وغوى ، فآواه النار ، إذ ليس ينبغي له أن يتبع هواه . كما لا ينبغي له أن يترك الناس في أهوائهم لاهين . ألم يقل المسيح في ذلك المعنى ما نصه : « واحملهم على الدخول في الدين » ، وهو القول الذي بنى عليه القديس أوجسطين سنة الاضطهاد الديني التي حاقت بالعقل الأوربي خلال القرون الطافحة بالإيمان ؟ ثم إنه على الرغم من تشبع القديس أوجسطين بفلسفة أفلاطون ، وتشبع القديس توماس الأكويني بعده بأقوال أرسطو وأواخر العصور الوسطى ، اندثرت المعرفة باللغة اليونانية وآدابها بغرب أوروبا منذ القرون المسيحية الأولى ، حتى إذا جاء القرن الثالث الميلادي كفف المسيحيون من الرومان عن استعمالها في صلواتهم ، بسبب انقلاب غامض في عالم الأدب ، ولم تلبث أن رماها الرامون بأنها منبع الهرطقة والكفر . ومن ثم عكف الناس على دراسة أوفيد وتيرنس وغيرهما من المؤلفين اللاتين ، ونسوا اللغة اليونانية وأشعار هوميروس ودرامات أحيولوس ، وأضاعوا بذلك مفتاح الهداية إلى أصول الثقافة القديمة

وكنوزها . وظلت اللغة اليونانية في طى النسيان بغرب أوروبا حتى القرن الخامس عشر الميلادى ، وأدى ذلك إلى نتائج خطيرة في ميدان الحضارة والدين . إذ تحطمت وحدة الكنيسة المسيحية على صخرة التمسك بالألفاظ والتراكيب اللغوية ، فانتحت الكنيسة اليونانية سبيلاً خاصاً بتأثير ما انغمست فيه من الخوض فيما وراء الطبيعة ، فضلاً عما أحاط بها من الاستبداد الإمبراطورى بالقسطنطينية ، على حين اتخذت الكنيسة الرومانية سبيلاً مخالفاً بتأثير اعتمادها على اللغة اللاتينية واستمدادها من روح القانون الرومانى ، برغم قيامها وسط عالم همجى متبربر . ولهذا نشأت الكنيسة بالقسم الشرقى من الإمبراطورية الرومانية خاضعة للدولة ومشيدة الإمبراطور ، على حين بدت مستقلة بشؤونها بالقسم الغربى تحت زعامة أسقف^(١) روما ، ولم نلبث أن نادى بعلو سلطتها على أية سلطة أخرى .

غير أنه يلاحظ هنا أن ثقافة الكنيسة الرومانية الغربية تأسست على مزيج متعادل من الأناجيل المسيحية والكتب اليهودية المقدسة ، مضافاً إلى التقاليد التعليمية التى ظلت باقية بالمدارس القديمة ، برغم ذهاب الوثنية والعالم القديم . وهذا المزيج المتعادل الأجزاء هو الذى انطبعت عليه الحياة العقلية بغرب أوروبا أوائل العصور الوسطى ، حين كانت الكنيسة وحدها أداة المحافظة على الكتب واستنساخها ، فضلاً عن قيامها بتلقين أولئك الذين جدوا عليها من المتبربرين أصول النحو والأسلوب من مؤلفات فرجيل وشيشرون وغيرهما فى اللغة اللاتينية . ومن ذلك يتضح أن ليس فى عصور التاريخ عصر دانت المدنية الأوروبية فيه لكل من فرجيل وشيشرون بقدر ما دانت به لهما فى ذلك العصر العنيف الذى خيم بظلامه على العالم المسيحى الأول ، إذ غدا هذان الكاتبان - وحدهما تقريباً - هما اللذان يمثلان سماحة روح الإنسانية القديمة وسط مجتمع لا يدرك من عظمتها إلا شيئاً ضئيلاً .

(١) المقصود بتلك التسمية بابا روما باعتبار ما سيكون ، لأن أسقفية روما لم تصبح بابوية عالمية إلا بعد مدة غير قصيرة . (زيادة) .

أما الكنيسة اليونانية التي قامت بالقسم الشرق من الإمبراطورية الرومانية ، وأخذت عنها الإمبراطورية الروسية كنيستها فيما بعد ، فلم تجرؤ يوماً من الأيام على معارضة سلطة الإمبراطور أو مخالفة التقاليد الكنسية الأولى ، وذلك بعكس ما ينتظر من قوم شهدت بلادهم مولد الروح العقلي الذي نشأت منه الفلسفة اليونانية القديمة . ولذا يصعب إرجاع أية حركة من الحركات الكبرى في تاريخ التقدم البشري إلى تلك الكنيسة ، لأنها ظلت كأنها ديوان من دواوين الدولة ، واصطبغت فنونها وعقائدها بما تصطبغ به الدولة عادة من تزمت وجمود ، وبيروقراطية والتزام لحرفية القانون ، واستماتة في المحافظة على كل قديم . أما أخبار الكنيسة الرومانية بغرب أوربا في ذلك العصر الصاخب المضطرب فتنبيء عن حال مخالفة لذلك تمام المخالفة ، إذ عاشت بنجوة من فوضى ذلك الزمن وفساده ، بفضل ما ورثت عن الدولة الرومانية من دقة التنظيم وسعة النفوذ .

بعض المراجع لهذا الفصل

- Baynes (N.H.) : The Byzantine Empire, 1926.
 Baynes (N.H.) : Constantine the Great and the Christian Church.
 (Proceedings of the British Academy, Vol. XV, 1931).
 Dawson (C.) : The Making of Europe, 1932.
 Dill (S) : Roman Society in the Last Century of the Western Empire,
 1899.
 Lot (F.) : La Fin du Monde Antique, 1927.
 Oman (C.) : Short History of the Byzantine Empire, 1892.

الفصل الثانى

الغزوات الجرمانية

التيارات الكبرى فى الهجرات الجرمانية - الجرمان الشرقيون أو القوط تحولهم إلى المذهب الأريوسى - الجرمان الغربيون تقلاعن أقوال تاكيتوس فيهم - المجتمع الجرمانى وخصائصه الرئيسية - ضغط الهون - عبور القوط نهر الدانوب - أالريك القوطى - اختلال الحال فى الإمبراطورية الغربية - بقاء مكانة روما - غالبية الرومانية فى القرن الخامس الميلادى - ذهاب مملكة القوط الغربيين من غالبية - فتح الوندال إفريقية الرومانية - قيام أتيلاملك الهون وسقوطه - حلع الإمبراطور روميلوس - ثيودوريك ملك القوط الشرقيين بإيطاليا - مجئ كلوفيس الفرنجى إلى غالبية - تحوله إلى المسيحية الكاثوليكية الرومانية - العصر المظلم فى بريطانيا الرومانية - استيلاء السكسون على بريطانيا - كثرة الدول الجديدة بها - اعتناقها المسيحية الكاثوليكية الرومانية .

• • •

سيطرت على التاريخ الأوربى حتى القرن الرابع الميلادى ثلاثة عوامل كبرى . وهى الحضارة الهلينية (اليونانية القديمة) . والإمبراطورية الرومانية ، والديانة المسيحية . وإذا كانت أصول الصلة التاريخية الأوربية بين العاملين الأولين من تلك العوامل معروفة واضحة . فأصل ثالثها مشتق من الشرق ، ولذا احتوى من التعاليم ما تحدى به المجتمع الأوربى القديم فى مواضع أساسية من السلوك والعقيدة والاهتمام بالحياة فى الدنيا والآخرة . ثم جدّ على الميدان عامل رابع غير مجرى التاريخ تغييراً تاماً على مرّ العصور . وذلك حين غلب الجرمان على الدولة الرومانية ، من بعد غلبها على الكيلتيين الأقدمين واستيعابها لهم وثقافتهم ومدنيتهم .

غير أن المعروف من الأصول التاريخية لأولئك الجرمان قليل . وهو

لا يبدو أنهم أقوام حلوا أوائل عهدهم بالقارة الأوروبية في شبه جزيرة إسكنديناوة . حيث بقى منهم فريق تفرعت عليه الأمم السويدية والنرويجية والدانية الحالية . على حين أخذ فريق آخر في التنقل والرحلة جنوباً بغرب خلال ألمانيا ، سعيّاً وراء العيش أو الجحوى المعتدل ، أو حبّاً في المغامرة والحرب ، حتى وصلت فئة من تلك الأقوام إلى حوض نهر الراين ، كما وصلت فئة أخرى شرقية الاتجاه إلى ضفاف نهر الدانوب وسواحل البحر الأسود . وهذان التياران المتباعدان من تيارات الهجرة الجرمانية هما اللذان اصطدمت بهما الدولة الرومانية ، إذ الجرمان الغربيون هم الذين حاربوا ماريوس وبوليوس قيصر ، وهم الذين هزموا القائد الرومانى قارس وجنوده على عهد أغسطس قيصر ، وهم الذين وصف تاكيتوس عاداتهم ونظمهم في كتابه المسمى « بحث في أصل الشعوب الجرمانية ووطنها وطرق معيشتها » (De Origine, situ, moribus et populis Germaniae) . وهو من أمهات الكتب في دراسة أصول الأمم (الإثنولوجيا) ومن أولئك الجرمان الغربيين الإنجليز والسكسون الذين يرجع إليهم إنشاء الملكية بإنجلترا بعد ذهاب الرومان عن الجزر البريطانية ، ومنهم كذلك الفرنجة الذين أسسوا المملكة الفرنجية في العصور الوسطى . واختلف مصير الشرقيين^(١) من أولئك الجرمان العفاة عن مصير أبناء عمومتهم الغربيين في بضع نواح ذات أهمية ؛ ومثال ذلك القوط ، وهم أعظم قبائل الفئة الشرقية عند الإطلاق ، إذ اندفعوا بعد حركتهم الأولى صوب ضفاف الدانوب وشواطئ البحر الأسود^(٢) ، وملأوا عين التاريخ في القرنين الثالث والرابع الميلادى بضرباتهم الحربية العنيفة ومنشأتهم البنائية السريعة ، غير أن ما قاموا به من أعمال خارقة باهرة لم يكتب له العمر ، فلم يلبث إلا قليلا حتى زال وصار أثراً بعد عين . وبينما خلف الإنجليز والسكسون والفرنجة آثاراً دالة على ما أحدثوه عبر القرون من ممالك قوية منظمة ، اقترن اسم القوط بجميع ما اتصف به مطالع العصور الوسطى من ظلام ووحشة ودمار ؛ ولا يدخل في ذلك

(١) يدخل ضمن تلك الفئة قبائل القوط والوندال والهيبيداى والبرجنديين والووباردين والروجيين وغيرهم كثير .

(٢) بلغ القوط البحر الأسود زمن الإمبراطور كراكلا ، سنة ٢١٤ م .

طراز العمارة القوطى الذى يرجع أصله إلى بلاد لم تخضع للقوط يوماً من الأيام . ولكن سرى عليها اسمهم . ومع هذا خُيِّلَ مرتين فى التاريخ أن مستقبل أوربا لا محالة صائر إلى أيدي القوط ، فى منتصف القرن الثالث الميلادى بدا للمعاصرين كأنما أضحى بما ليس منه بد أن تنهار الإمبراطورية الرومانية تحت هول الضربات التى كالتها أولئك الجبابرة للرومان ؛ ويقال مثل ذلك تقريباً بعد مائتى سنة من ذلك التاريخ حين بدا كأن مملكة القوط الشرقيين بإيطاليا ومملكة القوط الغربيين بإقليم أقطانية بالجنوب الغربى من فرنسا الحالية ، سوف يتولد منهما حضارة حية زاهرة تجمع بين قوة القوطى وتقواه وثقافة الرومانى وحضارته الموروثة منذ القديم . غير أنه لو أن قائلاً تنبأ بإحدى هاتين النبوءتين لكان له من الواقع التاريخى ما يبرهن على خطئه التام ، لأن الخطر العظيم على الدولة الرومانية من ناحية القوط فى منتصف القرن الثالث الميلادى (٢٣٥ - ٢٦٨ م) تبدد بفضل ثلاثة من الأباطرة العسكريين الذين يرجع أصلهم إلى إقليم إبليريا ، وهم كلوديوس الثانى وأوريليان وديوبوس ، ولأن القوط فى إيطاليا وأقطانية فى القرن الخامس الميلادى قضوا على أنفسهم بما أظهروه من الرغبة الشديدة فى التحول عن الوثنية إلى المسيحية التى أصبحت سائدة وقتذاك بين الرومان ؛ وكانت تلك الظاهرة من أغرب سخریات المقادير . ذلك أن القوط الغربيين الذين نزلوا شبه جزيرة البلقان أوائل القرن الثالث الميلادى كانوا أول الشعوب الجرمانية اعتناقاً للمسيحية ، إذ قام بينهم الميشر الدينى العظيم أولفيلا (٣١٠ - ٣٨٠ م) - وهو يونانى من إقليم قبادوقيا بآسيا الصغرى - وترجم الإنجيل إلى اللغة القوطية ، وبذا نشر العقيدة المسيحية بين أهل البلاد التى اتخذها موطناً . وأقبل القوط الشرقيون والقوط الغربيون سواء على اعتناق الدين الجديد ، وأخذوا من ثمَّ يعملون على تفهم معانيه بقدر ما سمحت لهم طباعهم الساذجة . غير أنه مما يؤسف له أن العقيدة المسيحية بلغت القوط فى صورتها الأريوسية ، إذ تعلموا أن المسيح - وإن اتصف بالألوهية - مخلوق بأمر الإله الأب ، وهو لذلك أقل مرتبة منه . وأخذ بتلك الآراء قبل القوط وزعمائهم عدد من علماء اللاهوت الرومانيين .

وكثير من رجال السياسة المشهورين في الدولة الرومانية ، وقنسطنتين الأكبر نفسه ، وهى ترجع إلى القسيس أريوس الذى كان أول من أثار الجدل بالإسكندرية حول طبيعة المسيح . ولذا لم يكن على القوط حرج إذ آمنوا وصدقوا بما ألقى إليهم - على لسان أرباب الحكمة بينهم - من شروح لسر من أغمض الأسرار . على أن الأريوسية اختتمت أيامها في أسوأ حال ، برغم ما صادفها من خطوات رسمية خالصة للأبصار ، إذ استنكرها مجمع نيقية المسكوني^(١) سنة ٣٢٣ ، ولعنوا أسقف روما ، واستهجنها كافة رجال الدين الغربيين في إيطاليا وغاليا وإسبانيا ، وقالوا لأبناء كنائسهم الذين قصرت أفهامهم عن إدراك دقائق العقيدة المسيحية بأن المؤمنين بالمذهب الأريوسى عدو المسيح ، وأن في الأريوسية تحدياً لألوهية عيسى . والواقع أن مرتبة المسيح من الثالوث ، وهى مسألة قل وقتذاك من يصلح لبحثها ، بل قل من يقدر على فهمها ، كانت المسألة التى شغلت العقول وملأت الأفواه في أثناء الخلافات الدينية في القرن الخامس الميلادى ، حين ارتهن التوفيق في هذه الدنيا - وفي الآخرة كذلك - بما في قواعد الإيمان عند الفرد من ضبط وتدقيق .

ومن ذلك يتضح كيف أبادت الهرطقة الأريوسية مملكتى القوط بإيطاليا وأقطانية . وهما المملكتان اللتان قامتا بحد السيف ، على حين رغد الفرنجة من الحرمان الغربيين - وهم اللاحقون في حلبة المدنية - بما استقام لهم من قوة باركنها الكنيسة الغربية وأيدتها ، لاعتناقهم المسيحية على المذهب الكاثوليكي برغم أنهم لم يعتنقوها إلا بعد القوط ، وبرغم أنهم كانوا أقل من القوط حضارة وثقافة .

وصور تاكينوس أولئك الحرمان الغربيين في صورة هدفها الخلقى أدعى للالتفات مما فيه من مطابقة أو إغراب عن الحقيقة ، إذ جعل غايته أن يقارن بين البساطة المثالية في الحياة الجرمانية والإغراق في الترف الذى

(١) شرح المقرئى (المواظ والاعتبار - بلاق - ج ٢ ، ص ٤٨٧ ، وما بعدها) ، وغيره من المؤلفين المسلمين موضوع الخلافات المذهبية في الكنيسة شرحاً وافياً . (زيادة) .

تردى فيه المجتمع الرومانى بإيطاليا ، وأن يجد فى حرية الحياة التى عاشها الإنسان الممجى النبيل بصفاته مادة لتطهير الإنسان المتعدين مما علق بحياته من مظاهر الدعة والانحلال . وألف تاكيتوس كتابه زمن الإمبراطور تراجيان (١١٥ - ١١٧ م) ، أى أوائل القرن الثانى الميلادى ، ويظهر أنه بالغ فى وصف فضائل الجرمان ، حباً فى جلب الأنظار إلى تصويره ، لأنه من المؤكد أن الرومانى - ولو كان تاكيتوس نفسه - لم يكن ليقبل راضياً أن يشترى البقاع الجرمانية المتوحشة ، وغاباتها الخفية ، وسماواتها الداكنة ، بحياة المرح فى البلاد الرومانية الطافحة بأصناف اللهو والصخب . على أن تاكيتوس أصاب كبدا الحقيقة حين قال إن لدى القبائل الجرمانية كثيراً من جديد الصفات ومفيدة ، مما ينفع الحضارة الرومانية ويقومها ، كأنما تنبأ بما فى تلك القبائل الممجية من مقدرة على تنشيط الأمم وتجديدها ، أو كأنما رأى فيهم سر الحرية السياسية التى نسبتها روما ، فضلاً عن الشغف بالابتكار الفردى الذى كبته روما ، وفضلاً عن عادة الإكثار من الذرية فى العائلة الواحدة ، وهو ما شاءت روما أن تهمله وتزدريه . والواقع أن تلك الصفة الأخيرة أدت إلى تفوق الجرمان على الرومان تفوقاً عديداً حاسماً ، حين جد الجدد واستعرت بينهما الحروب ، وهكذا قدّر للعالم اللاتينى أن يهتز وترتعد فرائضه مرة بعد أخرى أمام الخصب البشرى الذى امتازت به الأجناس الجرمانية الفتية ، بفضل محافظتها على مبدأ نظام الزوجة الواحدة فى الأسرة ، ومقبتها لتعدد الزوجات .

وتشابه الجرمان عموماً فى تلك الظاهرة وغيرها من الدواهر ، ولم يختلف بعضهم عن بعض اختلافاً بارزاً ، ما عدا أن الجرمان الغربيين صاروا إلى شئ من الحياة الزراعية المستقرة زمن تاكيتوس ، على حين ظل إخوانهم من الجرمان الشرقيين يضربون فى مناكب الغابات الوعرة بعرباتهم وسائمتهم طلباً للعيش والمرعى . وعرف الرومان هؤلاء وأولئك معرفة جيدة فى القرن الرابع الميلادى ، وبات الجرمانى العنيف شخصاً معلوماً لكل المعسكرات الرومانية ، على طول الدولة من ناحية الشمال . على أن العنف لم يكن كل

ما اختص به الجرمانى من صفات وسمات ، فهو كذلك ذو بسطة فى الجسم . وبشرة ناصعة البياض ، وعيون حادة زرقاء ، وشعر أشقر مرسل ؛ ثم إنه يشرب الخمر حتى الثمالة ، ويتيه فى عالم الشراب والأحلام ، ويهوى التشاجر والمقامرة ، ويغنى ويحب الاستماع إلى الأغاني ، ولا يتغلب على إخلاصه الشديد لسيدده وعشيرته سوى شهوته الجارحة دائماً نحو المغامرات الحربية .

ومن المعروف كذلك أن العشائر الجرمانية أتت عليها كثير من التغير ، من حيث القد والشكل والاسم ، خلال قرنين من الزمان ، كلها حروب عشائرية ، ومشقات محلية فى تسليك الغابات وتسويتها للزراعة ، فاخفت عشائر صغيرة وحلت محلها عشائر كبيرة نتيجة قيام بطل من الأبطال ، أو تلبية لضرورة حربية . ثم ما لبثت تلك العشائر الكبيرة أن انتقضت من بعد قوة أنكانا ، بسبب وفيات أبطالها وأسقوطهم صرعى فى ميادين الحروب ؛ وبدا بدأت فيها عملية التغير والتكتل من جديد . مثال ذلك أن العشائر الصغيرة التى ذكرها تاكيتوس فى كتابه لم يكن لها أثر على عهد الإمبراطور قنسطنطين ، بل قام على أنقاضها عشائر أكبر مكاناً ورثياً : مثل الفرنجة ، والسكسون ، والألبان فى جنوب ألمانيا الحالية .

على أن الخصائص الرئيسية فى الحياة الجرمانية والمجتمع الجرمانى لم تتغير فى شيء ، وقلما خلت منها فى تلك العصور بقعة من البقاع بأوربا الوسطى ، حيث عاشت العشيرة الجرمانية عيشة صاخبة ، وعاش رئيسها وسط زمرة المختارين من رفقاته فى الحروب ، فإذا جد على العشيرة أمر اجتمع له كافة رجالها الأحرار ، وفيهم رجال الأسرات الملكية القديمة وأبناءؤها الذين يكون منهم اختيار الملوك ، حتى إذا انتهى المجلس مما هو بصدده ، وعادت العشيرة إلى حياتها السلمية ، رأيت قطعاناً عديدة من المواشى والسائمة ترعى المروج ، ورأيت نبات القمح والشعير يكسو الحقول المقسمة إلى حصص مبعثرة بين المزارعين ، ورأيت الأقنان المملّخين بالأرض الزراعية يفلحونها خالفاً عن سالف كأنهم جزء منها ، ثم لا تلبث أن تلحظ فى ذلك المجتمع أن ليس به شيء من المدن والقرى والصرائف ذات المساكن المتلاصقة والطرق المسددة .

غير أنه على الرغم من وحدة الأصول وتشابه العادات ، عاش الجرمان خلواً من الروح القومية ، فحاربت القبيلة أختها من القبائل ، وشاجرت العائلة جارتها من العائلات . ونظر الجرمان إلى الدولة الرومانية نظرات مختلفة فاعتبرها بعضهم عدواً له ، وعدّوها بعضهم الآخر مورداً للارتزاق بالخدمة في الجندية ، أو موطناً لمن يهوى الاستيطان في بلاد طافحة بمظاهر الحضارة الرومانية .

لذلك كله بدت الجيوش التي استطاعت تلك الأجناس الحصبة أن تلقى بها في ساحات القتال غير متناسبة ألبتة مع تعدادها الأصلي ، على أنه إذا كان من المعروف أن الجيوش الرومانية ، صارت قليلة من حيث القوة العددية ، فال معروف كذلك أن خصومها من الجرمان لم يفوقوها في العدد إلى درجة كبيرة . ويستخلص من ذلك أن تدهور الإمبراطورية الرومانية وسقوطها لم يكن سببه ما وقع بين الرومان والجرمان من سلسلة الحروب التي لم يشترك فيها أكثر من عشرين ألفاً من كل من الجانبين ، أغلب الأحيان . والواقع أن البنين الإمبراطوري العظيم لم يتصدع ويتحطم تحت هجوم جرمانى مباشر ، بل كان نتيجة لتغلغل جرمانى سابق في أقاليم الدولة الرومانية منذ مائة من السنين ، وهو التغلغل الذى جعل شئون الحكم والولاية بإيطاليا وغاليا وإسبانيا وإفريقيا في أيدي جرمانية .

وبينما ذلك التغلغل الجرمانى الصامت يجرى مجراه ، أخذت جموع متوحشة من جنس المغول تشق طريقها على ظهور براذيتها الصغيرة في أواسط آسيا عبر البرارى الآسيوية حتى وصلت إلى الجنوب الشرقى من أوروبا ، أواخر القرن الرابع الميلادى ، وأنزلت تلك الجموع الظالمة - وهى التى تسمى الهون - أصناف العذاب والحرب بجميع ما مرت به من البلاد ، فقتلت ودمرت حيثما حلت ، وأزالت كل عقبة في طريقها كما تزيل العاصفة هشيم الحصاد . وأحست عشائر الجرمان من اللان والقوط الشرقيين والقوط الغربيين على التوالى بقوة دافعة هزت أرجاء العالم الجرمانى هزات أوقعت الرعب والفرع في القلوب ، وأدت إلى تحرك العشائر الجرمانية حركة هائلة غمضت تفاصيلها في حوليات المؤرخين ، ولم يك إلا قرن أو بعض قرن حتى غمرت

تلك العشائر ربوع غاليا وبريطانيا وإسبانيا وإفريقيا وإيطاليا ، بعد أن خلفت من ذكريات البطولة ما امتلأت به قصة نيبيلونجلىد (Nibelungenlied) التى تغنت بها ألمانيا طوال العصور الوسطى .

ووضحت الآثار الأولى من تلك الحركة الجديدة بالركن الشمالى الشرقى من الإمبراطورية ، حيث نفذ الهون حوالى سنة ٣٧٦ م إلى ربوع داسيا ، وهى ترانسلفانيا التى صارت جزءاً من دولة رومانيا فى العصور الحديثة . فى تلك السنة هزم الهون عشائر القوط الغربيين ، وأخرجوهم من ذلك الإقليم الباسم ، وكان القوط قد أخرجوا أهل داسيا قبلاً من إقليمهم هذا الذى أضفى على الإمبراطور تراجان شهرة لا تقضى ، واستمدت منه رومانيا الحالية مشكلة من مشكلاتها السياسية الكثيرة إبان الحرب العالمية الأولى .

ثم اتهم القوط الغربيون عند الدولة الرومانية ملجأً ثانياً يلجأون إليه بعد أن طردهم الهون عن إقليم داسيا ، فسمح لهم الإمبراطور فالتر بعبور الدانوب واتخاذ إقليم مويسيا السفلى — أى الجزء الشمالى من بلغاريا الحالية — صريفة لهم ومأوى . غير أن إيواء ما يقرب من ثمانين ألفاً من المهاجرين الغرباء ليس بالأمر الهين أو السهل ، مهما توفر بالمهجر من حسن التنظيم والمعادلة فى التوزيع بين القادمين والسكان الأصليين ، ولذا لم يلبث القوط الغربيون طويلاً حتى أحسوا بكثير من الضيق بإقليمهم الجديد ، حتى إذا تطور ضيقهم إلى ضجر ، وتطور الضجر إلى كراهية ، عمدوا إلى محاربة الإمبراطور الذى يرجع إليه الفضل فى السماح لهم بدخول إقليم مويسيا . ثم وقعت الواقعة بين القوط الغربيين والبحيوش الإمبراطورية عند أدرنة سنة ٣٧٨ م ، حيث هزمت الحياة القوطية المدرعة جيوش الإمبراطور الراجلة ، كما أردت الإمبراطور فالتر قتيلاً ، وقضت أن تكون الحياة لمدة ألف سنة هى الأداة الأولى فى الحروب الأوروبية .

أما الإمبراطور تاوداسيوس الأول ، وهو الذى ألقى على عاتقه معالجة ذلك الموقف الخطير ، فكان جندياً مبرزاً من أصل إسباني ، وينتهى نسبه إلى أسرة تراجان ، وحظى تاوداسيوس من مؤرخى الكنيسة بلقب « العظيم » ، لما أبداه من نشاط فى الاضطهاد الدينى خدمة للكاتوليكية . والواقع أن

الإمبراطور الذي شهد عهده زوال الشعائر الأليوسية^(١) والألعاب الأوبينية الوثنية يستحق أن يتبوأ مكاناً خاصاً في حوليات الكنيسة المسيحية ؛ على أن شهرة ثاوداسيوس تستند إلى أسس أكثر جلودى من مجرد التعصب الذى أنزله بالمراطفة والوثنيين سواء ، إذ تدين له الإمبراطورية بما جلب لها من سلم دام ثلاث عشرة سنة ، بفضل مهارته في تحويل القوط الغربيين إلى معاهدين أصدقاء أوفياء ، بعد العداوة والغدر ، وذلك حين هيا لهم موطناً أميناً بإقليم تراقيا من بلاد اليونان الحالية .

ولو شئت المقادير أن يخلف ثاوداسيوس ابناً في رأسه شيء من عزيمة أبيه وحزمه ، لكان من المحتمل أن يتقلب القوط في النهاية إلى قوم مطيعين متفانين في خدمة الدولة الرومانية في تراقيا ، حيث استقرت العشائر القوطية أواخر القرن الرابع الميلادى . . غير أن مصيبة ليست بعدها مصيبة حلت بالإمبراطورية عقب وفاة ثاوداسيوس سنة ٣٩٥ م ، وهو في سن الخمسين ، إذ تولى الحكم بعده ابنان ضعيفان ، هما أركاديوس للقسم الشرقى وعاصمته القسطنطينية ، وهونوريوس للقسم الغربى وعاصمته راقنا ، فخضع أولهما لسلطة الحصى اليونانى يوتروبيوس ، وسيطر على ثانيهما القائد الوندالى ستليخو .

وعاش القوط الغربيون بإقليم تراقيا عيشة صاخبة ، كأنهم لا يزالون في سهوب جرمانيا وبقاعها الغابية ، فلم ينزلوا عن شيء من غطرسة لسانهم الجرماني أو خشونة سلوكهم الممجى ، برغم ما ارتبطوا به من المواثيق لحماية الدولة مقابل السماح لهم بالعيش في أراضيها حسب الشروط التى عقدها معهم ثاوداسيوس . وزار سينسيوس أسقف برقة إقليم تراقيا حوالى ذلك الوقت ، وأدرك بنفسه سوء السياسة التى أدت إلى السماح لأولئك الغرباء المسلحين المفسدين بالدخول في جسم الدولة الرومانية ، ووجه إلى الإمبراطور أركاديوس خطاباً حذره فيه من عواقب تلك السياسة ، ونادى بوجوب القيام لدرة الخطر القوطى بجيش روماني خالص يدعى إليه المزارع من مزرعته ، والفيلسوف

(١) الشعائر الأليوسية (Eleusis Mysteries) جزء من عيد أثينى وثنى قديم . (زيادة) .

من مدرسته ، والصانع من مصنعه ، والتاجر من دكانه ، والمتعطل اللاهئ من لوه ، فلا يكون من أولئك جميعاً إلا من أسهم في الدفاع عن الوطن . غير أن الخطاب لم يجد أذنًا صاغية ، مع أن سينيوس ألقاه فعلاً في حضرة الإمبراطور . والدليل على ذلك أنه على حين ظل أركاديوس ساجحاً في أحلامه ، انتخب القوط لأنفسهم ملكاً عسكرياً في سن الثلاثين ، وهو ألاك الجسور الذي أفزعت أخبار جسارته الحربية قلوب المعاصرين . على أن في سيرة ذلك الملك المسيحي الهمجى ما يدعو إلى الالتفات ويسترعى النظر ، إذ يبدو من أعماله أنه لم يخطر له في يوم من الأيام أن ينال الإمبراطورية بسوء ، وإنما رى إلى الظفر بأحد المناصب الإمبراطورية العالية ، والحصول على إقليم خصيب من الأقاليم الرومانية لعشيرته . وفي سبيل هاتين الغايتين لم يترك ألاك وسيلة خبيثة إلا توسل بها ، ولا منكراً إلا ارتكبه ، فهاجم أثينا وأجبرها على الفداء ، واستولى على كورنثا وإسبرطا ، وعاث في تساليا والبلوبونيز ، ثم لم يلبث أن غزا إيطاليا ، فحاصر روما مرات ثلاثاً حتى إذا فتحت له أبوابها غداة حصارها الرابع سنة ٤١٠ م أباحها لبرابرة يفعلون بها ما يشاؤون .

وزلزل الناس وعراهم ذهول عميق ، لوقوع تلك الكارثة الكبرى بمدينة خالتها القرون والأجيال مركز الهيبة والسلطان من قديم الأزل . وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون عما إذا كان هو كل ما استطاعت المسيحية أن تأتى به ، أم كانت الطامة انتقاماً للوثنية ومعابدها القديمة أم ، كان ما حدث هو الجزء لاعتناق المسيحية . ورد القديس أوجسطين أسقف هيبو بإفريقية الرومانية — وهو بونا بتونس الحالية — على كل تلك الأقاويل في كتابه « مدينة الله » الذي ابتداء تأليفه سنة ٤١٢ م ، وانتهى منه سنة ٤١٧ م . وفي ذلك الكتاب الذى يعتبر أعظم ما خلفه الآباء الأولون من الكتب الدينية ، أجاب أوجسطين بأن روما مدينة من عمل البشر ، وهى لا تقاس فى شيء إلى مدينة الله التى لا تنال منها الظواهر المادية ، ولا تحددها الحدود ، بل تسع كافة المؤمنين حيث يكونون . غير أن إباحة روما وانتهاك حرمتها على

يد القوط الغربيين لم يكن إلا نذيراً ضئيلاً بالقياس إلى ما خبأته الأيام من الطامة العظمى ، لأن هجمات القوط الغربيين على إيطاليا منذ أواخر القرن الرابع الميلادى تطلبت سحب كثير من الحاميات الرومانية على نهر الراين إلى المواقع الإيطالية الهامة ، فاهتبل القرصة جموع من السويثي واللان والوندال (والوندال فرع من الجرمان الشرقيين الذين اعتنقوا المسيحية على المذهب الآريوسى) وانساحوا نحو غاليا وحدودها التى أمست خلواً من معظم وسائل المقاومة والدفاع ، ولم يمض إلا ثلاث سنوات (٤٠٥ - ٤٠٨ م) كلها نهب ذريع وقتل مريع - حتى عبرت تلك الجموع جبال البرانس إلى إسبانيا . على أن ما طفحت به تلك السنوات الثلاث من الفوضى التى ليس بعدها فوضى غير وجه الإمبراطورية الغربية تغييراً تاماً ، لأن الأمر لم يقتصر على فقدان السيادة الإمبراطورية نهائياً من غاليا وإسبانيا ، بل تعداه إلى قيام رومانى مغامر اسمه قسطنطين بسحب معظم الحاميات الرومانية من بريطانيا ، أملاً فى الذهاب بها إلى روما بعد أن نادى رجالها به إمبراطوراً ، وبذا تعرضت بريطانيا الرومانية لغارات القراصنة من السكسون على شواطئها فى الجنوب ، وهجمات البكتيين والأسكتلنديين على طول حدودها الشمالية أوائل القرن الرابع الميلادى .

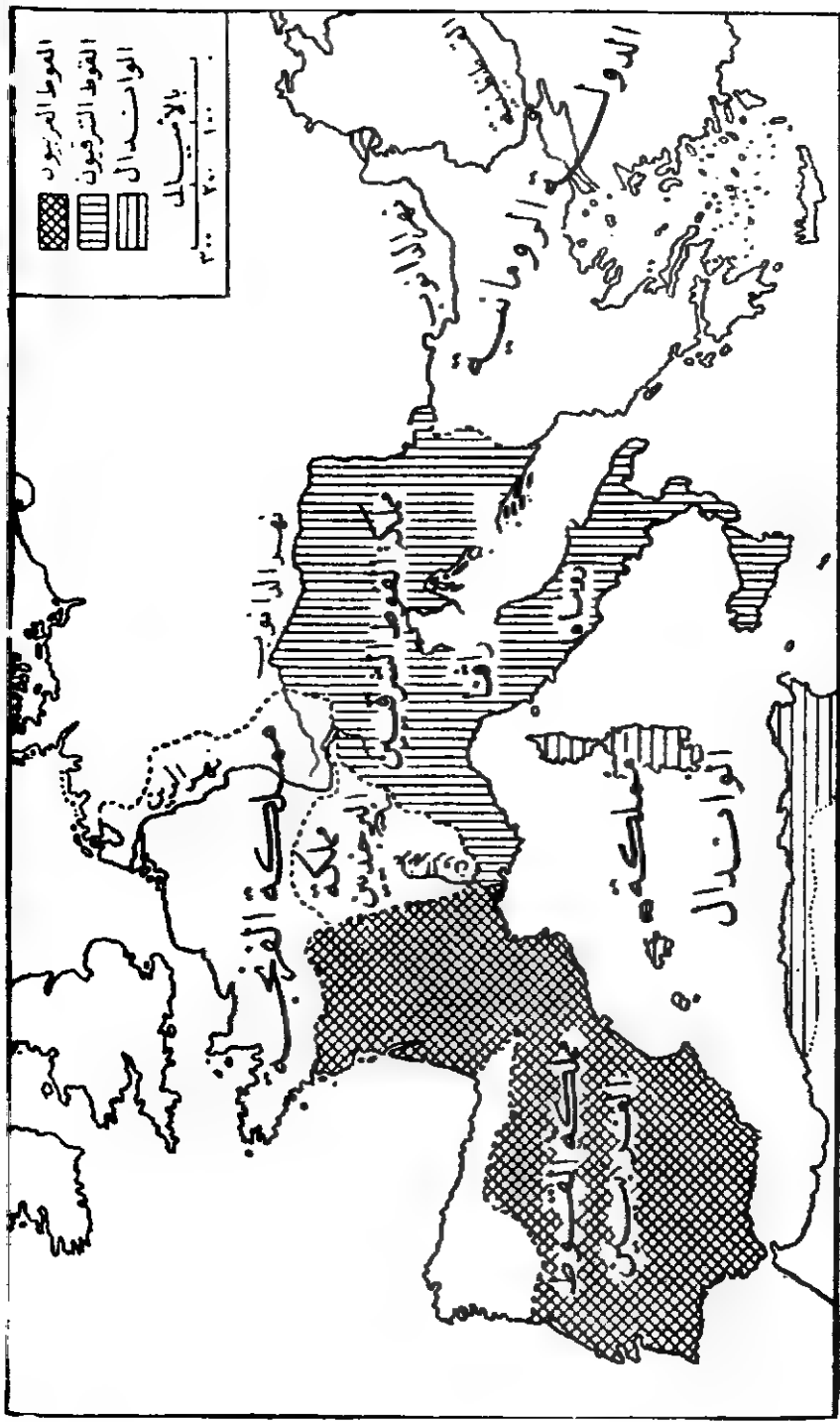
ثم أعقب تلك العاصفة ضغط شديد من ناحية العشائر الجرمانية غرباً نحو غاليا ، فاحتل الفرنجة البحريون أرض بلجيكا الحالية ، واستولى الفرنجة البريون على تريفرز وما حوفا ، ونزلت عشيرة الألليمانى فيما هو الآن لاس فى العصر الحاضر ، وأقام البرجنديون مملكة عاصمتها فورمز ، وانتقل القوط الغربيون وقتئذ عن إيطاليا إلى غاليا ، فاستقروا بها فى جهات تولوز ، وأخذوا من ثمّ يبنون لأنفسهم دولة امتدت فى عزّ اتساعها من بوغاز جبل طارق إلى نهر اللوار ، ومن المحيط الأطلسى إلى نهر الرون .

أما الحكومة الإمبراطورية فى راثنا ، وهى المدينة التى أضحت عاصمة للدولة الرومانية فى الغرب ، فلم تستطع فى أية مرحلة من مراحل القرن الخامس الميلادى أن تؤثر أيما أثر فى اتجاهات تلك الحركات الجرمانية الهائلة .

ولذا لجأت إلى السياسة العملية التي بدأها ثاوداسيوس ، وهي اعتبار العشائر الجرمانية أحلافاً معاهدين للإمبراطورية ، بعد أن أمست حربهم متعذرة ، وبات إخضاعهم محالاً . ومن أجل تلك السياسة العملية عمدت الإمبراطورية إلى مبدأ الضيافة الإجبارية ، وهو المبدأ المتبع منذ القديم لإنزال الجيوش الرومانية ضيوفاً على أصحاب الأراضي من الإيطاليين ما دامت الجيوش بالأقاليم الإيطالية ، فتوسعت في تطبيقه بأن جعلته سارياً على غالبية خدمة للقوط الغربيين والبرجنديين . وهكذا أضحي مقررأ على المضيف الروماني الراغم أن يتخلى ، بأمر إمبراطوره المغلوب على أمره ، عن ثلثي ممتلكاته إلى ضيف متبربر ثقيل .

وانشرفت صدور الجرمان الدخلاء لتلك الحيلة التي تسرت على النهب باسم الضيافة ، واعترفت باستقلال الجرمان بشئونهم تحت لواء التحالف المبجل . على أن روما ظلت قوة معنوية مهية لدى القوط الغربيين والبرجنديين ، كما ظلت المدنية الرومانية موضع الإجلال عند قوم لا يفقهون من أمرها شيئاً . ولم يدر بخلد أولئك البرابرة — الذين أخذوا من ثم يتحلون بشيء من الثقافة الرومانية — أن باستطاعة أحد غير الرومان أن يصبح إمبراطوراً ؛ فإذا جاز لقوطى أن يتزوج من أميرة رومانية ، أو أن يسهم في إقامة روماني في الإمبراطورية ، فسوف يظل التاج الإمبراطوري ممتنعاً على غير الرومان ، أى أن موقف القوطيين من الدولة الرومانية— وكذا موقف البرجنديين كان مزيجاً عجيباً من التهيّب الباطن والتحدى الصريح . وبدا كأنما استقر الجرمان على أنه لا يوجد في الدنيا من القوى والتمائم ما يستطيع أن يقهر الدولة الرومانية إلا ما جاء من روما نفسها ، بدليل أن الغنائم التي حملت من إيطاليا سنة ٤١١ م على يد آتولف ملك القوط الغربيين في مملكتهم الجديدة بالجنوب الغربي من غالبا اشتملت على شخصيتين رومانيتين ، أولاهما الأميرة جالا پلاسيديا أخت الإمبراطور هونوريوس ، لتكون زوجة للملك القوطى ، وثانيتهما الخطيب المغمور آتالوس ليكون إمبراطوراً مناهضاً لإمبراطور رافنا إذا دعا الأمر .

الممالك القوطية في عزيابها



وظلت غالبا فيما تبقى من القرن الخامس الميلادى خاضعة لحكم الدولتين القوطية والبرجندية في أرجائها ، وهما الدولتان الصديقتان الحليفتان على قول التعبير السياسى وقتذاك ، حتى إذا كان انتصار الفرنجة على القوط الغربيين عند فوييه سنة ٥٠٧ م تبدل الحال غير الحال . ولما كان المعروف أن المحاكاة صفة من أقوى صفات المجتمع البشرى ، أخذ القوط الغربيون والبرجنديون يتفهمون مظاهر الحضارة الرومانية ويحاكونها ، منذ استقرت أحوالهم بوطنهم الرومانى الجديد فى غالبا ، حيث بقيت تلك الحضارة حافظة أشكالها ، بالقياس إلى غيرها من البلاد فى ذلك العصر ، ثم لم يلبث ملوك هاتين الدولتين وغيرهما من الدول الجرمانية أن أدركوا أنه مهما كان احتقارهم لنعموة أهل حوض البحر الأبيض المتوسط ، فإن شئون الحكم لا تستقيم فى بلاد تتكلم اللاتينية دون استخدام الحكومة للموظفين والكتبة المتكلمين باللسان اللاتينى ، فضلا عن حاجتها إلى المشرعين العارفين بالقانون الرومانى . ولذا يبدو أن حياة الرومانى من أهل غالبا لم تنقلب إلى ضيق وشقاء نتيجة لحلول المملكتين البرجندية والقوطية محل دولة الرومان ، بل ظل النبيل من النبلاء أصحاب الأطلان كما كان قبلا : يزرع أرضه ، ويلهو بالصيد والطرْد فى الغابات والأحراش ، ويبنى البيوت ، ويغرس الأشجار فى حدائقها المونقة ، حتى إذا عراه الملل من هذا وذاك وتينك عمد إلى زيارة أصدقائه وجيرانه ، أو دلف إلى مكتبته يقلب فى أسفارها وأوراقها ، وهو ناعم البال خالى القلب من الحزن ، كأن ليس هناك برايرة يقتلون اللغة اللاتينية الجحيلة قتلا ، وكأن ليس ثمة حاجة إلى الاهتمام أو القلق من أجل الإمبراطورية وحياتها المستقبلية ، بل كأن ليس هناك مصيبة اجتماعية داهمة أو خطر خارجى قريب ، لأن كل ذلك لا يساوى شروى فقير بالقياس إلى حياة العافية والوفرة التى لا انتهاء لها ، ولا يقارن فى شىء بمظاهر اللطافة والبلهنية التى تمتلئ فيها المجدودون المهذبون من أعضاء مجلس الشيوخ الرومانى ، فى بيوتهم فى روما والأقاليم الإمبراطورية . يضاف إلى ذلك أن حكم أمثال ثيودوريك ملك القوط الشرقيين بإيطاليا ، أو جستودود ملك البرجنديين فى غالبا ، بدا فى نظر الفقير

المنعدم في تلك العصور أخف وطأة من طاحن الظلم الذي انتصف به جياة
الضرائب والإتاوات في عهد الرومان .

وحوالى ذلك الوقت أخذت الدولة الرومانية تألف الجندى الجرمانى في
فروق الجيش الرومانى ، وتأنس إلى المغامرين الجرمان في بلاط الأباطرة
ولقياصرة ، وتقبل المهاجرين الجرمان في أراضيها ومزارعها عن رضا وطيب
خاطر . حتى مرت حوادث القرن الخامس الميلادى كأنها لم تكن . وإذا
خشى النبيل الرومانى المثقف من أهل غاليا على اللسان اللاتينى أن يضيع ،
ومن الآداب اللاتينية أن تندثر ، فإنه لم يخش من الدولة الرومانية أن تضمحل
وتزول ، لأن النتائج السياسية التى ترتبت على ما أصاب البناء الاجتماعى
من عظيم التغير والتطور بسبب المهجرات الجرمانية لم تكن مفهومة لديه .

والواقع أن السكان الأصليين من أهل غاليا الرومانية نظروا إلى معظم
القوط الغربيين وكثير من البرجنديين كأنما هم أداة ألفت بها الصدفة في
أيديهم لخدمة ما عسى أن يتأتى من أغراضهم المستقبلية ، لا أعداء يجب العمل
على محاربتهم وإخراجهم من البلاد ، وذلك بعد أن تغلب هؤلاء وأولئك
على المتاعب التى نشأت عن أوضاعهم الجديدة . بل ظن بعض كبار
النبل من الرومان في غاليا أن باستطاعته إذا شاء أن يصل إلى العرش
الإمبراطورى بمعونة أولئك المتبربرين وملوكهم ذوى الملابس الجلدية والرتانة
الخشنة ، وخال بعض المعاصرين أن الجيوش القوطية والبرجنديّة تستطيع
حماية الدولة الرومانية ، فضلا عن قدرتها على توسيع رقعة الإمبراطورية ،
يسأل ما قام به الملك واليا - بناء على أمر الإمبراطور هونوريوس -
من الزحف بالقوط الغربيين إلى إسبانيا ، واسترجاعه الجزء الأكبر
من شبه الجزيرة من أيدي السويستى والوندال واللان . ودليل آخر ما حشد
القائد الرومانى إتيوس من قوات القوط الغربيين والبرجنديين وغيرهم
من سكان غاليا في القرن الخامس الميلادى ، لمحاربة الملك أتिला وقومه من
الغون ، حيث مات منك القوط الغربيين قتيلا في ميدان الدفاع عن الإمبراطورية ،
وطولا جيشه الذى ألقى به في تلك الحرب لما انتهى الأمر إلى هزيمة الهون .

والخلاصة أن تاريخ غاليا في القرن الخامس الميلادي - وإن افتتح بسلسلة طويلة من حوادث الهب والحروب - شهد كذلك شيئاً من المهمل والإبطاء نحو الظلمة العقلية التي كادت ترين وقتئذ على المجتمع الأوربي ، بسبب الحروب ، لأن القوط الغربيين والبرجنديين برهنوا على أنهم أحسن مما توقع منهم الناس ، إذ بقيت المدارس مفتوحة للتعليم ، وظلت المحاكم تستقبل المتقاضين والمحامين ولم ينقطع النبلاء عن نظم الشعر ، ولم يحدث ما يمنع الأساقفة من رعاية أهل كنائسهم . والواقع أن الكنيسة الكاثوليكية لم تجد ما يدعو إلى الشكوى من قيام مملكتين أريوسيتين في غاليا ، حتى إذا صار يورك (٤٠٠ - ٤٨٦ م) ملكاً على القوط الغربيين انقلبت سياسة التسامح الديني التي اتبعها أسلافه إلى نوبة من الاضطهاد الشديد ضد الكاثوليك ، بسبب ما جبل عليه يورك من التشدد والتعصب للمذهب الأريوسي . وإذا عُدَّت أغلاط ذلك الملك وأحصى التاريخ عليه أنه كان أشد ملوك القوط الغربيين بطشاً وبغياً ، وأنه هاجم البريتون أصحاب إقليم بريتاني بفرنسا الحالية حباً في البطش والبغى ، وأنه أخضع لجبروته إقليم أوفرن الذي بقى موالياً للدولة الرومانية في غاليا ، فإن هذه الأغلاط جميعاً لا تقاس إلى إمعانه في اضطهاد الكاثوليك في بلاده . والدليل على صحة ذلك القول أن القوط الغربيين خسروا ما اكتسبوا من المحبة بين الناس من أهل أقطانية بسبب الاضطهاد ، حتى إذا توفي الملك يورك سنة ٤٨٦ م ، واندحر جيش القوط الغربيين أمام الفرنجة الكاثوليك عند ثوبيه سنة ٥٠٧ م كما تقدم ، وقف الناس من أهل غاليا الجنوبية قاطبة ينظرون إلى ماحدث في كثير من الارتياح .

وقبل ذلك بثمان وسبعين سنة نزلت بالدولة الرومانية كارثة مروعة في إقليم لم يكن لأحد على بال ، وذلك أن ولاية إفريقية التي كانت مصدراً رئيسياً للغلال الضرورية لروما ، ومقرراً لحضارة رومانية زاهرة ، أضحت هدفاً لأطماع ملكين قوطيين ، وهما ألارك وأخوه واليا . ثم لم تلبث هذه الولاية الإفريقية أن غزيت على يد الوندال من إسبانيا ، تلبية لرغبة حاكمها الروماني ، فكانت كارثة ليس بعدها كارثة على الإمبراطورية الغربية وهي في أسوأ

حال من الضعف . وأخذ الوندال يتدرجون من قوة إلى قوة ، تحت زعامة جتزرىق أقدر الملوك المتبربرين في عصره ، فاستولوا على قرطاجنة سنة ٤٣٩ م ، وأنشأوا لأنفسهم أسطولا بحرياً ، ولم يمض إلا قليل حتى أصبحوا أعظم قوة بحرية في غرب البحر المتوسط ، وأمسست الدولة الرومانية - لأول مرة منذ الحروب البونية في القرن الثالث قبل الميلاد - تحت رحمة بحرية تفوق بحريتها ، وتستطيع أن تنزع عنها صقلية وسردانية وقورقشة ، وأن تنقل إلى إيطاليا جيشاً من الوندال الظالمين ، ليفسدوا في روما ويمعنوا فيها نهباً وسلباً ، وقتلاً وتخريباً . ولم تجد أنواع المعاهدات والمفاوضات في تحويل أولئك المتبربرين الأريوسيين إلى أحلاف تعتمد الدولة الرومانية على صداقتهم أو مؤازرتهم المعنوية على الأقل ، وذلك برغم ما دأبت عليه الحكومة من تساهل في شروط المعاهدات التي عقدها معهم من سنة ٤٣٥ إلى ٤٤٢ م ، لأن الوندال كانوا من المفسدين الذين دمروا كثيراً ولم يعمروا شيئاً ، فلم يتخلف عن حكمهم الذي ظل مائة من السنين بأفريقيا سوى ذكريات الخراب . على أن لظهور الوندال في ميدان الحوادث الأوروبية أهمية بالغة ، إذ اضطرت الدولة الرومانية إلى بعثة قواتها العسكرية بإيطاليا لمحاربة أولئك القراصنة الخاسرين ودولتهم التي استقرت بأعظم الأقاليم الإمبراطورية إنتاجاً للغلال ، وذلك حين بات من الضروري أن تكون جميع تلك القوات مركزة ضد الزحف الجرمانى على غاليا . وترتب على ذلك نتائج خطيرة ، منها ضياع غاليا نهائياً من يد الدولة الرومانية ، وانسحاب آخر حامية رومانية من بريطانيا سنة ٤٤٢ م ، واستيلاء السكسون على الجنوب الشرقى من الجزيرة البريطانية ، ومهاجرة الكلتيين أهل الأقاليم الجنوبية الغربية من الجزيرة فراراً من السكسون إلى جهات أرموريكا التي سميت منذئذ بريتانى تحريفاً من اسم بريطانيا القديم .

أما المغول أو الهون الذين جاء غزوهم لشرق أوربا فاتحة لتلك السلسلة الطويلة من حلقات الحنة التي مزقت الإمبراطورية الرومانية فلم تكن قصتهم قد تمت أو انتهت بما أحدثوا من الدمار والفرزع أواخر القرن الرابع الميلادى^(١).

ذلك أن الإمبراطورية لجأت - منذ حلول الجرمان ببعض الأقاليم الرومانية - إلى سياسة التجنيد لحيوشها من أشد أولئك الجرمان عنفاً وقوة ، فاستخدمت الفرنجة للدفاع عن حدودها على نهر الراين سنة ٤٠٧ م ، واستعملت الهون لهدم مملكة برجنديا وعاصمتها فورمز سنة ٤٣٥ م غير أن تلك السياسة التي لا تعدو أن تكون حيلة مؤقتة غير ناجحة ، لم تضمن للدولة حماية حقيقية ضد شهوات الأمم الجائعة التي ضاقت بأحوالها الاقتصادية وأهلها المكثرين ، حتى إذا توسط القرن الخامس الميلادي ، بدا الخطر الداهم للإمبراطورية من ناحية الهون الذين برهنوا قبل ذلك بيضع سنين على أنهم أحلاف ذوو قيمة وبأس شديد . وخلاصة ما حدث أنه قام بين أولئك الهون ملك اسمه أتिला ، وهو أحد القليلين من الأفراد الذين يملأون مسرح التاريخ من حين إلى آخر ، فيقررون مصائر جنس من أجناس البشر ، أو يروعون العالم بما يأتون من مظاهر العنف أو السلطان . وبفضل ذلك الملك أتिला نجح الهون في السيطرة التامة على جميع الجهات الممتدة من نهر الراين إلى جبال الأورال تسعة عشر عاماً كاملة (٤٣٥ - ٤٥٤ م) ؛ فدفعت لهم الإمبراطورية الشرقية جزية سنوية ، وخضعت لهم قبائل الجرمان من الجيبيدين والقوط الشرقيين ، والروجيين والسكثريين ، وغيرهم من سكان أوروبا الوسطى ، بل صارت تلك القبائل لهم طوع ما يؤمرون به ، حتى لأنهم تأثروا بطباعهم وساوكهم .

وسرى حال من الذعر لخضوع ذلك الجمع الهائل من الهون والجرمان وغير الجرمان لحكم ملك واحد غير هياب مستهتر جبار ، وأقبل الناس بعضهم على بعض يتساءلون عن سوف يقع بعد ذلك تحت الصاعقة ، وجاء الجواب وفصل الخطاب حين عقد الملك أتिला النية سنة ٤٥٠ م على أخذ الدولة الرومانية في الغرب أخذ عزيز مقتدر ، بعد أن وضع له أنها لا بد فريسة سهلة ، ما دامت تحت حكم الضعيف فالنشيان ابن أخت الضعيف هونوريوس .

وهنا برهنت الحوادث برهانها على الفرق الكبير بين مجرد الشجاعة

والخطة الحربية ، كما دلت أوضح دليل على أن الاعتداد بكثرة العدد لا يوازى شيئاً بجانب الاستناد إلى المهارة العسكرية في تنظيم القتال ، وأن التماسك السياسى الصحيح أهم كثيراً من الإعتماد على ما لاسم أتيليا من جاذبية وروعة . ذلك أن أتيليا لم يرق إلى مرتبة القادة العظماء في التاريخ ، ولم ترق جموعه المختلفة إلى مرتبة جيش برغم أعدادها الهائلة ، ولم تستطع سيطرته الشخصية أن تصبح بديلاً من النظم التي تحتاج إليها دولة من الدول . ولذا أنهارت الغزوة الهونية في غالبا سنة ٤٥١ م حين قرر أتيليا الرجوع من حيث أتى عن أن يهاجم مدينة حصينة منيعة مثل أورليان ؛ وجاءت الهزيمة التي نزلت بالهون عند مدينة تروا مصداقاً لما وضع قبل ذلك من نتيجة للقتال . ولم يدل غزو الهون لإيطاليا في العام التالى على شيء من سداد الرأى عند أتيليا ، ولم يلبث الهون أن انسحبوا في سرعة ملحوظة إلى شمالي جبال الألب ، بعد أن عاثوا نهباً وسلباً بإيطاليا مدة قصيرة . وكانت تلك السرعة مما أدى بالناس إلى الاعتقاد بأن انسحاب الهون إنما جاء بفضل تدخل أسقف روما لدى أتيليا ، لا بسبب نفشى المرض بين جموعه ، فضلاً عن نفاد الأقوات ، ووصول الخبر باقتراب جيش زاحف لنجدة إيطاليا من ناحية الدولة الرومانية في الشرق ، ثم لم يك بعد ذلك إلا عامان حتى أمسى أتيليا ممدداً في رمسه ، وتمزقت إمبراطوريته في وقعة نيداو سنة ٤٥٤ م ، نتيجة لثورة أفضالها وأتباعها من الجرمان .

ومن ثم أخذت أوروبا الغربية تصطبغ بالصبغة الجرمانية في غير انقطاع ، فتدفق القوط الشرقيون إلى شبه جزيرة البلقان ، وخلقوا بأعالمهم المضطربة الصاخبة مشكلة مشابهة لتلك التي استنفدت حيلة الإمبراطورية الشرقية قبل ذلك بمائة من السنين . وفي إيطاليا اختتمت سلسلة أشباح الأباطرة بإمبراطور صبي مسكين شاعت سخرية الأقدار أن يكون اسمه روميلوس أوغسطينوس ، وهو الذى خلعه أدواكر زعيم الجرمان الروجيين ورئيس القوات العسكرية بإيطاليا ، سنة ٤٧٦ م . على أن الثورة العسكرية التي قام بها ذلك الزعيم لخلع آخر الأباطرة من الرومان بالغرب لم تكن بدعاً

في تاريخ الإمبراطورية ، بل سبقت ثورته هذه سوابق مشابهة كثيرة . ولو شاء أدواكر أن يعلن نفسه ملكاً لما اعترض عليه معترض ، لأن أتولف وخلفاءه من القوط الغربيين فعلوا مثل ذلك قبلاً ، ولو أنه شاء السيطرة على إيطاليا عن طريق المطالبة بثلاث الأراضي الإيطالية لجيوشه ، لقام بإحياء مبدأ الضيافة الذي طبقته الدولة الرومانية في برجنديا وأقطنانيا منذ عهد غير بعيد ، وإذا أُخذ عليه أنه خلع روميلوس بغير حق ، فإن الإمبراطور الصبي كان مغتصباً غير معترف به من القسطنطينية ، بل غفرت القسطنطينية لأدواكر فعلته غفراناً جميلاً ، بأن أنعمت عليه بمرتبة البطارقة . أما الناحية الجديدة في هذا الحادث فليست لمجرد أنه خطوة ثورية جريئة ، بل لأنه فعلة محافضة متصونة . ثم رفض أدواكر أن يعين خلفاً لروميلوس ، ظناً منه أن إمبراطورية متحدة تحكمها القسطنطينية - كما كان الحال زمن ثاوداسيوس - سوف توجد له مجالاً أوسع مما لو اقتصر أمره على إيطاليا ، وبقيت تلك الوحدة حقيقة ماثلة من الناحيتين المادية والنظرية حتى توج شارلمان إمبراطوراً في الغرب ، سنة ٨٠٠ م .

أما المرحلة التالية من تاريخ تلك القرون الأولى ، فتمتاز بظهور شخصيتين متبررتين عظيمتين ، وهما ثيودوريك ملك القوط الشرقيين ، وكلوفس ملك الفرنجة البحريين ، إذ أسس الأول مملكة قوطية قصيرة العمر بإيطاليا ، وأنشأ الثاني مملكة الفرنجة التي عاشت طوال العصور الوسطى ، وتولدت منها مملكة فرنسا في التاريخ الأوربي الحديث . وشابه كل من هذين الرجلين المحنكين الآخر في موقفه السياسي من الدولة الرومانية ، بإعلان كل منهما بقاء السلطة الإمبراطورية في إقليمه ، وإن بدا هذا الموقف أوضح في سياسة ثيودوريك منه في سياسة كلوفس ، يوضح ذلك أن ثيودوريك جاء إلى إيطاليا للقضاء على أدواكر بناء على أمر الإمبراطور زينون ، ولم يعتبر نفسه مدة حكمه الطويل (٤٩٣ - ٥٢٦ م) ملكاً قوطياً فحسب ، بل موظفاً إمبراطورياً كذلك ، على حين اكتفى كلوفس بالحصول على تقليد من الإمبراطور أنسطاسي باعتباره قنصلاً شرفاً ، وهو لقب يحمله أصحاب المقام الرفيع والمراتب

العالية في الدولة الرومانية . بيد أن ثمة فرقاً دقيقاً جعل لكل من الرجلين مصيراً خاصاً ، لأن ثيودوريك - وهو بلاربب الشخصية الأقوى والأكثر أهمية عند المقارنة بين الرجلين - عاش ومات أريوسى المذهب ، على حين اعتنق كلوفس الكاثوليكية ، ونادى بأنه في سبيل الكاثوليكية من المجاهدين ، بعد أن صار ملكاً على الفرنجة ؛ وإلى ذلك الفرق الدقيق يرجع السبب في فشل ثيودوريك بدولته القوطية في إيطاليا ، ونجاح كلوفس في تأسيس دولة فرنجية ثابتة الأركان والأوتاد بأرض غاليا .

على أن الفشل الذى منى به ثيودوريك وتجربته في إيطاليا يدعو إلى شيء من التأمل والالتفات ، إذ يبدو ذلك الرجل في القمص الجرمانى زعيماً كبيراً بين القبائل الجرمانية ، فتسميه أشعارهم ديريخ البرنى ، وتصوره قصائدهم كأنه أخيلوس في إياذة جرمانية الأصل ، يصول بشخصيته ويحول في عصر عاصف لن تنسى ذكره الأيام . وارتأى فيه تلك الزعامة ملوك الدول الأريوسية من الوندال والقوط الغربيين والبرجنديين ، فدخل كل منهم في حلفه ، وصار هو بينهم فيصلاً يرجع إليه في الحصومات . ومن المعلوم أن مثل ذلك التقدير - لو كان نظرياً - لا يتحتم أن يكون كله تقديرأ خاطئاً ، فإن أعمال ثيودوريك وشخصيته اتسمت بشيء غير قليل من العظمة والضحامة ، مما غفر له كثيراً من عيوبه ورذائله ، ورجح موازينه ضد ما اتصف به من الجهل والأمية والقسوة والمكر . ذلك أنه قاتل أدواكر وجنوده الروجيين قتالاً شديداً ، ثلاثة أعوام متوالية ، حتى خلص إيطاليا من ذلك النير ، وبفضله تمتعت البلاد الإيطالية بسلام ذهبي ستة وثلاثين عاماً . بعد أن وسع حدودها ، وأحاطها بسياج من الدبلوماسية الواقية ، وظفر لها بجملة من الأقاليم المجاورة مثل بروفانس الحالية ، وجنوب ألمانيا والتيرول ، وجزء من المجر وداماشيا ، فضلاً عما أحياء لها من السيادة الاسمية على إسبانيا . على أنه من المحتمل أن ثيودوريك لم يصل إلى ما وصل إليه من ضحامة وبطولة قصصية ، لولا أنه قام في إيطاليا - وهو الجرمانى الذى اكتملت فيه صفات جنسه - كأنه حاكم رومانى . وجعل منها مركزاً

لمشاريعه الحربية المترامية .

ولا تزال مدينة رافنا الجميلة بموقعها تحفظ قبر ثيودوريك ملك القوط الشرقيين ، كما تحفظ الكثير من شهر آثار عصره . وفي تلك المدينة التي صارت عاصمة لمملكة القوط الشرقيين اصطبغ البلاط والديوان بالصبغة اللاتينية ، ونعم مجلس الشيوخ الروماني برعاية ثيودوريك واحترامه ، كما نعمت الآثار الإيطالية القديمة بدائب عنايته واهتمامه . ولم يدر بخلد ثيودوريك في يوم من الأيام أن يفرض اللغة القوطية على إيطاليا ، ولم يتعمل أن يغير في القانون أو الحكومة أى تغيير . أو أن يدعو إلى إسراع الخطى في المزج بين القوط والإيطاليين ، أو أن يسىء إلى الأوضاع الدينية في روما . بل إنه لم يصدر تشريعاً أو يضرب نقداً إلا وعليه اسم الإمبراطور . ثم إنه أصالح السقايات المرفوعة بروما وغيرها من البلاد ، وأبقى وظائف تدريس النحو والخطابة ، كما أبى القوانين الإمبراطورية التي حرمت الزواج المختلط بين الرومان وغير الرومان ، وصفوة القول أن ثيودوريك سار في حكمه سيرة حميدة ، حتى إذا كانت أواخر أيامه عمد إمبراطور القسطنطينية جستين الأول إلى سياسة اضطهادية ضد الأريوسيين ببلاد الدولة الرومانية في الشرق ، فثار ثيودوريك لإخوانه ، وكشر عن أنيابه غضباً من الاضطهاد الإمبراطورى ، وارتكب جريمة انتقامية أساءت إلى ذكرى كل أعماله الجليلة ، حين أمر بإعدام أمينه بوثيشيوس خاتم الفلاسفة والشعراء الأقدمين ، وصاحب كتاب « سلوى الفلسفة » (Consolatione Philosophiae) الذى يعد من خيرة الكتب المعروفة في العصور الوسطى ، كما يعد صاحبه من أولى الفضل على كافة البشر ، مما جعل قتله سنة ٥٢٥ م وصمة في جبين ثيودوريك .

أما كلوفس مؤسس البيت الميروفنجى والدولة الميروفنجية الفرنجية . فيمتاز عهده (٤٨١ - ٥١١ م) بثلاثة انتصارات حربية حاسمة ، وهى انتصاره عند سواسون سنة ٤٨٦ م على القائد الروماني سياجريوس الذى سمى نفسه ملك الرومان في غاليا ، ثم انتصاره على الألليمانى فى الألزاس بعد ذلك

بعشر سنين ، ثم انتصاره على الأريك ملك القوط الغربيين عند قوبيه القريبة من بواتيه الشهيرة سنة ٥٠٧ م . وموضع الأهمية الحقيقية لهذه الأحداث الثلاثة أن كلوفس أعقب كلا منها بخطوة جريئة نحو تأسيس دولة فرنجية في غاليا ، إذ نقل عاصمته من سواسون إلى باريس ، بعد تغلبه على ذلك القائد الروماني الذي ظن أن باستطاعته صون السيادة الرومانية في غاليا بعد حلول الجرمان ، ثم تحول عن الوثنية إلى الكاثوليكية بعد ظفوه بالألماني ، ثم مد أطراف مملكته إلى جبال البرانس بعد أن قذف بمعظم القوط الغربيين أعدائه إلى إسبانيا ، ليتخذوا منها مقراً للولتهم . غير أنه سواء كان مرجع الفضل في اعتناق كلوفس المسيحية إلى زوجه الكاثوليكية ، وهي الأميرة البرجندية كلوتيلدا ، أم إلى اعتقاده بأن المسيح نصره على الألمان ، أو إلى تقديره الثاقب لما سوف يترتب على مسيحيته من نتائج سياسية ، فكل ذلك لا يساوى شيئاً بالقياس إلى الحقيقة الكبرى ، وهي أن زعيم الفرنجة البحرين - أصحاب الصيت الذائع بين القبائل الجرمانية - جميعاً - صار بطلاً من أبطال المسيحية الكاثوليكية ، سنة ٤٩٦ م ، أي قبل أن يختم القرن الخامس الميلادي .

ومعنى ذلك أن الدماء التي أريقَت في حروب كلوفس ضد الألمان ببلاد الألزاس ، كانت كماء التعميد الديني للحلف الطويل بين الملكية الفرنجية والكنيسة الكاثوليكية ، وهو الحلف الذي دام ألفاً وثلاثمائة من السنين ، ولم ينته إلا سنة ١٨٣٠ م ، أي في القرن التاسع عشر الميلادي ، عندما فرَّ آخر الملوك من أسرة البربون من وجه الثائرين ضد الملكية البربونية الرجعية بباريس . والواقع أن ذلك الحلف آذن إيذاناً بعصر جديد في تاريخ غاليا والتاريخ الأوربي معاً ، إذ بفضل سادت المسيحية الكاثوليكية في البلاد الممتدة من البحر الأبيض المتوسط إلى بحر المانش ، ومن المحيط الأطلنطي إلى نهر الراين ، ورضى كلوفس - مع أنه ملك متبربر قبل كل شيء - أن تكون الحكومة في مملكته تحت إرشاد الكنيسة ، وأن تصبح أداؤها الأساقفة والدوقات والمدن ، وهو كل ما خلفته الدولة

الرومانية لفرنسا في العصور الوسطى . وبعبارة أخرى صار الملك المتبربر زعيماً بالقيام على شئون كنيسة مجاهدة ، وليس أدل على ذلك من العبارات التي نسبها أحد المؤرخين إلى كلوفس وهو في طريقه إلى حرب القوط الغربيين ، إذ قال : « يحزننى أن أرى أولئك الأريوسيين ملوكاً في جزء من غاليا ، فهلموا معى إلى مهاجمتهم وقتالهم بعون الله ، حتى إذا انتصرنا صارت لنا أرضهم » . وكأنما نسمع في تلك العبارات صوت نذير للنداء الذى دعا القروسية الفرنجية للحروب الصليبية أواخر القرن الحادى عشر الميلادى ، وأذن بالقضاء على المراطقة الألبيجنسيين أوائل القرن الثالث عشر الميلادى ، وأدى إلى هجرة الميجونوت من فرنسا في القرن السابع عشر الميلادى ، وهى الهجرة التى غنيت بسببها البلاد البرتستانتية بأوربا غناء روحياً واقتصادياً غير قليل .

وسلفت الإشارة إلى ما كان من نتائج الموجة الجرمانية في غاليا منذ أوائل القرن الخامس الميلادى ، وهو قطع الصلة بين ولاية بريطانيا والدولة الرومانية . غير أن روما لم تتخل عن تلك الولاية تخلياً رسمياً ، ولم تتخذ قراراً بالهلاء عن أرض ظلت طوال أربعة من القرون مصدراً للثروة ، ومدعاة للفخر ، بسبب ما أقامه الرومان في أرجائها من طرق معبدة ، ومدن عامرة ، وضواح بهيجة ، فضلاً عما وجدوه بها من رقيق وافر ، ومعادن كثيرة ، وزراعات جمّة ، ومصحات ذات مياه طيبة ، وأصحال زاخرة بأنواع الأسماك المحارية الشبيهة . والحقيقة أن طبيعة الولاية البريطانية جاءت نتيجة لحوادث لم يكن لروما عليها سلطان . بل ترك البريطانيون وشأنهم للدفاع عن أنفسهم بما استطاعوا من وسائل الدفاع ، فلم يلبثوا أن تهدموا قبالة الخطر المهدق بهم من ناحية البكتيين والإسكتلنديين في الشمال ، وناحية القراصنة من السكسون الجرمان في الجنوب . أما المقاومة التى استطاع البريطانيون أن يبذلوها ضد ذلك الخطر المزدوج ، فلا سبيل إلى معرفة درجتها من الشدة ، أو مدتها من الزمن ، إلا عن طريق الحدس والخيال ، لأنه ليس يوجد من أخبار بريطانيا في تلك الحقبة إلا التزر القليل .

والواقع أن ما حدث في بريطانيا خلال المائة والخمسين من السنوات التي تصرمت بعد انفصالها النهائي عن روما ، ووصول القديس أوجسطين إلى شواطئها سنة ٥٩٧ م ، يكتنفه الغموض الذي ليس بعده غموض ؛ فلا حوليات معاصرة ولا وثائق ، ولا أى بصيص من النور الذي يهدي الأبصار ، وكل ما هنالك أن معاول الحفر العلمي كشفت عن آثار حرائق واسعة في كثير من المدن الهامة ، مثل كانتبرى مما يؤدي ، إلى ترجيح النضال الشديد بين الغزاة والبريطانيين ، كما يؤدي إلى غير ذلك من الاستنتاج والتعليل . أما الحوليات الإنجلوسكسونية ، وهو كتاب يرجع تأليفه إلى زمن متأخر بالقياس إلى ذلك العصر البعيد ، فإنه يشفى بكثير من الخرافة الساذجة ، حتى إن الباحث في أجزائه التي تشتمل على حقائق سليمة ، لا يسعه إلا أن يرتاب كذلك في تلك الأجزاء . وإذا فليس من المستطاع أن نصور الحوادث التي وقعت في ذلك العصر المظلم أو نرتب سلسلتها ، وإنما يحتمل أن الغزاة هاجموا بريطانيا هجوماً عاصفاً خرب البلاد ، وأحرق المدن ، ودمر السكان قتلاً وأسراً ، وطارد من نجا منهم غرباً وشمالاً بغرب ، حتى إذا هدأت العاصفة ، وعادت السكينة إلى البلاد ، عاد الناس إلى حياة زراعية مستقرة . غير أنه لاسيلاً إلى الجزم بشيء من ذلك كله ، ما خلا النتيجة ، إذ ينساب الظلام عن بريطانيا بمقدم القديس أوجسطين ، فتبدو وقد تغيرت معالمها بعد أن صارت سكسونية وثنية ، وبعد أن صار اسمها إنجلترا .

وذلك التغير العجيب الدال على امتحان الجزر البريطانية بكارثة عظيمة غير معروفة التفاصيل ، لا يتعارض مع احتفاظ بريطانيا بالأجناس البشرية التي لقيها بوليوس قيصر وكاوديوس في أرجاء الجزيرة إبان الفتح الروماني القديم . وأول أولئك الأجناس جنس الأيريين السمر الذين ترجع أصولهم ترجيحاً إلى العصر الحجري الحديث ، ويلهم الكلتيون الجيليون (Gaelic) سكان الجبال الإسكتلندية ، من ذوى الشعر الأصهب والأسلحة المصنوعة من البرونز ، وهؤلاء يلهم الكلتيون البريتونيون (Brythonic) الذين استقروا ببلاد الغال وكورنول ، وعرفوا بأسلحتهم المتخذة من الحديد . كل هؤلاء

وأولئك لم يذهبوا مع الريح ، أو تقضى عليهم الكارثة ، بل هم لا يزالون عنصراً من العناصر التي يشتمل عليها سكان الجزر البريطانية . أما الذي قضى عليه الفتح السكسوني ومحا محواً ، فهو ما كان لروما من دلائل السيطرة والسلطان في بريطانيا - أي اللسان اللاتيني ، والديانة المسيحية ، والمدن الكبيرة ، والنظم الرومانية .

ومهما كان من شيء ، حلّ ببريطانيا بعد أن ذهبت عنها صفة التبعية للإمبراطورية الرومانية مجتمع جرمانى بدائى يقوم على الزراعة ، ويعبد إلهاً اسمه أودين ، ويتكلم لغة جرمانية صرفة ، ويعيش عيشة مختلفة كل الاختلاف عما ألفه سكان المدن البريطانية على عهد الدولة الرومانية . وذلك لأن أجناس الحوت والسكسون والإنجليز - وهى الأجناس التي بدت ثابتة الأوتاد بأرض إنجلترا في بداية القرن السابع - لم تكن تأثرت بشيء من المدنية الرومانية قبل مجيئها ببريطانيا أو بعده ؛ ولذا سكنت تلك الأجناس القرى والكفور دون المدن ، وزرعت الأرض زراعة الحصص المبعثرة حسب نظام الحقول الثلاثة^(١) ، وحفظت بمحاكمها الجزئية (Hundred Courts) جميع الظواهر الشعبية في الحكومة والعدل بين الناس ، وهى الظواهر التي لفتت نظر تاكيتوس في القرن الأول الميلادى . على أن انتصار تلك الأجناس على البريطانيين ، وفتحها لما فتحت من الأقاليم البريطانية ، غير ما بها تغييراً بالغ الأهمية ، إذ انقلب كل زعيم من زعمائها ملكاً متوجاً في مملكة مستقرة ، وأخذ كل ملك من أولئك يرجع نسبه إلى إله من الآلهة ، ويستعين على شئون الحكم في مملكته بمجلس من الراشدين اسمه الوتان .

غير أن أولئك الغزاة الجرمان لم يكونوا يداً واحدة إبان أيامهم الأولى في إنجلترا ، برغم ما بينهم من صلة الوحدة والمجانسة في الأصول والفروع ، ومرجع ذلك إلى المساحات الواسعة من المستنقعات والغياض التي فصلت بين قبائلهم ، وإلى الغابات الكثيفة التي صدتهم عن الاتصال بعضهم ببعض .

(١) انظر كوبلاند : الإقطاع والمصور الوسطى بغرب أوروبا ، ترجمة زيادة ، ص ٦ ، ٢٨ .
(مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٦) .

مثال ذلك أن مصب نهر الهمبر في القرن السابع الميلادي حجز بين الشمال والجنوب من إنجلترا ، أكثر مما تحجز جبال البرانس بين فرنسا وإسبانيا في العصر الحاضر ، وأن إقليم لايس أنجليا الحالي بدا وقتذاك جزيرة تحيطها الغابات والغياض ، وأن جهات الأندروز وويلد التي غشيتها الغابات والمستنقعات فصلت تماماً بين ما يعرف الآن في إنجلترا باسم التلال الشمالية والتلال الجنوبية ، ومن ذلك يتضح أن بلاداً معانها الطبيعية على درجة من الكثرة مثل إنجلترا ، لا تستطيع أن تصبح دولة متحدة إلا بعد حين يستغرق أجيالا من ذراري غزاتها الأولين ، بل يتطلب الأمر حيناً وحيناً قبل أن يستطيع ملك من ملوكها المحليين أن يجعل منها مملكة واحدة . ولذا امتلأت أوائل تاريخ ذلك الجزء الذي نزل به الإنجليز والسكسون من الجزر البريطانية — أي إنجلترا — بسلسلة من الحروب المهلكة بين مجموعات مختلفة من أولئك الغزاة الذين ساعدتهم جغرافية البلاد على تكوين عدد من الدول ، فإذا نهضت إحدى تلك الدول حتى أصبحت الغالبة على سائر البلدان ، فلا تلبث أن تهوى حتى تسمى مغلوبة . ومثال ذلك دولة الحوتين الصغيرة بمقاطعة كنت الحالية — وهي جنة إنجلترا منذ القديم ، وأعظم أجزائها تقدماً في الحضارة — إذ شهدت تلك المملكة أعز أيامها زمن الملك إثلبرت صديق القديس أوجسطين ، ثم ما عتمت حتى صارت في خيبر كان ، وكذلك مملكة نورثمبريا التي دبت فيها الحياة بفضل اتصالها بالمسيحية الكلتية ، فإنها ظلت صاحبة السيادة على سائر الدول السكسونية حتى سنة ٦٥٨ م ، ثم ما لبثت أن نزلت عن مكانها لمملكة مرسيا حتى وفاة الملك أفا سنة ٧٩٦ م . وظلت إنجلترا على ذلك النحو من المنافسات والمتنازعات الداخلية حتى جاء الدانيون من بلاد الدانمرك ، فبدعوا صفحة جديدة في التاريخ الإنجليزي .

وفي تلك الأثناء دخلت إنجلترا مرة أخرى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية ، وهنا لم يكن التحول عن الوثنية إلى المسيحية راجعاً إلى شيء من التوبة المنبعثة من القلوب ، بل كان مرجعه ضغط الملوك وخضوع الرعايا وقنوعهم بما شاءه لهم ماوكهم من الدين ، فبيع أهل مملكة كنت ملكهم إثلبرت ، وحذا حذوهم

أهل نورثمبريا وإيست أنجليا ومرسيا ووسكس ، وصار جميع الناس على دين ملوكهم ، ورضوا بفضل ما جبلوا عليه من طاعة واستسلام أن يأخذوا إيمانهم وطقوسهم الدينية مما تريدهم عليه الحاشية الملكية والبلاط .

على أن ظاهرة التكلف والسطحية التي اتصف بها تحول إنجلترا إلى المسيحية ، لم يقلل مما لذلك التحول من أثر عميق بعيد الغور في تاريخ الإنجليز ، إذ ارتبطت إنجلترا مرة ثانية بالعالم اللاتيني ، فتعلمت من جديد ما للقوانين المكتوبة من مزايا في تثبيت أحوال البلاد والناس ، وصارت لم نظم كنسية مرتبة على نسق النظم الإمبراطورية الرومانية أدق ترتيب . والدليل الواضح على أهمية ذلك كله أن أول المجالس القومية التي عقدت بإنجلترا هي المجالس الكنسية . وأن أول مجموعة من القوانين العامة جمعت بمملكة كنت بإرشاد القديس أوجسطين . وفضلا عن هذا وذاك فإن تقسيم إنجلترا من أجل الإدارة الكنسية إلى أسقفيات ، ثم تقسيم الأسقفيات إلى أبرشيات ، إنما يرجع الفضل فيه إلى الرومان من رجال الدين . ولما كانت الأبرشيات أثبتت معظم ما للمجتمع الإنجليزي من خصائص ، وقامت في الحياة الإنجليزية بدور كبير ولا سيما بالريف ، ففضل الرومان من رجال الدين على إنجلترا السكسونية لا ينكره إلا الجاحلون . ثم إنه مما يبرهن على فضل الرومان ، كما يدل في وضوح على توفر الصفات العملية في الجنس السكسوني أن المسيحية الكلتية التي انتقلت من جزيرة أيرلندا إلى جزيرة آيونا ، ومنها إلى إنجلترا عن طريق نورثمبريا بشمال إنجلترا ، لم تستطع أن تنافس المسيحية الرومانية الصارمة ، وهي في طريقها سرياً من الجنوب . هكذا بدأت الثقافة اللاتينية تسرى من جديد في أرجاء الجزيرة ، بفضل القسيس الروماني الكاثوليكي وما اشتهر به من دقة في تأدية ما يسند إليه من أعمال .

بعض المراجع لهذا الفصل

- Collingwood (R.G.) : Roman Britain, 1921.
- Dill (S.) : Roman Society in the Last Century of the Roman Empire, 1899.
- Halphen (L.) : Les Barbares. (Vol. V, Peuples et Civilizations, ed. Halphen et Sagnac, 1926.)
- Hodgkin (T.) : Theodoric the Goth, 1891.
- Kluchevsky (V.) : History of Russia. Tr. Hogarth (C.J.). 5 vols. 1911-1931.
- Lavisse (E.) : Histoire de France. Vol. V, 1903.
- Oman (Sir Charles) : A History of England before the Norman Conquest. 1910.
- Previté-Orton (C.W.) : Outline of Mediæval History. 1924.
- Ramband (A.) : Histoire de la Russie, 1884.
- Trevelyan G.W.) : History of England, 1926.

الفصل الثالث

عصر جستنيان

الإيمان بضرورة الإمبراطورية الرومانية - الدولة البيزنطية -
جستنيان وتيودورا - سياسة جستنيان نحو أوروبا الغربية - استخلاص
إيطاليا من القوط - نتائج الحروب القوطية - وجه الخطأ في القضاء
على المملكة القوطية - اللومبارديون - ضعف الإمبراطورية الشرقية
عقب وفاة جستنيان - أسباب ذلك الضعف - القانون الروماني -
المذهب المنوفيزيتي وأثره في الشرق - مدى الاستبداد والمحافظة
في سياسة الأباطرة .

ينظر المؤرخ الحديث إلى الغزوات والفتوحات الجرمانية على أنها هي التي
أفضت إلى استبدال نظم الدولة الرومانية وإمبراطوريتها البائدة بنظم سياسية
جديدة . غير أن المسيحيين الذين عاصروا كلوفيس وتيودوريك لم يروا ذلك
الرأى في تلك الغزوات والفتوحات ، إذ قال علماءهم وفقهاؤهم وقتذاك بأن
حدوثها نذير باقتراب العالم من المرحلة السادسة^(١) ، وهي المرحلة الأخيرة
في الحياة الدنيا ، وأنه ليس بعد الإمبراطورية الرومانية إلا المسيح الدجال ،
والخراب الذي ليس بعده خراب ، لجميع الكائنات والأشياء . واستمع
الناس إلى تلك الأقوال في كثير من الرضى والافتناع ، وبني عليها القديس
أوجسطين إبان القرن الخامس الميلادي عقيدته في الوجود ، كما بني عليها
المؤرخ بيده في القرن الثامن الميلادي نظريته في مصير البشر . ومعنى ذلك
أحد شيئين ، وهما : إما أن يعقب انتصارات المتبربرين عودة الروح إلى
الإمبراطورية أو تعقبها القيامة ويوم الحساب ؛ على أن الناس استبعدوا أن

(١) يشير المؤلف هنا - فيما يبدو لي - إلى المراحل الست التي اصطلح عليها المؤرخون
الكنسيون في تقسيم طريق الآلام (via dolores) ، الذي سار فيه المسيح إلى موضع الصلب ، وهذا
الموضع هو المرحلة السابعة عندهم ، وفي مدينة بيت المقدس الحالية لا يزال الطريق الذي يؤدي إلى
كنيسة القيامة معروفاً بذلك الاسم ، وبذلك الأقسام . (زيادة) .

تفنى الإمبراطورية ويبقى وجه العالم حياً .

ولذا لم يكن عجباً أن يشهد القرن التالى لتلك الأحداث التى أملت بغرب أوروبا محاولة جدية لإعادة الإمبراطورية الرومانية سيرتها الأولى . ذلك أنه على حين تردى كل من إيطاليا وغاليا فى حال من القلق والاضطراب . بدت الحكومة الرومانية ثابتة البنيان فى القسم الشرقى من الإمبراطورية ، بفضل موظفيها وجيوشها المأجورة ، وعلى الرغم من إغراق بلاطها الإمبراطورى فى الفساد والفسيسة ، وانتشار الرشوة مع المركزية بين الموظفين ، وانصراف أهل القسطنطينية وانقسامهم شيعاً لأحزاب ملعب السباق ، وعناد الكنيسة عناداً بالغا فى القوة والمقدرة على المقاومة لأى شىء من رائحة الإصلاح ، بالإضافة إلى سلسلة من الأباطرة الذين استمدوا سلطانهم فى أغلب الأحيان من وراء المؤامرات وشغب الجند وحضب الدهماء ، على عكس الملوك المتبربرين الذين دأبوا على إسناد أحقياتهم فى الملك إلى أصول سماوية . ومعنى ذلك أنه على حين امتلأت البلاد الأوربية بأشكال وألوان من الاضطراب الشديد بدأت بالقسطنطينية وما حولها من الأقاليم مدنية مستقرة الدعائم ، تحدها مسحة من الرياء والاستعلاء . فضلا عن غطرسة السلوك والمكابرة ، وهى المدنية البيزنطية التى غالبت الفتوح اللاتينية والتركية وعاشت بعدهما ، ولم يغلبها على أمرها سوى عواصف القومية العثمانية فى العصور الحديثة .

والواقع أن الإمبراطورية الرومانية الشرقية حمت المسيحية البيزنطية ودافعت عن بيبضتها مدة لا تقل عن ألف سنة ضد أعدائها الذين أحاطوا بها من كل ناحية . برغم ما جرى عليها أثناء تلك المدة الطويلة من تقلب بين فترات من النصر الرائع المبين ، وفترات من الهزيمة التى أهوت بها إلى أسفل سافلين . ويكفى للتدليل على ذلك أن القوط والصقالبة ، والآفار والبلغار ، والفرس والعرب . كل منهم هاجمها وأفسد فيها بدوره غاية الإفساد ، دون أن يقوى أحدهم على النيل من بنائها العتيد ، الذى ترجع أصوله إلى تالذ العالم القديم ، إذ غالبت كل عاصفة من تلك العواصف ، ولم تنزل قيد أنملة عن رومانيتها ، بل بقيت متعلقة بأوضاعها التى أذهبت الأيام ، متمسكة بحقوقها القديمة ،

وهي الحقوق التي - كان بها من القوة والحيوية ما كان كفيلاً - بغلبها على العثمانيين في العصور الحديثة ، لولا ما أحدثه الصليبيون اللاتينيون بها من المدمم والتخريب في النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي . والخلاصة أن هذه الدولة البيزنطية التي لم تكن رومانية إلا اسمياً ونظرياً فقط - لأنها في الحقيقة والواقع يونانية شرقية - استطاعت على مر القرون أن تظل حافظة لمستوى من الدماء الخلقية والثقافة اللامعة مثل لمع الذهب الوهاج ، وسط ما أحاط بها من دامس الظلام . وإذا حقّ لأساتذة التاريخ القديم والآداب القديمة أن يسخروا من البيزنطيين ومدنيّتهم ، فمن الحق أن يذكر لأولئك البيزنطيين أنهم أصحاب الفضل في نقل مبادئ الثقافة والمسيحية إلى صقالبة روسيا وشبه جزيرة البلقان ، وأنهم هم الذين علموا الكثيرين من الشعوب الآسيوية الممجيّة طرق الحكم ونظمه في الدول المستقرة .

تلك هي الدولة البيزنطية التي توفي إمبراطورها أنسطاسي سنة ٥١٨ م ، واعتلى عرشها من بعده جستين الأول ، وهو عسكري أمي قديم ، لا يدرى من القراءة والكتابة شيئاً ، وقد بلغ من السن عتياً ، وليس له من الشهرة سوى أنه ولع في أواخر أيامه ولعاً سيئاً باضطهاد الأريوسيين . ومولد جستين في قرية توريزيوم القرية من إيسكوب الحالية ، بإقليم إيليريا القديم ، وهو الإقليم البلقاني الذي بقيت اللاتينية فيه لغة التخاطب بين الناس دون أقاليم البلقان . ولذا نشأ جستين - الرقيق الأصل - عارفاً باللاتينية وصناعة البخندية التي مارسها ، جاهلاً بكل ما عدا ذلك من الأشياء . غير أنه عاش حتى صار إمبراطوراً دون أن يعقب ولداً ، فتنبى ابن أخت له من إقليم إيليريا كذلك ، واسمه جستينيان ، وهو رقيق النشأة مثله ، فجعله وريثاً له ، وعنى بتربيته وتعليمه على أحسن ما يكون أبناء الأباطرة من تربية وتعليم . ولم يلبث جستينيان أن أثبت جدارته بما بذله خاله الإمبراطور من عناية في تنشئته ، إذ دل على مقدرة خارقة ، مع الدأب والدقة في كل أعماله ، وتلك علامة من علامات القوة العقلية . ثم صار جستينيان الحاكم الفعلي في الدولة إلى جانب خاله الإمبراطور ، فكان يرى آناء الليل ككادا في قراءة الأضابير ،

مكبساً على دراسة التقارير . أو يرى وهو يذرع أبهاء القصر الإمبراطورى جثة
 وذهاباً كالطيف فى جنح الظلام . على حين نام جميع أهل القصر من
 الموظفين . وفى سنة ٥٢٧ م - أى بعد سنة واحدة من وفاة نيودوريك ملك القوط
 الشرقيين بإيطاليا - خلف جستنيان خاله على عرش الإمبراطورية البيزنطية .
 وهو فى الخامسة والأربعين من عمره . بعد أن حنكته تجارب الحكم . وصبرته
 الخبرة بشئون الدولة . على أن خبرة جستنيان لم تقتصر على شئون الدولة وأمور
 الحكم فحسب . بل تعدتها إلى أحوال الناس بالقسطنطينية . حيث ألقى به
 العيث قبل اعتلائه العرش الإمبراطورى إلى مختلف الأحياء والبيوت . وأدى به
 البحث عن زوجة فى أزقة تلك الأحياء وأساخها إلى العثور على امرأة دلت على
 أنها جوهرة غالية . تلك هى الإمبراطورة نيودورا . التى كان أبوها قبرصياً
 يشتغل بترويض الدببة للمعب القسطنطينية . وكانت هى قبل زواجها من
 جستنيان ممثلة وعاهرة كذلك . عركتها كثرة الرحلة وكثرة الشقاء . حتى
 جمعت فى شخصها كل صفة من الصفات التى تلتصق بمهنتها وتجاربها .
 مما تشمئز منه نفوس الناس . غير أن تلك المرأة التى حيكت حول اسمها
 آلاف المخازى . وعرفت بعنف التزوة وحب الانتقام . برهنت على أنها على
 جانب من النبل . فضلاً عما اتصفت به من الجمال والذكاء والشجاعة
 والسياسة والحنان . وآية ذلك كله موقفها من ثورة نيقا سنة ٥٣٢ م . حين
 صارت القسطنطينية ذات يوم فى أيدي الثائرين على جستنيان وسياسته
 المالية . وأيد الإمبراطور ومستشاروه فكرة الحرب من العاصمة . فتقدمت
 نيودورا وأنفذت عرش زوجها بقولها مخاطبة جستنيان : « أيها الإمبراطور !
 إذا أردت أن يمد فى عمرك . فعليك بالحرب . وأمره يسير . فهناك سفنك ،
 وهناك البحر . ولكننى أرجوك أن تذكر إذا فزت بالحرب . ولذت بالنتي .
 أن سوف تقول طوال حياتك الطويلة : ياليتنى مت قبل هذا ! أما أنا فلن
 أحميد عن المثل القديم الذى يقول بأن العبادة الإمبراطورية خير الأكفان » .
 ولم تقل تقوى تلك المرأة عن شجاعتها . إذ يرجع الفضل فى إنشاء أول بيت
 فى أوربا لإنقاذ النساء الساقطات إلى هذه المرأة الساقطة . التى شاركت

زوجها عرشاً إمبراطورياً ، وأسهمت في سياسة الإمبراطورية بسهم كبير ،
مدة إحدى وعشرين من السنين .

ودار محور السياسة الإمبراطورية منذ أوائل عهد جستنيان حول إعادة
الدولة الرومانية سيرتها الأولى في الغرب ، ومن أجل ذلك المشروع عقد
الإمبراطور صلحاً سنة ٥٣٢ م ، مع أنوشروان - وهو كسرى الأول -
ملك الفرس ، بعد ثلاث سنوات من الحروب الساجلة بين الدولتين البيزنطية
والفارسية . وبذا استطاعت القوات الإمبراطورية أن تتحول إلى الغرب ، حيث
بدأ جستنيان مشروعه بإنفاذ جيش تحت قيادة صديقه بليزاريوس - الذي
دل على مقدرة عسكرية فائقة في ثورة القسطنطينية والحروب الفارسية -
لطرط الوندال من إفريقية . وأتم بليزاريوس مهمته في معركتين حاسمتين
بالقرب من قرطاجة ، عاصمة الوندال الأريوسيين الذين أفرغت أساطيلهم
غرب البحر الأبيض المتوسط ، فلم تقم لهم بعد ذلك قائمة ، وعادت إفريقية
اسمياً على الأقل إلى تبعيتها الرومانية ، كما عادت إلى حظيرة الكاثوليكية .
غير أن ما دار بخلد جستنيان من احتمال انتشار السلام الروماني بين ربوع
أفريقيا الشمالية لم يلبث أن كذبت له الحوادث ، إذ هب أهل البلاد الأصليين
من المغاربة الذين دوخوا الوندال من قبل ، وأخذوا يناوئون السلطات الرومانية
الجديدة ، حتى سقطت الأقاليم الغربية في أيديهم ، ولم يستطع الرومان
أن يطمئنوا على ما بقي تحت حكمهم إلا بعد حربين طويلتين ، امتحنت
في أثنائهما مقدرات الأفذاذ البارزين من قادة الإمبراطورية .

وكيفما كان الأمر ، بدا للمعاصرين أن الإمبراطور انتصر انتصاراً
مبيناً فاق الحسابان ، إذ استطاع بليزاريوس في حملة لم تستغرق سوى ثلاثة
أشهر أن يمحو دولة من دول الجرمان الأريوسيين من عالم الوجود ، وليس من
المستحيل عليه إذا توافرت لديه الوسائل والأسباب ، وصحت عنده العزيمة للخدمة
الدولة بما أوتى من موهبة حربية وقوة : أن يقوم بمثل ما قام به ضد الوندال .
فيقضى على دولة أخرى من الدول الجرمانية . ولذا هدف مشروع جستنيان
إلى دولة القوط الشرقيين بإيطاليا ، ولا سيما بعد أن فقدت تلك الدولة أحد

حكامها القادرين بمقتل الملكة أما لاثونسا ابنة ثيودوريك العظيم ، على يد الملك القوطى تيوداهات . الذى تزوجته الملكة لتستعين به على شئون الحكم فى إيطاليا بعد وفاة زوجها الأول ، فلم تلق منه إلا الوبال والموت الزؤام ، لأنها كانت معجبة بالمدنية الرومانية ، متصلة سرا بالبلاط الإمبراطورى فى القسطنطينية أشد الاتصال . ووجد جستنيان من ذلك الحادث ذريعة مواتية لتنفيذ ما انعقدت عليه نيته قبلما من غزو إيطاليا . فأنفذ بليزاريوس فى سبتمبر سنة ٥٣٥ م إلى صقلية ، على رأس جيش صغير عدته ٧٥٠٠ مقاتل .

وتلا ذلك نضال ظل ثمانى وعشرين سنة بين الإمبراطورية والدولة القوطية ، تناوب الرومان ثم القوطيون خلالها النصر . وانتهى الأمر برجحان الكفة الرومانية ، إذ تغلب بليزاريوس أولاً بمهارته على الرغم من قلة ما لديه من الجند ، فسقطت صقلية فى يده دون قتال أو ما يقرب من ذلك ، وسلمت له نابولى بعد حصار ، حتى إذا وصل إلى روما وجدها خالية مما يحميها ، فاستولى عليها واستطاع أن يصامد فيها سنة وتسعة أيام ضد الجيش الهجمى الكبير الذى زحف به الملك وتحبيس القوطى لمهاجمته : وكل ذلك بفضل براعته فى حركات القتال ، واستعاضته عن قلة الجند مهارة الخيالة الثقيلة المزودة . والسيطرة على البحر ، والحذق فى استخدام الرماة الراكبة ، حتى بدا كأنه حطم مقاومة عدوه تحطيماً تاماً سنة ٥٤٠ م ، ولا سيما بعد أن أسر وتجيس . وسقطت رافنا فى أيدي الإمبراطوريين . وعاد جنوب إيطاليا وأقاليمها الوسطى إلى حظيرة الإمبراطورية . ثم دار الحظ دورته ، بعد أن خيل للإمبراطور أن الدولة القوطية أمست فى خبر كان ، وبعد أن عاد القائد الرومانى مكللا بغار النصر إلى القسطنطينية . ذلك أن القوطيين وجدوا بين صفوفهم زعيماً موهوباً اسمه توتيللا ، وهو شاب جسور مغامر على جانب من المروءة والإنسانية ؛ فاخترأوه ملكاً سنة ٥٤١ م ، واستطاعوا بفضل قيادته أن يستردوا جميع إيطاليا ما عدا رافنا وأنكونا من الإمبراطوريين ، وأظهروا من صفات المروءة والحيلة ما كان جديراً بإقناع إمبراطور أقل صلابة من جستنيان بضرورة الرضا بالصلح والسلام .

وعرض توتيلا الصلح على الإمبراطور أكثر من مرة . وتمنى تحقيقه على يده . لأنه أراد - كما أراه أودواكر من قبل - أن يحكم إيطاليا على قاعدة التبعية للإمبراطورية ، ولو تطلب ذلك دفع جزية سنوية . غير أن جستنيان تغى الحرب والفتح والنصر . وبعث قائده نارسيس - وهو خصى أرمنى متقدم السن . معروف بالمقدرة الحربية والدراية السياسية - على رأس جيش كبير عدته خمسة وثلاثون ألف مقاتل . لتحقيق تلك الغاية . فهزم نارسيس ملك القوطيين عند قرية جوالدو تادينو في إقليم أمبريا ، بفضل استخدام فئات من الرماة المشاة مع الزراقين في وقت واحد في أثناء المعركة ، وهي الطريقة التي استخدمها الإنجليز استخداماً ناجحاً فيما بعد ، ضد الخيالة الفرنسية في العصور الوسطى . وتعقب نارسيس فلول القوطيين وهم يفرون من هول الهجوم . فسقط توتيلا صريعاً وهو يحاول الفرار . ولم يمض إلا إحدى عشرة سنة حتى سلمت بقايا الجيش القوطي الباسل إلى نارسيس مدينتي بريشيا وفيرونا . وهما آخر معاقلهم وحصونهم ، بعد أن تعرضت إيطاليا لأهوال الغزو والتخريب من ناحية الفرنجة والأليمانى والبرجنديين .

وتحملت إيطاليا في أثناء ذلك النضال الطويل المريع ألواناً من الخراب الذي ليس بعده خراب ، لأن جيوش بليزارديوس ونارسيس لم تكن رومانية إلا اسماً فقط . بل اعتبرها الإيطاليون - وهم رومانيون أصليون - أكثر أجنبية عنهم من جند القوطيين الذين استقروا بإيطاليا ، وسكن إليهم أهلها نصف قرن من الزمان . يضاف إلى ذلك إمعان الفريقين في المذابح والمقاتل بين بعضهم بعضاً ، وأشهر هذه المذابح إبادة القوطيين والبرجنديين سنة ٥٣٩ م جميع الذكور من سكان مدينة ميلان ، وعددهم ثلاثمائة ألف نسمة في تقدير المؤرخ پروكوبيوس . ولدينا صور تدل - برغم ما فيها من مبالغة - على ما نزل ببقاع إيطاليا من بؤس شنيع ، كما تدل على زوال أعداد هائلة من السكان ، واضطرار الفلاحين إلى العيش على ثمار القسطل والحشائش . فضلاً عن أكل لحوم البشر في بعض الأحوال . أما روما التي تحملت آلام الحصار خمس مرات في تلك الحقبة ، فلم تقم لها قائمة بعد ذلك النضال ،

إذ اختفت العاصمة الصاخبة ، واندثرت الحمامات العامة الفخمة ، وذهبت مراكز توزيع الأغذية بالمجان ، وصمتت الملاحى الشعبية . وحل محل ذلك كله مدينة حزينة كثيفة ، ليس بها من أهلها سوى فئات معظمها من رجال الدين ، تعلوها غبرة من شدة ما نزل بها من الفقر ، ولا عمل لها إلا السير فى غير عمل بين آثار العظمة الرومانية الخالية . وظلت روما من ثمَّ مدينة تحيطها أراضٍ سيخة خربة ، وتغشاها المياه الآسنة والملازيا ، طوال العصور الوسطى ، ولم يعد لمجلس الشيوخ (السناتو الرومانى) وجود ، ولم يبق من ملعب السباق إلا آثاره من العمد والأحجار ؛ وانتهت أيام المواكب الحربية والاحتفالات بمقدم المنتصرين على أعداء الدولة بأشنتات الأطراف الإمبراطورية ، كما انتهت أيام انتخاب القناصل ، وما امتلأت به من نشاط وسهر على شئون الحكم . يضاف إلى ذلك أن التجارة باتت معدومة . وأن الوخامة خيمت على روما ، منذ هدم القوط سقاياتها وقنواتها المرفوعة التى أمدتها بالمياه كأحسن ما تفخر به مدينة فى العصر الحاضر .

أما الإمبراطور جستنيان ، فلم يزد توفيقه فى الاستيلاء على إفريقية وإيطاليا إلا طمعاً فى الفتح ، ومصدّق ذلك قوله : « إن الله هيا لنا أن نعاهد الفرس على الصلح ، وأن نخضع الوندال والألباني والمغاربة (أهل شمال أفريقيا) ، وأن نسترد جميع إيطاليا وصقلية ، وليس لنا إلا أن نستعين بالله ليهبنا بقية الإمبراطورية التى مدها الرومان فى سالف العصور إلى أطراف البحار ، ولم يذهبها عنهم سوى البلادة والحمول » . غير أن تحقيق تلك الأطماع الواسعة لم يكن فى طاقة جستنيان ، أو طاقة الوسائل التى تحت يده ، لأن الاحتفاظ بإفريقية وإيطاليا ، وبإسبانيا التى نجحت إحدى حملاته الحربية فى الاستيلاء على بعض موانئها ، غداً أمراً مستحيلاً ، فضلاً عن استحالة البدء فى استرداد غاليا وبريطانيا ، وهو مما يحتمل أن فكر فيه كذلك جستنيان . ثم إن سياسة اقتلاع القوط من إيطاليا أدت إلى كارثة هائلة ، وكان أحسن منها وأنفع لإيطاليا نفسها - ولشبه جزيرة البلقان معها - لو عمل الإمبراطور على مصادقة أولئك الجرمان البُسَل ، ليدراً بهم أخطار العناصر الممجية

الضاربة فيما وراء جبال الألب . وأوضح ذلك قائد قوطى حين قال لبلليزارىوس « دأبنا نحن القوطيين على مراعاة قوانين الإمبراطورية وتقاليدها ، فى إخلاص لا يقل عن إخلاص الأباطرة السالفين ، فلم يصدر الملك ثيودوريك أو أحد ممن جاء بعده من الملوك قانوناً جديداً ؛ واحترمنا المعتقدات الرومانية كل احترام ، فلم نحمل إيطالياً واحداً على اعتناق المذهب الأريوسى ، ولم نطلب إلى قوطى تكثلك أن يرجع إلى الأريوسية ؛ واحتفظنا بكل الوظائف المدنية للإيطاليين » والواقع أن المملكة التى وقفت من الروح والتقاليد الرومانية هذا الموقف الحميد استأهلت لأن تصبح زعيمة بإنفاذ إيطاليا من سلسلة الحروب الطويلة والفتن الداخلية التى تعرضت لها بلادها المنكودة طوال تاريخها منذ القرن السادس الميلادى ، إذ كان فى استطاعة القوطيين أن يجعلوا من أنفسهم ومن صفاتهم الحربية والسياسية حمى لشبه الجزيرة ، بعد أن ذهبت تلك الصفات عن أهلها الأصليين منذ قرون . ومن هنا تتضح جسامة الغلطة التى انتهت بالقضاء على القوط الشرقيين ؛ فلو أنهم ظلوا وشأنهم لما حدثت الغزوات والفتوحات اللومباردية فى شمال إيطاليا ، ولما قامت الدولة البابوية فى روما . ولما أحييت الإمبراطورية الرومانية فى الغرب ، بل ربما تحققت الوحدة السياسية الإيطالية على أيديهم فى القرن الثامن الميلادى .

ثم إنه لو استطاع جستنيان أن يقيم حكومة قوية فى إيطاليا لثم له استئصال شأفة القوط ومملكتهم ، مع اجتناب ما ترتب على ذلك فعلا من وخيم العواقب . غير أن الذى حدث فعلا أن أرخون رافنا — وهو النائب الإمبراطورى بإيطاليا — لم يسيطر فى وقت من الأوقات على جميع البلاد ، ولم يستطع أن يحمى حدودها ألينة من هجمات الأعداء ؛ فانتال اللومبارديون — وهم آخر موجة من الموجات الجرمانية المتدفقة على الإمبراطورية الرومانية — وامتدوا إلى إيطاليا بقيادة ملكهم ألبوين ، ولم يلبثوا أن دقوا أوتادهم فى البلاد سنة ٥٦٨ م . ومع أن الموضوع هنا لا يفيد من وصف أولئك المتبربرين الأريوسيين فى تلك المرحلة الأولى من تاريخهم ، فلا بأس من الإشارة إلى مشابهمهم سائر إخوانهم الجرمان ، من حيث القابلية للنظام والحياة الوادعة . ولو كان حماة

العواصم والثغور الإيطالية وقتذاك من القوط ، لانحرف أولئك اللومبارديون إلى شبه جزيرة البلقان ، ولو حدث ذلك إبان القرن السابع الميلادي ، لتغير وجه التاريخ تغيراً تاماً ، ولأصبحت أغلبية السكان بشبه جزيرة البلقان من الجرمان .

أما الإمبراطورية التي وقفت جميع جهودها لتحقيق أطماع جستنيان الحربية في الغرب ، فلم تكن بنجوة من مختلف الأخطار والإهانات في ميادين القتال . ففي عهد جستنيان بالذات كاد الهون أن يستولوا على القسطنطينية ، واستولى الصقالبة على أدرنة فعلاً ، كما نهب الفرس مدينة أنطاكية ، وبدأت الإمبراطورية عاجزة عن حماية قرية واحدة من قرى شبه جزيرة البلقان من عبث البرابرة ، مع استعدادها لإرسال جيش بقضيه وقضيضه إلى إسبانيا ، وتفكير الإمبراطور في مشروعات ضخمة لغزو غاليا وبريطانيا . هكذا كانت حال الإمبراطورية على عهد جستنيان ، ومعنى ذلك أنه على حين تطلب الوضع السياسي تركيز ما هنالك من قوة ونشاط في حماية الأطراف القريبة من ناحية الشرق وشبه جزيرة البلقان ، عمد الإمبراطور إلى صرف الأموال الطائلة لتحقيق مشروعاته البعيدة التي أخسرت الدولة - إذا صدق تقدير المؤرخ بروكبيوس - عشرة ملايين من الناس في إفريقية وإيطاليا فقط . والحاصل أن جستنيان مات سنة ٥٦٥ م . بعد أن بلغ من العمر ثلاثة وثمانين عاماً ، وأنه ترك الإمبراطورية أفقر حالاً ، وأضعف نفراً ، وأقل رومانية ، مما كانت حين اعتلى عرشها ثمانية وثلاثين عاماً قبل ذلك التاريخ .

ويبدو أن تيودورا القبرصية اليونانية فهمت عن الوضع السياسي ومقتضياته أحسن مما استطاع زوجها اللاتيني الثقافة أن يفهم عنه ، إذ أدركت أن قوة الإمبراطورية الشرقية - في وضعها الجغرافي - تتركز إلى مقدار ما تستطيع أن يكون لها من السيطرة على موارد آسيا الصغرى وسوريا ومصر ، وأنه مهما اتفق لها من الفتوح في الغرب ، فلن تعوض تلك الفتوح عن فقدان الأناضول وأهله ، ومصر ومحاصيلها الزراعية ، وسوريا وثروتها من المال والرجال . على أنه من الخطأ أن ننسب سوءات ذلك العهد إلى أغلاط السياسة الإمبراطورية ،

إذ دل جستنيان في معظم الأحوال على سداد تفكير وحسن تقدير لمشكلات عهده ، كما عالج تلك المشكلات في كثير من الشجاعة والخيال السليم ، فقرر بعد أن خبر بنفسه عجز المتبربرين في فنون الحصار أن يبني سلسلة من القلاع والحصون والخطوط الدفاعية ، على طول أطراف ممتلكات الإمبراطورية في آسيا وأوروبا . وحين أضحي لإعداد الجيوش بحاجة إلى كثير من التكاليف والأموال ، وغدت الأموال عسيرة المنال ، لجأ جستنيان إلى أصناف الحيل التي تستطيعها الديبلوماسية لتلوية أعدائه ، أو لتفريقهم . أو للقضاء عليهم إذا استطاع إلى ذلك سبيلا ؛ فدفع لبعضهم جزية سنوية . وسلك بعضهم الآخر في جيشه جنوداً محالفين ، أو بالغ في إكرامهم وإتحافهم بالهدايا الغالية . ومن الأمثلة التطبيقية لتلك الوسائل أنه حرك اللباردين ضد الجبيدائي ، وثار الآفار ضد الهون ، كما أنه بث المبشرين اليونانيين في مختلف أنحاء البلاد الوثنية .

وعلى الرغم من ذلك كله ، لم تستطع الإمبراطورية إلا أن تنجح إلى الانحلال جنوباً مضطرباً ، وهي الإمبراطورية التي ملأ جستنيان أرجاءها بأخبار الفتح والنصر ، وأضاء أركانها بمشاعل المجد والفخار في السنوات الأولى من حكمه . أما أسباب ذلك الانحلال . فيرجع بعضها إلى عوامل طبيعية بحتة ، مثل الطاعون الكبير الذي قيل إنه أفنى ثلث عدد السكان سنة ٥٤٢ م . ومثل ما طرأ على قوة الإمبراطور جستنيان من كلال ووهن أثناء العقدين الأخيرين من حياته الطويلة ، فضلاً عن عامل ثالث غير طبيعي ، وهو في الواقع أبعد أثراً وأدعى إلى الخور والانحلال في الإمبراطورية . وخلاصته أن جباة الحكومة وعمالها الماليين كانوا زمرة من المختلسين ، فلم يصل إلى خزائن الدولة من حصيلة الضرائب التي ابتزها أولئك الغشاشون من الرعية إلا ثلثها فقط . ويبدو أن ذلك الشر لم يرج منه شفاء ، إذ عالج جستنيان اختلاسات جباة بمختلف القوانين دون فائدة أو جدوى طوال عهده الذي بدا مبشراً بزاهر الآمال . وسار مكللاً بفخار الأعمال ، ثم انتهى في جو من اللوم القادح والسخط الشديد على إمبراطور هو في الحقيقة من عمالقة التاريخ الأوروبي .

والواقع أنه ليس في التاريخ الأوربي إلا الأفلون من يذكرون بأعمالهم مثلما يذكر الإمبراطور جستنيان ، الذي يرجع إليه بناء كنيسة أيا^(١) صوفيا ، وترتيب سلسلة الشرائع الرومانية ، أي القانون (Codex) ، وشرح الأحكام (Digest) . وأصول القانون (Insitutes) والمتجددات (Novellae) وهي السلسلة التي انتقل بفضلها التراث الروماني إلى الأجيال عبر القرون . ووصف المؤرخ بروكبيوس المنشئات الكنسية والعمائر البلدية والحربية الكثيرة التي جهد جستنيان في تشييدها . لتأمين إمبراطوريته وتجميل مدنها ؛ وإلى ذلك المؤرخ وأسلوبه الرائع يرجع الفضل في معرفة أخبار الحملات الحربية التي قام بها سيده بليزاريوس .

وإذ تهدم كثير من تلك المباني ، فلا يزال من بقاياها القليلة بأوربا ؛ والأقاليم الآسيوية المحاورة ، ما يقنع العابر عليها بعظمة جستنيان وجبروته ؛ ومنها حوائط السيفساء الذائعة الصيت بمدينة رافنا . وكنيسة أيا صوفيا الشهيرة بقبتها السامقة في سماء القسطنطينية الجميلة ، وهي القبة التي فاقت روائع المهندسين المسلمين ، وتحدث بأسرار بنائها أكبر عبقريتهم في فن المعمار . وأثر ترتيب القانون الروماني وتبويبه على عهد جستنيان تأثيراً مباشراً متصلاً في أقاليم الدولة بآسيا ، وأفريقيا ، وشرق أوربا ، والأقاليم الإيطالية التي بقيت تحت السيادة البيزنطية . أما تأثيره في غرب أوربا فلم يظهر إلا بعد تأسيس معهد الدراسات القانونية^(٢) الشهير بمدينة بولونيا بشمال إيطاليا ، أواخر القرن الحادي عشر الميلادي . فن ثم صارت دراسة القانون الروماني المدني - حسبما أصدره جستنيان - عاملاً نشيطاً تصعب المبالغة في تقدير أهميته وأكثر نضجاً مما أنتجته أوربا الغربية أوائل العصور الوسطى ، ودلل على أن ذلك المجتمع الناضج تولدت عنه أفكار واضحة في الملكية الخاصة والتملك .

(١) أيا لفظ يوناني الأصل معناه القديس أو القديسة ، وهو مستعمل في معظم اللغات الأوروبية في صورة معدلة مركبة بالإضافة إلى غيره ، مثل لفظ (Hagiology) ومعناه دراسة سير القديسين ، وربما جاء اللفظ العربي حاج من هذا الأصل اليوناني . (زيادة) .

(٢) هذا المعهد هو النواة التي نبتت منه جامعة بولونيا . انظر الفصل الخاص بنشأة الجامعات الأوروبية في العصور الوسطى ، وعنوانه الحركة الفكرية والحركة الديرية ، فيما يلي هنا . (زيادة) .

والحقوق العائلية ، ونظرية العقد ، واعتبار القانون أداة معقولة مفهومة موافقة لحاجات الإنسانية على وجه الإطلاق ، وذلك لأن الدولة العظيمة التي تمتد معاملاتها التجارية إلى مختلف البلاد تحتاج إلى تخريج قانون صالح لمعالجة أشنات المسائل الناجمة عن تنوع النواحي في حياتها الاقتصادية العامة . وصفوة القول أن القانون الروماني كان وثيق الصلة بالراهن الواقع ، برغم تأثره بالفلسفة . فلم يبن على التشريع بقدر ما بنى على العرف والعادة وأقوال الفقهاء في الرد على قضايا حقيقية وخيالية . وهكذا وجدت أوروبا الغربية ، حين انجابت عنها ظلمة العصور الوسطى في القرن الثاني عشر الميلادي ، وتكشفت لها مجموعة القانون المدني الذي رتبته جستنيان . أنها أمام بناء شامخ هو المدنية الأوروبية التي كانت ، والتي سوف تكون .

غير أن ذلك كله من طي المستقبل الأوروبي بعد العصور الوسطى . وهو لذلك خارج عما نحن بصددده ، أي الدولة الرومانية الشرقية بعد جستنيان أواخر القرن السادس الميلادي . حين استمدت الحياة العقلية في الدولة من الروح الكنسية واللاهوت ، لا من روح القانون ، لأن مجتمع نيقية المسكوني^(١) لم ينجح في إفهام العقل اليوناني سرّ عقيدة التجسد . ولأن عدة من المسائل المتفرعة على ذلك السرّ العميق ثارت في بعض الرعوس المفكرة ، وأثارت بين أصحابها أقسى ألوان التعصب والمباغضة ، لاختلاطها بما كان بين المدن المسيحية الكبرى وقتذاك من مفاضلة وتنافس على مركز الصدارة في العالم المسيحي ، ولا رتباطها بميول الشعوب المسيحية المختلفة . ذلك أن مجمع نيقية أقر ألوهية المسيح ألوهية تامة ، ولكنه أجل إلى فرصة أخرى تقرير المسألة الدقيقة الخاصة بكنه الرابطة بين الطبيعتين الإلهية والبشرية في المسيح . وهل للمسيح طبيعة واحدة أو طبيعتان ؟ هل كانت مريم أمماً للمسيح من حيث طبيعته البشرية فحسب ، أو أمماً للمسيح من حيث طبيعته البشرية والإلهية كذلك ؟ والواقع أنه لم يكن في القرن الخامس الميلادي مسألة اشتد الجدل حولها مثلما اشتد حول مسألة الطبيعة الواحدة والطبيعة المزدوجة في المسيح ، أو حول الصيغة التي يمكن التعبير بها عن

(١) انظر ما سبق ، ص ٢٣ ، وكذلك ما يلي هنا .

اتحاد الطبيعتين تعبيراً دقيقاً . وبقيت تلك الحركة الجدلية أمداً طويلاً بعد وفاة رجلها الأصليين ، وهما كيرلس الإسكندري ونسطورس القسطنطيني . فأثرت في مناقشات المجامع الكنسية الأربعة التي كان آخرها مجمع خلقدونية سنة ٤٥١ م ، وظلت تسم العقول بين أهل البلاد الشرقية ، حتى بعد أن قرر ذلك المجمع بتأثير البابا والإمبراطور عقيدة الطبيعة المزدوجة . وترتب على ذلك أنه صار لازماً على كل إمبراطور من أباطرة القسطنطينية بالغة ما بلغت حماسته نحو العقيدة الخلقدونية - أن يحسب حساب الجماعات القوية التي بقيت على عقيدة الطبيعة الواحدة وهم المونوفيزيتون من أهل القسطنطينية ومصر والشام والعراق . وحاول فريق من الأباطرة دعوة الناس إلى صيغ ثلاث بين العقيدتين ، مثل صيغة « التوفيق » الشهيرة في تاريخ المسيحية الأولى ، ولجأ فريق آخر منهم - مثل الإمبراطور أنسطاسي - إلى التسامح ، لأنه لم يكن من الحكمة السياسية والاستطاعة أن يقف أحد منهم موقف المتجاهل لمسألة طالما هددت بتمزيق الإمبراطورية ، وأدت إلى صخب الشعب في ملعب السباق بالقسطنطينية .

غير أن جستنيان عاش متزمتاً متعصباً لعقيدة الطبيعة المزدوجة ، وينبغي أن يذكر ضده أنه لم يغلق مدارس أثينا ويخمد صوت الفلسفة في العالم لإغريق فحسب ، بل إنه قضى الأعوام الأخيرة من حياته في جدل ديني عقيم ، وقمع سائر المذاهب الدينية المخالفة للعقيدة الخلقدونية . أما الإمبراطورة تيودورا الجميلة ، فأعلنت ما لها من آراء مستقلة في المسائل الدينية ، وبدأت ميولها مع المونوفيزيين . كما بدأت عواطفها شرقية ، وبصيرتها السياسية الثاقبة في جانب الاتفاق الديني مع المونوفيزية التي استطاعت أن تتحدى الاضطهاد ، وتستهيو الشعوب الشرقية أعظم استهواء . وأنصت جستنيان لنصائح زوجته ، فأجاز للمونوفيزيين قدراً محموداً من التسامح ، كما حمل البابا فيجيليوس على استنكار عدد من القرارات التي سبقت المصادقة عليها في مجمع خلقدونية البغيض للمونوفيزيين ، وذلك في مجمع عقد خصيصاً بالقسطنطينية سنة ٥٥٣ م ، وكان جستنيان حكيماً في محاولته هذه ابتغاء رتق الشقوق التي أحدثتها المونوفيزية

بالنصف الشرقى من إمبراطوريته ؛ غير أن تلك الشقوق ظلت تتسع اتساعاً مضطرباً ، فأضعفت روح الولاء نحو القسطنطينية ولا سيما فى مصر والشام . ومهدت الطريق -- فيما يظهر -- لفتح الإسلام . كما أنها ثبتت على مر الأيام ، حتى إن الكنيسة القبطية الحالية فى مصر لا تزال تقوم على صخرة العقيدة المونوفيزية القديمة .

والحاصل أن المقادير أتاح لجستينيان مسرحاً هائلاً ، حدوده أطراف الإمبراطورية الرومانية الشرقية فى القرن السادس الميلادى . ليعرض فى شخصه لإعجاب معاصريه صورتين لم يسبق امتزاجهما بعضهما إلى بعض فى زمن من الأزمنة ، وهما الاستبداد الرومانى والجبروت الكنسى . وكان جستينيان — على قول أجاثياس المؤرخ — « أول من دل بأقواله وأفعاله دون جميع أباطرة الدولة الرومانية أنه إمبراطور » ؛ غير أن إمبراطوراً طفحت دخيلته بالغيرة ، وامتلاً رأسه بالغرور ، واتصفت أخلاقه بالتردد — وهو مع ذلك لا يتهيب الدخول فى مشروع مهما عظم ، ولا يستصغر عملاً من أعمال الإدارة مهما صغر . ولا يستهين طيرة مهما هانت ، ولا يعتبر أمراً بعيد المنال مهما بعد — لا يستطيع أن يثير الإعجاب فى نفس أحد . ذلك أن جستينيان يبدو للرائى عبر القرون كأنما نقصته لمهبة العالية فى شئون السياسة والحكم . وافتقرت عزيمته إلى شيء من المضاء . كما حاجه الكثير من حسن التقدير . وأعوزته المقدرة على المضى فى أمر لم يرقه . وهذا برغم ما عرف عنه من مهارة غير محدودة ، وصبر على العمل فى غير كلاله أو ملل . ومع هذا فلم تبلغ شخصية تلك حالها — من خيرة الصفات وتناقض الأخلاق — مثلما بلغ جستينيان فى التاريخ من عظيم المقام ، ويخيل إلينا ونحن نطوى القرون القهقرى إلى جانبه ، كأنما نرى أستار الليل تجر أذيالها على غسق قان فى مغرب روما والإمبراطورية الرومانية القديمة .

بعض المراجع لهذا الفصل

- Baynes, (N.H.) : The Byzantine Empire, 1926.
- Bury (J.B.) : History of the Later Roman Empire. 2 vols., 1889.
Cambridge Mediaeval History, Vol. IV.
- Dalton (O.M.) : Byzantine Art and Archacology, 1911.
- Diehl (C.) : Une République Patricienne, Venise, 1915.
- Diehl (C.) : Byzance, Grandeur et Décadence. 1919.
- Diehl (C.) : History of the Byzantine Empire, Trans. G.B. Ives, 1925.
- Holmes (W.G.) : The Age of Justinian, 2 vols., 1905-1907.

الفصل الرابع

الإسلام

عصر الجاهلية في بلاد العرب — الفتوح العربية في القرن السابع
الميلادى — محمد رسول الله — حياته وتعاليمه — قيام الحضارة الإسلامية
وتقدمها — المتصوفة في الإسلام — السنة والشيعه — دفاع ليو
الإيسورى وشارل مرتل عن أوروبا ضد الإسلام .

يبلغ التاريخ الأوربي هنا نقطة يصبح من بعدها مختلطاً أشد الاختلاط
بقصة الفتوح الإسلامية ، مع أن بلاد العرب لم تدخل قبل ذلك — أى
مدة القرون الستة الميلادية الأولى — في حسابان أحد من رجال السياسة الحكم
في أوروبا ، إذ بقيت بلاداً يكتنفها الغموض ، لا يعرف عنها سوى أن أهلها
يتعاطون قليلاً من التجارة مع الشام ومصر ، وأن أبناءها يمارسون الجندية
مرتزقين في الجيوش الفارسية والبيزنطية . وفيما عدا ذلك بدت بلاد العرب
في نظر الناس أشبه شيء بالقفور المتجمدة في أقصى الشمال الأوربي ،
من حيث البعد والجذب ، ولم يدر بخلد أحد أن تلك الصحراء اللافحة
تستطيع أن تحدث أمراً يمكن أن تتأثر به أساط دمشق والإسكندرية .
ذلك أن المجتمع العربي لم يزل وقتذاك في المرحلة القبلية ، ولم يكن من المظنون
أن في استطاعة أهل البادية إلا أن ينهب بعضهم بعضاً ، وإلا أن يقتل
بعضهم بعضاً إلى يوم يبعثون ؛ ولم يكن ثمة أثر لدولة عربية أو جيش
نظامى أو هدف سياسى عام ، بل كان أقصى ما يقال إن العرب شعراء
أرباب خيال وطعان وتجارة ، لا أرباب سياسة وسلام واستقرار ، وأنهم
لم يجعلوا من الدين أداة للوحدة السياسية أو الحياة التنظيمية ، بل اتخذوا
نوعاً من تعدد الآلهة ديانة بلغت من الوضاعة بحيث تحدّوها من بينهم بعض
ذوى العقول الذين اهتموا إلى شيء من مبادئ المسيحية واليهودية . ففي مكة ،

وهي البلدة التجارية الرئيسية التي لا تبعد عن البحر الأحمر - طريق المواصلات العالمية وقتذاك - سوى خمسين ميلاً ، عبد العرب حجراً أسود في موضع اسمه الكعبة ، أى المكعب^(١) ، هذا وأشباهه من المعبودات هو أقصى ما عرف الناس عن بلاد العرب وأهلها ودياناتهم أوائل القرن السابع الميلادي ، حين أوشك إمبراطور الدولة البيزنطية هرقل على الانتهاء من حروبه ضد الدولة الفارسية ، أى سنة ٦٢٩ م .

غير أنه لم يمض قرن بعد تلك السنة حتى أسس أولئك العرب البدو المغمورون لأنفسهم دولة عالمية عظيمة ، إذ فتحوا الشام ومصر ، وتغلبوا على فارس . وحولوا أهلها إلى الإسلام ، كما سيطروا على تركستان الغربية وجزء من البنجاب ، وانتزعوا أفريقية من البيزنطيين والبربر ، واستولوا على إسبانيا من القوط الغربيين ، بل هددوا فرنسا في الغرب والقسطنطينية في الشرق . وغزت أساطيلهم التي بنيت بالإسكندرية وموانئ الشام مياه البحر الأبيض المتوسط ، فأعملت الذهب في جزر اليونان ، وتحدثت الإمبراطورية البيزنطية وسيطرتها في البحار . وبلغ العرب ما بلغوا من النجاح في يسر وسهولة ، فهم يجدوا مقاومة شديدة إلا من الفرس في العراق وما وراءه من البلاد ، ومن البربر المقيمين في جبال الأطلس بشمال أفريقيا . وأخذ الناس يتساءلون أوئل القرن الثامن الميلادي عما إذا كان لقصة الفتوح العربية نهاية ، أو كان لأحد من المقدرة والقوة أن يقف في طريقها المظفر وقفه حاسمة ، بعد أن ذهبت سيطرة البيزنطيين على البحر الأبيض المتوسط ، وأمست الدول المسيحية الأوروبية وجهاً لوجه قبالة حضارة شرقية جديدة ، تقوم على عقيدة شرقية جديدة .

وهنا يبحث الباحث عن الأسباب التي أدت إلى انشغال الأمة العربية اتشياً دافقاً ليس في المعروف من أحوالهم دليل ، بل ليس له في المعروف من تاريخهم نظير سابق أو لاحق . من تلك الأسباب التي تواضعت الكتب على ترديدها ، أن العرب اندفعوا إلى أقصى الأرض بدافع من دياناتهم الجديدة ،

(١) هذا اللفظ ترجمة حرفية لكلمة (cube) في المتن . (زيادة) .

وأنتهم ركبو الصعاب ، وقطعوا الفيافي ، وخاضوا غمار المعارك ، وفتحوا ما فتحوا من البلاد — كل ذلك في سبيل الدين . غير أن ذلك السبب بالذات لا ينسجم مع الحقيقة المتداولة بأن الفاتحين لم يحفلوا كثيراً بتحويل الناس إلى الإسلام خلال السنوات الأولى من فتوحهم . والمعروف كذلك أن التوفيق رافقهم في كل أعمالهم ، بفضل سياسة التسامح التي اتبعوها مع اليهود والمسيحيين ، وأنهم دلوا بذلك على أحسن الأمثلة المضادة لما تدنس به من جاء بعدهم من صنوف الاضطهاد من أجل الدين . غير أنه إذا لم تكن الديانة هي المرجع الأول لتلك الحركة الهائلة ، فليس من المعقول أن يكون مرجعها خطة ثابتة مبينة التفاصيل ، بل المعقول أن العرب خرجوا من بلادهم دون أن يكون لديهم مشروع مفصل لفتح العالم وإنشاء الدول ، وأنهم قاموا قومتهم ، وأسسوا دولتهم ، كما أسس غيرهم لأنفسهم دولاً من قبل ومن بعد ، في غير خطة أو بصيرة ، وفي غير هدف واضح أو معلوم ، اللهم إلا الغنم عن طريق الغلبة والفتح والنصر^(١) . ومن الدليل على ذلك أنهم بدءوا أعمالهم بإنفاذ الغزوات والسرايا نحو فلسطين والعراق ، في وقت بدت فيه أطراف تلك البلاد لا تستطيع عن نفسها دفعاً ألبتة ، فلما وجدوا النصر سهلاً ، والغنيمة وافرة . امتدوا في إغاراتهم وأوسعوا في غزواتهم ، وحالفهم من التوفيق في هجماتهم أضعاف ما كانوا يأملون . ففي سنة ٦٣٦ م هزموا آخر جيوش الإمبراطور هرقل في وقعة اليرموك . واستولوا بذلك على الشام ؛ وفي سنة ٦٣٧ م دخلوا المدائن جنوبى بغداد الحالية . فدانت لهم بعدها بلاد الجزيرة ؛ وفي سنة ٦٣٩ م غزوا مصر ودخلوا الإسكندرية ، ولما بمحض على غزوهم وادى النيل سوى ثلاث سنوات ؛ وما إن كشفوا بذلك عن ضعف الإمبراطورية البيزنطية حتى عزموا على افتراض الفرصة واستغلالها . بأن تمسكوا بفتوحهم ، وأخذوا في مباشرة إدارتها والعمل على توسيعها . على أنه إذا سلمنا جدلاً بأن الدين لم يكن القوة التي تولدت عنها حركة العرب نحو مشارق الأرض ومغاربها ، فليس ثمة شك أن الدين أمدّها بقوة ذاتية أكسبتها الحياة

(١) هذه وجهة نظر غير منصفة ، والمؤلف نفسه لم يستطع أن يتركز على هذا العامل المادى وحده في شرح الفتح الإسلامية بل ارتكز إلى العامل الدينى في العبارات التالية . (زيادة) .

وإندوام . ولولا هذه القوة التى نشأت عن الرابطة الدينية الجامعة ، لافترق العرب
 عن التكتل الذى لا تحدث الانتصارات بدونهُ . ولا تَم وتكتمل إلا به ؛ ولولا
 ما سرى بين العرب من روحية متسامية عن مجرد الشهوة للحرب والغنيمة .
 لما استطاعوا أن يظفروا برضى الشّاميين والمصريين والفرس والبربر عن حكمهم .
 ثم إنه لا شك أن قسماً غير قليل من نجاح العرب فى فتوحهم وحروبهم
 إنما يرجع إلى ظهور دين جديد فى قلب بلادهم أشيع ما فى نفوسهم . ولا يزال
 يشيع نفوس الذين يعيشون تحت لفح السماوات الآسيوية والإفريقية ، وأن
 العرب كانوا لهذا الدين جنوداً مبشرين ومنذرين .

وظهر الدين الجديد فى الحجاز ، وهو الإقليم الأكثر تعرضاً للمؤثرات
 الأجنبية من بلاد العرب . بسبب اشتغال أهله بالتجارة ، واختلاف بعض
 الجاليات اليهودية والمسيحية بين حين وحين إلى بلاده ، ولا سيما مكة لكونها
 المركز الرئيسى للتجارة والحج . ثم يثرب لما كان بها من ممارسة للزراعة والحياة
 المستقرة ، وهى على مسافة مائتى ميل شمالى مكة .

وولد محمد . صلى الله عليه وسلم . بمكة سنة ٥٧١ م . من أسرة فقيرة
 من قبيلة قريش التى كان لها الإشراف على الكعبة . وفى شبابه دخل صلى الله
 عليه وسلم فى خدمة تجارية لخديجة ، وهى أرمل على جانب من الثراء والمال .
 تزوجها محمد فيما بعد . ومن الواضح أن عمله فى التجارة تطلب منه أسفاراً طويلة
 عبر الصحارى . وأن هذه الأسفار الطويلة يسرت له مخالطة الكثيرين من
 النصارى واليهود . فضلاً عما يسرت له من الخلوة إلى نفسه أياماً متتالية فى كثير
 من الأحيان . ولذا امتلأ عقل هذا الشاب العربى رويداً رويداً بأفكار
 دينية عالية وآراء أخلاقية رفيعة . حتى اهتدى إلى الوحدةانية . وتراءت له
 الحياة الآخرة . وما فيها من جنة للمتقين وجحيم لكافرين . حين يبعث الناس
 ليلقى كل منهم من النعيم أو العذاب جزاء ما قدمت يداه فى الحياة الدنيا .
 وجاءت آيات القرآن مصدقة لكل تلك التعاليم . فنشرها محمد صلى الله
 عليه وسلم بين صفوف قليلة العدد من إخوانه . ثم لم يلبث أن أذاعها فى دائرة
 أوسع قليلاً قليلاً ؛ فنارت بمكة النائرة ، وقال بعض رعمائها إن محمداً إما مجنون

أو ساحر ، أو شاعر مفتون . غير أن محمداً ثابر على نشر رسالته ، وظفر بكثير من المؤمنين به ، بفضل ما أظهر من قوة الحججة ، وما أُنذر به من عذاب للمكذّبين له ، فضلاً عما لديانة التوحيد من عظمة وروعة ، وما للدعوة إلى المحبة الأخوية والمساواة من أُنسر في القلوب . لكن إمعان المعنيين من أهل مكة في السخرية برسالة محمد حمّله سنة ٦٢٢ م على الهجرة من بلده التي ولد فيها إلى يثرب ، التي عرفت منذئذ باسم المدينة ، أي مدينة النبي ؛ تلك هي الهجرة الشهيرة التي يبدأ بها التقويم الإسلامي .

ظل محمد ، صلى الله عليه وسلم ، يعمل دائماً في المدينة ، برغم ما فيها من حزبية ضاربة ، فدعا إلى الوفاق ، وبين أن الدين عند الله الإسلام . أي الرضا بما قسم الله وقدر وأراد ، وما زال حتى أكمل على الناس دينهم ، وعلمهم قواعده التي يسير عليها العالم الإسلامي حتى الآن ، وهي شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم شهر رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً ، فضلاً عن تحريم الخمر والميسر ، والميتة والدم ولحم الخنزير . ثم عاد محمد ، صلى الله عليه وسلم ، إلى مكة عودة الظافر المنتصر سنة ٦٣١ م . بعد كفاح طويل وحروب دموية ، ضد أعدائه والكافرين برسالته من المكيين وغير المكيين . وعند ذلك أعلن محمد أن الكعبة قبلة المسلمين ، يولون وجوههم شطرها في الصلاة . وأن مكة هي البلد المقدس الذي يحجون إليه في الأشهر الحرم من كل عام . هكذا استطاع محمد ، صلى الله عليه وسلم ، أن يخلق أمة لم تكن قبله شيئاً مذكوراً ، حين كانت بلاد العرب تعبيراً جغرافياً لا أهمية له . كما استطاع أن يدعو لدين أصبح أساساً لدولة سياسية قوية وسعت حدودها أطراف آسيا وأوروبا وأفريقيا ، في مدة لا تعدو مائة من السنين .

والواقع أن الدين الإسلامي غدا منذ بدايته قوة سياسية كبيرة ، حين أذهب عن بلاد العرب وأهلها - لأول مرة في تاريخهم المعروف - صفات الوحشية والهمجية والانقسام ، وأحل محل ذلك كله وحدة العقيدة والخضوع

لسلطان عام ، فضلاً عن الإيلاف الذى ولدته بينهم شعائر الدين الحديد ، من صلوات خمس فى كل يوم ، وفضلاً عن الاعتدال المترتب على تحريم الخمر ، مما جعل للجيش الإسلامى ميزة على سائر الجيوش فى طول التاريخ وعرضه . يضاف إلى ذلك أن وحدانية الإسلام لم تختلف عما قالت به المسيحية المونوفيزتية التى ألفها أهل مصر والشام . منذ انقسام العالم المسيحى إلى قسمين حول طبيعة المسيح ، ولذا لم تكن ثمة عقبة فى طريق الفتح حين جاء العرب لتلك البلاد .

هكذا انتشرت الحضارة الإسلامية التى اتخذت من يثرب — أى المدينة الحالية — عاصمة زمن الخلفاء الصحابيين . ثم انتقل المركز السياسى فى الدولة الإسلامية على عهد الأمويين إلى دمشق . ومن بعدها إلى بغداد على عهد العباسيين ، وإلى القاهرة على عهد الفاطميين . وفى تلك الحضارة الإسلامية أسهم الشاميون والفرس والترك والبربر والإسبان بسهم وافر . وبدأت الآداب والفنون الإسلامية صاحبة الزعامة والصدارة فى عالم الفكر مدة أربعة قرون — أى من أوائل القرن الثامن إلى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى — حين كان العقل الأوروبى غارقاً فى بحار الجهل والحمول . إن ذكرى تلك الزعامة الإسلامية لا تزال تختلج فى الصدور ، فلا يزال العربى الفلسطينى يقارن فى فخر واستعلاء آداب العصر الذهبى الإسلامى بتوراة اليهود ، ولا يزال المسلم من أبناء الهند والصين ومراكش وبلاد النيجر وغيرها من البلاد الإسلامية يحلم بالحج إلى مكة المكرمة . ويتمنى أن يرى اليوم الذى يصبح فيه البشر جميعاً على الدين الحنيف . بل لا يزال المؤذن يدعو المؤمنين من المحيط الأطلنطى إلى جبال الهملايا إلى الصلاة . عند شروق الشمس وغروبها ، وعند الظهر والعصر والعشاء ، ولا تزال المساجد تكتظ بالمصلين . ولا يزال الأطفال يحفظون القرآن عن ظهر قلب . ولا يزال الكثير من الطلبة يدرس أركان الدين الإسلامى والفقه والشريعة ، فى ضلال أبهاء الجامعة الأزهرية وكلياتها بالقاهرة .

غير أنه يجب أن يكون ملحوظاً هنا أن الدين الإسلامى عاش ألفاً وثلاثمائة من السنين دون إكليروس أو طقوس دينية خاصة . وأن عدد المسلمين يبلغ

ثلاثمائة مليون نسمة في العصر الحاضر ، وأن الرهبانية التي انتشرت بين المسيحيين الأولين لم تجد لها نصيراً أو مشجعاً من المسلمين . إذ جاء القرآن في وصفها بآيات منها : « ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله » (سورة الحديد ، ٢٧) ، كما جاء عن محمد صلى الله عليه وسلم أنه قال : « رهبانية أمتى في المساجد » وأنه قال : « لا رهبانية في الإسلام » .

وعلى الرغم من ذلك شابه الإسلام المسيحية فيما نبت بكل منهما من طوائف المتنسكين وجماعات المتصوفة ، وأصحاب الملل والنحل المخالفة للإجماع . ويرجع ذلك إلى تأثير العقيدة الإسلامية الصارمة واصطبائها واستمدادها من خصب المذنبات التي امتزجت بها في الشام ومصر وفارس والهند وإسبانيا . وهي المذنبات التي أمدت الإسلام بكثير من الأعلام المبرزين في مختلف عصوره . على أنه من الحق أن يضاف هنا أن للإسلام أدباً صوفياً لا يقل — في نقاوة الوجدان الديني — عن الراثع الروحية التي أنجبها اليهودية والمسيحية . غير أنه إذا امتازت المدة التي أعقبت وفاة محمد ، صلى الله عليه وسلم . سنة ٦٣٢ م بكثير من باهر الأعمال في الحرب والسياسة ، فإن تلك المدة ابتليت كذلك بظهور الحرق العميق الذي أفسد جوف العالم الإسلامي . ولا يزال يسم العلاقات بين السنة والشيعة . وإذا كانت أخبار الفتح والنصر على عهد عمر بن الخطاب — ثاني الخلفاء الصحابييين — وحكومته القديرة (٣٦٤ — ٦٣٤ م) أسكتت أصوات الساخطين على الخلافة لقيامها في غير سلالة الرسول . فتلك الحال تغيرت على عهد عثمان بن عفان (٦٤٣ — ٦٥٦ م) ثالث الخلفاء . لقلّة ما انصرف إليه المسلمون من الفتوح . ولما اتصف به الخليفة من عديم القدرة والافتقار إلى الحزم والجهد في العمل . فضلاً عما آتته به حكومته من ابتزاز أموال الناس بغير حق . مما يدل على أنه لم يكن موقفاً في اختيار رجاله وعماله . ومن ثمّ بدأت الدعوة لعلي بن أبي طالب زوج ابنة الرسول . وأعقب ذلك مقتل عثمان . وقيام علي في الخلافة بعده . وانقسام العالم الإسلامي منذئذ قسمين لا انجبار لهما حتى العصر الحاضر . إذ نازع معاوية ابن عم الخليفة المقتول علياً في الخلافة لأنه لم يشأ — وهو السليل الأموي الذي ولي

الشام سبعة عشر عاماً متتالية . وخبر شئون الدولة الإسلامية عن كتب - أن
يذعن لما انفرد به أهل المدينة من سلطة عامة . أو يرضى بقيام على دونه
في الخلافة على المسلمين .

وهكذا انقسمت وحدة المسلمين ، وبدأت شيعة على ذات قوة وبأس
في بلاد العرب والعراق ، وهبّ السنيون في مصر والشام لمظاهرة معاوية ،
ثم انتهى الأمر بمقتل على سنة ٦٦١ م ، ومقتل ابنه الحسين بعده بقليل ،
فتخلفت بقلوب الشيعة أحزان دامية صبغت تاريخ الدولة الإسلامية بمثل
ما انصبغ به تاريخ أيرلندا وبلاد الصرب . غير أن الخلافة ظلت باقية في أبناء
البيت الأموي الذين جعلوا عاصمتهم دمشق . وبسطوا سيادتهم على العالم
الإسلامي سنة ٦٩٢ م ، بعد ثورتين دامتيتين من الحروب الأهلية .

وإذ أدت اختلافات الشيعة والسنة فيما أدت إلى إيقاف الزحف الإسلامي
العظيم إلى حين ، فإن تلك الاختلافات لم تنقذ الدولة البيزنطية طويلاً .
أو ترد عليها شيئاً من الطمأنينة من ناحية العرب . بل لم تلبث الحركة الإسلامية
أن عادت سيرتها الأولى بعد سنة ٦٩٢ م ، فأصبحت بلاد آسيا الصغرى .
وجزر الأرخبيل اليوناني مهددة أشد تهديد . وتعرضت القسطنطينية نفسها
لأخطار الغزو . وباتت الدولة البيزنطية في خشية وريب من رعاياها
المسيحيين أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة بأعلى العراق وأطراف آسيا الصغرى
وما عساه أن يكون موقفهم إذا امتدت فتوح المسلمين إلى تلك البلاد .
ومما زاد الحالة سوءاً على سوء أن الدولة البيزنطية لم تنجب شخصية عظيمة
بين وفاة هرقل سنة ٦٤١ م وقيام ليو الإيسوري سنة ٧١٧ م ، بل اعتلى
العرش أثناء تلك المدة إمبراطور تلو إمبراطور وسط سلسلة من الاغتيالات
والثورات . والحروب الداخلية والمؤامرات . بين أبناء البيوت الإمبراطورية .
وعلى الرغم من هذا كله استطاعت الدولة البيزنطية أن تحافظ على آسيا
نصغرى والقسطنطينية . وربما يرجع الفضل في ذلك إلى تقسيم الإمبراطورية
إلى بنود (Themes) أى لواءات وأقسام حربية مشحونة بالجند . والسلطات فيها
بيد العسكريين . ولهذا التقسيم العسكري بقايا في نظام اللواءات في العراق

وسوريا ولبنان والأردن حتى العصر الحاضر .

ومن المتواضع عليه بين الكثير من المؤرخين أن التوسع الإسلامي في أوروبا توقف نهائياً بانتصار زعيم مملكة الفرنجة شارل مارتل - وهو قارله في الكتب العربية - على عبد الرحمن الغافقي والى أسبانيا الإسلامية وجيشه العظيم ، في وقعة تور أوفاتييه ، بالجنوب الغربي من فرنسا الحالية سنة ٧٣٢ م . غير أنه مع التسليم بضحامة عدد الجند في كل من الجانبين اللذين اشتبكا في تلك المعركة الشهيرة ، ومع التسليم بعنف القتال الذي استمر طوال تلك الوقعة الكبرى بين مشاة الفرنجة الكثيرين وفرسان إسبانيا وإفريقيا المتوقدين حماساً للإسلام ، ومع التسليم بأن انتصار الجيوش المسيحية على المسلمين كان نصراً حاسماً تاماً ، يبدو أن وقعة أوفاتييه لا تعدل نجاح الإمبراطور ليو الإيسوري في دفع هجمات المسلمين عن القسطنطينية سنتي ٧١٧ و ٧١٨ م . والمعادلة والمقارنة هنا ليستا لأن القسطنطينية كانت أقرب إلى محور الارتكاز في الدولة الإسلامية بدمشق ، حتى إذا استولى المسلمون عليها صار من السهل احتفاظهم بها ، بل لأنه لو استقر المسلمون في العاصمة البيزنطية لوجدوا بين مسيحيي شرق أوروبا - ولما تهذب مسيحياتهم بعد - مجالا حراً للدعوة الإسلامية . ومن الواضح أنه إذا كان الفتح العثماني للقسطنطينية في القرن الخامس عشر الميلادي ساعد على نشر العقيدة الإسلامية في طول شبه جزيرة البلقان وعرضها ، من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ، فمن السهل علينا أن نتخيل مدى النجاح الديني الذي يصحب استيلاء العرب عليها قبل ذلك بسبعة قرون ، حين كانت الشعوب البلقانية والروسية لا تفقه من المسيحية إلا نزرأ ، ولا تدرى من النظم والمعتقدات الدينية إلا قليلاً . أما غرب أوروبا ، فإن المسلمين اصطدموا فيه بقوة مسيحية منظمة أركانها على شيء كثير من تراث الإمبراطورية الرومانية وجبروتها القديم ، ولو تم لهم النصر فرضاً في أوفاتييه ، لظل بينهم وبين فتح فرنسا وتحويلها إلى الإسلام عقبات دونها عقبات . وعلى عكس ذلك تماماً بدت الحال في شرق أوروبا . حين كانت مراكز المقاومة الروحية والسياسية في حكم العدم المعلوم بين الروسيين والمجريين ،

أو بين البلغار وصدفالبة شبه جزيرة البلقان ، بالقياس إلى ما كان بفرنسا من قوة الكنيسة والملكية الفرنجية . والحاصل أنه لولا دفع الإمبراطور ليو الإيسورى نقائد الأموى مسلمة بن عبد الملك وجنوده وأساطيله عن القسطنطينية ، لانتشر الدين الإسلامى انتشار النار فى البرارى عبر البلقان وسهول البحر إلى جبال أورال شمالا وشرقا ، ولم يجنب الحضارة الأوروبية ذلك سوى مقاومة القسطنطينية سنة ٧١٨ م ، وعلى رأسها إمبراطور شاب قدير ، تسنده استحکامات هائلة وأسوار سامقة ، وبحرية مهيمنة على البواغيز ، فضلا عن النار الإغريقية التى لم يعرف المسلمون وقتئذ عنها شيئا ، وفضلا عن النجدة البلغارية التى وصلت إلى الإمبراطور وهو فى أشد ساعات الحرج . ولهد يحق للإمبراطور ليو الإيسورى أن يعتبر من أصحاب الوقائع الفاصلة فى التاريخ ؛ وإذا كانت روسيا الحالية دولة مسيحية أرثوذكسية لا دولة إسلامية - شيعية أو سنية - فراجع ذلك للإمبراطور ليو وانتصاره على المسلمين عند القسطنطينية ؛ على أننا لا ندرى مبلغ ما أفادت المدينة الأوروبية من تلك النتيجة .

بعض المراجع لهذا الفصل

- Bell. (R.) : The Origins of Islam in its Christian Environment, 1926.
 Lammes, (H.) : Islam, Beliefs and Institutions. Trans. E. Denison
 Ross, 1929.
 Margoliouth. (D.S.) : Mohammed and the Rise of Islam, 1905.
 Muir, (W.) : Mahomet and History of Islam, 1894.
 Nicholson (R.A.) : A Literary History of the Arabs. 1907.

الفصل الخامس

دولة الفرنجة

البيت الميروثنجي — مصادر سلطته — بقاء الحضارة اللاتينية في غاليا وزوالها عن بريطانيا — انحلال السلطة العامة على عهد الميروثنجيين — بقاء فكرة وحدة الفرنجة — ظهور الكارولنجيين — شارل مارتل — البعوث التبشيرية المسيحية في ألمانيا — النزاع بين البابوية واليونانيين واللومبارديين في إيطاليا — استنجاها بالفرنجة — الزعيم بين الفرنجي والبابا ستيفن — شارلمان — زيارته الأولى روما — تنويجه سنة ٨٠٠ م — أهمية ذلك الحادث — النهضة الكارولنجية — فاضل إيرلندا وإنجلترا على تلك النهضة — ألكوين — الحروب السكسونية — استخلاص وسط أوروبا للكنيسة اللاتينية — منافع القوة والضعف في الإمبراطورية الكارولنجية — تفككها في القرن التاسع الميلادي.

غلبت على خلائف الملك كلوفس في الدولة الفرنجية صفات جعلتهم في تقدير المؤرخين أحد مدغنين اثنين . إما متبررون على جانب من القسوة والغدر ، أو أشخاص مستضعفون أهلكتهم حياة الفسق والفجور . غير أنه برغم ما تردى فيه أولئك الملوك الميروثنجيون من الفظائع والمبازل وبرغم ما أغرقوا فيه من عداوات بين بعضهم وبعض ، وما انغمسوا فيه من حروب داخلية في غير طائل أو جدوى ، ظل البيت الميروثنجي باقياً على العرش نحواً من ثلاثمائة من السنين (٤٨١ — ٧١٦ م) ، أى أنه عمر أطول مما عمر ملوك آل فالوا والبوربونيين في فرنسا . وملوك الإستيوارتيين والهانوفريين في إنجلترا ، في العصور الحديثة ؛ بل هو في طول سلامته أوضح ما يكون من الأضداد إذا جمعت المقارنة بينه وبين البيوت الإمبراطورية في الدولة الرومانية . ويرجع السبب في ذلك إلى عظيم المهابة والكرامة التي لصقت بأبناء كلوفس وسلالته جميعاً . حتى إنهم ظلوا ثمانى وسبعين سنة يقامون على العرش . وتوضع على رؤوسهم

لنيجان ، وتقدم إليهم فروض الطاعة ، بعد أن أمسوا أطياناً ملكية واهية ، وأضحت السلطة الحقيقية في أيدي رؤساء البلاط . ومصادق ذلك ما كتب المؤلف أينهارت في وصف المرحلة الأخيرة من حكم المير وفنجيين ، إذ قال : « إنه لم يكن للملك شيء في المملكة سوى اسمه . وذوائب شعره المرخاة ، ولحيته الطويلة . حتى إذا جلس الواحد منهم على عرشه ، أخذ يلهو بإدارة شئون الدولة هو الصبية ، فيستقبل الرسل الوافدين عليه من مختلف الممالك . ويكلمهم بكلمات يتلقونها ليتفوه بها صاغراً مأموراً . ولم يكن للملك ما يصح أن يديه لنفسه سوى ضيعة صغيرة ، فيها مسكنه الضئيل الحجم وحاشيته القليلة العدد ؛ فإذا اقتضى الأمر سفرًا ركب عربة مثل عربات المزارعين من أهل الريف ، نجرها الأبقار ، ويسوقها فلاح من الفلاحين ؛ وإذا جاء إلى القصر ، أو ذهب إلى الاجتماع السنوي العام^(١) ، سار موكبه في هذه الهيئة ، على حين أصبح رئيس البلاط مسيطراً في شئون الإدارة والحكم ، مهيمناً على جميع المسائل السياسية ، الداخلية منها والخارجية » .

أما ما استولى على الفرنجة من خارق الإحجام عن التخلص من أسرة ملكية طال عليها سالف الأمد - بعد أن أضحت غير صالحة - فيبدو أن مجال تفسيره وتبريره هو الدين ، لأن المير وفنجيين لم يكونوا ملوكاً فحسب ، بل كانوا كهنة كذلك ، ولا جناح عليهم مما ينغمسون فيه من المنكرات ، لأنهم مقدسون وكيف يجرؤ أحد عليهم ، أو على ذوائب شعورهم المرخاة ، وهم منحدرين من مير وثيوس الذي يرجع أصله إلى إله البحر العظيم ، حسبما ورد في أغاني الفرنجة القديمة ؟ الواقع أن هالة من القدسية حاطت تلك الأسرة الفرنجية رمزاً طويلاً قبل ظهور المسيحية ، فلم يكونوا بحاجة إلى أسقف مسيحي أو غيره من رؤساء الدين ليؤيد سلطانهم ، أو يوطد لهم الولاء عند جنودهم من الفرنجة . وليس معنى ذلك أنهم لم يفيدوا أو يستمدوا شيئاً من اعتناق مؤسس دولتهم كوفس دين المسيحية الكاثوليكية . بل المعروف أنهم نعموا منذئذ بعطف

الكنيسة الكاثوليكية ، وتجنبوا بذلك جميع العقبات التي تعثر فيها القوط الشرقيون واللومبارديون أصحاب الأريوسية في إيطاليا ، والقوط الغربيون - وهم كذلك أريوسيون - أثناء مقامهم حول تولوز . بالجنوب الغربي من فرنسا . وأثناء حكمهم إسبانيا قبل أن يتحولوا إلى الكاثوليكية . وإذا وقفت الكنيسة الكاثوليكية من الفرنجة موقف الحاييف الصديق - وهي الهيئة الوحيدة التي بدت على شيء من النظام والثقافة والنور ، بعد زوال الإمبراطورية الرومانية في الغرب - فإن الفرنجة استطاعوا أن يغيروا على الأريوسيين واليهود ، وهم مطمئنون إلى ثناء الكنيسة على جميع ما يقومون به ضد هؤلاء وأولئك من الأعمال ، واعتبار جميع انتصاراتهم الحربية فتحاً مبيناً للكنيسة والدين . يضاف إلى ذلك أن الأولين من ملوك الميروفنجيين اعتبروا أنفسهم - برغم أصلهم الجرمانى - ولاية ونواباً عن الإمبراطورية البيزنطية فيما تحت أيديهم من البلاد بغرب أوروبا ، فتقبلوا ما أنعم به الأباطرة البيزنطيون عليهم من ألقاب ووظائف فخرية ، واستخدموا التقود الرومانية القديمة ، بل يبدو أنهم أحبوا محاكاة الأباطرة الرومانيين والروح الإمبراطورية القديمة في التوسع والفتح في غير حساب . أما أباطرة القسطنطينية ، فاعتبروا الفرنجة ودولتهم قوة حربية تابعة لهم ، بدليل إشارة الإمبراطور موريس سنة ٥٩٠ م إلى ما بين الفرنجة والإمبراطورية البيزنطية من ولاء ، وذلك حين دعا موريس الملك الفرنجى تشلدبرت الثانى لمساعدة الإمبراطورية ضد اللومبارديين في إيطاليا .

يتضح من ذلك أن أرض غاليا ، وهى المسماة فرنسا في العصر الحاضر ، ظلت جزءاً من العالم الرومانى والحضارة اللاتينية ، برغم الأصول الجرمانية التى يرجع إليها ملوكها الفاتحون من الفرنجة ، الذين جعلوا اسمها من اسمهم . ثم إنه على الرغم من فتح الفرنجة غاليا ، واحتلالهم أراضيها تمام الاحتلال ، لم يسلك ملوكهم مسلك العداء نحو أهلها من الغالين ، على عكس القوط الأريوسيين الذين سبقوهم إلى تلك البلاد . وأولئك هم الذين وجه إليهم كلوفس وسلالته كل جهوده وحاربهم بكل قوته . أما أهل البلاد من الغالين فلم ينلهم بسوء ، لأنهم تقبلوا الحكم الجديد ورضوا به ؛ ولم يمسس الكنيسة

الكاثوليكية ضرّاً ، لأنها وقفت من الفرنجة موقف الصديق ، كما لم يلحق الإمبراطورية القائمة على شاطئ البوسفور البعيد شيء من الأذى . لأن الإمبراطور اعتبر الفرنجة حلفاء أقوياء . ثم لم تلبث الكنيسة أن فرضت ثقافتها اللاتينية على الفاتحين ، فتشربها الفرنجة في سهولة ، حتى إن حفيد كلوفس المسمى تشلبرت استطاع أن ينظم أشعاراً في اللغة اللاتينية ، وأن يضيف إلى الحروف اللاتينية أربعة أحرف يونانية ، إمعاناً في التفاخر والدلالة على مبلغ ما اكتسب من العرفان ، مع أنه هو الذي نعتة المؤرخ الفرنجي جريجورى التورى أسوأ النعوت ، حين سماه نيرون عصره ، تشبيهاً له بالإمبراطور لرومانى المعروف . كما وصفه بأنه هيرود زمانه . إشارة إلى الملك اليهودى الشهير في فلسطين ، إبان مولد المسيح عليه السلام .

وبينما تظل الحضارة اللاتينية حية آمنة ثابتة البنيان في غالبا الفرنجية ، إذ بها تزول من بريطانيا بزوال السيادة الرومانية عنها في النصف الأول من القرن الخامس الميلادى . والعلّة في هذا وذاك واضحة إذا اعتبرنا مدى ما أثر الرومان في كل من البلدين ، فضلاً عن اختلاف الأحوال التى لا بست الفتح الرومانى لكل منهما . ففي غالبا خلف الرومان مدناً عديدة أهلة بالسكان ، على حين لم تعد المدن الرومانية في بريطانيا خمس عشرة أو ست عشرة مدينة صغيرة . وفي غالبا عاشت الكنيسة موفورة الثروة والنفوذ ، على حين بدت في بريطانيا قليلة الحول والطول ، كما يستدل من ضآلة البناء في كتدراثة سلتشستر . ثم إنه يستدل من المقارنة بين رسائل سيدونيوس أبولينارس ، وما كتبه جريجورى التورى في القرن السادس الميلادى ، أن طبقة مثقفة من أعيان المزارعين المنحدرين من أصل غال عاشت في غالبا قبل الفتح الفرنجى وبعده ، على حين أن طبقة بريطانية مشابهة لم توجد في الجهات التى أتم السكسون فتحها من شرق بريطانيا وجنوبها . ولا يقل عن ذلك أهمية اختلاف الأحوال التى حطت غزو الفرنجة غالبا وغزو السكسون شرق بريطانيا وجنوبها ، إذ رضى مظم الغاليين بالفاتحين من الفرنجة ، على حين قاوم البريطانيون غزاتهم من السكسون أشد المقاومة ، وهم بحكم موقعهم الجغرافى أكثر أهل الجزيرة

البريطانية تأثراً بالثقافة الرومانية وما أتت به أواخر أيامها من المسيحية . فلما طردهم السكسون إلى الأجزاء الغربية من الجزيرة ، وحلوا محلهم بأجزائها الشرقية والجنوبية في انتهى الأمر بانغمار الديانة المسيحية وضياع الثقافة اللاتينية من البلاد . غير أن النظم القائمة على الحرية القبلية التي درج فيها الفرنجة وغيرهم من سائر الجرمان الذين أسسوا الدول لأنفسهم على أنقاض الدولة الرومانية في الغرب ، لم تستطع أن تسلم من نار الحرب التي نشبت في طول غرب أوروبا وعرضها وقتذاك ، فأبطل ملوك الفرنجة عادة الاجتماع السنوى العام . وهو الاجتماع الذى جرى العرف بتقرير أمور القبيلة في جلساته بطريقة التصويت العائى ، وصارت إرادة الملك هى القانون ، ما دام النبلاء لم يعارضوها معارضة فعلية . لكن ملوك الفرنجة لم يفيدوا أية فائدة من ذلك التطور الحديد في شئون الحكم ، لأنهم عاشوا خلواً من المسؤولية السياسية والمعرفة بالتقاليد التاريخية ، فجعلوا من المبادئ التي سار عليها المجتمع الجرمانى في تنظيم الملكية الخاصة قاعدة لوراثة المملكة . إذ قسموا المملكة الواحدة أنصبه متساوية وغير متساوية بين الأبناء . حسبها تملئ الظروف والأحوال . ولما كان من الطبيعى أن تدب المنافسات والبغضاء والشحناء والحروب بين الأبناء ، فإن مملكة الفرنجة ظلت موبوءة بحروب داخلية لا طائل تحتها ، خمسة أجيال متتالية .

وترتب على تلك الحروب والخصومات التي سببتها أغراض لا تزيد في قيمتها على نزوات العارمين ومرضى القلوب من الصبية ، أن فسدت أدوات الحكم ونظمه وقواعده بأرجاء البلاد ، بحيث لا يستطيع الباحث في تاريخ الفرنجة الميروثنجيين في غالبا إلا أن يلمس تدهور السلطة العامة تدهوراً متزايد الخطوات ، فضلاً عن ذهابها في صورة امتيازات محلية أعطاها الملوك لنوابهم وصنائعهم من الإقليميين ، أو غصبها الإقليميون لأنفسهم غصباً ، مما أدى إلى ضياع الدولة وسلطانها تمام الضياع .

ومن ثم بدأت التطورات والتغيرات التي أطلق على مجموعتها سير هنرى سبلمان القانونى الإنجليزى اسم « النظام الإقطاعى » ، إذ دلته دراسته في

القرن السابع عشر الميلادي على أن جميع السلطات في مملكة الميروفنجيين ، كإلغاء وجمع الضرائب ، وتجنيد الجند للجيش ، أو لنفير العام ، غدت في أيدي كبار الملاك من أصحاب الأراضي ، مدنيين وكنسيين سواء . وأضحى من المعتاد أن تحصل الكنائس والأديرة على براءات تعفى جهاتها المقطعة لها من المسئوليات والواجبات المفروضة على سائر الناس في المملكة ، حتى بلغ الأمر في المدينة المعفاة جهاتها الكنسية والديرية بمقتضى إحدى تلك البراءات أن صار الكونت — وهو الممثل العام للحكومة الملكية في المدينة — لا يدخل تلك الجهات ألبتة ، بل جمع الضرائب أو مباشرة القضاء ، أو تجنيد الجند للجيش أو لنفير العام ، إذ أصبحت تلك الأشياء كلها من حقوق الممتلك على الجهة كائناً من كان . وهو الذي يقوم عليها ويؤديها للملك إذا احتاج الأمر . ومعنى ذلك أن الممتلك أصبح صاحب السلطة السياسية في الجهة المقطعة له . مع بقاءه تابعاً للملك الشرعي تبعية غامضة غير معروفة الحدود؛ وما تجب ملاحظته هنا أن جزءاً كبيراً من أراضي غاليا الفرنجية أمسى في أيدي الكنيسة أواخر عهد الميروفنجيين .

وبينما يجرى ذلك الانحلال مجراه التؤدة في جسم الدولة الميروفنجية ، وبينما تسير الملكية من ضعف إلى ضعف . وتأخذ الكنيسة في الثروة والهمجية والفساد ، وتصبح الطبقة الغنية مستقلة بأراضيها تمام الاستقلال هدد العرب والآفار والصقالبة كيان المجتمع المسيحي في الغرب ، فأشاع الضغط الناجم عن ذلك التهديد الخارجي في جسم الدولة الفرنجية شيئاً من التماسك القديم الذي أذهبته انقسامات الملوك الميروفنجيين وحروبهم الداخلية . وبذا استطاعت الدولة الميروفنجية أن تحمي أطرافها ، وأن تسد الطريق مؤقتاً في وجه ما عسى أن يهددها من الغزوات الجرمانية ، وأن تتغلب على الحركات الإقليمية القوية في بروجنديا وأقطانيا ، وفي نويستريا وأوستريا ، وهما الاسمان اللذان عرف بهما الجزعان الغربي والشرقي من فرنسا ، منذ سنة ٥٦١ م^(١) . هكذا بقي التماسك الذي ورثته غاليا عن الرومان وأيامهم القديمة . ولم تستطع سنوات الانحلال

(١) انظر ما يلى هنا ، ص ٩١ وما بعدها .

والفوضى التي أعقبت وفاة الملك داجوبرت سنة ٦٣٨ م — وهو آخر الميروفنجيين الذين انفردوا بالحكم في البلاد — أن تطمس من فكرة المملكة المتحدة الشاملة أقاليم غاليا كلها، أو أن تنتقص من مسيحيتها وحضارتها الرومانية وأصولها الفرنجية.

ثم بدا في الأفق عصر جديد بظهور الأسرة الجرمانية العفية التي تستمد مجدها الخالد من اسم شرلمان العظيم ، إذ تحولت الملكية الفرنجية بفضل تلك الأسرة الشارلمانية — أو الكارولنجية — من ضعف إلى قوة ، ومن خسة إلى هبة ؛ ودل الكارولنجيون على أنهم أدهى من شهدت أوروبا من أساتذة الحكم والحرب ، والفتح والنصر ، منذ أعظم أيام الإمبراطورية الرومانية العتيدة .

وتغير مسرح الحوادث على يد أولئك الكارولنجيين تغيراً تاماً ، فردوا المسلمين عن جنوب فرنسا إلى إسبانيا ، ومحو دولة الآفاريين بالساحل الأدياني الشرق من الوجود ، وخرّبوا دولتهم تخريباً جعلها لقمة سهلة للمغربين عليها من المحجرين . ثم أقام الكارولنجيون دولة بابوية في إيطاليا ، بعد أن أزالوا عنها خطر اللمبارديين ، مما أدى إلى نتائج تاريخية ثلاث ، وهي استحالة تأسيس دولة إيطالية موحدة حتى سنة ١٨٧٠ م ، واتساع الهوة بين روما وبيزنطة ، وإفساح المجال للبابوية حتى أصبحت دولة سياسية مستقلة ، وهو ما اعتبره بعض المؤرخين سبباً في دنويتها وفسادها ، واعتبره بعضهم الآخر ضرورة لضمان حريتها الدينية وسلطتها الروحية . تلك نتائج ذات أهمية كبيرة ، لا تزال نلمس آثارها حتى العصر الحاضر ؛ وأكبر منها أهمية امتداد المسيحية إلى فريزيا وألمانيا ، وقبول شرلمان التاج الإمبراطوري من يد البابا ليو الثالث يوم عيد الميلاد سنة ٨٠٠ م ، فإن معنى ذلك كله أن الكنيسة المسيحية الكاثوليكية عوّضت بانتشارها عبر أوروبا الوسطى ما فقدته بذهاب الشام ومصر وإفريقية وإسبانيا إلى المسلمين ، فضلاً عن أنها أحييت الدولة الرومانية في شخص شرلمان . وهذا وذاك لا ريب فتح مبین ، وليس في التاريخ الأوربي ما يوازيه منذ أيام يوليوس قيصر ، والفضل فيه لتكامل الجهود بين البعوث التبشيرية الإنجليزية والأيرلندية والبحيوش الفرنجية ، مضافاً إلى تشجيع البابوية وتأييدها العظيم .

أما الموطن الأصلي للكارولنجيين ، فهو الإقليم الواقع عند الطرف الأقصى

للدولة الرومانية في الغرب - أي بلجيكا الحالية - حيث استمر القتال قروناً بين الرومان والجرمان من أجل الغلبة في العصور القديمة . ثم غدا ذلك الإقليم من المملكة الفرنجية ، وصار جزءاً من البلاد التي عرفت في تاريخها باسم أوستراسيا . وبرز من شخصيات تلك البلاد رجلان ، هما پيپن صاحب بلدة لاندن بمقاطعة بربانت الحالية ، ودوق أرنولف الذي صار أسقف مدينة متر فيما بعد . ثم لم يلبث پيپن أن أصبح رئيساً للبلاط في أوستراسيا سنة ٦٢٢ م ، فزوج ابنته لابن أرنولف ، فكانت مصاهرة ليس في الإمكان أبدع منها وقتذاك ، إذ صارت ابنة الحاكم الفعلي في البلاد قرينة لابن رجل اجتمعت في شخصه صفات الدوق والأسقف والقديس ، فضلاً عن قرابته - إن صحت شجرة نسبه - إلى أسرة رومانية نبيلة من مدينة ناربون ، بالجنوب الشرق من فرنسا الحالية .

لذا لم يكن عجباً أن يحتل نتاج تلك المصاهرة مكاناً عظيماً في التاريخ ، وهذا النتاج هو پيپن الثاني^(١) ، الذي تولى رئاسة البلاط في أوستراسيا سنة ٦٨١ م ، ثم في نويستريا سنة ٦٨٧ م ؛ وهو جندي باسل وصديق صدوق للبعوث التبشيرية بين الألمان والفريزيين ؛ وهو كذلك أبو شارل مارتل ، والجد الأكبر للإمبراطور شرلمان . هذا هو نسب الإمبراطور الجليل الذي اتخذته الألمان والفرنسيون بطلا قومياً سواء ، دون أن يكون في الحقيقة ألمانياً أو فرنسياً ، كما يفهم من منطوق اللفظين ، لأنه أوستراسي جرمانى لحماً ودماً ، تحدوه عقلية لاتينية نظيمة ، واعتقاد في نفسه ونفس معاصريه أنه بطل المسيحية في غرب أوروبا .

أما شارتل مارتل - أو شارل المطرقة - وهو ابن پيپن الثاني ، فإنه تولى حكم أوستراسيا ونويستريا من دون ملوكها الميروثنجيين ستاً وعشرين سنة ، بعد أن تغلب على جميع جيرانه في ميادين القتال . ونال شارل لقب المطرقة لشدة ما أنزل بالكنيسة الكاثوليكية في غاليا من صارم الضربات التي استلزمها فساد رجال الدين في عصره ؛ على أن بعض السر فيما استقام له من الفتوح إنما يرجع

(١) انظر شجرة الأنساب رقم ١ ، في آخر الكتاب .

إلى جنوده الفارعين المزردين من الأوستراسيين الذين لم تفسدهم حياة المدن ، فأولئك هم أصحاب الفضل فيما تم له من الظفر في مختلف الميادين ، وأولئك هم الذين أعادوا لاسم الفرنجة روعته الحربية التي ضاعت ذكرها بعد أيام كلوفس وجموعه الجرمانية في ساحات غاليا القديمة .

وأهم ما يذكر لشارل المطرقة من بين أعماله الحربية الباهرة انتصاره على الجيش الإسلامي العظيم بقيادة عبد الرحمن الغافقي وإلى إسبانيا في يوم من أيام أكتوبر سنة ٧٣٢ م قرب بواتيه ، حين بلغت خسائر المسلمين ٣٧٥٠٠٠ ، على فرض صحة التقدير العريض الذي أورده بولص الشماس . والواقع أن ذلك الانتصار الكبير كان إنقاذاً وخلاصاً للدولة الفرنجية من خطر المسلمين ، ولو أنه لم يمنع المسلمين من إعادة الكرة على غاليا ، حيث استولوا على آرل وأفينيون ، وأقاموا بها ثلاث سنين حتى أخرجهم عنها شارل .

ثم إنه لا شك أن المسلمين لم يكونوا من القوة بحيث يستطيعون التغلب على غاليا ، بله البقاء فيها إن استطاعوا إلى التغلب عليها سبيلاً ، لأنهم فضلاً عن المؤامرات والدسائس التي هي بمثابة السدى واللحمة في السياسة عند الشرقيين عامة ، لم يكن المسلمون بنجوة من المتاعب من ناحية البربر في إفريقية والمسيحيين في إسبانيا . ومن هذا وذاك كان في مقدورهم أن يواصلوا الإغارة والحرب — وإن لم يقدرُوا على الغلبة والاستيلاء — لولا هزيمتهم قرب بواتيه ، فلو أنهم انتصروا هناك لتعطلت أكبر الأعمال المسيحية التي باتت وشيكة الإنجاز في أوروبا وقتذاك ، بفضل مساعدات شارل المطرقة .

مثال ذلك أنه لم يكن في الإمكان أن تتحول ألمانيا إلى المسيحية على يد رجال الدين من الفرنجة الذين دبت فيهم عوامل الفساد على عهد المير وفنجيين . والفضل هنا يرجع إلى شارل المطرقة وخلفائه ، وإلى المبشرين من أيرلندا وإنجلترا ، حيث ران على المسيحية نور أضواء الدافع الروحي للتبشير بين الوثنيين . وأحيا الحماسة الدينية في الكنيسة الغربية . ذلك أن شعوب الجزر البريطانية أخذت حين ذاك تنفض عن نفسها غيوم العزلة ، لتسهم سهمها الأول في مضمار التقدم والمدنية العامة ، فبدأت سلسلة الأعلام الإنجليز أوائل القرن

الثامن الميلادى برجلين ، أحدهما عالم بحاثة اسمه بيده ، وثانيهما مبشر قدير اسمه ونفرث . أما بيده فأصله راهب من نورثمبريا بشمال إنجلترا ، وهو ممن جعل العلوم كلها ميداناً لدراسته ، وهو مؤلف كتاب التاريخ الكنسى الذى احتل مركز الصدارة فى عالم الآداب اللاتينية ما ينيف على أربعة قرون ، ولا يزال المرجع الأول لمعرفة تطور المجتمع المسيحى ونظمه الأولى فى بريطانيا . أما ونفرث فهو الذى اشتهر باسم بونيفاس وهو فى الواقع المبشر الأول بالمسيحية فى ألمانيا . وإذا كانت أعمال المبشر بين قوم من الهمج - الضاربين فى غاباتهم الكثيفة المترامية الأطراف - لا تترك علامة إلا أثراً قليلاً فى مدونات عصره ، فالحقائق المعروفة من حياة بونيفاس بين الألمان تدل دلالة واضحة على مبلغ ما اجتمع فى نفس ذلك الرجل من الحماسة والمثابرة ، وما اتصف به من القدرة والتوفيق . وذهب بونيفاس إلى ألمانيا بتعيين من البابا جريجورى الثانى سنة ٧١٩ م ، فقصداً أولاً إلى فريزيا ، حيث تتلمذ على مواطنه ولبرود الذى يرجع إليه الفضل فى نشر المسيحية بين الفريزيين ، فتعلم منه أساليب التبشير . ثم انتقل بونيفاس إلى ألمانيا ، فما زال يعمل بين أهلها جاهداً فى خدمة الدين ، وأمدته الدولة الفرنجية بكثير من المساعدة حتى حول الهسين والثورنجرين إلى المسيحية . ونظم الكنيسة فى بافاريا . ثم عينه البابا رئيساً لأساقفة ماينز سنة ٧٤٨ م ، فصار له الإشراف على الجماعات المسيحية التى تكونت بفضل جهوده فى الأقاليم الوسطى والأقاليم الجنوبية من ألمانيا . ولا يقلل من جلال خدمات ونفرث أنه استعان بفئة غير قليلة من خيرة الرجال ، لأنه مهما قيل فى هذا الصدد فلا جدال فى أنه أول أولئك الذين ربطوا بين ألمانيا والمسيحية وتقاليدها الرومانية بأوثق رباط ، وأن قوة شخصيته نافذة هى التى جعلت نصر المسيحية حاسماً فى تلك البلاد .

غير أن الأحوال التى لا بست وصول المسيحية إلى ألمانيا - فى القرن الثامن الميلادى - تخالف من ناحية هامة أحوال دخولها إلى غاليا قبل ذلك بقرون . ذلك أن التجار السوريين الذين جاءوا برسالة المسيحية إلى مرسيليا بأقصى الجنوب من غاليا ، إنما جاءوا إلى ولاية رومانية متمدنة غاية التمدن ، وليس لهم ثمة ميزة

يمتازون بها سوى أنهم أتباع دين شرق مجهول ، ولم تنطق ألسنتهم بشيء من الشعر أو الميثافيزيقا أو القانون أو العلم ، في مجتمع رفيع الثقافة في كل تلك الفنون ، بل كان أقصى ما عندهم أنهم دعاة لطريقة في الحياة جديدة ، تنمو حولها في اللغتين اليونانية واللاتينية آداب أكثر سعة وانطباقاً على الحق من الآداب القديمة . وتنبت منها مبادئ خلقية لا عهد لأحد بها من قبل . غير أن فرجيل وأشعاره الوثنية كانت أحسن وقعاً من نظم برودنتيوس المسيحي في أسماع أرباب الدماء والثقافة من أهل غاليا حتى القرن الخامس الميلادي ، وكان شيشرون أكثر فصاحة من القديس أوغسطين ، وكانت اللاهوتيات المسيحية لا تزال عرضة لمزاحمة الآداب القديمة التي اعتبرها رجال المسيحية في غاليا منبع خطر دائم ، بسبب ما فيها من إغراء . أما في ألمانيا فلم يوجد شيء من تلك المزاحمة بين الثقافتين الوثنية والمسيحية ، ولم تصطدم أعمال البعوث التبشيرية بأية ناحية من النواحي التي ترقى إلى مرتبة الأدب والثقافة ، لأن بونيفاس وأصحابه إنما بشروا بين قوم على الفطرة ، جاهلين متبربرين ، لا يعرفون من اللاتينية والثقافة القديمة وآدابها شيئاً إلا ما تعلموه على المبشرين وأهل الأديرة .

وبينما عكف بيده على تأليف كتابه الخالد بصومعته ببلدة چارو في نورثمبريا ، وبينما دعا بونيفاس للمسيح بين أهل ثورنجيا المتوحشين ، وبينما أصلى شارل المطرقة أساقفة غاليا ورؤساء أديرتها بتحويل ممتلكاتهم الواسعة إلى إقطاعات مدنية ، كانت الليالي والأيام تهيم لحركة جديدة شقت الكنيسة المسيحية نصفين ، وهي الحركة التي أدت إلى نشأة الحلف بين البابوية وملوك الفرنجة ، وغيرت بذلك مجرى الحوادث في غرب أوروبا أعظم تغيير .

ذلك أن حكمة الكنيسة المسيحية هدّت آباءها الأولين إلى قبول ما لم يستطيعوا له منعاً من قديم التقاليد والعادات والمعتقدات ، بدليل استقبال الكنيسة لمبدأ تعدد الآلهة الراسخ بين شعوب البحر الأبيض المتوسط ، وتطويعها ذلك المبدأ لما تقتضيه عقائدها . لذا جعلت الكنيسة من خافي الأرواح التي خشها الوثنيون ملائكة مقرّبين ، ومن صورة إيزيس صورة للسيدة مريم العذراء ، كما جعلت من الأبطال القصصيين قديسين مباركين ، ومن

المهرجانات الوثنية أعياداً مسيحية . وإذا تقبلت الكنيسة ذلك كله إشباعاً
 لمرغبة الملحة في اتخاذ الوسطاء والأولياء من دون الله ، فإنها رحبت كذلك
 بجميع الأشكال المادية التي جعل الناس منها وسيلة للتعبير عما في نفوسهم -
 كائنة ما كانت تلك الأشكال ، فرضيت عن إقامة التماثيل وتصوير الصور :
 كما شجعت عبادة المخلفات الأثرية ، ودعت إلى حج الأماكن التي احتوت
 على تلك المخلفات . وظل الحال على ذلك المتوال حتى كان القرن السابع الميلادي
 وما اتصف به من التدهور العقلي والخلق ، فبدت هذه الناحية المادية من
 الديانة المسيحية هي العليا ، إذ انتشرت عبادة الصور في الكنيسة الكاثوليكية -
 وفي الكنيسة البيزنطية على مقياس أكبر - حتى تراءى للمفكرين أن الاعتقاد
 في الوجدانية أضحي للمسلم واليهودي دون غيره من المؤمنين بالله .

من أولئك المفكرين قامت طائفة كبيرة بجبال أرمينيا والأناضول . وهي
 طائفة البولصيين ، الذين عرفوا بتلك التسمية لأنهم اعتمدوا على أقوال القديس
 بولص في تفسير الدين ، ولم يعترفوا بشيء من قواعد السلوك إلا ما وجدوا له سنداً
 في الأناجيل . فرفضوا شروح الآباء الأولين ، وأبوا سلطة الكنيسة ، وأنكروا
 السر المقدس في العشاء الرباني ، ونبذوا تمجيد الصليب وعبادة العذراء .
 وكانوا في تصونهم وتطهرهم أشبه شيء بالمصلحين البروتستانت في القرن السادس
 عشر الميلادي . ومن جبال الأناضول التي انتشرت فيها تلك التعاليم جاء
 ليو الإيسوري إمبراطور الدولة البيزنطية أوائل القرن السابع الميلادي ، ويبدو
 أنه تأثر برسالة أولئك البولصيين ، ودله عقله العسكري الصارم أن الأعمال
 التي يجمعها قولنا عبادة الصور - أي الأيقونية^(١) - مفسدة لجسم الدولة .
 وأن إنقاذ الإمبراطورية من عادية المسلمين لا يكون على يد الرهبان والمخلفات
 القديمة والتعاويد . وإنما الذي يتقدها هو النظام الداخلي والبسالة في ميادين

(١) أصدق المؤرخون لفظ (iconolatry) على تقديس الصور القديمة المتعلقة ببعض الأحداث
 شهيرة وشخصيتها في الكنيسة المسيحية ، كما أطلقوا لفظ (iconoclasm) على طائفة الكارهن
 تقديس هذه الصور وأشباهاها . ونقل المؤرخون المسلمون هذين اللفظين إلى العربية بنصبهما
 تعريباً ، فقالوا الأيقونيين للدلالة على الراغبين في الصور وتقديسها ، وقالوا اللايقونيين للدلالة على
 طائفة الكارهن لمبادتها ، وسوف يستخدم هذان اللفظان كلما دعت الحاجة فيما يلي دون تعليق (زيادة)

القتال . ولذا أصدر ليو مرسوماً يقضى بتحطيم الصور في أنحاء الإمبراطورية ، وهبت لذلك المرسوم عاصفة من السخط في إيطاليا ، فأضيفت إلى قائمة المشكلات بين الكنيستين اليونانية الأرثوذكسية والرومانية الكاثوليكية — وهي مشكلات الخلاف حول مسألة الطبيعة الواحدة ، والنزاع في أمر الإرادة المفردة ، والمطالبة بالمساواة بين بطريق القسطنطينية وبابا روما — أن الإمبراطور اليوناني الأصل يريد أن يحرم الإيطاليين الصور الدينية المحبوبة . ثم انفجرت الثورة في رافنا ، وقتل أحد الأراخنة اليونانيين ، وجمع البابا جريجورى الثالث سنة ٧٣١ م مجلساً من الأساقفة الإيطاليين ، وأصدر فيه قراراً بالحرمان ضد اللاأيقونيين الذين يحرمون عبادة الصور . وكانت البابوية في موقفها هذا جريئة متحدية ، غير حاسبة لمخاطرتها أى حساب ، اعتماداً منها على ما لقيته من تأييد الإيطاليين . غير أن الأمر الذى يوجب الاهتمام هنا هو أن البابوات لم يستطيعوا الوقوف طويلاً في وجه الإمبراطورية ، وأنهم أخذوا من ثم يبحثون عن جهة يستمدون منها المعونة اللازمة .

ولو أن البابوية اختارت أن تبني سياستها في تلك الظروف على مبدأ التحالف مع المملكة اللومباردية ، لتغير مجرى التاريخ تمام التغيير . ولم يعوز البابوية دليل على ما يبرر ذلك المنهج لو أنها اتخذته قاعدة لسياستها المستقبلية ، فاللومبارديون أظهروا قابلية واضحة للمدنية والحياة المستقرة الآمنة — برغم ما اصططح به مجيئهم إلى إيطاليا من ألوان العنف والوحشية — إذ نبذوا الأريوسية ، ودونوا بعض قوانينهم الأولى في كتب محفوظة ، وما لبثوا حتى بدت عليهم أمارات التقدم في فنون الحياة ، على عهد ملكهم المستنير ليوتبراند (٧١٢-٧٣٢) م . ثم إنهم دلوا على أنهم قوة يعتمد عليها دائماً في أية مشكلة تأتي من ناحية الإمبراطور البيزنطى ، لأنهم منذ حلولهم بإيطاليا سنة ٥٦٨ م لم يفترؤا عن محاربة السيادة الإمبراطورية ، ولم يكن صلحهم مع الإمبراطور سنة ٦٨٠ م سوى هدنة مؤقتة عديمة الأثر في كامن العداء والنزاع بين الطرفين . والسبب في ذلك أن ملوك اللومباردين جعلوا سياستهم الرئيسية أن يقطعوا بين الإمبراطورية وإيطاليا حتى آخر شبر من الأرض الإيطالية ، كما أن الأباطرة

لم يستطيعوا إلا أن يعتبروا اللومبارديين معتمدين على ممتلكاتهم الموقوفة . والخلاصة أنه لم يكن ثمة شك في الأوساط البابوية أن اللومبارديين سوف يبرهنون على أنهم حلفاء غير متحمسون ، ضد الأباطرة اللاأيقونيين الذين قضوا بتحريم عبادة الصور المقدسة .

غير أن البابوية رأت - بعد شيء من المراوحة السياسية بين الصداقة والعداوة - أن اللومبارديين ليسوا أصدقاء بل أعداء ، رغم كثرتهم وتقدمهم في الفنون ، وكراهيتهم للدولة البيزنطية وأهلها ، وهو رأى صحيح دال على مد للعقلية الإيطالية من فراسة فائقة ومهارة في معالجة الشئون السياسية . ذلك أن بافيا عاصمة اللومبارديين جدت قريبة من روما ، وأنه إذا انفرد الملوك اللومبارديون بالسيادة المطلقة في إيطاليا ، فسوف تصبح البابوية أسقفية لمباردية . ولذا قررت البابوية أن تستعين على شئونها بقوة الفرنجة البعيدين ، بدلاً من أن تركز إلى جيرانها اللومبارديين أهل الحروب والأطماع الجارحة ، وأرسل البابا جريجورى الثالث مفاتيح قبر القديس بطرس إلى شارل المطرقة سنة ٧٣٩ م ، وطلب إليه أن يحل محل الإمبراطور في المحافظة على روما . لكن شارل أبى ، ولم تمض على ذلك الحادث ستان حتى أدركت الوفاة ثلاثة من الشخصيات السياسية العظيمة التي ملأت المسرح الأوربي في النصف الأول من القرن الثامن الميلادي - أى الإمبراطور ليو الإيسورى ، والبابا جريجورى الثالث ، وشارل المطرقة .

وجاء إلى المسرح السياسى رجال آخرون ، لكن البابوية لم تغير من سياستها شيئاً . وما زالت الأحداث تجرى لمستقر لها حتى صار ملك الفرنجة وبابا روما إلباً واحداً . زمن بين القصير ثانى أبناء شارل المطرقة والبابا زكريا ، أواسط القرن الثامن الميلادى . وكان بين القصير صديقاً للمبشر الإنجليزى بونيفاس . وكلاهما يبتغى إعلاء شأن البابوية في غرب أوروبا ، وتقوية البعوث التبشيرية إلى ألمانيا ، وإصلاح الكنيسة في مملكة الفرنجة إصلاحاً جديداً . ثم آلت رئاسة البلاط في قسمي مملكة الفرنجة إلى بين ، بعد أن أوى أخوه الأكبر إلى دير من الأديرة معتزلاً أمور الدنيا ، فانفرد بين بشئون الدولة ،

وصار الحاكم الفعلي في البلاد ، وما لبثت البابوية أن كافأته على موقفه من الكنيسة - فضلاً عن تقواه التي أظهرها سياسة أو حماسة للدين - إذ أفناه البابا زكريا على سؤاله إذا كان من الصواب أن يصبح الحاكم الفعلي ببلاد الفرنجة حاكماً رسمياً كذلك ، بقوله بأنه يصح له شرعياً أن يخلع الميروثنجيين . وأن يتخذ التاج لنفسه . وعمل پيپن بتلك الفتوى ، وتوجه المبشر بونيفاس الإنجليزى ملكاً على الفرنجة ، في كندراثة سواسون ٧٥١ م .

ثم طرأ على البابوية ما حملها على مطالبة الكارولنجيين بأمر كفاء ما أسدته إليهم من خدمة جليلة ، وذلك حين تبين لها أن إيستولف - ملك اللومبارديين الجديد - يريد أن يروى غلته الحربية العامة ، بالاستيلاء على الأراضي الإمبراطورية والممتلكات البابوية في إيطاليا مرة واحدة . ولقيت جيوش إيستولف من النجاح ضد الإمبراطوريين ما أثار أخوف المخاوف في قلب البابا ستيفن ، فأسرع في الذهاب إلى پيپن بناء على دعوة جاءت من عنده . وعبر جبال الألب إلى فرنسا على علم من إمبراطور القسطنطينية ، وعقد مع ملك الفرنجة ميثاقاً مشهوداً سنة ٧٥٣ م ، إذ أنعم على پيپن بمرتبة البطريركية الرومانية - ومعناه أن پيپن صار من أشرف روما وحماها الدائدين عن بيضتها - كما بارك له ولولديه بعده في الملك تبريكاً دينياً للمرة الثانية . وأخذ على الفرنجة الموائيق والعهود أن يختاروا ملوكهم من أعقابهم دون غيرهم . وفي مقابل ذلك كله تعهد پيپن بإعادة المدن التي استولى عليها اللومبارديون من الإمبراطوريين ، لا إلى صاحبها اللاأيقوني هادم الصور المقدسة . بل للدولة البابوية ، وكنيسة القديس بطرس . وقام پيپن بما تعهد به ، فحارب اللومبارديين حربين قصيرتين تطلبتا منه الحجة إلى إيطاليا مرتين ، حتى أجزهم عن البلاد التي استولوا عليها منذ وفاة ملكهم ليوتبراند ، ثم سلمها جميعاً إلى البابوية تسليماً في غير من أو استعلاء .

هكذا نشأت الدولة البابوية التي حكمها نفر من رجال الدين مدة تربو على أحد عشر قرناً ، وكانت معظم تلك المدة مسرحاً لسيل من القوضى لا ينقطع إلا في النادر القليل ، وهذا هو أصل الدولة التي ظلت عقبة كؤوداً في

سبيل توحيد إيطاليا . وبقيت حجة وسيباً للغزوات الأجنبية والمؤامرات .
وليس من سرف الخيال هنا أن بعض العقول المتزنة في القرن الثامن الميلادي
ربما تظن في صحة دولة لا تتركز على شيء أفضل من وقعتين حربيتين عنيفتين .
ومن أجل الرد على أصحاب تلك العقول المتظنتة — إن وجدوا في ذلك العصر —
طبخت الوثائق المعروفة في التاريخ باسم الوثائق المزيفة طبخة دينية طيبة ،
إذ اكتشف المكتشفون في الوقت المناسب أن الإمبراطور قنسطنطين وهب
إبان اعتناقه المسيحية في القرن الرابع الميلادي جميع إيطاليا والقسم الغربي
من أراضي الدولة الرومانية للبابا سلقستر . ولم تمنع المغالاة الواضحة في تلك
القصة من قبولها — حتى بعد قرون من ظهورها — لدى رجال اشتهروا بالعداء
الشديد للمطامع الدنيوية في أغراض البابوية والكنيسة . والفضل كل الفضل
لتلك القصة فيما نظمته دانتى في الكوميديا الإلهية من بالغ التشهير بقنسطنطين
في الجحيم والحنّة سواء . وذلك بعد خمسمائة سنة من وفاة الرجل التقى النقي
مؤلف الوثائق المزيفة .

وتوفى الملك پيپن سنة ٧٦٨ م عن ولدين اثنين . وشاءت العناية الإلهية
أن يموت أصغرهما ، وهو كارلومان بعد ثلاثة أعوام من وفاة پيپن ، فاستولى
شارلمان — وهو الأكبر — على أملاك أخيه . وصار له الملك في دولة الفرنجة وحده .
فمَضِلَّ من الله ونعمة . على قول راهب من خيرة الرهبان تذكراً لشارلمان
في إحدى المناسبات . وهكذا جرت المقادير في أعينها . وظلت مملكة الفرنجة
ثلاثة وأربعين عاماً بنجوة من بلاء التقسيم الذي لم يستطع پيپن على قوته
وسطوته أن يتجنبه . وهكذا خلا الجو لما سوف يقوم به شارلمان من عمل نافذ
ناجز . فبرهن على أنه جدير بما اتفق له من حظ ، ودل على ما اتصف به
من جسارة في تؤدة . ولطافة في حزم . وألفه في هيبة ، فضلاً عما امتزج
في نفسه من حب الانغماس في أنواع اللذة والشهوة . مع المهارة في السياسة
وشئون الحكم . وسعة الأفق وقوة الإدراك ، ودقة الذاكرة وصلابة الإرادة .
ومن أسرار قوة شارلمان أنه لم يحاول أمراً من الأمور المستحيلة ، ولم يطلب إلى
رعيته أن تقوم على إنجاز ما ليس في طاقتها أن تنجزه . وبدا شارلمان في أعين

الفرنجة نموذجاً للقائد العسكرى الذى تجب عليهم طاعته ، إذ كان طويل القامة بديناً ، موفور النشاط والحركة والهيبة والعزم ، ذا عينين زرقاوين لامعتين ، وأنف أقى ، وغير ذلك من صفات الجندى المجاهد فى سبيل الدين . وأحب شارلمان أغانى الفرنجة القديمة ، واستخدم اللسان الفرنجى دون اللاتينى فى مخاطبة الناس ، ولبس الملابس الفرنجية التقليدية - وهى الأحذية العالية الرقبة . والجوارب الطويلة الحمراء ذات الأربطة المتقاطعة ، والقباء القصير من قماش الكتان . والعباءة المربعة من الصوف الأبيض أو الأزرق كما اشتهر ببساطة العيش . والاعتدال فى المظم والمشر ، مما جعل شخصيته العفية القوية موضع الإعجاب والمحبة من جميع الناس . وإذ برهن شارلمان فى مختلف النواحي من حياته اليومية على أنه ملك فرنجى صميم ، فإنه توخى فى كل المسائل الخاصة بالثقافة والدين أن يستجيب إلى ما يأمر به رجال الكنيسة الكاثوليكية ، وأن يعمل على بسط نفوذهم بين الناس .

ولم يمض على شارلمان فى الحكم إلا قليل حتى أخذت سلسلة من الحوادث تجرى نحو نتيجة مشابهة لما استقام لأبيه پيبن من وثيق الحلف مع البابوية ، إذ أغار ملك من ملوك اللباردين - وهو ديدير ، ويقال ديزيدير - على الممتلكات البابوية ، كما حدث زمن پيبن ، واستنجد البابا بملك الفرنجة سنة ٧٧٣ م ، فى أحوال أشبهت ما سلف من أحوال ، وجاء ملك الفرنجة إلى إيطاليا تلبية للبابوية كما لبأها أبوه من قبل . ولم يوجد فى هذا القياس من فارق سوى ما بدا على الحوادث من عنف وشدة فى الدور الثانى من تلك القصة ، فضلا عن القوة التى امتازت بها شخصيات ذلك الدور ، مما جعل النتيجة فيه حاسمة قاطعة . ذلك أن العداوة كانت مستحكمة الحلقات بين شارلمان وديدير قبل هجوم الملك اللباردى على رافنا وتهديده روما ، بسبب زواج شارل من ابنة ديدير وكرهه لها كرهاً أدى إلى الطلاق ، ثم إيواء ديدير لأولاد كارلومان وإلحاحه على البابا أن يتوجههم ملوكاً فى إرث أبيهم . لكن البابا هادريان - وهو النبيل الرومانى المتكبر الرصين - لم يكن من السذاجة بحيث يشتري عداوة شارلمان - وما فيها من خطر على البابوية - بصدقة الملك

المباردى الكريه ومحالفته المعيبة ، بل استنجد بشارلمان حامي روما وبطريقها ، فلم يلبث شارلمان أن أنجده بجيش فرنجي كبير جاء على رأسه إلى إيطاليا سنة ٧٧٣ م . وحارب شارلمان ملك اللبارديين حتى أنزله من عرشه ، بعد أن انتصر عليه انتصاراً كاملاً غير منقوص : وخسف البيت اللباردى ، بعد أن حكم ملوكه معظم إيطاليا مائتين من السنين . واتخذ شارلمان لنفسه تاج المملكة اللباردية . وأمر أن يذهب آخر ملوك اللبارديين إلى دير من الأديرة ، ليقضى حياته في صومعة صوامع التنسك .

واستطاع شارلمان أثناء الحملة الإيطالية أن يذهب إلى روما سنة ٧٧٤ م ، حيث استقبله رجال الكنيسة — الشاكرون له صنيعه — استقبلاً حافلاً خاشعاً . وكان عمر شارلمان وقتذاك اثنتين وثلاثين سنة ، ولم تسبق له رؤية روما وعجائبها ، من كنائس رومانية مبثوثة . ومخلفات دينية ذات معجزات ذائعة ، وقساوسة صقلتهم حياة الدين ، وتراويل جريجورية ملؤها سحر ورنين ، وطقوس دينية مرتبة أحسن ترتيب . ولذا تركت تلك الزيارة أعمق الأثر في عقله الغض ، كما خلقت في نفسه الساذجة ذكريات لم تستطع محوها السنون . والمعروف أن زيارة مشابهة — بعد سبعة قرون من ذلك التاريخ — أدت بالمصلح الألماني مارتن لوتر إلى الخروج على الكنيسة الكاثوليكية والمذهب الكاثوليكي ، لكن روما الرائعة أحدثت عكس ذلك في قلب شارلمان ، إذ ألفاها غنية بكل مظاهر الرضا الإلهي إلى درجة منقطعة النظر . ولا بد أنه وقف خاشعاً هنيهة حين رأى تابوت المهد المقدس . وحين وقعت عينه على رأس القديس بطرس ورأس القديس بولص . وكيف لا يكون ذلك وهو حين يجبل بصره ذات اليسار أو ذات اليمين يرى فيما يرى قاروريتين فيهما ماء ودم مما تنزى من جنب المسيح ، وهو يعالج سكرات الموت مصلوباً^(١) ، أو يرى القباء الأرجواني الذى لبسه المسيح حتى آخر يوم من حياته في الأرض ، أو يرى قطعة من خشب المهد الذى كان به المسيح حين جاءه الحjos مصدقين . ولا بد أن شارل رأى غير ذلك من أكداس المخلفات التى احتوت عليها روما ، مثل مائدة

(١) على المؤلف هنا بذكر المخلفات الدينية المتعلقة بالعقائد المسيحية الكاثوليكية . (زيادة) .

العشاء الأخير ، وصورة المسيح التي قيل إنها من رسم القديس لوقا الإنجيلي ، بل قيل على لسان بعض الخياليين الجريئين إنها من رسم الله سبحانه وتعالى . ولا بد أن شارلمان أحس وهو يصلي بكنيسة القديس بطرس بأنه هكذا تكون الصلوات ، حيث ترنّ التراتيل الدينية رنيناً كأنه من أصوات الملائكة ، وتؤدي العبادات أداء بالغاً في الروعة والجلال ، بالقياس إلى ما ألفه شارلمان في بلاده من طقوس العبادات . فلا غرو إذا عزم شارل على نقل تلك الطقوس — وما يلزمها من نظم كهنوتية رومانية — إلى دنيا الفرنجة ، ولا عجب أنه صادق على هبة أبيه بيبين . وهي الهبة التي تأسست على مقتضاها دولة البابوية بأواسط إيطاليا . بل يبدو أن شارلمان زاد عليها ، وبذا جعل من البابا صديقاً صدوقاً .

وبعد ست وعشرين سنة من تلك الزيارة ، جاء شارلمان مرة أخرى إلى إيطاليا . بسبب مسألة بابوية أعقد وأخطر مما أتى من أجله أول مرة . وفحوى تلك المسألة أنه إذا اتهم أهل روما البابا — وهو وقتذاك ليو الثالث — بتهمة السيمونية^(١) والزنا والحنث بالإيمان ، وانقضض عليه أعداؤه في شارع من شوارع روما انقضاءً مهيناً ، ثم أسعوه ضرباً حتى أشقى على الهلاك . وهو ما حدث فعلاً للبابا ليو الثالث يوم الخامس والعشرين من أبريل سنة ٧٩٩ م . ثم إذا خلصه أصدقاؤه من أيدي أولئك الطغام ، وذهبوا به إلى مدينة بادربورن بالشمال الغربي من ألمانيا الحالية ، حيث عقد الملك شارلمان الفرنجي بلاطه . فمن يكون زعيماً بالفصل في تلك القضية التي يقف فيها خايفة المسيح على وجه الأرض موقف المتهم ؟ هنا قال أصحاب الرأي بغرب أوروبا إن الفصل في تلك القضية لا يمكن أن يكون من اختصاص السيدة الأثينية الجميلة ريني ، التي أقامت نفسها إمبراطورة في الدولة البيزنطية بالقسطنطينية ، بعد

(١) السيمونية (Simony) لفظ كنسي جرى في مصطلح المصور الوسطى ، ومعناه تعيين رجال الدين في الوظائف الكنسية بطريقة يبيع هذه الوظائف أحياناً لمن يدفعون فيها ثمناً عالياً ؛ وأسأت هذه الطريقة إلى سمعة بعض الباباوات والكنيسة الكاثوليكية في بعض العصور . وهذا اللفظ مشتق من اسم سيمون الساحر الذي أراد الحصول على بركة الروح القدس من أحد الرسل أتباع المسيح عليه السلام بمال قدمه لذلك الغرض ، فليقوم هو على بيع هذه البركة بثمن معلوم للراغبين في اعتناق المسيحية . انظر كتاب العهد الجديد ، أعمال الرسل ، الإصحاح الثامن ، سطر ٩ — ٢٥ . (زيادة).

أن أمرت بسمل عيني ابنها قنسطنطين السادس ، وحكمت عليه بالسجن ليقضى حياته فى ظلام ليس بعده ظلام . ذلك أن ربنى لم تصلح - لا هى ولا ابنها اللاأيقونى التعس - أن تكون حكماً فى قضية البابا ، برغم ما اشتهرت به من التقوى والأيقونية^(١) . وبرغم حاشيتها من الرهبان ، وإشادتهم بورعها وتقواها ، إذ ليس فى وسع امرأة - أقل ما يقال فيها أنها يونانية قاتلة - أن تكون إمبراطوراً رومانياً . هذا ما استيقظ له الناس من حقيقة مفاجئة سنة ٨٠٠ م ، وهو أنه ليس فى طول الدنيا وعرضها إمبراطور صالح ترضى حكومته . ولا بابا خالص من شوائب الاتهام .

والدنيا فى نظر الناس فى تلك العصور إذا خلت من إمبراطور يحكمها ، وبابا يهديها سواء السبيل . فصيرها لا محالة إلى خراب مسيطر وفوضى عاجلة . ولابد من شخصية تذود عن بيضة المسيحية . وتصون التراث الرومانى وتقاليده . وتقوم على محاكمة البابا المشكوك فى أمره . وتضاهى بين حكومتها وخلافة عبد الرحمن الأموى بقرطبة . أو خلافة هارون الرشيد ببغداد . ولم يكن أقرب إلى تلك الشخصية المطلوبة من شارلمان . الذى بلغ من شهرته الذائعة وقتذاك أن بطريق مدينة بيت المقدس أرسل إليه مفاتيح الأماكن المقدسة طلباً لحمايته . بعد أن يشس من حماية الإمبراطورية البيزنطية .

وعلى هذا فلا سبيل إلى الشك فى أن شارلمان فكر ملياً فى الوظيفة الإمبراطورية الشاغرة ، وهو فى طريقه إلى إيطاليا صحبة البابا ليو الثالث خريف سنة ٨٠٠ م ، وأنه رأى أن لا سبيل إلى سدّ ذلك الفراغ الهائل إلا بتبثيرة البابا وإقامة إمبراطور على الإمبراطورية . غير أنه يبدو أن شارلمان لم يقرر فى نفسه طريقة الوصول إلى هذين الهدفين . بل ترك الأمر لما سوف تتمخض عنه الصدفة والمقادير . أما البابا ليو فأبرأ نفسه من جميع ما نسب إليه . بحضرة شارلمان ، فى مجمع كبير من رجال الدين من الفرنجة والرومان . وأقسم بذلك على الإنجيل بكنيسة القديس بطرس ، يوم الثالث والعشرين من ديسمبر تلك السنة . وفى الخامس والعشرين . وهو يوم عيد الميلاد عند المسيحيين . بينما

(١) انظر ما سبق ، ص ٩٥ . (زيادة) .

ينهض شارلمان من ركعته ، بعد اختتام صلاة بكنيسة القديس بطرس -
تقدم نحوه البابا ليو ، ووضع التاج الإمبراطورى على رأسه . فهلل المصلون .
وهتفوا هتافاً يبدو من عبارته أنه لم يكن عفو الساعة بل نتيجة اتفاق سابق ، إذ
صاح المصلون فى صوت واحد « يعيش شارل أغسطس المعظم ، يعيش الإمبراطور
المتوج بفضل الله ، يعيش شارل المنصور » (Korolo piissimo Augusto a
Deo coronato vita et victoria) . وهكذا بعثت الإمبراطورية ، وصار لغرب
أوروبا إمبراطور روماني مرة أخرى .

ومن المحتمل كذلك أن شارلمان تبرم بالطريقة المفاجئة التى تمّ عليها
التتويج ، كما يشير أينهارت صاحب سيرته ، لأنه لم يسبق فى تاريخ
الإمبراطورية بالغرب أن إمبراطوراً تلقى التاج من يد البابا ، على أن ما بنته
البابوية من الحقوق المستندة إلى ما حدث - فى حفل عيد الميلاد تلك السنة -
لم يبرز إلا بعد قرون ؛ وعلى أية حال لم تكن طريقة التتويج مدعاة للاهتمام
وقتذاك ، بقدر ما كان لوقوع التتويج نفسه من أهمية بالغة . ثم إن اللقب
الإمبراطورى لم يجرّ فى أذنيه مالا أو أرضاً ، ولم يصبح شارلمان بسببه صاحب
سلطان فى إسبانيا أو بريطانيا أو أفريقية التى كانت كلها ولايات تابعة
للإمبراطورية الرومانية فى سالف الأمد . بل لم يجلب اللقب الإمبراطورى
إلى شارلمان شبراً من لومبارديا التى أخضعها وتملك عليها قبلاً ، وما كان لذلك
اللقب أن يضيف إلى خدمته جندياً واحداً ، أو سفينة حربية واحدة . وعلى
الرغم من ذلك كله لا ريب فى أهمية ما حدث من إحياء الإمبراطورية
الرومانية فى الغرب ، إذ بفضلها تكون الشعور بالوحدة الأوربية تكوينه
السياسى الأول ، وهو الشعور العميق الذى ظهر واضحاً أزمنة الشدة والحرج
عبر القرون ، مثل هيئة التحالف الأوروبى فى مطلع القرن التاسع عشر
الميلادى ، وهيئة عصبة الأمم فى أول القرن العشرين .

ومما يجعل شارلمان جديراً بما نال من شهرة وفخار ، أنه استأدى نفوذه
الواسع لتشجيع حركة الإحياء الفكرى بقيادة أوروبا ، بعد أن تردت أوروبا
فى غياهب الأمية منذ انهيار دولة الرومان . غير أن النهضة الشارلمانية أعوزتها

صفات الجمال والحرية والجرأة التي اتصفت بها الحركة الإنسانية في العصر الذي يفصل بين بترارك وجاليليو - وهو عصر النهضة الأوروبية العظمى - وذلك لأن الأدب في نظر شارلمان وعقله المتدين لا ينبغي أن يعدو خدمة الدين . ولم يطلب شارلمان إلى أهل العلم الذين اجتذب إلى بلاطه من أنحاء البلاد الأوروبية ، أن يكتشفوا حقائق جديدة لتنوير الإنسان ، لأن الكتب المقدسة وسع نورها السموات والأرض ، وبها مفاتيح الحق والهدى إلى سواء السبيل ، وذلك برغم ما بمتونها وقتذاك من نصوص غامضة وعبارات مغلقة . فطريقة أهل العلم في نظر شارلمان أن ينسخوا من الكتب المقدسة نسخاً واضحة الكتابة سهلة القراءة ، ليدرسوها ويتأملوا فيها ، ولا جناح عليهم إذا اقتضى الأمر تعديل عباراتها أو توضيح نصوصها بشروح من عندهم ، لإفهام تلاميذهم ولكي يصبح بالدولة رجال مؤهلون للقيام على تلك الشئون العلمية في غير انقطاع ، أمر شارلمان جميع الأسقفيات والأديرة في الإمبراطورية أن تعنى بأمور التعليم .

غير أنه ليس من العدل أن يكون الحكم على الحركة الفكرية في ذلك العهد مستنداً إلى الأدب فحسب ، لأنه - باستثناء كتاب أينهارت في سيرة شارلمان - أدب لا يعلو عن المتوسط ، والضوء فيه لا يرى إلا بمقارنته بالظلام الذي خيم على أوروبا في القرون السابقة لعهد شارلمان . أما الجدير بأن يكون مادة للحكم على الحركة الفكرية الشارلمانية ، فهو المكانة الجديدة التي صارت للعلم والتعليم بالبلاط وسائر البلاد . منذ قيام شارلمان في المملكة ، والتفاف العلماء من كافة الدول الأوروبية حول الملك ، وتأليفهم مدرسة القصر التي أمر شارلمان بانتقالها معه أينما سار ، حتى في حملاته الحربية . يضاف إلى ذلك ارتفاع الكلفة بينه وبين أولئك العلماء في مجالسه ، وإصراره على معرفة القراءة والكتابة لدرائعين في الوظائف الدينية والترقية إلى المراتب العالية في الكنيسة ، فضلاً عن إنشائه المدارس في الأسقفيات والأديرة ، وتشجيعه نسخ الكتب وتصحيحها وجمع المفقود منها ، ولذا فمن الواضح أن الابتكار لم يكن من طاقة ذلك العصر ، ولا سيما إذا عرفنا أنه لا توجد وقتذاك فكرة عن العلم بالمعنى الحديث ،

ولا تفكير علمي فيما وراء أوروبا من البلاد ، ولا ثمة نزوع إلى الاستكشاف .
والواقع أن ذلك العصر لم يكن بحاجة إلى الابتكار أو المبتكرين ، بل إلى الرجال
القادرين على استعادة ما فقد وصيانة ما يستعاد ، أملا في بناء مجتمع مستنير
وسط ظلام الممجية الضاربة .

ولولا مصابيح العلم والأدب التي أضاعت بضعة من بلاد غرب أوروبا
بشيء من النور وقتذاك ، لما استطاع شارلمان أن يحقق شيئا من ذلك الأمل ،
ولقامت في وجهه صعوبات أشد مما قام منها فعلا في وجهه . ذلك أن جزير
أيرلندا وإنجلترا بقيتا مدة القرنين السابع والثامن الميلادي بنجوة من الأحداث
الخطيرة التي نزلت بالقارة الأوروبية على يد المسلمين ، فلم تنصرفا - برغم
ما ثار بكل منهما من حروب داخلية - إلى مثل ما انصرفت إليه فرنسا وغيرها
من البلاد التي أنهكتها الإغارات الإسلامية ، بل ظلنا في حال من الأمن
الخارجي ، فأضاء العلم والتقوى بعض المدن في كل منهما - مثل أيونا وأرماخ
وجارو ويورك - بضوء لامع متقطع النور . واشتهر بالجزيرتين وقتذاك شهرة
غير قليلة رجل ضليع في اللاتينية ، ذو معرفة باليونانية وقليل من العبرية ،
وهو ألكوين الذي ولد وتربى بمدينة يورك عاصمة المملكة النورثمبرية بشمال
إنجلترا ، حيث تمازجت المؤثرات الرومانية والأيرلندية أحيانا وتصادمت أحيانا
أخرى ، مما جعل العناية بالأدب فيها واضحة العلامات ، وجعل خزائن الكتب
في مدينة يورك تبدو زاخرة ، بالقياس إلى أمثالها من الخزائن بغرب أوروبا
غداة مجيء شارلمان إلى عرش الفرنجة .

ولذا وضع شارلمان أمله في مدينة يورك ، واتخذ ابنها ألكوين مستشاره
الروحي ، وتهيأت الفرصة لذلك العالم الإنجليزي الذي يرجع أصله إلى أسرة
نبيلة ، حين دعاه ملك الفرنجة لوصف الدواء الفكري لإنهاض إمبراطورية
هوت من ساطع النور إلى مهاوى الظلمة والضلال . جاء ألكوين إلى بلاط
شارلمان لتحقيق ذلك الأمل ، بقلب عامر بالإخلاص والهمة ، ونفس تفيض
بالحماسة والنشاط ، وموهبة ملؤها القدرة على الكتابة والنقل من السالفين
في أسلوب بليغ ، فتنظم القصائد اللاتينية في مدح شارلمان ، وكتب الرسائل

الكثيرة في التربية والتعليم والأخلاق ، وألف في الرد على هراطقة الإسبان الذين قالوا بأن المسيح ليس كلمة الله ، وإنما اتخذه الله ولداً ، مما لا يحفل الناس بقراءته في العصر الحاضر خشية الملل . غير أن ألكوين في عصره لم يقل عن أحد من عظماء الشخصيات التاريخية التي كونت من نشاطها وموانستها وحماستها جواً صالحاً للتقدم الفكري ، بقطع النظر عما هو معروف من نقص الموهبة الابتكارية في ألكوين بالذات . ويكفي لمعرفة قيمته الحقيقية أن مدرسة القصر التي أنشأها ألكوين ببلاط شارلمان خلقت مستوى جديداً في عالم الثقافة ، وأن أصل التشريع الذي عين مسئوليات الكنيسة في ميدان التعليم ، وما ترتب على تلك المسئوليات من إقامة المدارس بمختلف الأسقفيات والأديرة ، إنما يرجع كله إلى تأثير ذلك الإنجليزي العنفي الدعوب الأنيس . وإليه كذلك يرجع الفضل في بدء ما تطلبت به النهضة العلمية وقتذاك من عمل هائل في نسخ المحفوظات ، وتحريرها وضبطها وصيانتها ، وهو أقصى وأعظم ما استطاع ذلك العصر أن يسهم به في مضمار التقدم البشري ؛ وكفى أن أقدم النسخ الخطية من كتب الأدب اللاتيني القديم وعددها اثنا عشر كتاباً ، إنما يرجع الفضل في صيانتها إلى نساخ النهضة الشارلمانية .

وما يوجب الانتباه من أعمال ذلك العهد العظيم أن ألمانيا دخلت نهائياً دائرة الإمبراطورية الفرنجية والكنيسة الكاثوليكية ؛ وهو ما لم تستطع دولة الرومان أن تقوم به يوماً من الأيام ، برغم فتح غالبا على يد يوليوس قيصر ، أي منذ القرن الأول قبل الميلاد . والحقيقة — على قول أينهارت في كتاب السيرة الشارلمانية التي تعتبر على قصرها نموذجاً في كتابة السير — أن شارلمان لم يضاعف من مساحة الدولة التي ورثها عن أبيه فحسب ، بل إنه أخضع لحكمه جميع القبائل المنتشرة فيما بين الراين والفيستولا . واختار شارلمان من الطرق الحربية لإنجاز تلك العملية الهائلة طريقة الضرب في غير هوادة أو كلل ، مهما تكن المقاومة ، حتى اقتحم العقبتين اللتين وقفنا حجر عثرة في سبيل تقدم المسيحية في أوروبا الوسطى ، وهما كتلة السكسونيين في وسطها بغرب ألمانيا الحالية ، وكتلة الآفاريين الذين ازدادوا وحشية على وحشيتهم بما نهبوا من

مدن البلقان ، وتصعدوا للجيش الشارلمانية عبر الدانوب الأوسط . ولذا ظل شارلمان يحارب السكسونيين ثلاثاً وثلاثين سنة - كلها عنف ومقاتل - حتى أخضعهم وحوطهم قسراً إلى الديانة المسيحية ، كما تطلب ثمانى رحلات حسوماً متتابة حتى هدم الآفاريين الذين قيل عن أسلاب كنوزهم المقدسة إنها رفعت شارلمان من على الغنى والثورة إلى شاهق الفيض والوفرة . وكيفما كان الأمر ، فالذى يدعو إلى الملاحظة هنا هو أن العمل الذى قام به شارلمان لم يحتاج إلى عودة مرة أخرى ، إذ دخل السكسونيون المسيحية ، واختفى الآفاريون من مسرح التاريخ إلى كتبه ، وامتد تيار النفوذ الفرنجى امتداداً دائماً ويبدأ يحمل فى طياته بذور الحضارة المسيحية اللاتينية شرقاً ، صوب الأراضى التى هى الآن بولندا وبوهيميا والنمسا والمجر .

ولو شاء شارلمان أن يغير من حضارة ألمانيا أو يصبغ أهلها من السكسونيين بالصبغة اللاتينية ، كما فعل يوليوس قيصر فى غاليا بعد فتحها ، لما استطاع إلى ذلك سبيلاً ناجحاً ، لأن السكسونيين الذين تغلقوا بألمانيا ، ولم ينتقلوا مع إخوانهم إلى الشواطئ البريطانية ، تعلقوا بدين آبائهم أشد التعلق ، واعتصموا بحبله أوثق الاعتصام ، وساعدتهم غاباتهم الكثيفة على صيانه وإقامة شعائره اعتزازاً بوطنيتهم التى أفناها شارلمان . ولذا قاوم السكسونيون مقاومة المستميت جميع البعثات التبشيرية المسلحة التى أنفذها شارلمان لنشر المسيحية فيهم . وظلوا على مقاومتهم هذه بقيادة زعيمهم ويدوكند حتى هدمتها الجيوش الشارلمانية ، فحطمت أصنامهم ، وأحرقت أحراسهم المقدسة وما فيها من المعبودات وشاهق الشجر ، وهددت معالم استقلالهم ، وأجبرتهم على اعتناق الدين المسيحى الذى قذف به الغزاة فى حلوقهم بحدّ السيف . وعلى الرغم من ذلك كله بقى السكسونيون على إخلاصهم القديم - وشأنهم هنا شأن العناصر الجرمانية كلها فى التاريخ - ، فظل وتان إله الغابات الخضراء أقرب إليهم من المسيح . ولم يجعلوا من النظرة اللاتينية المبنية على الوضوح والدقة والنظام نموذجاً لهم يوماً من الأيام ، بل احتفظوا بلغتهم ، واحتفظوا معها بروح الغموض والحدة والعنف ، مما اختص به الخلق الجرمانى بالقياس إلى الخلق اللاتينى .

غير أنه ليس ثمة ما يدعو إلى الاعتقاد بأن شارلمان باء بفشل ذريع على قول بعض المؤلفين الفرنسيين ، أو أن المجهود الجبّي الهائل الذى بذل فى عهده الحارق ضاع سدى أو ذهب هباء ، لأن الغرض الذى استهدفه شارلمان فى حروبه وحملاته — وهى البالغة ثلاثاً وخمسين حملة ، والشاملة لجميع الجبهات الأوروبية ، من بلاد الدانين ، والسلافين ، والسكسونيين ، والآفارين والداماشيين ، واللومبارديين ، والإسبانيين كذلك — لم يكن مجرد إلقاء درس قاس لتفهيم تلك الشعوب معنى الروح اللاتينية ، بل قصد شارلمان أن يحى العقيدة الكاثوليكية التى سار عليها غرب أوروبا من عادية أعدائها الذين هددوها من كل صوب وحذب . ومعنى ذلك أن النضال لم يكن نضالاً بين اللاتينى والتوتونى ، أو بين الغاليروماني والجرماني ، بل بين المسيحيين اللاتين فى غرب أوروبا — من الجرمان والغالين والرومانيين والإسبانيين سواء — والقوات المحدقة بهم من جميع الجبهات المعاندة للمسيحية . وخرج شارلمان من ذلك النضال ناصراً منصوراً ، إذ أمن أوروبا الوسطى للكنيسة الرومانية ، وجعل السكسونيين والبافارين المغلوبين فى أقصى الإمبراطورية على قدم المساواة مع الفرنجة الفاتحين ، وبذا خلق ألمانيا من العدم ، وأدخلها فى حيز الوجود السياسى . وإذا هو لم يفلح فى هدم الشكيمة العربية فى إسبانيا ، ولم يلق فى طريق رجوعه من شبه الجزيرة الإسبانية سوى الهزيمة على أيدي الغسقونيين والبسقاوية الذين اعترضوا جيوشه فى ممر رونسفال بجبال البرانس ، فإن تلك الهزيمة الوحيدة فى تاريخ شارلمان أسبلت عليه من ساطع المجد ما لم تستطعه الانتصارات الكثيرة ، بفضل الخيال القصصى الذى أضفى على حملته الحربية فى وادى نهر الإبرو شمال مدينة برشلونة هالة من هالات الحروب الصليبية ، ونسجت حول اسم قائده رُولان الذى خر قتيلاً فى ممر رونسفال ما لا حصر له من أكاليل الشعر والأغاني .

ولما مات الإمبراطور العظيم سنة ٨١٤ م ، تفرقت إمبراطوريته الشاسعة أجزاء ، ومن تلك الأجزاء كانت أصول معظم الدول الحديثة فى غرب أوروبا . أما السبب فى ذلك التفرق ، فهو أن شارلمان لم ينجح فى تأسيس حكومة

مركزية تستطيع البقاء بعد ذهاب شخصيته القوية ، وربما كان إخفاقه في ذلك الأمر نعمة من النعم في التاريخ الأوربي . ولذا وجب البحث في النواحي الأخرى من أعماله الكثيرة لمعرفة الناحية التي اهتم فيها بالنجح ، ومن أجلها استحق الخلود ، وتلك أنه اعتلى العرش في زمن أظلمت فيه آفاق المستقبل السياسي واضطربت ، وضعفت فكرة السلطة العامة حتى تضاعلت ، وشجبت مصابيح العلم والأدب حتى انطفأت أو كادت ؛ فأجاءها شارلمان ونادى أن تقف الوثنية وتيارها ، وأن تخدم القوضى ونارها ، وأن تنقش الجهالة وظلمتها المطبقة على الناس . وإلى شارلمان كذلك يرجع الفضل في تعيين الصورة الجغرافية التي ثبتت عليها المسيحية اللاتينية في أوروبا منذ أيامه حتى العصر الحاضر ، وإلى دأبه المتصل يرجع الفضل في الإحياء الفكري العظيم . كما يرجع الفضل إلى روحه المتوثبة وحيويته الفياضة في تأسيس فكرة الحكومة القوية المتمدينة التي تهتم بنشر الدين ، وإقرار العدل واستماع شكاة الرعية ، فضلاً عن التوسع في التعليم وصيانة العلم . وإذا كانت المنشآت العامة والنظم المركزية التي أفردتها الإمبراطور بعنايته ، وتولاها برعايته ، لم تستطع أن تعيش طويلاً بعده ، فإن الإقليميين من الدوقات والكونتات وغيرهم من الإقطاعيين تمكنوا تحت حماية حكمه الطويل أن يبنوا لأنفسهم ثروات خاصة ، وأن يجعلوا لأسراتهم سلطات وحكومات مركزية لم تلبث أن أضحت دولا صغيرة . قادرة على حماية نفسها ضد أي هجوم خارجي مفاجئ ؛ واستطاعت هذه الدول أن تحفظ شيئاً من تراث اليونان والعرب والرومان . لأنها قامت على أسس في الحكم الذي وضع نموذج شارلمان .

ومحور ذلك النموذج هو السلطة الشخصية لا الحكم الاستبدادي المطلق . لأن الإمبراطور الذي لم يباشر سلطانه عن طريق جيش نظامي تقوم الإمبراطورية على رواتبه ، ولم يعتمد على بيروقراطية منظمة لتصرف شئون الإدارة والحكم ، بل لم تستند ماليته على دخيلة أو ضريبة معينة تأتي إلى الخزينة نقداً ، لا يستطيع أن يسيطر على أمور الدولة إلا من ناحية السلطة الشخصية والنفوذ الواسع ، ولا يستطيع طبعاً أن يقوم بدور الحاكم المستبد المطلق . ومن

الدليل على ذلك مجالس الأعيان (placita generalia) التي اجتمعت في المناسبات الكبرى لبحث حاجات الدولة وشئونها العامة ، حيث غدا شارلمان هو الممثل لمصالح الرعية ، لا الموظفون الذين يظلمون الفقراء ويرهقونهم بالمطالب الباهظة . ثم إنه ليس في الإمكان أن تستقيم السلطة في دولة كبيرة على قاعدة الاستبداد والحكم المطلق ، دون أن يكون هناك نظام حكومي ثابت الأركان ، وهو ما لم يوجد في الإمبراطورية الفرنجية ، أو غيرها من الدول في العصور الوسطى . يضاف إلى ذلك أن شارلمان خطا خطوات ضرورية نحو اللامركزية في إمبراطوريته ، فأسند الحكم في إيطاليا إلى ابنه بيپن ، وفي أقطانيا بالجنوب الغربي من فرنسا الحالية إلى ابن آخر ، وهو لويس .

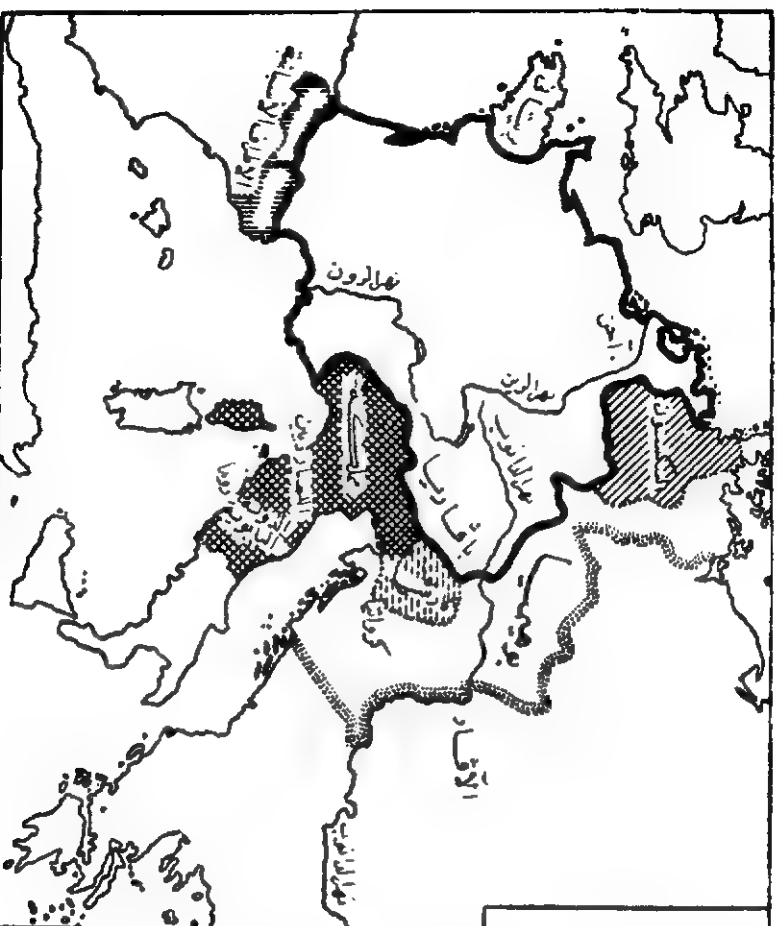
والمعروف أن طائفة الموظفين المدنيين زمن شارلمان — إن صح استخدام هذا المصطلح للدلالة على رجال تابعين لمهنة غير معينة في ذلك العصر — أعوزها العدد والمهارة والأمانة ، ولم يكن عملها سائراً حسب أى نظام . وإذ أصرّ الإمبراطور على النظر في كل شيء بنفسه ، فإن كثيراً من المسائل الخطيرة مرت دون أن تسترعى أيما انتباه ، على حين استرعت أمور تافهة اهتماماً ليس بعده اهتمام . والواقع أن فقدان النظام الثابت أدى إلى فقدان الحكم العادل بين الناس ، وإلى تهاون الموظفين في تنفيذ المرسومات الإمبراطورية (Capitularies) ، أو تنفيذها على صورة جائزة ، كما أدى إلى قلة الضبط والرقابة على الأساقفة والكونتات الذين بيدهم شئون الحكومة المحلية في الأقاليم ، غير أن عزمات الإمبراطور المهيب خففت من تلك الآفات مدة ، إذ دأب شارلمان على التنقل في أرجاء إمبراطوريته من جهة إلى جهة ، ومن ناحية إلى أخرى ، ليتفقد أفراد الرعية وأحوالهم ، وينصف شكواهم ، ويجعل شخصه في متناول الجميع من الناس ، حتى إذا لم يستطع أن يقوم على ذلك بنفسه أرسل المبعوثين الإمبراطوريين (missi dominici) للقيام على هذه المهام نيابة عنه .

وبرغم ذلك كله أخذت بضعة عوامل هامة تنخر في الإمبراطورية الشارلمانية طوال عصر شارلمان ، كما تنخر الحركات القومية في الإمبراطوريات الحديثة في العصر الحاضر ، إذ تطورت الإقطاعات التي مُنحت نظير الخدمة

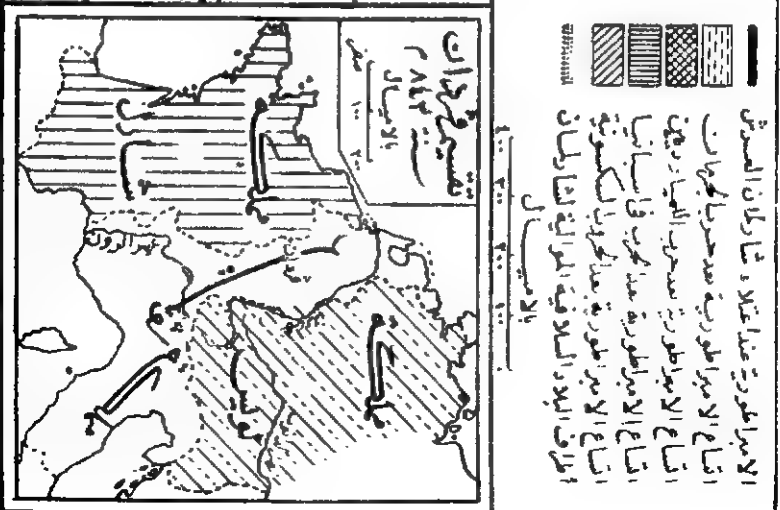
العامه حتى صارت ضياعاً تورث ، وأضحى الأفصال التابعون أمراء مستقلين .
ثم إن الإنعامات الخيرية السياسية التي أعدها شارلمان على الكنيسة في ألمانيا
لم تلبث أن صارت مصدراً لسلطات واضحة الأثر في التوازن السياسي في تلك
البلاد ، وإلى شارلمان وعهده ترجع أصول الأديرة العظيمة التي قامت بنصيب
كبير في ترقية الزراعة والتجارة والعلم في ألمانيا ، كما ترجع الممتلكات الغنية
الشاسعة - والمكانة السياسية المستقلة - التي تمتع بها رؤساء أسقفيات كولن
وترييرز وماينز بألمانيا حتى أيام نابليون .

ومعنى ذلك أن أوروبا تدين للفرنجة وإمبراطورية شارلمان بالصورة التي
استقرت عليها في العصور الوسطى ، وأنه على حين بقيت أوروبا الشرقية وآسيا
الصغرى للدولة البيزنطية ، وحكم المسلمون إمبراطوريتهم المزدوجة من بغداد
وقرطبة ، غدت المسيحية اللاتينية من نهر الإبرو إلى جبال الكربات تحت
حكم الفرنجة والبابوية . بهذا أصبح الألمان في ألمانيا مسيحيين خاضعين للبابا
وأساقفته ، وأضحى التشك أهل بوهيميا في دائرة التجارة الفرنجية والبعثات
التبشيرية في روما ، وصارت إيطاليا اسماً جغرافياً ، محتلاً بالدولة البابوية في
وسطه ، متصلاً بالفرنجة عن طريق المملكة اللومباردية التي خضعت لشارلمان
منذ أوائل حكمه . أما غاليا - أي فرنسا الحالية - فامتزج سكانها بعضهم
ببعض تمام الامتزاج ، بعد أن سوى بينهم الدين ، ونظمت أحوالهم الكنيسة ،
فلم يبق فرق بين أهل البلاد الأصليين من جنس البحر الأبيض المتوسط - ذوي
البشرة السمراء والأجسام القميئة الذين يرجع عهدهم إلى ما قبل التاريخ - وبين
سلالة المهاجرين من الرومان الفاتحين ، والكلت الأنشطة ، والفرنجة الأشداء .
وأما إسبانيا ، فإن الدولة الإسلامية بها لم تعد قوة دافقة فاتحة وشارلمان على قيد
الحياة ، ثم ما لبثت تلك الدولة حتى انقلبت إلى موقف الدفاع ضد البقايا
المسيحية التي أنبتت فيما بعد مملكتي نافار وأراجون وملوكهما ، ممن تم على
أيديهم إخراج المسلمين والحضارة الإسلامية من شبه الجزيرة .

ولما مات شارلمان سنة ٨١٤ م ، لم يكن ثمة محيص من تفكك الإمبراطورية
بعده ، وهو ما لم يخل من فائدة ، لأن الحكم في مثل تلك الإمبراطورية



امبراطورية شان



قصیدہ مرادان

لا يتسنى لفرد واحد إلا في أوقات الشدة ، وبشرط أن يكون هذا الفرد شخصية فذة ؛ وفيما عدا ذلك فلا بد من توزيع السلطة توزيعاً يكفل الحكم بالعدل والقسطاس المستقيم . ولتوزيع السلطة في مثل تلك الإمبراطورية طرق شتى . كأن تصبح أقساماً معقولة ، مع الاحتفاظ بنوع لائق من السلطة المركزية السارية على جميع الأقسام . لكن أبناء شارلمان — وكلهم بين متوسط في المقدرة أو ساقط في مهوى الرذيلة — اختاروا أسوأ أنواع التوزيع والتقسيم . حين التزموا المبدأ العائلي القديم ، وهو المبدأ الذى أفسد الدولة الفرنجية المير وفنجية منذ نشأتها الأولى ، إذ اعتبروا ممالكهم أنصبة خاصة تورث وتجزأ حسباً تمليه الأهواء أو الضرورات العائلية ، كأن ليس في تاريخهم عبر ومواعظ دالة على ما في ذلك من شر مستطير ؛ والواقع أن معظم الشرور التى نزلت بغرب أوروبا مدة القرن التاسع الميلادى ترجع — في غير شك — إلى اتباع تلك القاعدة الجالبة لأسباب المصائب والكوارث . وآية ذلك على سبيل التمثيل عهد الإمبراطور لويس التقي^(١) ابن شارلمان ، فلولا إصرار لويس على تعيين جزء من الإمبراطورية لولده الصغير المسمى فيما بعد شارل الأصلع ، وذلك على حساب أولاده الآخرين من زوجته الأولى ، لما اضطر إلى مغاضبة أولئك الأولاد مما أدى إلى خلعه مرتين ، وإيقاعه الإمبراطورية في حرب أهلية خاسرة عدة سنين .

وربما تبادر للذهن هنا أن سياسة الأباطرة والملوك من أبناء شارلمان وأحفاده تأثرت إلى حد ما بمبدأ القومية . غير أن الأخذ بهذا القول يتطلب افتراض المعرفة في القرن التاسع الميلادى بما لم يكن معروفاً إلا بعده بقرون ؛ ومع هذا فليس في استطاعة الباحث إلا أن يرى فيما حدث من التقاسيم بصيصاً من القوميات الكبرى في غرب أوروبا في العصور الحديثة . وللوصول إلى استجلاء هذا وذاك ، يجب الرجوع إلى سنة ٨٤٠ م ، حين مات لويس التقي . وقامت الحرب بين أولاده — وهم وقتذاك شارل الأصلع ملك نوستريا^(٢) . ثم لويس

(١) اشتهر هذا الإمبراطور كذلك باسم لويس الطيف (Louis le Debonnaire) ، وهو الاسم الوارد بالأصل الإنجليزى ، على أن المثبت هنا هو الأكثر تداولاً في الكتب . (زيادة) .

(٢) انظر ما سبق هنا ، ص ٧٦ ، ٧٨ .

الألماني ملك البلاد الواقعة شرق الراين ، ثم لوثير ملك أوستراسيا وبرجنديا وإيطاليا ، وهو الأكبر - ، إذا اتحد شارل ولويس ضد لوثير ، حتى إذا انتهت الحرب بهزيمة لوثير وتكبدته خسائر جسيمة في وقعة فونتناي سنة ٨٤٣ م ؛ اجتمع الإخوة الثلاثة تلك السنة في فردان ، واتفقوا على تقسيم ميراث أبيهم من جديد^(١) . فخص شارل الأصلع نوستريا وأقطانيا وإقليم الثغور الإسبانية ، وهي أراضٍ تسود فيها إلى حد كبير لغة الرومانس (Romance) وتضم الجزء الواقع غربي الرون والساوّن من فرنسا الحديثة ؛ وخص لويس أوستراسيا ، وهو الجزء الواقع شرقي الراين من إمبراطورية الفرنجة ، بما في ذلك بافاريا وسوايا وسكسونيا بألمانيا ، وكلها ما عدا الأخيرة منها تسود فيها الألمانية ، وتمثل القسم الشرقي من الرايخ الألماني الحالي ؛ وخص لوثير لإقليم طويل ممتد من فريزلند - أي هولندا الحالية على بحر الشمال - إلى حدود فلورية بأقصى شبه الجزيرة الإيطالية ، وهو إقليم مختلف الأجناس ، وليس به من الأوصاف المميزة سوى أنه متوسط بين مملكتي شارل الأصلع ولويس الألماني ، وأنه يشتمل على إكس لاشابل عاصمة الإمبراطورية الفرنجية التي أضحي لوثير إمبراطوراً عليها ، فضلاً عن روما مقر البابوية . فإذا صح التسليم جدلاً بأن مملكة لويس شملت الأمة الألمانية ، وصح التسليم كذلك بأن مملكة شارل الأصلع شملت الأمة الفرنسية - مع العلم أن شارل لم يباشر أية سلطة حقيقية في بريتاني أو أقطانيا . ولم تكن له أي علاقة بالجزء الواقع شرقي الرون من فرنسا الحديثة - ، فإن نصيب الإمبراطور لوثير ، بما فيه من أخلاط ألمانية ولا تينية ، بنقض ما تقدمت الإشارة إليه من تأثير السياسة الفرنجية بمبدأ القومية ، بل يدل في وضوح أن أبناء البيت الشارلماني لم يعيروا ذلك المبدأ شيئاً من الاهتمام .

ومن البديهي أن تقسيم الإمبراطورية الفرنجية - تقسيماً مقبولاً ثابتاً لا رجعة فيه - كان مما يساعد على الحكم الصالح وتدعيمه ، بأرجاء الإمبراطورية في غرب أوروبا . لكن تقسيم فردان لم يستوف صفة واحدة من هذه الصفات ،

(١) انظر خريطة تقسيم فردان ، ص ٩٩ .

إذ دلت شروطه على صيغته المؤقتة المعرضة للتغير كلما مات ابن من أبناء البيت الشارلمانى ؛ ثم إن كلا من الإخوة المتقاسمين اعتبر نفسه ملكاً على الفرنجة ، جديراً بالحكم فى إرث شارلمان كاملاً غير مجزوء ، وزعيماً بالسلطة الإمبراطورية كاملة غير منقوصة ؛ وهكذا ظلت الفكرة الإمبراطورية قائمة ، لكن فى صورة كفيلة بإضعاف الحكم وتعطيله . ومن هذا يتضح أنه بدلا من أن يؤذن تقسيم فردان بعصر من السلم والأمن والحكومة المطمئنة ، افتتح ذلك التقسيم عصراً كله تقسيمات متشابهة وحروب كثيرة بين الإخوة ، مما أدى إلى تدهور الملكية الفرنجية تدهوراً موازياً فى سرعته لازدياد قوة النبلاء الفرنجيين . ومن جراء ذلك كله بلغت الفوضى فى المملكتين الغربية والوسطى ما استطاعت أن تبلغ ، ولم تكن المملكة الفرنجية الشرقية — أى ألمانيا — أحسن حالا ، رغم ما اجتمع فيها من مقومات الحكم النظيم . حيث جاء السكان من أصل واحد ، وتكلموا لغة واحدة . ولم يكن المستوى الحضارى فيهم معقداً أو عالياً . ولم تنزل بينهم طبقة كبيرة من المزارعين أصحاب الأراضى الحرة ، والنظم الإقطاعية عندهم فى المرحلة الأولى من التطور . ومع ذلك لم تبد الحكومة فى ألمانيا أقل فوضى أو ضعفاً منها فى فرنسا ، لأن القبائل الألمانية — برغم وحدتها فى الأصل واللغة — بقيت عاجزة عن أن تحيا سوية فى وئام ، شأنها فى ذلك شأن الأثينيين والإسبرطيين فى اليونان القديمة . فعاش كل من السكسونيين والفرنجة الشرقيين والبافاريين والألماني وفق تقاليدهم الخاصة ، واتبعوا ما أملته عليهم مصالحهم ومنافعهم المختلفة ، ورحبوا بالحرب والشحناء بين قبائلهم ، ترحيبهم بالحرب تحت راية ملوكهم ضد الدانيين أهل الدانمارك الحالية ، أو ضد سكان الأطراف الشرقية .

ويلاحظ أن تفكك الإمبراطورية الشارلمانية لم يقف عند تقسيم فردان وأشباهه من التقسيمات التى جعلت الفرنجة ممالك ثلاثاً ، بل تعداه إلى تقسيم كل واحدة من تلك الممالك مرة بعد أخرى ، حتى غدا التاج الإمبراطورى فى القرن التاسع الميلادى غير ذى معنى أو قيمة أو أمل فى إحياء الشعور بالولاء الفرنجى القديم . وليس أدل على حقيقة تلك الحال من مصير الملك شارل

السمين ثالث أبناء لويس ملك ألمانيا ، إذ حبا الحظ السعيد ذلك الإنسان الخامل بجميع أنواع التوفيق ، حين توجه البابا إمبراطوراً سنة ٨٨١ م ، وجعلته سلسلة الحوادث العائلية ملكاً على إيطاليا وألمانيا وفرنسا ، وبذا أضحي العاهل الذي لم تشهد مثله أوروبا — لا فعلياً ولا اسمياً — منذ سبعين سنة . غير أن الرجل كان جباناً ضعيفاً عديم الحول ، فكان خلعهُ سنة ٨٨٧ م مؤذناً بانتهاء الإمبراطورية الشارلمانية ، وخاتمة للحكم الذي تمتع به البيت الشارلماني مدة طويلة ، ولم يبق من ذلك البيت سنة ٨٨٨ م إلا أرنولف حفيد لويس ملك ألمانيا .

وهنا ينبغي أن نذكر من باب الإنصاف والعدل التاريخي أن أولئك المتأخرين من ملوك الفرنجة تحملوا هجمات خارجية كثيرة طوال القرن التاسع الميلادي من ناحية المسلمين والصقالبة والشاليين ، ومن تلك الهجمات غزو المسلمين روما نفسها وإحراقهم ضواحيها سنة ٨٤٧ م . وللد على تلك الجحرة التي مكنت للمسلمين هدم المواني البيزنطية بإيطاليا ، وجعلتهم يستولون في سهولة على جزيرة صقلية ، تطلب الأمر أسطولا فرنجياً قوياً لغزو الشواطئ الإسلامية بإفريقية والأندلس . لكن أحداً لم يقم بشيء من ذلك القبيل ، ما عدا البابا ليو الرابع الذي يعود إليه الفضل في بناء حلقة من الاستحكامات حول ضاحية الفاتيكان ، مما أكسبها اسم المدينة الليونية (Leonine City) نسبة إلى اسمه ، ولا تزال ذكرى هذا البابا وأعماله عالقة بأذهان الإيطاليين ، على حين أن ما يبذله لويس الثاني ابن الإمبراطور لوثير من جهود حربية غير قليلة لتخليص جنوب إيطاليا من المسلمين لا يكاد يعرفه إلا الأقلون من العلماء المشتغلين بتاريخ العصور الوسطى .

بعض المراجع لهذا الفصل

- Bryce, (J.) : The Holy Roman Empire, 1904.
- Dalton, (O.M.) : Gregory of Tours (The History of the Franks). 1927.
- Davis, (H.W.C.) : Charlemagne, 1900.
- Dill, (S.) : Roman Society in Gaul in the Merovingian Age, 1926.
- Einhard : Life of Charlemagne. Ed. H.W. Garrod and R.B. Mowat 1915.
- Fustel de Coulanges, (N.D.) : Histoires des Institutions Politiques, de l'ancienne France. 1888-1892.
- Guizot, (F.P.G.) : Histoire de la Civilisation en France, 1851.
- Hodgkin, (T.) : Charles the Great, 1897.
- James, (M.R.) : Learning and Literature Till Pope Sylvester II. (Cambridge Mediaeval History, Vol. III).
- Lavis, (E.) : Histoire de France, Vol. II. 1903.
- Mullinger, (J.B.) : The Schools of Charles the Great, 1877.

الفصل السادس

الكنيسة الكاثوليكية الرومانية

الكنيسة المسيحية الأولى - البابوات الأوائل في روما - أسانيد رسالتهم - انهيار الإمبراطورية الرومانية وأثره في نمو البابوية - المسيحيون الأوائل والإصلاح الاجتماعي - تأثير الغزوات التوتونية في مركز رجال الدين بغرب أوروبا - أعمال الكنيسة الغربية في ميدان التعليم والإصلاح الاجتماعي - انتشار الديرية .

يقوم تأسيس الديانات على أكتاف الأنبياء ، ثم يقوم بتنظيمها على أيدي رجال الدين . ومن المعروف كذلك أن الجماعات المسيحية الأولى تكونت من فئات من فقراء الرجال والنساء الذين ألقت بين قلوبهم رابطة العبادة وعمل الخير وحب النظام ، وسادت في أوساطهم روح الديمقراطية والمساواة والعالمية . لا فرق عندهم بين « اليوناني واليهودي ، ولا بين البربري والسيثي »^(١) ، ولا بين العبد والحر » ، لأن المسيحيين عند ربهم سواء . وفي كل تلك الجماعات المسيحية النامية تولى الأسقف جميع الشؤون الدينية ، حتى توزيع الصدقات . ولم يكن لديه من معاونين في عمله سوى الشماس . ولذا اعتبرت كل جماعة من تلك الجماعات أسقفها خليفة طبيعياً للقديس الرسول الذي تنتسب كنيسته إليه ، أو للمبشر الأول الذي بشر بالمسيحية في أرضها . فإذا كانت الجماعة صغيرة العدد ، والدين فيها مسألة خاصة قوامها المحبة المتبادلة ، لا الخشية والخضوع لسلطة من السلطات ، لم تقم حدود فاصلة بين رجال الدين وسائر الجماعة ، بل كان أقصى ما ينشأ هنالك من سلطة أن نهض فئة من الشيوخ (presbyters) لمعاونة الأسقف في إدارة شؤون الكنيسة .

(١) يطلق هذا الاسم في التاريخ القديم على سكان الجنوب الشرق من أوروبا ، وما وراءها من البلاد شمال البحر الأسود وبحر قزوين . (زيادة) .

أما تدرج الكنيسة الكاثوليكية الرومانية من تلك المبادئ الديمقراطية الصافية إلى غيرها من المبادئ والنظم . فيبدو أن السرفيه حاجة الإنسان بطبعه إلى السلطة واليد المدبرة لشئونه وسلوكه . وكما درجت الجمهورية الرومانية حتى صارت إمبراطورية أوتوقراطية ، فإن مجموعة الكنائس الرسولية المبعثرة في أنحاء العالم المسيحي الأول هي التي أنبتت بذرة البابوية وثيوقراطيتها الشاحمة ، وبعبارة أخرى إنه لما كانت النفس البشرية تجنح إلى الاستبداد ، والإمبراطورية نفسها وليد ذلك الجنوح ، فإن الكنيسة اتبعت ما الإمبراطورية سبقت فيه ، بدليل أنها جعلت من التنظيم الإمبراطوري نموذجاً لتنظيمها ، بل المعروف أنها أصبحت - بعد تحول قنستنتين إلى المسيحية - هي الإمبراطورية الرومانية في قالب كنسى .

ثم إنه صار من المتعين جرياً على المنطق السائد وقتذاك أن يكون للكنيسة رئيس أعلى ، كما للإمبراطورية إمبراطور ، وأن تنصرف الأنظار عن فكرة المجالس الدينية المحلية ، لصعوبة تأليفها ، ولأنها تتفق والمناسبات الكبرى أكثر مما تتفق وشئون الإدارة اليومية . والواقع أن توحيد المذاهب وتجنيس الطقوس تطلب أن يكون هناك أسقف على الأساقفة ، للرجوع إليه في كل مواضع الشك ، ولتصبح الشعوب المسيحية تابعة لرعيم واحد ، وكنيسة واحدة لها الصدارة على جميع الكنائس .

وبدئى أن يلقي نهوض الأسقف الرومانى لهذه الزعامة ترحيباً من الإيطاليين أكثر مما يلقي من القسطنطينية وبطرقيتها ، أو من إفريقية المسيحية وأساقفتها ، أو من أنطاكية وبيت المقدس والإسكندرية وكنائسها الرئيسة التي لا تقل زعامة عن روما . ولذا ظلت الدعوة لروما موضع الأخذ والرد والنقاش العنيف زمناً ، دون أن يعترف المسيحيون بحقوق البابوية الرومانية اعترافاً إجماعياً . واقتصر الأمر على الكنائس بغرب أوربا . ومرجع ذلك فيما يبدو أن معظم البابوات لم يكونوا من البارزين ، لآ في الفلسفة ولا في اللاهوت . فلم يسهموا بسهم في بناء المذهب الكنسى ، ولم يشاركوا القديسين الأيرلنديين في حلبة التبشير إلا زمن جريجورى الكبير (٥٩٠ - ٦١٠ م) ، ولم يشتهر أحد منهم بمقدرة

أو كفاية إلا في ميدان السياسة ، لا الدين . ومع هذا كله استطاعت كنيسة روما أن تقدم من النصوص والأسانيد ما يكفي لإقناع الناس بزعامتها في ذلك العهد ، حين رضى الناس بالإيمان والتسليم بكل ما هو تقليدى أو خارق . وبكل مامن شأنه التدليل على المجد الرومانى القديم . إذ قيل - اعتماداً على حديث للمسيح مخاطباً سمعان بن يونا باسم بطرس - أى الصخرة - ، وذلك فى شيء من الجناس والتورية : « أنت بطرس - أى صخرة - وعلى هذه الصخرة (Petra) أبني كنيسى^(١) » - إن المسيح اصطفى بطرس وفضله على سائر الرسل المسيحيين ، وإن بطرس أول من جاء بالمسيحية إلى روما ، وإنه لقي بها من الأذى ما لقي فى سبيل الدين ، وإنه أودع رسالته لينوس أول أساقفة روما ، وإن الرسالة انتقلت من لينوس فى سلسلة متصلة من الأساقفة الذين حفظوا ما وعاه بطرس قبلهم من الحق والإيمان . ومع أنه لا يوجد لدينا ثبت بأسماء الأساقفة الرومان قبل إيريناؤس ، أى قبل سنة ١٨٠ م اعتقد المجمع المسيحى وآمن بصدق السر الإلهى المكنون ، وفى انتقال ذلك السر بالرواية الشفوية إلى الذين تفتحت قلوبهم للإيمان بالمسيح ، وتولوا الأسقفية الروحانية خلفاً عن سلف . يضاف إلى ذلك اقتناع المجتمع المسيحى اللاتينى - واليونانى كذلك - بأن روما تمتاز على سائر المدن المسيحية الكبرى بشيء من الهيبة والقدسية ، لاحتوائها على رفات القديسين بطرس وبولص . وفى شرح القديس حنا خريسوستوم (فم الذهب) ، وهو أحد الآباء القديسين الأولين ، وأكثرهم فصاحة وبلاغة عند الإطلاق ، ما يثير التفكير فيما انفردت به روما من المزايا بسبب هذين القديسين الرسولين ، إذ جاء فى موعظة دافقة لحنا ما نصه : « ولهذا السبب أحب روما حباً جمّاً ، وأستطيع أن أحبا وأمدحها لأسباب وأسباب من عظمتها الخالدة ، ورسوخها فى القدم ، وجمالها الفاتن ، وكثرة أهلها ، وقوتها العظيمة ، وثروتها الضخمة ، وفوزها فى الحروب . ولكنى أعبر عن ذلك كله ، وأباركها لأن بولص كتب إلى أهلها ، وأحبهم وأفر

(١) إنجيل متى : الإصحاح السادس عشر ؛ وموضع الجناس أن اسم بطرس معرب كلمة (Petra) فى اليونانية واللاتينية ، ومعناها الصخرة . (زيادة) .

الحب ، وعاش بينهم ، وتحدث إليهم ، وكلمهم ووعظهم : وفي روما كانت وفاته . ولهذا السبب دون غيره من الأسباب زادت روما شهرة فوق شهرتها . ولذا فثقلها مثل جسم شامخ هائل ، في رأسه عينان لامعتان ، هما نوران منبعثان من جفائى هذين القديسين . والسماء لا تضيء حين ترسل الشمس أشعتها في الأرض ، مثلما تضيء روما أنحاء العالم بنور هذين الكوكبين الدريين . ففي روما ينهض بولص من مرقده ، وفيها يبعث بطرس ، فتأمل وتعجب . وليأخذ العجب منك كل مأخذ . فإدعش ما ترى روما حينذاك . حين يقوم كل من بولص وبطرس من قبره ، ويذهب كل منهما للوقوف بين يدي المسيح . ما أجمل الوردتين اللتين ترسلهما روما وقتذاك ، وما أعظم هاتين الجوهريتين اللتين يزدان بهما جيبن روما ، وما أبهى الذهب الذي يتحلى به جيدها ، وما أبدع ما فيها من ينباع النور ؛ لهذا أحب روما حباً جماً . وأعجب بها أيما إعجاب ، لا من أجل ذهبها الكثير ، ولا من أجل عمدتها الفخمة ، ولا غير هذه وتلك من العروض الزائلة ، بل من أجل هذين العميدين الاثنين اللذين ارتكزت على أكتافهما صروح الكنيسة . من ذا الذي يهني أن أقبل جفائى بولص ، وأدلف إلى قبره ، وأرى تراب ذلك الجسد الذي اكتملت بشدائده وآلامه في الحياة روحية المسيح^(١) ، وارتسمت عليه جروح المسيح (Stigmata) . وانتشرت بفضلله تعاليم المسيح في أرجاء المعمورة^(٢) .

غير أنه مما لا شك فيه أنه لو ظل الأباطرة في روما لما استطاع البابوات — وهم حماة التقاليد التي وضع أسسها بطرس . أن يتجنبوا المصير الدليل الذي

(١) تشير هذه العبارة إلى أقوال القديس بولص ومذهبه في الذاتية الروحية للمسيح . انظر كتاب العهد الجديد ، أعمال الرسل ، رسالة بولص إلى أهل كولوسى ، الإصحاح الأول ، سطر ٢٤ ، حيث يقول بولص : « الآن أفرح في آلامى لأجلكم ، وأكل نقائص شدائد المسيح في جسمى ، لأجل جسده الذى هو الكنيسة » ، انظر كذلك . سماح الرابع من هذه الرسائل ، سطر ٤ وما بعده ، وكذلك رسالة بولص الأولى إلى أهل كورنثوس ، الإصحاح الثانى عشر ، سطر ١١ ، وما بعده ورسالة بولص إلى أهل أفسس ، الإصحاح الأول ، سطر ٢٢ . (زيادة) .

(٢) ذكر المؤلف مراجعه في الاقتباس ، وهى (Hom. 32. in Rom., 2 Vol. IX.) وكذلك (Chapman : Studies in the Early Papacy. p. 97) وكذلك (p. 678 (757) . (زيادة) .

آل إليه البطارقة البيزنطيون ، بسبب إقامة الأباطرة الشرقيين في القسطنطينية ، منذ تأسيسها على يد قنسطنتين أوائل القرن الرابع الميلادي . والواقع أنه لو استقر الأمر على ذلك لما استطاع البابوات في روما إلا أن يصبحوا رهن إشارة الأباطرة ووكلائهم ، ولضاعت عليهم السلطة الأدبية اللازمة لإقامة الاستقلال الديني على أساس مكين . لكن البابوية نجت من ذلك الخطر ، بفضل حادثين سياسيين متداخلين ، تغيرت بسببهما معالم أوروبا الغربية تمام التغير ، وهما انهيار الحكومة الإمبراطورية والإغارات الجرمانية في الغرب . ذلك أن اختفاء الإمبراطورية من الغرب مكن لخلفاء القديس بطرس من الحلول محل الأباطرة في روما ، وما لبثت الحوادث أن بينت مدى ما وقع من تغير ، مثل التجاء أثناسيوس الشهير إلى البابا - لا الإمبراطور - بتشجيع من أساقفة المجلس المسكوني في سرقة - وهي صوفيا الحالية - سنة ٣٤٣ م ، للنظر في الحكم الصادر ضده من المجلس الديني في صور ، ثم إن الباباوات - لا الأباطرة - هم الذين حالوا بين الهون والمدنية الرومانية في إيطاليا ، وهم الذين حموا روما من عادة المباردين ، وهم بالضرورة أهل العلم والمعرفة بكتابة الرسائل وتقرير القرارات الدينية التي كان لها من القوة ما للقانون . تلك هي أيام ليو الأول وجريجوري العظيم ، حين خيم على أوروبا ظلام الإغارات في البربرية المضطربة ، وبدا الكرسي البابوي كأنه المنارة المضيئة وسط العاصفة الصاخبة .

غير أن المسيحيين الأولين على وجه الإطلاق ، لم يعمدوا إلى شيء من الإصلاح في المجتمع الروماني الذي نبتوا فيه ، برغم ما هو معروف من تحريمهم لكثير من العادات والطقوس القديمة . ولذا فمن الخطأ أن نصفهم بشيء من الأوصاف السياسية الحديثة ، لأنهم لم ينادوا بالاشتراكية أو الشيوعية ، ولم يدعوا إلى الفردية ، ولم تكن لهم فلسفة في الدولة وأصول الحكم ، ولا إيمان بتجديد المجتمع من طريق الإنشاء والتنظيم ، ولم يخطر ببال أحد منهم أن في استطاعة جماعاتهم الصغيرة البعيدة عن السلطة والنفوذ أن تحدث بالسياسة الرومانية أو المجتمع الروماني شيئاً من التعديل . ذلك أنهم أيقنوا أن الدنيا متاع الغرور والشرور ، وتعلموا أن الإنسان طريد جنة الخلد . وحق عليه العذاب

المقيم . وأنه خير للإنسان أن يموت ميتة الشهيد من أن يرتكب إثمًا من الآثام . وتعلموا كذلك أن هذه الدنيا الغرارة لن تلبث حتى تزول ، وأن رجعة المسيح إلى الأرض — وهى ما اعتقدها الناس وشيكة الوقوع ، ولم يتطرق إلى ذهن أحد أنها غير قريبة — سوف تملأ الدنيا عدلاً ، بعد ما ملئت ظلماً وجوراً وخبثاً ونقصاً يحويه كله المسيح محوياً . وإذا كان ذلك كذلك ، فما الذى يحمل المسيحي على إلغاء الرق أو الحرب ، أو المتاجرة فى المحرمات ، أو الربا ، أو استعمال القوة الغاشمة التى ساعدت الدولة الرومانية على النهوض . ما دام كل ذلك مقضياً عليه بالزوال ، وما دامت المشكلة الكبرى تنحصر فى الوسيلة الواقية من العذاب الذى كتبه الله على الناس ، جزاء وفاقاً لما ارتكبه آدم من الخطيئة فى جنة الخلد .

ولذا رضى المسيحيون بجميع ما وجدوا من نظم لا قبل لهم بتغييرها ، فدعوا للإمبراطور فى صلواتهم ، ولو أنهم رفضوا أن يحرقوا البخور لتمثاله ، وتقبلوا الرق ، وتجاوزوا عن استخدامه والمتاجرة به ، ولم يفكروا فى تحريم القوة الحربية أو نبذها ، بل ما لبثت الحرب حتى غدت مظهراً مؤسفاً من مظاهر المجتمع الأوربي ، من القرن الخامس الميلادى فصاعداً . ومع هذا ليس فى أعمال المسيحيين الأولين ما يدل على شئ من الطائفية أو الطبقية ، وإذ بدأت معظم جماعاتهم من الفقراء ، فإن المسيحية ما عتمت حتى انتشرت بين مختلف الطبقات ، بل تغلغت فى دوائر العائلة الإمبراطورية قبل أن يشرف القرن الميلادى الأول على الانتهاء .

ثم استطاعت الجماعات المسيحية أن تنجو من أحد الأخطار المهددة لمستقبلها وكيانها بفضل الحكمة العملية التى أظهرها البابا كالستس (٢١٩م — ٢٢٣م) ، حين أعلن استعدادة أن يغتفر خطيئة الزانى ومرتكب الفحشاء بالتوبة ، مما أدى إلى نتائج هامة فى تاريخ المسيحية ، برغم مخالفته للشعور المسيحى العام . ذلك أن الكنيسة تظل قوية ما دامت عقيدتها خالصة للدين ، ولكنها تمسى ضعيفة إذا هى خضعت لقواعد خلقية جامدة غير مرنة ، والناس على اختلاف مشاربهم خير دليل على صحة تلك الدعوى ، إذ المعروف أنه

لا يستطيع الحياة الفاضلة مع البشر إلا الأقلون : ولو أن الكنيسة اقتصرت على أولئك المتقين المهتدين ، ولم توسع من رحمتها للضالين الخاطئين ، ما استطاعت أن تفتح أوروبا أو تجعل فيها أمماً مسيحية منذ القرن الرابع الميلادي .

ثم كان دخول الجرمان في الدولة الرومانية أفواجاً متبربرة تلو أفواج ، فاعتزى رجال الدين ما غير من وضعهم في المجتمع الأوروبي الغربي تمام التغيير ، إذ انهار التعليم المدني ، وانهارت الثقافة إلى درجة شنيعة . ولأول مرة في تاريخها بدت الكنيسة صاحبة الصدارة الفكرية في البلاد ، حيث صار الرجل من رجال الدين هو الوحيد الذي يعرف القراءة والكتابة والتكلم في اللاتينية ، وهو الذي يفهم دون غيره حساب الشهور لتحديد عيد القيامة (Easter) ، وذلك بالإضافة إلى مقدرته على مفارقة العمل الرتيب لتصريف شئون الإدارة الحكومية . وفضلاً عن ذلك ، فإن ذهاب الوظائف الإمبراطورية ومغرياتها المختلفة جذب رجالاً من أرفع طبقات المجتمع وقتذاك إلى الخدمة في الكنيسة ، حتى سار أغلب الأساقفة في القرن الخامس — والسادس والسابع — الميلادي في غالبا من أبناء البيوت العريقة . وأصحاب الثروة والنفوذ ، أى النبلاء الذين وجدوا في القيام بالأعمال الكنسية فرصة لاستخدام مواهبهم في الإدارة ، أو لإشباع رغبتهم في الخدمة العامة . لذا لم يكن عجباً أن يتخذ الفرنجة في غالبا — والقوط الغربيون في إسبانيا — من رجال الدين أداة للحكم وشؤونه المختلفة ؛ وإذا ذكرنا أن ملوك الجرمان من الفرنجة — والقوط الغربيين وغيرهم — هاموا بصيد الخنزير البرى والأيل والغزال ، وشغفوا بالحروب والمذابح والتخريب ، صار من الواضح أنه لم يكن باستطاعتهم أن يديروا دفة الحكم في البلاد لولا الكنيسة ورجال الدين .

غير أنه من الخطأ أن نصوّر الكنيسة في غالبا في القرن السادس الميلادي كأنها كنيسة مثالية . وفي كتاب تاريخ الفرنجة (Historia Francorum) الذي ألفه جريجورى التورى ما يكفل عدم الوقوع في هذا الخطأ ، وفي كثرة المفاصد الكنسية الصارخة ما يعدل ذلك التصوير تمام التعديل . ومع هذا فلا مشاحة أن الكنيسة أدت من جليل الخدمات ما لم يكن في الاستطاعة تأديته

بدونها وقتذاك ، لاحتوائها على القليل الذى بقى فى غالبا من الثقافة والعلم . فلولاها ما تم التمازج بين العنصرين اللاتينى والجرمانى فى الدولة ، ولولاها ما اهتم أحد بشئون التعليم فى القرن السادس الميلادى . والواقع أن الكنيسة قامت على كل شىء حتى الماديات فى ذلك العصر ، فإذا تطلب نهر من الأنهار جسراً لضبط مجراه ، أو احتاج بلد من البلاد سقاية لحمل الماء إلى جهة مرتفعة . كان الأسقف فى أغلب الأحيان صاحب المشروع . ومصدر المال اللازم لتنفيذه . وعلى الرغم مما لدينا من كثير الشواهد على خضوع الأساقفة وخضوعهم لأرباب الحكم ، لم تعدم الحوادث أساقفة اشتهروا بالشجاعة والجرأة على الحاكم المعتدى ، وتذكيره بالعذاب فى الآخرة إذا هو لم يرجع عن غيه . والحاصل أنه لم يكن بذلك العصر الغاشم سوى الكنيسة . لحماية الفقير والمسكين والمحروم والمظلوم .

وإلى ذلك العصر الغاشم وحوادثه بالذات يرجع أصل السيطرة والمكانة والسلطة التى يتمتع بها رجال الدين حتى الوقت الحاضر ، لأن الفوضى التى تردت فيها الإمبراطورية منذ القرن الرابع الميلادى هيات للكنيسة جواً خالياً من المنافسة . وطفولة الجرمانى وجهالته أبرزت مقام القسيس فى المجتمع . وكيف يكون الأمر غير ذلك فى عصر ندرت فيه الكتب ، وارتفعت الأمور كلها بقول القسيس ومسلكه ، وسمح الجرمانى الساذج بتدخل الدين فى أخص شؤنه إلى درجة لو جرت لسيدة رومانية زمن الإمبراطورية لاعتبرته فضولاً لا يطاق ولا يغتفر . ثم تشعبت الواجبات التى تطلبها نشر المسيحية وتعليم البرابرة مبادئ العقيدة ، فغدا رجال الدين بالضرورة طبقة بارزة ذات نفوذ وسطوة . وأوضح دليل على ذلك طلب الكنيسة فى القرن السادس الميلادى إلى رجال الدين أن يتخذوا لأنفسهم طرازاً خاصاً ، فاختراروا القباء الطويل والشعر القصير . حفظاً للزى الرومانى القديم ، على حين ظل الجرمان على عادتهم من القباء القصير والشعر المرخى على الكتفين .

هذا ما كان من أمر رجال الدين والكنيسة أوائل العصور الوسطى . على أن القصة لا تتم إلا بذكر الرهبانية التنسكية التى وصلت إلى غرب أوروبا

أثناء القرن الذى تلا اعتناق الإمبراطور قسطنطين المسيحية . فمن المعروف أن التنسك ظاهرة عامة فى جميع الديانات . وأن المسيحيين فى مصر هم أصل الدعوة لهذا النوع من الحياة الدينية ، وأنهم عمدوا إلى كثير من المغالاة فى تعذيب الجسم وإذلال النفس بالمعيشة الانفرادية ، فى القفار البعيدة عن المدن وال عمران . أو على رعوس العواميد وقمم الأشجار ، وذلك فضلاً عن التهجّد آناء الليل وأطراف النهار . مع الصيام الطويل ، والحرمات ، وغير ذلك من رهبانية صارمة ابتدعوها لأنفسهم . ولقيت هوى فى نفوس الكثيرين ممن حجوا إليهم واستدروهم الدعوات .

وانتقلت تلك الرهبانية إلى إيطاليا حوالى سنة ٣٣٩ م — على يد أنناسيوس صاحب المذهب المشهور — . ووصلت منها إلى إسبانيا وغاليا وأيرلندا . غير أن العقلية الأوروبية على وجه العموم لم ترحب بالصرامة التى تطلبتها هذه الحياة الدينية الجديدة ، ولم تستحسن صورة الراهب المصرى وهو يطل على حجاجه وزواره من علياء التقوى الجائعة والقذرة ، لأن العقل اللاتينى يميل إلى الناحية العملية فى الحياة . ويختلف عن العقل اليونانى فى عدم الجنوح إلى التأمل والاستغراق . ولذا انتشرت الدعوة إلى التقشف والتنسك فى غرب أوروبا ، لا فى صورة رهبانية انغزالية ، بل فى صورة ديرية اجتماعية : وقامت طريقة القديس بندكت النورسى (٤٥٨ — ٥٤٠ م) وهو مؤسس دير مونت كاسينو بإيطاليا — على قاعدة أن الانقطاع للعبادة ينبغى أن تكون مزيجاً من العمل اليدوى والدراسة فى الكتب المقدسة والصلاة الجامعة . وعمت الطريقة البندكتية أرجاء الغرب الأوروبى ، وأسهمت بسهم كبير فى مضمار التقدم الإنسانى . غير أنها لو بقيت على الصورة الرهبانية الأولى لأدت إلى كثير من الشر والفساد . وللمديرين البندكتيين الفضل فى تعمير الأراضى بخديدة التى استقروا بها وزرعوها بعد إصلاحها . وفى العناية بالفقراء وللساكين وهم كذلك أصحاب الفضل فى صون المخطوطات ونسخها حفظاً لها من الضياع والنسيان . والواقع لم تكن ثمة وسيلة غير الديرية لصون ما تبقى من نور المدنية الأوروبية ، حين لم يكن فى أوروبا سوى ظلام الحروب والغزوات

التي أحلت الجرمان محل الرومان .

على أن الأمر الذي يسترعى الانتباه هنا هو أن الأديرة البندكتية انتشرت بأرجاء الغرب الأوربي - في القرنين السادس والسابع الميلادي - انتشاراً بالغاً يتضح منه أن ثمة عوامل خاصة دفعت بأعداد كبيرة من الرجال والنساء إلى ما بتلك الأديرة من الحياة التنسكية الآمنة . وهذه العوامل بلاريب مزيج من السمو الروحي ، والبطولة الدينية ، والخوف من عذاب الآخرة ، والتخلص من تكاليف الحياة . والرغبة في المعيشة الهادئة المطمئنة . غير أن العامل الذي فاق هذه العوامل كلها في اجتذاب الكثيرين من الناس إلى الحركة الديرية هو الشعور باستحالة العيش في عالم مزقه إغارات الجرمان ، ودكت أركانه الحروب ، وهو كذلك عالم طفحت سياسته بالآثام والشهوات . بعد أن امتلأت بألوان العنف والاضطراب . ومن هنا يتضح السرّ في ميل الكثيرين من الناس إلى حياة التنسك ، إذ قطعوا الأمل في الدنيا وما فيها من الناس ، فانسحبوا من الظلمة والفوضى المحيطة بهم في هذه الدنيا إلى النور والهدى الذي وعد المسيح به جميع المتقين .

سحبه الباحث عماد أمير ونسقه

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

بعض المراجع لهذا الفصل

- Battifol (L.) : Primitive Catholicism, 1911.
 Bevan (E.) : Hellenism and Christianity, 1921.
 Bevan (E.) : Christianity, (H.U.L.) 1932.
 Bigg (C.) : The Origins of Christianity, 1909.
 Bigg (C.) : The Church's Task under the Roman Empire, 1905
 Chapman (J.) : Studies in the Early Papacy, 1928.
 Dudden (F.H.) : Gregory the Great - His Place in History and Thought, 1905.
 Gibbon (E.) : Decline and Fall of the Roman Empire. (ed. Burry), 1896-1900.
 Gore (C.) : Jesus of Nazareth, 1929.
 Milman (H.H.) : The History of Latin Christianity, 1867.

الفصل السابع

الشماليون

حضارة الشماليين - وصول جماعات من الشماليين إلى حوض الدنير - إغارات الفيكنج على غرب أوروبا - الدانيون والرويمجيون - إغاراتهم على أيرلندا وإنجلترا وفرنسا - نهضة مملكة وسكس في إنجلترا - الملك ألفرد وخلفاؤه - استيلاء الدانيين على إنجلترا - دخول الدول السكندناوية حظيرة المسيحية - الملك إدوارد الثاني - استقرار النورمان في نورمانديا - دخولهم دائرة الحضارة اللاتينية - استيلاء النورمان على صقلية - فخامة عهد الملك رجار الثاني - فناء إسكندناوة وفقرها .

يطلق اسم الشماليين - أوائل العصور الوسطى - على مجموعة الشعوب التي سكنت شبه جزيرة إسكندناوة وحوض البحر البلطي ، وهم الجرمان من الجنس النوردي سواء ؛ غير أنهم - على خلاف الجرمان - لم يتأثروا بالمؤثرات اللاتينية ، بل ظلوا بعيدين عنها بحكم وضعهم الجغرافي بأقصى الشمال الغربي من أوروبا ، وهو الوضع الذي جاءت منه تسميتهم . ثم تحرك الشماليون من مواطنهم هذه حركة هبطت بهم إلى المسرح الأوروبي في كثير من العنف ، حتى ملأوه صخباً وهباً وضجة مدة قرنين من الزمان .

وكان الشماليون وقتذاك على الوثنية ، وليس في تفكيرهم متسع لشيء من وازع الضمير أو الذمة ، أو الإحساس بالخطيئة ، أو الفضيلة ؛ لأنّ قوتهم مثل ثور (Thor) إله الرعد ، وأودن (Odin) إله الحروب والملاحم ، وفراي (Frey) إله الخصب ، لم تدعُ إلى شيء من ذلك ؛ بل لم يكن من صفات هذه الآلهة ما يردع القاتل أو الزاني أو السارق ، أو يعاقبه على ذنبه . وهام الشماليون بالحروب والنساء ، والخمور والأغاني ، والأنهاب والمذابح ، ومتلاً قصصهم - وهو قصص الشعوب النوردية كلها - بروح التشاؤم

المنبعث مما حاطهم من هول البحار الشمالية والسموات القطبية . ولم يطلب الشماليون إلى آلهتهم أن يرشدوهم سواء السبيل ، أو يهدوهم الصراط المستقيم . لأنهم لم يفكروا فيما عسى أن يكون هذا أو ذاك ، بل أرادوا أن تكون آلهتهم أصدقاءهم وحلفاءهم في المغامرة الصاخبة التي هي الحياة ، وصورهم قادة لهم في المخاطر التي يسقط فيها الرجل الشجاع مجدلاً إذا أسعده الحظ . لينتقل من حومات الوغى إلى جنات فالهالا (Valhalla) ، حيث ينعم الشجعان بحياة خالدة ، فيها من كل ما طاب من الحروب والنساء ، والخمور والأغاني . ولذا خلت المنشورات القصصية التي كتبت بجزيرة أيسلندا في وصف أولئك الشماليين الأولين من جميع ما تشتم منه رائحة التفاؤل الساذج ، لأنهم عركوا طيش الطبيعة وعناصرها ، وخبروا آلام البشر ومعاثرهم ، ولم يريدوا من الحياة ما لا تستطيع الحياة أن تعطيه . والآداب الشمالية لذلك مرآة صدق وسجل حافظ لتلك الحضارة الوثنية القديمة ، وهي تنفرد عن آداب الحضارات الأخرى ببراءتها من أساليب البلاغة والعاطفة . والتزامها حقائق الحياة ، وعزوفها عن المواقف الخلقية وزخارف البديع والبيان . وهذا مع حسن تصويرها لحضارة جمعت بين الأرستقراطية والهمجية . واتصفت بالحرص على تراث الأجداد وحب الهدم في آن واحد ، وشرفت على سائر الحضارات بالرجولة الصادقة والرضا بالقضاء المحتوم ، برغم ما طفحت به من جامع الشهوات وقاسى الأعمال .

وفي أواخر القرن الثامن الميلادي أوحى إلى تلك الشعوب المقتدرة على الشدائد أن بلاداً واسعة — غير بعيدة عن بلادهم — تفيض بالمغانم السهلة ، والأسلاب والأنهاب ، وأن ليس عليهم إلا أن يطلبوها ، فاندفعوا إليها أرسالاً جمعت من رجال البحر وبناء السفن . والسماكين والحشابين ، والتجار والمزارعين والخطابين والصيادين . غير أنهم ما لبثوا أن اصطدموا بالسكسون والفرنجة في طريقهم صوب الجنوب . فاتجهوا صوب الشرق والغرب ، حيث وجدوا طرقاً خالية من أية مقاومة أو تكاد . فانتشر منهم السويديون أهل التجارة في سهول روسيا الحالية يبتغون في أرضها البكر أسباب الربح الوفير . على حين

أخذ الدانيون والروميون أهل البحار والقرصنة ينثالون إلى أوروبا الغربية ،
وينهبون مما غصت به كنائسها من لامع الذهب والفضة . وفي هذه المرحلة
من تاريخ الشماليين تبدو أعمال السويديين بالذات جذيرة بالانتباه ، إذ بنوا
محطة تجارية على بحيرة لادوجا التي تمتاز بموقعها المتوسط بين منابع القولجا
والدنيبر سواء ، واتخذوا من هذين النهرين طريقاً للنقل والتجارة ، حتى شواطئ
بحر قزوين والبحر الأسود . ولذا غدت محطاتهم في هلمجارت أو نوفوجورود
الحالية ، وفي جارت الحديدية التي هي الآن كييف ، مراكز لإرشاد المسافرين ،
ونماذج للنظام وسط الشعوب الصقلية التي عمها الاختلال والفوضى . والمتواتر
أن الزعيم السويدي رُورِك هو صاحب الفضل في وضع الحجر الأساسي
الذي بنيت عليه دولة روسية في نوفوجورود وكييف ، وأن السويديين بلغوا من
قوة السلطان والنفوذ في أرضهم الحديدية مبلغاً عظيماً ، وأن الشعوب الصقلية
تقبلت الحكم السويدي وأذعنت له راضية ، حتى إن لفظ روتسى (Ruotsi)
— وهو ما أطلقه الفنلنديون على جيرانهم السويديين منذ أيامهم الأولى بمحوض
البحر البلطي — انتقل من التابع إلى المتبوع ، وصار علماً على الصقالبة الذين
تتكون منهم روسيا الحالية .

ومن هذا يتضح أن روسيا تدين بأول تجربة في الحياة السياسية التنظيمية
للشماليين . أو على وجه التخصيص لفئة من السويديين الذين تعاقبوا على
الحكم في كييف . ذلك أن الطبيعة الروسية الصقلية خيالية متطرفة ، تغويها
الأوهام ، وتغريها العاطفة ، ويغلب عليها الفتور ؛ والصقالبة عموماً أقرب
إلى الآسيويين منهم إلى الأوروبيين ، وهم بحاجة إلى عامل التنبيه والإيقاظ
الأجنبي بين حين وآخر ؛ وسدّ المغامرون السويديون تلك الحاجة للروسين
وهم على عتبة تاريخهم . ولا يقل عن ذلك أهمية أن أهل إمارة كييف — وهي
أكبر المراكز السويدية على نهر الدنيبر — لم يأخذوا بأسباب المدنية من الشمال ،
بل علمهم حكامهم السويديون أن يتطلعوا جنوباً إلى القسطنطينية عاصمة الدولة
البيزنطية . وهنا كذلك تدين روسيا لحكام كييف من السويديين بدخولها دائرة
البيزنطيين وثقافتهم وكنيستهم ، وهي الكنيسة المسيحية الشرقية الأرثوذكسية .

على أن السويديين أنفسهم مدوا أبصارهم نحو القسطنطينية - واسمها عندهم مدبلجارت - . وطمعوا في فتحها والاستيلاء على مغائمتها التي جعلتها تغدو أكبر المدن وأكثرها ثروة على وجه الأرض ، في القرن التاسع الميلادي . ولذا حاولت أساطيلهم القوية غزوها مرات أربعاً (٨٦٠ - ٨٨٠ ، ٩٠٧ ، ٩١٤ م) . واستطاعت الإمبراطورية البيزنطية أن تحبط هذه المحاولات المتكررة تارة بالقوة وتارة بالسياسة ، حتى قنع السويديون أخيراً بالدخول مرتزقة في الحرس الإمبراطوري ، وأسهموا بما توافر لديهم من صفات الإقدام والشجاعة في المحافظة على الإمبراطورية والإبقاء عليها مدة قرون .

وبينما يضرب السويديون في منحنيات الدنيير - أملاً في الوصول إلى البوسفور والقسطنطينية - وبينما يتجر إخوانهم المقيمون على القوقاز مع المسلمين الساكنين فيما وراء القوقاز ، أخذ الدانيون والرويجيون - وهم المعروفون باسم الفيكنج من باب التعميم - يغيرون على غرب أوروبا للنهب ما استطاعوا إلى النهب سبيلاً . وكشف أولئك القراصنة أن الأديرة والكنائس في أيرلندا وإنجلترا وفرنسا تزخر بالتماثيل الدينية والأدوات والأواني من الذهب والفضة ، وتمتلئ بالأقمشة المطرزة والستائر الثمينة والأحجار الكريمة ، فأفردوها بإغاراتهم ، ويكفي - لتصوير ما تبع ذلك الكشف من الإغارات المتتالية - أن نذكر ما حملته سفنهم سنة ٨٩٣ م من أسلاب لندسفارن وكنيستها . بالساحل الشمالى الشرقى من إنجلترا ، أو من أنهاب جزيرة نوارموسيتيه سنة ٨٤٣ م ، وهى الجزيرة الواقعة عند مصب اللوار بفرنسا الحالية . ذلك أن الفيكنج كانوا متجربة - أى قراصنة - يعملون في البحر ، وكان وراءهم بلاد ليس لهم فيها إلا الكفاف مما تجنى أيديهم من القرصنة ، على حين طفحت الأديرة والكنائس في غرب أوروبا بالقناطير المقنطرة من العين واللجين . ثم إن الشتاء في تلك البلاد الشمالية طويل مظلم ، والحال السياسية في الممالك الغربية المتناحرة تدعو إلى المغامرة في غير خشية أو خوف ، فلا أقل من أن يمرح الفيكنج إلى سفنهم عند أول نسمة من نسائم الصيف القصير . طلباً للغنيمة السريعة فيما وراء البحار . ومن هنا يتضح أن حب الغنيمة هو السبب الأساسى

في حركة الشماليين ، وأن ليس ثمة حاجة إلى البحث عن أسباب أخرى ؛ والمؤرخون الذين يرون في إغارات الفيكينج على غرب أوروبا نوعاً من الاحتجاج الوثني ، ضد ما قام به شارلمان من تحويل السكسون إلى المسيحية قسراً ، ينسبون إلى الشماليين تعصباً مرهفاً يتطلب هيئة كهنوتية متيقظة ، وهذه لم توجد ألبتة بين الشماليين فيما يبدو ، ولم يكن لها على أية حال موضع في عقائدهم الغائمة المعتمة .

والعامل الجغرافي دون غيره من العوامل المزعومة هو الذي حدا بفرعي الفيكينج - أي الدانيين والنرويجيين - إلى أن يسلك كل منهما طريقاً مستقلاً وميداناً خاصاً لنشاطه وفرصته ؛ فالدانيون بحكم قربهم من بحر المانش أهوا على فريزيا وإنجلترا وفرنسا ؛ والنرويجيون بحكم وضعهم في أقصى الشمال تحركوا حركة غربية واسعة ، وهاجموا جزائر أوركني وشتلاند وهيريديز وجزيرة مان (Isle of Man) ، وأنشأوا لأنفسهم محطات لا في تلك الأمكنة فحسب ، بل في شمال إسكتلندا ونورثمبريا وأيرلندا . ثم استطاع أولئك البحارة المهرة أن يقوموا بما هو أدهى من ذلك وأعجب ، مما لم يسبقهم إليه سابق ، أو يلحقهم به لاحق من حيث الجرأة ، بعد أن استوثقوا من سفنهم المصنوعة من ألواح البلوط النرويجي المتين وأمراس الحديد الشديد ، وبعد أن خبروا مقدرتها على مغالبة البحار العاصفة والأمواج المائجة ، إذ وصلوا إلى جزيرة أيسلندا وجزائر فارو . وجعلوا من أيرلندا قاعدة لسفنهم التي أوصلتهم بأشرعتها ومجاذيفها إلى شواطئ حرينلندا القارسة ، ومنها إلى ذلك الجزء من شواطئ أمريكا الشمالية الذي أطلق عليه القصص الشمالي اسم فاينلاند (Velinland) ، أي أرض الكروم ، وهو جزيرة نيوفوندلاند الحالية .

ثم إنه فضلاً عما امتاز به الفيكينج من المهارة في فنون البحار ، فإنهم دون غيرهم من الشعوب المعاصرة أدركوا قيمة الحركات السريعة في الحروب ، حتى إنهم كانوا يدخلون نهر التيمس أو اللوار ، ويرسون فجأة عند ناحية من النواحي الزراعية ، فيستولون على ما بها من الخيل ، وينتشرون في ضياعها بحرقون الغلات ، ويذبحون الفلاحين ، ويسرقون ما يسرقون . ثم يقفلون راجعين

فى سرعة البرق ، قبل أن يجمع أهل الناحية شاملهم البليد لمقاومة المغيرين .
وغنى عن البيان أن طول المدة التى تكررت أثناءها إغارات الفيكنج ، وأن
ما نجم عن تلك الإغارات من الخراب والدمار ، فضلاً عن الذعر الذى عم
الشواطئ والأطراف . بل تعداها إلى جوف القارة الأوربية — كل ذلك دليل
على ما تردت فيه أوربا من الخلل والفوضى منذ وفاة شارلمان . والواقع أن المجتمع
الأوروبى بدأ زمن الفيكنج كأنما شلت أجزاؤه . أمام عدو قاهر قادر على
الحركة والحلول فى كل مكان ، بحيث استطاع أن يجمع بين الهجوم على قانس
وأشبيلية وهامبورج وبوردو فى سنوات قليلة .

غير أنه من الخطأ أن نتصور كل شىء يحدث فى الأرض على مقياس
كبير معناه الخير والسعادة ، إذ ليس ثمة شك أن إغارات الفيكنج فى النصف
الأول من القرن العاشر الميلادى إنما جاءت للهدم من أجل الهدم ، وأنها كادت
تودى بكل معالم الحضارة فى غرب أوربا إلى الهاوية . فالحضارة الأيرلندية
التي أضاعت الأفق الأوروبى منذ قرون لم تستطع أن تعود إلى نورها القديم ،
بسبب ما أنزله الشماليون بأيرلندا من بالغ التخريب ، وآية ذلك مدينة أيونا
التي سرت المسيحية الأيرلندية منها إلى إنجلترا ، إذ غدت من بعد تخريبهم
كان لم تكن شيئاً مذكوراً . غير أن الطبيعة تعادل دائماً بين الكوارث العظمى
والجهودات البشرية التي تعقبها ، والكوارث العظمى لذلك لا تخلو من فوائد
معوّضة . والدليل على صحة ذلك هنا أن إغارات الفيكنج لم تلبث أن تطورت
من لصوصية إلى فتوحات ، ومن فتوحات إلى استقرار ، فالفيكنج الذين خربوا
الأديرة الأيرلندية هم الذين أسسوا المدن التجارية فى أيرلندا ، والفيكنج
الذين هدموا مدينة أرباخ الأيرلندية هم الذين أنشأوا عوضها مدن وتوفورد
ودبلن وكسفورد ويمرك ؛ بل إن ما قدمه الفيكنج من الإساءات إلى الإسكتلنديين
لم يعدم بعض الفائدة ، لأن تسلطهم على الجزر الإسكتلندية والبحر الأيرلندى
حجز بين إسكتلندا وأيرلندا ، ووقف حركة المهاجرة بينهما ، كما عطل الاختلاط بين
الشعبين ، مما ساعد على توحيد الجنس الإسكتلندى تحت حكم ملوك إسكتلنديين .
أما الدانيون وهم الفرع الآخر من الفيكنج ، فإنهم أحدثوا بإنجلترا وفرنسا

أكثر مما أحدث إخوانهم النرويجيون بأيرلندا وإسكتلندا ، إذ هزت إغارتهم العنيفة أركان البلدين . وأدت إلى استيلائهم وإطلاق اسمهم زمناً على الجزء لشرق من إنجلترا . وإلى حلولهم بالجزء الشمالى الغربى من فرنسا . وهو نورمانديا الحالية . كما أدت أخيراً إلى خضوع إنجلترا للملك من الدانين (١٠١٣ - ١٠٤٢) م ، وتبعتها لإمبراطورية دانية شاملة لشبه جزيرة إسكندناوة وغرب أوروبا كله . مما كان خليقاً بأحرج النتائج فى تاريخ الإنجليز ، لولا أسباب مخففة معروفة . تلك أن الدانين مثل الإنجليز والسكسون والفرنجة يرجعون جميعاً إلى أصول جرمانية ، وهم يشبهونهم فى كل الخصائص ، ولذا خلف الدانيون فى إنجلترا ونورمانديا غير ما خلف العرب فى إسبانيا مثلاً . ففى إنجلترا ونورمانديا أثر الغالبون والمغلوبون بعضهم فى بعض تأثيراً باقياً ، لا بسبب اختلافهم وتباينهم فى الصفات بل بسبب تشابههم فيها . ولا سيما صفات النجابة والمرونة والوعى . فالدانيون فى إنجلترا صاروا إنجليزاً ، وفى نورمانديا صاروا فرنسيين ، وتقبل هؤلاء وأولئك المسيحية والثقافة اللاتينية التى أضحت جزءاً لا يتجزأ من المسيحية . وأسهموا إزاء ذلك بمجموعة من السجايا التى طمسها سوجتهم التخريبية الأولى ، ثم أظهرتها أعمالهم التشريعية والبنائية ، وهى الأعمال التى جعلت من النورمان أولاً ، ومن الإنجليز بعدهم ، أصحاب سبق فى مضمار الحضارة بين شعوب الأرض جميعاً .

والواقع أن التشابه العميق بين الإنجليز والدانين هو المفتاح الذى يفتح لباحث فى تاريخ النظم الإنجليزية مغاليق البحث . ذلك أن الإنجليز الأولين امتازوا دون غيرهم من فروع الشجرة الجرمانية بكثرة ما كتبوا ودوتوا من القوانين . والجدول الصغير الذى جرى واتسع حتى آض بحراً هو القانون الإنجليزى العام (English Common Law) الذى يرجع نبعه إلى أيام إثلبرت ملك كنت أوائل أيام الدانين فى إنجلترا ، حين كان الفقه الرومانى يودع الوداع الأخير فى كتاب أصول القانون^(١) الذى أمر بتأليفه الإمبراطور جستنيان . ثم أضيفت إلى القانون الإنجليزى - زمن ملوك وسكس - إضافات مادية

زادته حجماً وسعة : غير أن الصورة التي انتهى إليها ذلك القانون قبل الفتح النورمانى لإنجلترا . لم تكن من عمل ملك من الملوك الإنجليز . بل جاءت على يد أحد الدانين . وهو كانوت . صاحب الإمبراطورية الشاملة غرب أوربا كله . بما فيه إنجلترا . والسرّ في ذلك أن كانوت رأى - كما رأى الباحثون الحاليون - أن مواضع الخلاف بين عادات الإنجليز والدانين عرضية طفيفة . ومواضع الشبه بينهما جوهرية عميقة . فلفظ قانون في اللغة الإنجليزية داني الأصل . وكذلك حب إقامة الدعاوى والتقاضى في كل شيء . وهو ما امتاز به الخلق الإنجليزي منذ كانت إنجلترا . ثم إن الدانين والإنجليز تعودوا القضاء العلنى في المحاكمات . وتشابهت وسائلهم في معرفة البرىء من المجرم : مثل امتحان المتهم بالنار أو بالماء الساخن . أو بلقمة من الخبز أو بقطعة من الجبن ، أو بتأدية اليمين على قاعدة اليمين على من أنكر ، مع تركية العدول لليمين المؤداة ؛ كما تشابهت لديهم قوائم الديات والغرامات التي يدفعها أهل الجناة لأهل الجنى عليهم مرة واحدة أو مرات متعددة . وفضلاً عن ذلك كله ، فإن نظام الخلفين الذي ابتدعه النورمان لا يعدم ما يشبهه لدى الإنجليز والدانين الأولين من وسائل التحقيق في القضايا والجنايات .

وثمة نتيجة أخرى من نتائج الإغارات الدانية على فرنسا وإنجلترا . وهي أن تلك الإغارات أدت إلى تنشيط الدولة في كل منهما . بظهور أسرات أنجبت ملوكاً قادرين على الحكم والدفاع عن البلاد . فبعد أحقاب طويلة من الضعف والفوضى ظهرت في فرنسا أسرة كابيه التي برزت أول ما برزت في اندفاع عن باريس ضد الدانين وغيرهم من الشماليين ، ثم حلت محل المتأخرين من عجرة الشارلمانين ، وأخذت منذئذ تسير في دأب وهذوء نحر إنشاء ملكية فرنسية ممتدة الأطراف . وجرت الحوادث بما لا يختلف عن ذلك كثيراً في إنجلترا ، فبينما هدم الدانيون ممالك نورثمبريا وإيست آنجليا ومرتسيا . وبدأ كأن مصرير المدنية الأنجلو - سكسونية بات في كفة الميزان ، لشدة ما نزل بمعظم أرض إنجلترا من التخريب ، وقفت مملكة وسكس في وجه الدانين ، واستطاع ملوكها من أسرة إيجبرت أن يحاربوهم حرباً باسلة عنيدة . وطال النضال

واشتد ، وتخللته تقلبات مفاجئة ، غير أنه لم يخل من نتيجة ، وهي تثبيت الملكية القومية في وسكس التي لم يلحق الدانيون بها شيئاً مما ألحقوه بسائر الممالك الإنجليزية .

وتفصيل تلك الحوادث في إنجلترا أن الإغارات الدانية تحولت إلى فكرة الفتح والاستيلاء سنة ٨٦٦ م ، بعد أن ظلت تلك الإغارات اثنتين وثلاثين سنة وهي ترغى وتزبد . وتزداد قوة وتخريباً . ففي تلك السنة استطاع هنجوار زعيم القراصنة الدانيين أن يكتسح جميع الممالك الإنجليزية بين التيمس والكليد في حملة خاطفة واحدة ، فتشمت نورثمبريا وإيست آنجليا ومرسيا تحت ضرباته القاصمة . ثم استولى هنجوار على نوتنجهام في إنجلترا الوسطى ، وألقى الحصار على دمبرتن في الجنوب الغربي من إسكتلندا . حتى إذا عبر إلى الجزيرة الأيرلندية سنة ٨٦٨ م . بعد أن ترك أخاه هالفدان ليتم ما بدأه من الفتح والنصر ، خيل للناس أن الجزر البريطانية كلها سوف تصبح غنيمة سائغة للدانيين .

غير أن مملكة وسكس - الممتدة عبر إنجلترا من رأس لاندز إند إلى بحر شمال جنوبي التيمس - حفلت وقتذاك بعصابات وشراذم مختلطة من الممالك التي هدسها الدانيون في الشمال ، وانضمت هذه وتلك إلى وسكس وأهلها من لأعيان واهزارعين والفلاحين ، تحت زعامة ملك قادر على مقاومة المغيرين حتى نهاية . ذلك هو ألفرد الذي لم يبلغ من العمر سوى ثلاث وعشرين سنة حين آلت إليه الملكية ومشكلاتها الهائلة سنة ٨٧١ م ، والدانيون وقتئذ منتشرون في جوف إنجلترا . ومن المعلوم أن جميع ما يتعلق بحياة ذلك البطل القوي بهم لإنجليزى ويشمجيه ، وهي حياة مليئة بالدلالات على عظمة ألفرد منذ نشأته ؛ ومنها زيارته المتكررة لروما . وانشرحه للأغاني والآداب الإنجليزية وعنايته بتعليم ، وتشجيعه العلم من طريق الترجمة لمعظم الكتب اللاتينية الشائعة في عصره . مثل كتاب سلوى الفلسفة (De Consolatione Philosophae) للمؤلف سوثيوس . وكتاب واجبات راعي الدين والكنيسة (Regulae Pastoralis Liber) لجريجورى العظيم ؛ وهذا إلى رعايته للفنانين والصناع ورجال الدين من

الأجانب ، واهتمامه بالأسفار وتقويم البلدان ، وتنميته العلاقات الطيبة بين إنجلترا والبلاد المجاورة وغير المجاورة ، فضلاً عن جسارته في الحروب وحماسه في الصيد . وغيرته في أمور الدين ورسومه . واعتقاده في بركة السلف الصالح وآثارهم . على أن الذى يجعل حياة ألفرد جديرة بما يحوطها من هالة الاحترام لا يقتصر على ما تقدم من دلالات على سعة الأفق والقدرة على جليل الأعمال فحسب ، بل يستند في الواقع إلى نجاحه في طرد الدانين عن وسكس ، لأن في إنقاذه لها إنقاذاً للحضارة الأنجلو - سكسونية . وضماناً لهوض تلك الحضارة في إنجلترا كلها على أسس قومية . ولغور ألفرد ملك وسكس أهميتان أخريان ، وهما أن هزيمة الدانين على يده كانت أول صدمة خطيرة للتيار اللوثي الجارف من الشمال ، وأول بداية للموجة العكسية التي أدت إلى نشر الدين المسيحي بين الشعوب السكندناوية ، مما مهد لقبول تلك الشعوب في دائرة السياسة الأوروبية .

ومن هنا تتضح الناحية العالمية من حياة الملك ألفرد ؛ على أن حياة هذا الملك حدثاً فاصلاً في تاريخ إنجلترا كذلك ، فإن الرجل الذى خلص وسكس من براثن الدانين زعيم بولاء جميع الناطقين باللغة الإنجليزية ، بعد أن صيرته الحوادث ملكاً ، لا على جميع البلاد التي حددتها معاهدات الصلح (٨٧٨ - ٨٨٥ م) مع الدانين ، وهى البلاد الواقعة غربى الخط القاطع للأقاليم الوسطى بإنجلترا على طول الطريق الرومانى المعروف باسم واتلنج ستريت (Watling Street) فحسب ، بل على ما عدا ذلك من أرض إنجلترا ، مما لم تمسه تلك المعاهدات . ثم إنه يبدو أن جميع ما امتازت به إنجلترا في مختلف عصورها ، من أسطول ضخم وقانون واسع وعاصمة فخمة . يرجع كله إلى سياسة وضع أصولها ألفرد ، إذ بنى سفناً طويلة على غرار السفن الدانية ، وأصدر قانوناً شاملاً لعادات السكسون والمريسين والكتنين ، وعمر ما تخرب من لندن على يد الدانين ، بعد أن أدخلها في مملكته .

يضاف إلى ذلك كله أن وسكس صارت بفضل ما قام به ألفرد قاعدة لما سوف يتمخض عنه المستقبل . ففما استولى ابنه إدوارد على أرض الدانين

(Danelaw) بإنجلترا شرقى واتلنج ستريت . وهى معظم يوركشير ولينكولن وإيست آنجليا الحالية . ومنها درأ حفيده أثلستان هجوماً مزدوجاً من أيرلندا وإسكتلندا ، فى وقعة تقشعر الأبدان من حوادثها . وتذوب القلوب من تفاصيلها ، وهى وقعة برونابورة سنة ٩٣٧ م التى ألهمت ملحمة من أعظم نلاحم الأنجلو - سكسونية . وغدت مادة لقصة من أبهى القصص فى أدب شماليين . والحاصل أنه لم تأت سنة ٩٥٤ م حتى استطاع ألفرد ملك واسكس أن ينادى بنفسه ملكاً على جميع إنجلترا . من بحر المانش إلى الكليد .

هكذا حفظت الملكية فى وسكس منصب الصدارة على سائر إنجلترا سبعاً وسبعين سنة بعد وفاة ألفرد العظيم ، فددت نفوذها فى خطوات قوية . وحكمت أرض الدانين بإنجلترا حكماً هيناً لا قسوة فيه ولا شدة ، واستطاعت بمعونة الكنيسة أن تكون بنجوة من الأخطار التى هددت كيائها لقيام قاصر فى الملك ولما يبلغ العاشرة من عمره ، وهو إثلرد (٩٧٨ - ١٠١٦ م) .

غير أنه على الرغم من إعلان وحدة إنجلترا نظرياً منذ منتصف القرن تاعشر الميلادى فصاعداً ، ظلت تلك الوحدة غير مستقرة على حال لأسباب مختلفة ، وبقيت على تلك الحال حتى زالت أسبابها بالفتح النورمانى . ذلك أن الجيوش الدانية المعسكرة فى إنجلترا شرقى واتلنج ستريت ، والجيوش نرويجية الضاربة فى نورثمبريا ، لم تنقطع عن المقاتلة والتنازع ، كما لم تستطع أن تندمج مع أهل البلاد من السكسون . ثم إن نظام الممالك السبع - أى الهبتاركية (Heptarchy) - وهو النظام الذى قسم إنجلترا إلى سبع ممالك قبل أن يجيئها الدانيون ، لم تذهب ذكره تماماً من عقول الناس ، ولم يكن من المستبعد لإحيائه إذا ما استولى الضعيف على ملوك وسكس . وتحقق المحذور ، ووقع ما كان فى الحسبان على عهد إثلرد ، إذ عاد الدانيون إلى الإغارة من بلادهم الأصلية على إنجلترا ، بعد أن نعمت بشيء من السلم مدة سبع وسبعين سنة ، وأضحت مرتعاً خصباً بالثروة المغرية ، بالقياس إلى التعاسة الضارية بأرجاء القارة الأوروبية . ولكى تكتفى وسكس شرّ أولئك الأعداء المفسدين لجأت حكومتها الضعيفة إلى شرائهم بالمال ، وفرضت على الناس ما يسمى ضريبة

الدانين (Danegeld) . وهى ضريبة بهظت المزارعين وغيرهم من السكان . بمقدارها وتكرارها ، حتى أفقدتهم أثقالها نسيم الحياة والحرية التى تمتعوا بها منذ أيامهم الأولى . وغدوا فى حال من العبودية الزراعية . كأنهم والأقنان عبيد الأرض سواء . ومن المعروف فى علم الاقتصاد أن بعض الضرائب تبلغ من الفداحة مبلغاً كفىلاً بتغيير معالم مجتمع بأسره . وأن بعضها يدرّ من الحصيلة والدخل ما يغرى الحكومات باستمرارها زمناً بعد زوال الطوارئ الأصلية التى سببت فرضها على الناس . واجتمع هذان المعنيان فى ضريبة ذهب الدانين . ولذا هى أصل من أصول التطور الإقطاعى والعبودية الزراعية فى إنجلترا ، وفى غيرها من البلاد الأوروبية التى فرضت مثل تلك الضريبة على نفسها لأسباب مشابهة ، وهى لذلك ظلت الركيزة المالية الكبرى فى إنجلترا على عهد كانوت ، ثم على عهد ولیم الفاتح وأعقابهم من الملوك النورمانيين مدة غير قليلة .

غیر أن ضريبة الدانين على ثقلها لم تعصم إنجلترا من الإغارات الحديدية . ولم تستطع إلا أن تؤجل الاستيلاء على أقاليمها مرة أخرى . إذ أخذ الدانيون ما قدمه لهم إثلرد من الأموال . وراحوا ليعودوا إلى الإغارة وطلب المزيد أو التخريب مراراً . حتى اضطّر إثلرد إلى الفرار إلى نورمانديا . وبذا أعلن سوين زعيم الدانين نفسه ملكاً على إنكلترا سنة ١١٠٣ م . وخلفه ابنه ووارثه كانوت الذى نودى به ملكاً على مملكة إسكندناوية شملت إنجلترا والدانمارك والنرويج وجزائر هبريديز بأطراف إسكتلندا . غير أن مملكة تفصل بين أجزائها أمواه عاصفة ، وبحار هائجة ، لا تقوى على البقاء متحدة زمناً طويلاً ، ولا جناح على الباحث إذا استبعد من دائرة الاحتمالات التاريخية تصوير إنجلترا جزءاً دائماً من دولة إسكندناوية جامعة لأجزاء أوروبا الغربية . والواقع أن أهمية عهد كانوت تنصبّ على تاريخ السكندناويين أكثر مما تنصب على تاريخ الإنجليز ؛ ولم يكن استيلاء الدانين على إنجلترا أول مرة تمكن فيها المغلوبون من التغلب آخر الأمر على الغالين . ثم إن كانوت نفسه تحول من عالم الشماليين النورديين إلى العالم الرومانى اللاتينى حين اعتنق المسيحية . إذ شد الرحال إلى روما حاجباً ، وتزوج من الملكة إِمّا أرمل سلفه

إثلود على عرش إنجلترا . كما أنه حكم إنجلترا حكم الملك الوطنى ، لا الأجنبي . ولم يكن ثمة ما يدعو إلى المفاضلة أو المقاربة — عند ملك اتصف بقوة الإدراك — بين سهول إنجلترا الحصبة ، وأنهارها الهائلة الدافقة وغلاتها الوفيرة ، ومحطاتها التجارية النشطة . وبين جبال النرويج الوعرة ، وتلال الدانمارك السافية ؛ لأن إنجلترا بالقياس هى الأبهى ولا نزاع ، وهى الأكثر زراعة ولا شك . ولذا جعل كانتوت من إنجلترا مركزاً لإمبراطوريته ، وعقد النية على نقل المسيحية منها إلى سائر ممتلكاته . على أن كانتوت لم يكن أول من فكر فى إيصال المسيحية إلى البلاد الشمالية ، إذ سبقه القديس أنشار (St Anschar) سنة ٨٣٠ م ، وهو ببيكاردى فرنسى تعلم فى دبر كورفيه بفرنسا الحالية ، وساح فى الدانمارك والنرويج والسويد مبشراً بديانة المسيح ، وغامر بحياته حتى غلبته على أمره قوة التقاليد الوثنية التى ظلت تشع إلى ما بعد القرن التاسع الميلادى من معبد أوبسالا بالسويد ، حيث أقيمت الشعائر للآلهة أودن وثور وفرأى^(١) ، وقدمت الذبائح والقرايين من الرجال والنساء وأنواع الحيوان مرة كل تسع سنوات . ثم حدثت معجزة المعجزات حين صار أهل البلاد الشمالية جميعاً فى دائرة الحضارة الرومانية اللاتينية أواخر القرن العاشر الميلادى . إذ أخذ أهل البلاد الدانية فى إنجلترا — وهم الذين تحولوا إلى المسيحية نظرياً منذ معاهدة ودمور سنة ٨٧٨ م — يدخلون فى دين الكنيسة الإنجليزية أفواجاً تلو أفواج ، حتى أصبح الواردون على إنجلترا من الدانمارك والنرويج والسويد للتجارة يحدون بموانئها مسيحيين تربطهم بهم رابطة اللغة والدم ، مما أدى ببعض أولئك التجار إلى اعتناق المسيحية ، كما أدى ببعضهم الآخر إلى إزالة ما فى نفوسهم من كره للمسيحيين . وكيفما كان الأمر فالمعروف أن القساوسة الإنجليز باتوا موضع الطلب فى النرويج والدانمارك ، وأن عهد كانتوت يوافق حركة التوسع فى الدعاية للمسيحية بهاتين المملكتين ، على يد الملك أولاف القديس ، وأخيه أولاف سكتكوننج ، وكلاهما يدين باعتناقه المسيحية إلى مبشرين من الإنجليز ، كما يدين كلاهما بنجاحه فى عمله إلى المساعدة

الإنجليزية ؛ وكانت حركتهما هذه من حركات الاتفاق والمجانسة في الرأي والسياسة ، مما يحدث بدافع التقليد والمحاكاة في فيئات التاريخ .

ومن الأهمية بمكان أن كانت ألقى بشخصيته الكبيرة في كفة المسيحية أثناء تلك السنوات الحرجة في التاريخ الأوربي ، لأن تملكه على إنجلترا جعله أقوى الملوك السكندناويين وأغناهم على الإطلاق ؛ فلو أنه رفض التحول إلى ديانة المسيح ، وأقام على دينه الأول مستعيناً بالروح الوثنية الكامنة بأعماق البلاد النرويجية مثلاً ، لتأخر استقرار الأحوال السياسية في أوروبا تأخراً كبيراً . غير أنه اتخذ عكس ذلك المسلك ، بل إنه حرص على أن يبدو سكسونياً أكثر من السكسون ، ولاتينياً أكثر من البابا ، كما حرص أن يكون ابناً تقياً باراً بالكنيسة المسيحية ، فعمر مدينة سنت إدمندز بيوري تكريماً للملك الإنجليزي الشهيد الذي قتله الدانيون أثناء إغاراتهم الأولى . وبعث إلى الدانمارك فئة من رجال الدين الإنجليز لتنظيم الكنيسة بها . وفي الحق أن سياسة كانت أذنت بنهاية الخطر السكندناوي على المسيحية اللاتينية ، على الرغم من بقاء عبادة الآلهة ثور وأودن وفراي وغيرها في بعض الأركان .

على أن المؤرخ يعلم — إذا هو أعرض عن عصر البطولة والتكشف والحماسة في المسيحية الأولى — أن انتقال أوروبا إلى ديانة المسيح لم يحدث إلا نتيجة تفكير في فائدة عاجلة ، أو بسبب ضغط سياسي قريب ؛ فالقوط الغربيون والشرقيون ، والفرنجة ، والسكسون ، والسكندناويون ، لم يعتنقوا المسيحية أفراداً يحدوهم نور من أنفسهم ، بل شعوباً يجمعهم الإيحاء العام والطاعة لأولى الأمر فيهم من الرؤساء والملوك . وهذا القول لا يمنع من وجود أشخاص تحمسوا للمسيحية بعد أن مست حبات قلوبهم دعوتها إلى الفضيلة ومكارم الأخلاق ، أو سميت بهم كلمتها إلى حب التأمل في الطبيعة الإلهية ، لأن من المعروف أن كثيراً من الناس اعتنقوا المسيحية من وحي الإيمان والتفكير . غير أنه من المعروف كذلك أن السواد الأعظم ممن تحولوا من الوثنية إلى المسيحية على عهد الإمبراطورية الرومانية ، أو أثناء المرحلة الأولى من العصور الوسطى ، لم يحرّكهم إلى ذلك دافع من الدين الخالص أو الأخلاق الفاضلة . ولم تتغير قلوبهم

بعد أن أصبحوا مؤمنين . ومن الضروري أن يذكر المؤرخ دائماً أن قبول البرابرة جميعاً للديانة المسيحية لم يؤد إلى شيء من التغير العميق المفاجئ ، مما عسى أن يتطرق إلى الذهن من لفظ القبول ، فإن أوروبا ظلت مسرحاً للأطماع الجائعة ، والشهوات الوحشية ، والخرافات المخزية . وفي الحق أن تثقيف البرابرة بآداب الدين المسيحي لم يعد وقتذاك مرحلة البداية الأولى . وهو لا يزال بعيداً كل البعد عن التمام . على الرغم مما بذل من جهد جهيد عبر القرون حتى العصر الحاضر . ومع هذا لا مشاحة في القول بأن المجتمع الأوربي على فطرته في العصور الوسطى منع اتخاذ القرايين من البشر ، وأبطل تعدد الزوجات . وحرم الرق والعبودية .

غير أن موضع البحث هنا هو المملكة الأنجلو - دانية التي حكمها كانتوت . والتي يرجع الفضل في بقائها إلى شخصيته وحدها . ذلك أنه لم يكن بين أبنائه من استطاع الإبقاء على وحدتها بعده ، ولذا عادت لإنجلترا بعد قليل من وفاته إلى أواصرها القديمة ، واستدعت إليها سليل الملك إثلرد - وهو إدوارد الثاني - من منفاه في نورمانديا ، سنة ١٠٤٢ م ؛ وانتهى بذلك عهد الدانين . دون أن تفقد إنجلترا شيئاً من طابعها الوطني . أما إدوارد الثاني فلم يكن قديساً أو ملكاً ضعيفاً كما شاء أصحاب الحويلات المعاصرة من الرهبان أن يصوروه ؛ بل كان رجلاً صادقاً ، حسن المقصد ، متوسط الذكاء ، تنقصه الخبرة بأحوال إنجلترا لأنه عاش بعيداً عنها مدة شبابه ، وتعوقه أساليبه الأجنبية ولسانه الأجني عن فهم ما حوله ، وتجهه حزبية ضاربة الأطناب منذ أيام الدانين ، دون أن تكون لديه القوة على ضبطها أو الحيلة لهدمها . ثم إن إدوارد لم يعقب ولداً ، فخلقت الشكوك المتولدة عن مسألة العرش مادة مثيرة للمناورات السياسية ، وأضافت بذلك إلى صعوبات الحكم صعوبة أخرى . واختلف الرأي فيمن ينبغي لمجلس الدولة (The Witan) أن يختار لهذا الشرف : أيرسل في طلب حفيد أخى إدوارد من نورمانديا ، أم يضع التاج على رأس هارولد بن جودون أمير وسكس وأقوى أمراء عصره وأشدهم طمعاً في المملكة . أم سوف تمثل المصالح الأجنبية دوراً في تقرير المصير ؟ وكان هناك

أجنبيان ممن اهتم بعرش إنجلترا أكبر الاهتمام ، وأولهما هاردرادا ملك النرويج .
وثانيهما وليم دوق نورمانديا ، وهو رجل وسعت أطماعه كل شيء ، وامتدت
يده إلى كل ناحية ، وله من الصلة بالبيوت الملكية الإنجليزية أن عمته
إما تزوجت من والد إدوارد التقي ، وبذا استطاع أن يدعى القرابة العائلية من
بيت الملك لجبرت (١) .

ومن هنا يتطلب الموضوع شيئاً من عود على بدء ، لتوضيح الصلة بين
حوادث الشماليين كلها وما تطورت إليه من نتائج . ذلك أن الإغارات الشمالية
التي أدت في كل من روسيا وأيرلندا وإنجلترا إلى تنشيط التجارة وتنمية المدن .
وأدت في أيسلندا ووديانها البعيدة إلى ازدهار عجيب في الأدب الشمالى .
هى التى خلقت نورمانديا لأوروبا والحضارة الأوروبية . فالنورمان (Normans)
اسم محرف من لفظ الشماليين (Northmen) الذين استقروا منذ ٩١١ م
بوادى نهر السين ، واشتقت البلاد التى استقروا بها اسم نورمانديا منهم .
ثم ما عثم أولئك النورمان أن برهنوا على أنهم أسطع الأجناس الأوروبية عند
الإطلاق . إذا أضافوا إلى ما اتصفت به أصولهم الشمالية من صفات الشهامة
والرجولة والقوة جميع ما كسبوا - هم وأبنائهم - من صقلية الشعوب اللاتينية
ونفاقتها التى اختلطت بحياتهم الجديدة ؛ فاستبدلوا بالوثنية ديانة المسيح .
وباللغة الدانية لسان الفرنسيين . واستعاضوا عن ذكرياتهم الشمالية الصاخبة
تقاليد اللاتين وأسسها الواضحة ؛ وأحبوا الترائيل الدينية والقداس فى الصلوات
الجامعة ، وهاموا ببناء الكنائس ، وشغفوا بالاستماع إلى الراوى وهو يغنى أغنية
رولان ، ويرنم الأشعار التى خيلت مصرع البطل شارلمان على يد المسلمين ،
فى وقعة تاريخية لم يشهدها لا شارلمان ، ولا المسلمون . وأضاف النورمان إلى
مهارتهم البحرية جميع ما عرف وقتذاك من فنون الحرب الراكبة وفنون الحصار ؛
ثم وجدوا مروج نورمانديا غنية بالخليل ، فهاموا بركوبها هياماً ساوياً عندهم بين
الفرس وهى تركض فى الأرض ، وبين السفينة وهى تجرى فى البحر .
وهكذا لم يغير النورمان شيئاً مما بأنفسهم من الولوع بالقتال والنزال ، حتى

(١) انظر ما سبق . ص ١٢١ ، وما بعدها .

إذا خلوا من الحرب ضد عدو من الأعداء ، انقلبوا إلى المباراة المسلحة بالزرد والسيوف . فيذبح واحد منهم صاحبه في ابتهاج يشبه ابتهاج الصبية في ميادين الألعاب الرياضية .

ولم يكن بين أتباع ملك فرنسا من هو أقوى أو أعز نفراً من زعيم أولئك النورمان الغرائق . الذين أقبلوا على ما وجدوا من مظاهر الحضارة الأوروبية أيما إقبال . ولذا غدت نورمانديا أعظم الدوقيات الفرنسية . وبات أدواقها بعاصمتهم رُوان قادرين على الوقوف وقفة الند للند أمام ملوك فرنسا الذين استقرت عاصمتهم منذئذ بباريس . وطالما نشبت بين الفريقين حرب من أجل بلدة فكسان الواقعة على خط الحدود بين نورمانديا وجزيرة فرنسا (Ile de France) وتلك هي التسمية التي أطلقت على الأراضي الإقطاعية التابعة للملك فرنسا تبعية مباشرة وقتذاك . غير أن مطالع النورمان لم تقف عند نورمانديا وحدودها . بل امتزجت فيهم محبة المغامرة بموهبة التقدير الدقيق والحرص . ففتحوا صقلية وإنجلترا في القرن الحادى عشر الميلادى . وكشفوا عن جزائر كناريا أو الخالدات في القرن الحادى عشر الميلادى ، وبعد ذلك بقرنين اثنين كان المغامرون من سلائل النورمان أول الذين دخلوا نهر الميسىبي وفروعه الصغيرة بأمريكا الشمالية .

وسرّ ذلك كله أن نورمانديا أصبحت أواسط القرن الحادى عشر الميلادى تحت حكم سلسلة من أدواق أشداء ، وأضححت دولة قوية متماسكة الأجزاء ، بالقياس إلى سائر الدول بغرب أوروبا دون استثناء . ففي نورمانديا دون غيرها من البلاد وقتذاك بدت الإقطاعية نظيمة مقيدة بأسباب النفع العام . إذ تعينت الخدمة الحربية وتأديتها على مقتضى العادة الجارية إزاء تملك الأفضال الإقطاعيين على إقطاعيات معينة ، وتحددت الحروب الخاصة . وامتنع بناء المعاقل والقصور الحصينة إلا بإذن من الدوق ، وصارت العملة احتكاراً للدوق كذلك ، وأسندت الإدارة المحلية إلى النواب (vicecomes) الذين يمثلون المصالح الدوقية العامة ، لا المصالح الإقطاعية الخاصة . ولم تشذ الكنيسة عن تلك القاعدة : بل هيمن الدوق على شئونها في نورمانديا ،

برغم ما بلغت في سائر أوربا من السلطان في القرن الحادى عشر الميلادى ،
مما لم تبلغه من قبل ومن بعد . ولم تستطع همجية الأرستقراطية التى اتصف
بها المجتمع الشمالى القديم أن تتغلب على قوة الأدواق . بل هدم دوق وليم
ما تبقى منها حين قضى على تمرد النبلاء النورمان في وقعة قال أسدون
(Val és Dunes) سنة ١٠٤٧ م .

وليس من المغالاة هنا أن يعمن المؤرخ في التأكيد على تلك الحقائق .
لأنه لم يكن من المستطاع أن يقام البناء الأوربى بعد الكارثة التى أعقبت وفاة
شارلمان ، بحيث يعود المجتمع إلى شىء من الترتيب والنظام ، إلا إذا نمت
دول إقطاعية صغيرة نمواً وثيداً على نسق حسن التركيب ؛ وكانت دوقية
النورمان أول هذه الدول ، وأرقاها نموذجاً . ثم انتقلت التجربة النورمانية عبر
المانش إلى الأراضى الإنجليزية ، بعد الفتح النورمانى ، وإلى جميع الأراضى
الفرنسية التى استولى عليها النورمان — بعد أن أصبحوا ملوك إنجلترا — بالفتح
أو عن طريق الزواج ، فامتدت ممتلكاتهم إلى مين وأنجو وأقطانيا ، وغسقونية ،
وإلى الجزر المحيطة بإسكتلندا . وفي جميع أجزاء تلك الإمبراطورية النورمانية
— إن صح هذا التعبير تجوزاً — باتت أسس الحكم ثابتة القواعد في القرن
الثانى عشر الميلادى ، وسرى القانون بعين عليه حارسة لمبدأ تعميمه على
الناس في لغة فرنسية إقليمية تداوها رجال القانون من خليج فورث بشمال
إنجلترا إلى نهر الجارون بالجنوب الغربى من فرنسا .

ومن حسن المصادفة في التاريخ أن أصبح النورمان فرنسيين . وأن يظلوا
كذلك نصف قرن من الزمان على الأقل ، قبل أن ينتصروا على الإنجليز
في وقعة هيستنجز سنة ١٠٦٦ م ، وقبل أن ينتقلوا بدولتهم إلى إنجلترا .
فلو أنهم حفظوا لغتهم وعاداتهم الأصلية ، وبقوا عنصراً لم يتحلل في جسم
المجتمع الفرنسى ، لتضاءل تأثيرهم العام إلى مثل تأثير البسقاوية والبراطنة
والإيرلنديين وأهل الغال في إعادة البناء الأوربى . لكن الذى حدث كان
غير ذلك ، ولذا حملوا معهم طابع الحضارة اللاتينية الخلاصة إلى حيث ألفت
بهم مغامراتهم الكثيرة .

ومن الدليل على تمكن المغامرة من قلوب أولئك النورمان أنهم بدعوا في تصيد الحظ تحت السماء الإيطالية ، خمسين سنة قبل أن يستولوا على إنجلترا . ذلك أنه وصل إلى علم جماعة من الحجاج النورمانيين — العائدين من الأراضي المقدسة سنة ١٠١٥ م — أن جنوب إيطاليا يطفح بالشحناء بين الدول القائمة به ، وأن ثمة متسعاً لنشاط القادرين على الخدمة المرتزة بجيوش المتشاحنين ، من فائض الشبان والأبناء المتبرمين بالحياة الرتيبة أو الفاقة بين أهلهم ، والراغبين في التنقل والرحلة في سبيل رغد العيش وذبوع الصيت . وانتشرت تلك الأخبار انتشاراً سريعاً في نورمانديا . وولى كثير من فرسان النورمان وجوهم شطر الجنوب ، وشاركوا في الحروب المحلية الناشئة بجنوب إيطاليا ، ودلوا على كفايتهم الحربية دلالة قاطعة . ثم حدث سنة ١٠٣٠ م أن دوق نابلي منح جماعة المرتزة في جيشه من شجعان النورمان مقاطعة آفرسا ، مكافأة لهم على خدماتهم . ولا غرابة فيما صنع الدوق ، وما سوف يصنعه غيره من البيزنطيين والمباردين والمسلمين والإيطاليين : من باب الإعجاب بأولئك النورمان ؛ فإن الفارس النورمانى بدهائه وشجاعته ، وطموحه وغطرسته . وحبه الكسب والسعة في الإنفاق ، مع دأبه على العمل ومثابرته ، وشغفه بالملابس الزاهية والعبارات المونقة ، فضلاً عن إتقانه لأركان فن الحرب — كل ذلك جعله يبدو في أعين الناس بإيطاليا الجنوبية مثال الذكاء اللامع ، ونموذج المهارة الفائقة . والحقيقة أن أولئك المغامرين بلغوا من علو الصيت مبلغاً غير متناسب مع أعدادهم ، حتى إنهم استطاعوا أن يستولوا على جنوب إيطاليا وصقلية كلها ببضع مئات من الفرسان ، بقيادة اثني عشر من أبناء المعامر النورمانى الكبير تانكرد هوتفيل^(١) .

ويندر أن يوجد في تاريخ العصور الوسطى أعجب مما يرويه المؤلفون في نهضة تلك الأسرة وأبنائها الذين انتزعوا جنوب إيطاليا من البيزنطيين . وصقلية من بنى حماد المسلمين ، وأنطاكية فيما بعد من ولاة السلاجقة المسلمين الآخرين ، وذلك قبل أن يهاجموا الدولة البيزنطية في عقر دارها بالبلقان .

(١) راجع شجرة الأنساب رقم ٢ ، في آخر الكتاب . (زيادة) .

ومن أولئك الأبناء روبرت جوسكارد الذى بدأ حياته لصاً من لصوص الماشية ، ثم غدا فارساً من فرسان الليل والحيل ، وصوّره أحد أنقياء المؤلفين الصقليين فى حولياته تصويراً يكاد يعيد النورمانى المغامر إلى الحياة ، إذ وصفه وأيامه الأولى وصفاً بديعاً ، واختتم القول فيه بأنه : « كان على جانب من أصالة الرأى والحيلة ، والذكاء والموهبة ، والكرم والجرأة » ، كما اختتم القول فى أخيه رُجار فاتح صقلية ، بقوله إنه كان « فارعاً طويل القامة ، مليح الوجه ، بليغ اللسان ، كثير الطموح » . وطاب لذلك المؤلف المتحمس أن يرى أبناء تانكرد هونفيل والحظوظ ترقص لهم حتى جعلتهم ما جعلت ، وما أهمه فى شيء قليل أو كثير كونهم شياطين قادرين ، فإن قسوتهم وشدتهم فى الحروب يغفر لها أنهم مسيحيون ، وإذا هم أنزلوا الهزيمة بالجيش الذى سار على رأسه البابا ليو التاسع للحدّ من حركاتهم ، فإنهم أصلحوا ما سلف منهم حين وقع البابا أسيراً فى أيديهم سنة ١٠٥٣ م ، إذ أولوه من آيات الإجلال ما أَرْضاه عنهم وعن أعمالهم . وأدركت البابوية ما سوف تفيد من تحالف مع زعماء تلك الفئة الغالبة ، عساهم أن يخلصوا لإيطاليا من البيزنطيين ، ويعيدوا صقلية إلى المسيحية ، ويجعلوا البابوية على عرشها آمنة مطمئنة . لذلك كله عقد البابا نقولا الثانى والنورمان معاهدة سنة ١٠٥٩ م ، واستناداً إلى الوثيقة المزيفة التى تنسب إليها هبة الإمبراطور قنسطنطين^(١) أقطعت البابوية دوقية أبولية إلى روبرت جوسكارد ، كما عينت أخاه رجار نائباً بابوياً لجزيرة صقلية ، مكافأة له - ولأعقابه من بعده - على طرد المسلمين من تلك الجزيرة .

كذا جرت المقادير حتى صار لأولئك المغامرين الشماليين أن يضعوا حجر الأساس لدولة متحضرة على شواطئ البحر المتوسط . تحت عين البابوية . وفى نور بركتها المباركة . ودلت سلالة تانكرد - بما أوتيت من مرونة نورمانية - أنها أهل لتحمل أعباء الحكم النظيم على طرز جديدة فى أحوال صعبة . وفى مملكة الصقليتين التى سميت بذلك الاسم بعد أن وحد رُجار

الثاني ممتلكات النورمان في جنوب إيطاليا وصقلية . شهدت أوروبا دولة ، لا هي غربية ولا شرقية ، بل مزيج من الاثنين . وأهلها أخلاط من البيزنطيين والرومان والمسلمين واليهود ، وحكومتها أحسن الحكومات الأوروبية وأكثرها تنظيمًا في ذلك العصر ، لحافظتها على تراثها البيزنطي الإسلامي دون غيرها من الدول . وفي وسط بساتين البرتقال بمدينة بالرمو بصقلية استوى رُجار الثاني سليل الشماليين الأولين على عرشه ، لابسًا خلعة النيابة البابوية ، فوق القباء الإمبراطوري البيزنطي ، وحوله وزرائه ، ثلة من البيزنطيين وثلة من الإنجليز . وجيشه نصف من النورمان ونصف من المسلمين . ورجال أسطوله من اليونان . وحاشيته فيها الحرم والحصيان . وكل شيء بأصوله . من حيث الملازمة بين هيئة الملك والنسيم العليل بجزيرة صقلية الحميلة . التي كانت وما فتئت يقاسمها الشرق والغرب في ظل رغيد .

والدهر لم يتنكر لتلك الأسرة المنحدرة من آباء قراصنة متجربين في البحر . ولا لما خلقوا من الآثار الدالة عليهم . بل رفق بهم وبآثارهم رفقًا عظيمًا . فلا تزال زينات الحوائط بكتندراتيهم الفخمة بمدينة منريال بصقلية — وهي من أبداع ما صنع البيزنطيون من أنواع الفسيفساء — تضاهي في الرونق والبهجة أزهار كونكادورو وحدائقها القرية ؛ ولا تزال هذه البقعة الفيحاء تزدان بأروقة باقية من دير قديم ، حيث يتفيا الزائر العابر ظلًا وارفًا . ثم لا يستطيع — بعد أن يشهد ما هنالك من مبان وتماثيل وأحجار كريمة ونقوش بديعة — إلا أن يعجب بجلال الملوك النورمان . الذين جمعوا إليهم من آيات الفنون والصناعات في القرن الثاني عشر الميلادي ، ما يدل على عظمتهم الممددة منذئذ في قبور من الرخام السماق الظلم .

والأمر على خلاف ذلك في إسكندناوة التي تدفق الشماليون الأولون منها في مناكب الأرض ، يذبجون الناس ، ويحرقون الغلات . ويفتحون المدن المانعة . فلم تقم في وديان السويد أو النرويج مدن مثل منريال بصقلية ، أو مدينة كان بنورمانديا ، أو مدينة درهام بإنجلترا . بل انصرفت الأرستقراطية الإسكندناوية إلى الحروب بين بعضهم وبعض حتى آخر رمق من الحياة :

وأضمت إسكندناوة فى القرن الثالث عشر الميلادى خلواً من أى أثر من آثار
العظمة ، وذهب عنها سلطانها . ولم يبق بها إلا فلاحون بؤساء يعملون فى
أرض نكراء . فلا يحصلون منها إلا العيش القليل .

بعض المراجع لهذا الفصل

- Elton (O.) : Saxo Grammaticus. (1894).
Haskins (C.H.) : The Normans in European History. (1915).
Haskins (C.H.) : Norman Institutions. (1918).
Keary (C.F.) : Vikings in Western Civilisation. 1891.
Kendrick (T.D.) : History of the Vikings. (1930).
Oman (C.) : A History of England before the Norman Conquest. (1910).
Orlik (A.) : Viking Civilisation. Ed. H. Ellekilde. (1930).
Philpotts (B.S.) : Edda and Saga. H.U.L. (1931).
Plummer (C.) : The Life and Times of Alfred the Great. (1902).
Trevelyan (G.M.) : History of England. (1926).

الفصل الثامن

الملوك السكسونيون والفرنكونيون في ألمانيا^(١)

أوروبا سنة ٩٠٠ م - ألمانيا والمجريون - هنرى الصياد - أوتو الأول - تأسيس الدولة الرومانية المقدسة في الأمة الألمانية سنة ٩٦٢ م - أهميتها في تاريخ ألمانيا - حدود السلطة الإمبراطورية - الخلاف بين الإمبراطورية والكنيسة - نهوض البابوية بعد سنة ١٠٤٦ م - البابا ليو التاسع - هلدبراند - البابا جريجورى السابع - حرب التقليد العلماني - اتفاقية فرومزر سنة ١١٢٢ م - القصة الهلدبراندية - آثارها في التفكير السياسي - الحركات الألمانية الاستعمارية في سهول ألمانيا الشمالية وأواسط حوض الدانوب - قلة مكاسب الإمبراطورية في ذلك الميدان - ألمانيا الصعبة وألمانيا السهلة - انعدام المسألة الألمانية الفرنسية في العصور الوسطى .

بينما عكف الشماليون على مهاجمة الأطراف الأوربية ، عكفت أوروبا على نفسها تبتغى مختلف المقومات السياسية التي أدت في العصور الحديثة إلى تكوين قوميات منفصلة في ألمانيا وإيطاليا وفرنسا . وفي بداية القرن العاشر الميلادي لم تملك واحدة من تلك البلاد شيئاً من النظم الضرورية لقيام دولة ، ولا شيئاً من الوعي القوي اللازم لنهضة أمة ؛ فكان للفرنجة الغربيين ملك من غير أن تكون هناك فرنسا ، وللفرنجة الشرقيين ملك دون أن توجد ألمانيا ،

(١) سمي المؤلف هذه الفقرة الثانية من ملوك ألمانيا أوائل العصور الوسطى باسم السالين ، ثم استخدم التسمية المثبتة بالعنوان هنا للدلالة على أولئك الملوك فيما يلي ، بالصيغة الأولى من الفصل الحادي عشر . وكلتا التسميتين صحيح سليم ، لأن لفظ السالين مأخوذ من الصفة (Salic) أى البحرين ، وهي الصفة التي اشتهرت بها هذه الفقرة من ملوك ألمانيا ، على حين أن لفظ الفرنكونيين نسبة إلى إقليم فرنكونيا بأواسط ألمانيا ، وهو الإقليم الذي جاء منه أولئك الملوك ، وهذه التسمية الإقليمية هي الأقل عموضاً على القارئ . انظر شجرة الأنساب بالقسم الثاني من هذا الكتاب ، (زيادة) .

وللمبارديين بإيطاليا ملك وليس من إيطاليا القديمة إلا الاسم والذكرى .
 ولم يكن مما يسمى الدولة الفرنسية في العصر الحاضر سوى عدد من الأقاليم
 الإقطاعية ، ينهض بينها إقطاع اسمه جزيرة فرنسا ^(١) (Ile de France)
 وعاصمته باريس ، وهو الإقطاع الذى ضوى ما حوله من الإقطاعات حتى
 ساوى سلطانه امتداد الحدود الفرنسية الحالية . ولم تزد ألمانيا وقتذاك عن
 مجموعة مفككة من الدوقيات القبلية - وهى سكسونيا ، وفرانكونيا ، وبافاريا ،
 وسوابيا - وتلك كلها تنتخب لمجموعتها ملكاً يحكم فيها حكماً اسمياً . أما إيطاليا
 التى عاش أهلها يوماً من الأيام سادة شائخين مميزين في إمبراطورية عظيمة ،
 فإنها غدت نقضاً مبعثراً تحت دول متنافرة ، فدولة بابوية تحيّف الاغتصاب
 من أطرافها ، وولاية إقليمية بيزنطية لم يقو الإمبراطور البيزنطى على حمايتها ،
 وإقطاعات لمباردية في الشمال والجنوب ، ومدن مستقلة تهوى أن يكون لها
 السلطان على شبه الجزيرة كلها . ولم يكن في وسع الغسقونيين أو البراطنة
 أن يدعوا لأنفسهم أنهم من فرنسا ، ولم يشعر البنادقة أو الجنوية أنهم
 ملزمون بالخدمة تحت لواء مركز إقليم إفريقيا بالشمال الشرقى من إيطاليا ،
 أو تحت لواء دوق إقليم بنفتو بأقصى الجنوب منها . وامتاز الجرمان بالقياس
 إلى أولئك جميعاً بتجانسهم القومى ، غير أنهم دلوا على شهوة بالغة في الفتنة
 والعصيان طوال العصور الوسطى . وهم المعروفون بخضوعهم للسلطان والنظام
 في العصر الحاضر .

واختلفت ألمانيا عن فرنسا وإنجلترا كذلك في عدم تعرضها للشماليين
 وإغاراتهم ، إلا قليلاً . غير أنها تعرضت أوائل القرن العاشر الميلادى لما هو
 أشد خطراً من ناحية الخيالة المجريين . وهم فرع من الفول الذين تسربوا إلى
 سهول پانونيا الرومانية بأواسط حوض الدانوب - منذ القرن الثامن الميلادى -
 وفصلوا بحركتهم هذه بين صقالبة الشمال والجنوب . وأنشأ أولئك الخيالة
 العتاة أظفارهم في أوربا مرة بعد مرة ، وأوغلوا فيها ، وأعملوا التخريب في
 جوفها . بل امتد تخريبهم إلى إيطاليا وفرنسا وما وراءهما من بلاد الأندلس .

(١) انظر ما سبق هنا ، ص ١٣١ . (زيادة) .

وكما وقفت وسكس وملكها ألفرد تيار الدانين ، وقفت سكسونيا وملكها هنرى الصياد تيار المجرين . غير أن هنرى لم يكن رجلاً واسع العبقرية واضح العطف على رعيته مثل سلفه الإنجليزي ، بل عاش طول حياته جندياً ألمانياً صنديداً صارم التفكير . وألقى نفسه أمام نوع من الهجوم جديد عليه ، فأخذ يكدر فكره لاستنباط أحسن وسيلة للدفاع . حتى وجد فى بناء القلاع الخشبية المشحونة بالعسكر — وفى استخدام الحيلة كذلك — وسيلة فعالة لمقاومة الجيوش السريعة التى سددها العدو نحو بلاده بين فينة وأخرى . وانتصر هنرى على المجرين عند نهر أونسترت غربى ليزج الحالية سنة ٩٣٣ م ، فكلل بيته بغار المجد ، ونفخ فى شعبه روح الأمل فى المستقبل . وأعقبه ابن أعظم منه مكاناً ورثياً ، وهو أوتو الأول الذى خلص بلاده من الوباء المجرى نهائياً فى وقعة نهر نخلفد قرب أوجزبرج الحالية سنة ٩٥٥ م . ثم كمل رجال الدين ما بدأه أصحاب التيجان ، حين أدخل المجرين المتوحشين راعيهم القديس ستيفن حظيرة المسيح سنة ١٠٠٠ م ، وغدا المجرىون بعد ذلك ترس المسيحية عند الطرف الجنوبى الشرقى من أوروبا ضد المسلمين العثمانيين .

وعلى الرغم مما ارتطمت فيه أوروبا من الفوضى . مدة النصف الأول من القرن العاشر الميلادى ، ظلت فكرة الدولة العالمية التى تسع أرضها ما وسعت المسيحية من الأرض تحيا حياة غامضة فى عقول الناس بعد شارلمان . وحق لأوتو دون غيره من المعاصرين أن يكون الرأس السياسية فى تلك الدولة ، وذلك قبل أن ينتصر انتصاره الحاسم عند نخلفد ، إذ علم الدوقيات الألمانية ، بعد لأي لم يخل من مقاومة ، أن تدين له ، وأخضع بوهيميا لسلطانه ، وقوى وسائل الدفاع والمهجوم على طول الحدود السلافية . ثم إنه جعل من بعض الحوادث سبيلاً للتدخل فى شئون إيطاليا سنة ٩٥١ م ، فأقام نفسه عليها ملكاً . وعين برنجار مركيز لإفريا نائباً عنه بها فى غيبته ، وجاء انتصاره العظيم بعد ذلك فى نخلفد حلقة الختام فى سلسلة من أعمال باهرة . ومع أنه تحدر من قوم لم تمسهم دائرة الدولة الرومانية يوماً من الأيام ، ولم يدخلوا حظيرة المسيحية إلا حديثاً ، لم يوجد من المعاصرين من أنكر أحقية أوتو

أن يكون إمبراطوراً إذا شاء هو أن يتقدم لذلك المنصب . لأنه بلغ من سعة السلطان والمجد ما لم يبلغه ملك في أوروبا منذ وفاة شارلمان . ولذا سار أوتو إلى روما استجابة لدعوة البابا حنا الثاني عشر . وتتوج إمبراطوراً رومانياً على يد ذلك البابا سنة ٩٦٢ م ، ورحب الناس بما حدث ترحيباً خالياً من رائحة الشك أو التذمر من أية ناحية . إذ أروى إحياء الإمبراطورية غلة المجتمع . وأشيع مثله العليا ، بدليل أن الإمبراطورية الرومانية المقدسة في الأمة الألمانية — وهى الاسم الرسمى لإمبراطورية أوتو — بقيت رمزاً لروح النظام والمجانسة التى ما برح العقل البشرى دائماً على إعلاء شأنها ، وما برحت الجهالة البشرية عاملة على إفسادها .

كذا تأسست الدولة الرومانية المقدسة في الأمة الألمانية . وهى لدى فئة من المؤلفين الألمانين موضع الفخر والفخر . ولدى فئة أخرى منهم موضع الأسف الأشيف : فنظر الأولون إليها بعين الغبطة . ونخالوا فيها هيئة بلغت من الأوج ما أعجب دانتى وأشعل حماسه . ومن الانحلال ما أضحك جيته وأثار سخريته . ويحلو لأولئك المؤلفين الألمانين من الفئة الأولى أن يذكروا كيف رتب هنرى الصياد أسس الدفاع المشترك والنهوض السياسى في سكسونيا الألمانية ، وكيف صار من المستطاع — بعد أن وفر ذلك الملك الصنديد لشعبه سبل الأمن — أن يصبح ابنه أوتو العظيم زعيم الشعوب الألمانية جميعاً ضد المحجرين . ثم ينقذ إيطاليا من وهدة الانحطاط . ويعيد على البابوية احترامها في غرب أوروبا . وكل ذلك حين تردت أوروبا في حضيض الفوضى والانحلال . ويرى أولئك ومدرسهم التى تفسر التاريخ على ذلك النحو أن إحياء الإمبراطورية لم يكن ضرورة أوروبية فحسب . بل ضرورة ألمانية كذلك . ويخالفون النظرية القائلة بأن الألمان ضحى بهم من أجل التعلق بالشئون الإيطالية ، ويقولون بأن الألقاب الإمبراطورية جعلت للملك الألماني مقاماً . لا في شعبه فحسب . بل في غيره من الشعوب . وأن تلك الألقاب ساعدت على تنمية الروح القومية والعزة في ألمانيا وأنها كانت الوسيلة التى ضمنّت إخلاص الكنيسة الألمانية لخدمة الملوك الألمان .



أوروبا على عهد الإمبراطور أوتو

غير أنه من المستطاع أن يقال في صورة قاطعة إن إحياء الإمبراطورية في الغرب جاء وبالا على الألمان ، فإن مساحة ألمانيا— حتى في أيام هنري الصياد — غدت أوسع بكثير مما يقوى على ضبطه ملك في العصور الوسطى . فلما أضيفت إيطاليا إلى تلك المساحة الألمانية الواسعة بات الحكم العادل في الاثنين من المستحيل . ونتج عن ذلك ما ليس منه بد ، وهو أن ملوك الألمان أخذوا يبنون سياستهم على أسس شاذة ، حتى إن ألمانيا التي بدت في القرن العاشر الميلادي أقرب أجزاء الإمبراطورية الشارلمانية لقيام ملكية متحدة ، صارت في القرن الثالث عشر الميلادي اتحاداً مهلهلاً من كثرة ما به من الإمارات والجمهوريات .

ومما أسهم في تلك الكارثة السياسية أن الملكية في ألمانيا بقيت مستندة إلى مبدأ الانتخاب ، على عكس ما حدث من تحول عن مبدأ الانتخاب إلى مبدأ التعاقب بالوراثة في إنجلترا وفرنسا ، مما جعل تطور الدولة يمشى في كل من هاتين الدولتين حسب خطة متصلة الحلقات . ففي فرنسا اتخذت الملكية لنفسها خطة الحكم المطلق ، على حين اتخذت في إنجلترا صورة دستورية ؛ وفي كل منهما ظلت الملكية محوراً ثابتاً ، وهي والحكومة معنى واحداً ، ولذا أثرت الملكية تأثيراً بنائياً في الحياة القومية بإنجلترا وفرنسا . أما ألمانيا فإنها سارت في طريق مخالف ، لأنه لم يكن من مصلحة البابا والدوقات الألمان أن يصبح للملكية من القوة ما سوف يسبغه عليها مبدأ التعاقب بالوراثة ، فبقى مبدأ الانتخاب ، ولم يسمح الناصبون لأية أسرة من الأسرات أن تعمّر الإمبراطورية . فحلّ الفرنكونيون محل الأسرة السكسونية^(١) . ثم حل الهوهنشتاوفن^(٢) محل الفرنكونيين . ولم تستقر الإمبراطورية في عاصمة ما إلا بعد تجارب كثيرة ، تنقلت في أثناءها إلى أطراف بعيدة مثل بالرمو في صقلية ، وبراها (Prague) في تشيكوسلوفاكيا الحالية ، حتى وجدت آخر الأمر من فينا بالنمسا مستقراً ، وفي الهاپسبورجيين النمساويين أسرة طال بها العمر .

(١) راجع ما سبق هنا ، ص ١٣٧ حاشية ١ . (زيادة) .

(٢) انظر الفهرس ، في آخر الكتاب . (زيادة) .

ومن ذلك كله يتضح الاختلاف بين إمبراطورية الألمان والإمبراطورية البيزنطية التي قامت على محور نظيم ، في عاصمة حصينة ، ترعاها كنيسة خاضعة ، لأن واحدة من تلك المزايا لم تتوافر لأوتو وأخلافه إلى حين ، بل على إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة في الأمة الألمانية حائراً ينتقل في حاشيته من ضيعة إلى ضيعة . ومن ناحية إلى أخرى ، فيجلس في أسفاره للحكم في القضايا الإقطاعية التي ترفع إليه ، ويقضى فيها بمعونة المحيطين به من رجال الدين والأعيان . على حين تكون روما - وهي عاصمة الإمبراطورية على نهر التيبر - تارة في يد البابا ، وتارات في يد عصابة من الأعيان الرومان الذين طالما رقدوا في مراقد الضلال .

وإذا قامت الإمبراطورية الرومانية المقدسة نظرياً على قاعدة عالمية ، لم يحدث أن إمبراطوراً امتد سلطانه إلى فرنسا ، أو إسبانيا ، أو إنجلترا ، أو إسكندنافيا ، أو روسيا : أو ممتلكات الإمبراطورية البيزنطية الواسعة ، بل تعينت سلطة أوتو بما حاطها من أطراف تلك البلاد المختلفة . لذا كان إحياء الإمبراطورية من أهم ما أثر في شئون الشعبين الألماني والإيطالي . وفي أحوال البابوية . فضلاً عن تطورات الحياة السياسية في أوروبا ، ومصائر الشعوب السلافية بأواسط أوروبا . ففي أوروبا الوسطى تشكلت الحوادث السياسية . وتأثر الجدل السياسي قرونًا متعددة . بتلك المنظمة الشاذة التي لم يصل من ضوئها شيء إلى سائر أوروبا إلا قليلاً ، بل بدا إمبراطورها الروماني المقدس أجنبيًا . ليس بين ألقابه ومزاعمه وسلطانه أية مناسبة .

ولم يكن ذلك الوضع على شدوده مستعصي العلاج . لولا أن تصادمت الإمبراطورية والبابوية أواسط القرن الحادى عشر الميلادى . من أجل مسألتين ذاتي مساس بحياة الكنيسة المسيحية وشئون الحكم في الدولة الألمانية ، وهما مسألة زواج رجال الدين ، وحق التقليد العلماني . وتفصيل ذلك أن شارلمان جعل من سياسته أن يقف على الكنيسة الألمانية مختلف الأوقات والإقطاعات ، وأن يعتمد على رجالها في مهام الحكم . وجدّد الإمبراطور أوتو الأول وأخلافه تلك السياسة . فأغدقوا على رجال الدين الألمان إغداقات كثيرة لم تخل من

بصيرة وفطنة ، وانتظروا إزاءها أن يقوم رجال الدين - الذين يرجع تعيينهم وإخلاصهم إلى أولئك الملوك - بضيافة الركب الإمبراطورى كلما حل بأرضهم . وإعانة الخزانة الإمبراطورية بالمال كلما أعوزها المال . وإمداد الجيش الإمبراطورى بوفرة من الجند كلما نشبت الحروب .

وألقى الأباطرة الألمان أن الكنيسة غنية ، عليها أساقفة شداد بالرجال أقوياء بالمال ، مما يلائم سياستهم تمام الملاءمة : بل إنهم جعلوا من أولئك الأساقفة أساطين ارتكزت عليها حكومتهم ، إذ رأوا أن الاعتماد على رجال الدين فى شئون الإدارة والحكم - شمالى جبال الألب وجنوبيها - أكد لهم مما لو اعتمدوا على أدواق القبائل وكبار الإقطاعيين .

غير أنه لم يكن ثمة بد من أن تصبح تلك السياسة موضع الكره الشديد من الكنيسة غداة نهضتها الروحية فى أوربا ، مع العلم بأن بعض الفضل فى تلك النهضة الكبرى يرجع إلى الأباطرة أنفسهم . ولم يخفف من شدة ذلك الكره أن الأباطرة - رغم ارتباط إنعاماتهم الكنسية بأهداف سياسية - كانوا جميعاً من المتقين ، بالقياس إلى المستوى الغالب على زمنهم ، بل بلغ بعضهم فى مراعى التقوى مبلغاً عالياً . مثل هنرى الثانى والثالث . ثم إن الأباطرة أحسوا - باعتبارهم حماة الكنيسة والذائدين عن بيضتها - أن عليهم صون البابوية من العنف والهون ، وأن عليهم أن يتدخلوا فى شئونها كلما دفع ضغط النبلاء الصاخبين ، أو رفع اختيار رجال الدين ، رجلاً إلى الكرسي البابوى من غير القمينين به . فمن أجل البابوية شق الإمبراطور أوتو الأول ثلاثة عشر نبيلاً رومانياً ، وعين حفيده أوتو الثالث اثنين من البابوات ، فدل أحدهما - وهو جريجورى الخامس - على جدارة واحترام . برغم سنه التى لم تعد الثالثة والعشرين ، على حين دل ثانيهما - وهو سلفستر الثانى - على أنه أكثر أهل زمانه علماً . ولم يخدم إمبراطور مصالح البابوية خدمة هنرى الثالث الذى خلع اثنين من البابوات - أو ثلاثة على قول آخر - فى مجمع دينى عقده بمدينة سوترى فى تسكانيا ، سنة ١٠٤٦ م ، وضمن بذلك تعيين أربعة من البابوات الصالحين ، وهم ليو التاسع (١٠٤٨ - ١٠٥٤ م)

وفكتور الثانى (١٠٥٤ - ١٠٥٧ م) ، وستيفن التاسع (١٠٥٧ - ١٠٥٨ م) ونيقولا الثانى (١٠٥٨ - ١٠٦١ م) ^(١) .

ونتيجة لتعيين أولئك الأربعة الصالحين - واحداً تلو آخر - تطهرت البابوية من المخازى والأدران التى لحقت بها ، واستعادت زعامتها الأدبية فى الكنيسة . ثم ما لبثت أن أوقعت البابوية بينها وبين الإمبراطورية نزاعاً ظل مدة قرنين إلا فترات متقطعة ، وتردت إيطاليا وألمانيا بسببه قروناً فى حمأة الفوضى السياسية والبؤس . وإذا سأل سائل : كيف تأتت تلك النتائج الوخيمة من تعيين أربعة من المكتهلين المتقين فى الكرسي البابوى ؟ فالجواب أن ليو التاسع - ومن جاء بعده - أودعوا البابوية ومنصبها عقيدة ذات قوة انفجارية كبيرة ، وهى عقيدة انتشرت بأوروبا زمناً ، وفى استطاعتها تحت إرشاد بابوى أن تصبح قوة سياسية من الطراز العنيف . ذلك أن أولئك الأربعة كانوا من الكلوينيين الذين انتموا إلى الحركة الإصلاحية التى نبعت من دير كلونى ببرجنديا أوائل القرن العاشر الميلادى ، وهدفت إلى نشر العفة والتقوى والنظام فى الأديرة ، ثم اتسعت كما تتسع أمثال تلك الحركات حتى استحالت منهجاً للإصلاح الكنسى العام . وكان أوائل الكلوينيين راضيين بالعمل فيما نصبوا أنفسهم له ، من شرح فضائل الصفاء الروحى ، وإنكار الذات وضبط النفس . وطلب الرضى من الله ؛ ثم تغيروا أن يجعلوا نظام طريقتهم تحت رقابة مركزية ترعى أديرتهم الناشئة ، وتنمى مبادئها الخالصة لوجه الدين . أما الكلوينيون المتأخرون ، فإنهم طمعوا فى أكثر من ذلك : إذ خالوا أن تعاليم المسيح لن تمكث فى الأرض إلا أن توجد كنيسة مستقلة يرأسها بابا على كل شىء قدير . واختلعت الآراء بين أولئك الكلوينيين المتأخرين ، فمنهم من توسط ، ومنهم من تطارف . ولكن الروح العامة فى الحركة الكلوينية كلها - وهى روح ملؤها الحماسة والصراحة - أجمعت على إعلاء شأن البابوية . وأصرت على مستوى مهنى واضح التقاسيم لرجال الدين . وفى كل جهة من جهات أوروبا الوسطى - من اللورين إلى حوض الرين - ومن بافاريا إلى شمال إيطاليا : احتدمت الآراء

(١) راجع تفصيل ذلك كله فى (Camb Med. Hist. Vol. III pp. 21-36) (زيادة) .

الدينية أشكالا وألواناً بين الدقة والبساطة في أدمغة المنصرفين إلى الحياة الدينية . ولا سيما رهبان الأديرة الذين أشبهوا عمال مناجم الفحم في معيشتهم الخاصة بعيدين عن الناس . وفي استعدادهم لاعتناق ما يرد عليهم من الآراء في صورة حماسية .

ثم أيدت البابوية بسلطانها تلك الآراء البالية . تنفيذاً لأمر البابا ليو التاسع ، لأن ليو بدأ حياته كلونياً . فلما صارت إليه البابوية أضفى على عمله روح الحاكم المطلق الذي يعتبر الدنيا كلها وطناً واحداً هو واحد . ويريد أن يصلح ما استطاع الإصلاح . ونظر ليو إلى البابوية ، لا كما نظر إليها أسلافه ، فلم ير فيها منصباً محدوداً بمكان ووظيفة تدرّ على صاحبها المال ، بل خالها مؤسسة عالمية ذات سلطان مطلق ، وسمو غير محدود ، واستقلال تام ، وتفويض إلهي بالرقابة الروحية والإصلاح والتوجيه إلى الخير . ومن دلائل سعة أفقه ونشاط روحه أنه عين للكردنالية من الأجانب غير الإيطاليين ، وعقد المجامع الدينية في فرنسا وألمانيا ، وحالف النورمان أصحاب جنوب إيطاليا ، وأنفذ القصاد البابويين في بعثات تأديبية إلى أنحاء أوروبا . وحذا خلفاؤه حذوه في السير على مقتضى مذهب السمو البابوي المطلق ، فشجعوا حركة البترية (Pataria) في ميلان - وهي حركة شعبية معادية للحكم الألماني - وأنكروا الهرطقة في العقائد . كما أنكروا الإنعامات السياسية على رجال الدين .

ثم اهتبل الكلونيون الفرصة التي سنحت لهم بوفاة هنري الثالث سنة ١٠٥٦ م ، وشغور المملكة الألمانية والمنصب الإمبراطوري إلا من قاصر لم يبلغ السادسة من عمره ، وهو هنري الرابع ، فجعلوا اختيار البابا في يد هيئة الكرادلة دون غيرهم من رجال الدين . وذلك سنة ١٠٥٩ م . وهي السنة الثانية من بابوية نيقولا الثاني^(١) . ومنذئذ صارت السياسة العليا في الدوائر الكنسية مرهونة بعقريّة راهب قمىء دميم الوجه ، بدأ حياته فلاحاً خشناً في تسكانيا ، وما زال يتقلب في المراتب الدينية ، ويدل على توقده وسعة حيلته . حتى

(١) انظر ما سبق هنا ، ص ١٤٥ . (زيادة) .

عرفه التاريخ كردينا لا باسم هلدبراند . ثم عرفه بابا باسم جريجورى السابع . حين تم انتخابه للكرسى البابوى سنة ١٠٧٣ م .

ولا مغالاة فى القول هنا أن الفلسفة المشيئة (theocratic philosophy) لى نهضت بأوروبا نهوض النار فى الهشيم . وهزت أغصان الحياة السياسية فى دولها الناشئة منذ أوائل القرن الحادى عشر الميلادى . ترجع فى معظمها إلى ذلك الرجل المثالى الصارم الذى لم يتزحزح عن رأيه مرة قيد أنملة . ونخال ذلك الرجل : ونادى بصوت ملؤه الشجاعة الآمرة الناهية . أن العالم بأسره دولة مسيحية واحدة . يسيطر عليها بابا . له العصمة ، وله القدرة . لا يحده قانون ، ولا يزعه وزع . وهو الذى يخلع المسيئين من الملوك ويثل عروشهم . ويقطعهم من رحمة الكنيسة . ويحل رعيته من طاعتهم . واعتقاداً منه بأن نوقت حان لبناء قوة حربية تابعة للكنيسة الكاثوليكية ، نادى جريجورى بمذهب تبتل بين رجال الدين ، تحت رقابة البابا وحده ، باعتباره خليفة المسيح فى الأرض ؛ وأعلن استعداداه للعمل فى كل مما شأنه أن يحقق استقلال هيئة الكنيسة ، ولو أدى ذلك إلى فصم العرى العائلية بين المتزوجين من رجال الدين فى ألمانيا ، أو ترتب عليه إضعاف الملكية الألمانية إلى أقصى حدود لإضعاف . ولم تقف مطالب ذلك الرجل عند حد ، إذ طلب أن تحفظ كنيسة جميع ممتلكاتها من قصور وضياع وسائمة وغللات وأموال ، ولا تنزل عن شيء من ثروتها الهائلة التى جعلتها فى ألمانيا عماداً لا يستغنى عنه فى شئون الحكم . وأصر جريجورى كذلك على أن تكون الكنيسة مستقلة بشئونها تمام لاستقلال . أى أن تصبح إمبراطورية فى جوف إمبراطورية . وقال إنه لما كانت الروح أسمى من الجسم . والشمس ألع من القمر . فالسلطة دينية قياساً أعلى من السلطة السياسية .

وأخيراً أعلن جريجورى فى مجمع دينى عقده فى موسم الصيام الكبير سنة ١٠٧٥ م ، أنه ليس من حق الحاكم العلمانى - أى السياسى - كائناً من كان ، أن يقلد أحداً من رجال الكنيسة شارات المنصب الدينى . وأن الإقدام على ذلك هدم للقانون الإلهى ، لا يطاق ولا يغتفر .

ويبدو من المؤكد أن جريجورى السابع لم يخط تلك الخطوة إلا بعد أن اطمأن إلى طريقه تمام الاطمئنان . إذ المعروف عنه أنه مهر في جميع الأدوار الدبلوماسية التي قام بها مدة حياته الكنسية . ولا بد أنه أدرك أن إنكاره التقليد العلماني علناً فيه تحد لقواعد الحكم الإمبراطورى فى ألمانيا وإيطاليا معاً . ولا بد أنه توقع أن الإمبراطورية سوف تقابل تحديه بمثل ، كما لا بد أنه اطمأن إلى النجاح . ولم يكن جريجورى غير منطقي فى تخمينه . فإن هنرى الرابع (١) لم يخلف أباه فى الإمبراطورية إلا سنة ١٠٦٥ م . بعد وصاية طويلة تيقظت أثناءها أنواع الفتنة فى ألمانيا . ثم إن هنرى لم يخرج عن كونه شاباً عنيداً قليل الخبرة . وأن عهده افتتح بشوة خطيرة قام بها فلاحو سكسونيا الذين ضاقوا ذرعاً بحلولة بينهم . وبنائه عاصمة لنفسه فوق تلاهم الحضراء فى جزلار السكسونية . وهو الذى ينتمى إلى سوايبا بأقصى الجنوب الغربى من ألمانيا . وليس من حقه أن يخذ أنفاس شعب حر بإقامة الحاميات الكثيرة التى شحنها بالسوابيين . ومع أن هنرى الرابع تغلب على تلك الثورة ، وأسر دوق سكسونيا . لم يخل من أعداء كثيرين على جانبي جبال الألب . من رهبان وديرين ، وفلاحين وإقطاعيين ، فضلاً عن الساخطين على الحكم الألمانى من أهل المدن للمباردية ، وهم الذين يستطيعون أن يكونوا عصابة قوية بزعامة البابوية . ثم إن البابوية ملكت على الناس أرواحهم إلى درجة لم تملكها الجيوش — ولو أرادت — فى ذلك العصر الطافح بالأوهام ، لأن البابوية إذا أنكرت صحة العبادات التى أقامها المتزوجون من رجال الدين ، أو أنذرت ملكاً من الملوك بالحرمان من رحمة الكنيسة ، أو قررت عند الضرورة القصوى خلعه ، فإن ذلك كان كفيلاً بإلقاء الرعب فى القلوب . والقضاء على ما بين الملوك ورعيته من طاعة ، وقطع الأسباب التى تربط الناس بالناس ، ولا بد أن البابا جريجورى السابع فكر فى كل ذلك ملياً حين تحدى الإمبراطور هنرى الرابع تحديه الخطير .

(١) بلغ هنرى الرابع سن الرشد سنة ١٠٦٥ م ، فأخذ يعالج شئون ملكته وإمبراطوريته فى حاسة ودراية ، ولكنه لم يتوج إمبراطوراً فى روما إلا سنة ١٠٨٤ م . (زيادة) .

وافتح النضال بمبادلات كشفت في الحال عن اختلاف القوى المعنوية التي اعتمد عليها الفريقان المتنافسان . إذ نزع الإمبراطور البابا عن كرسيه . ورد البابا بخلع الإمبراطور وقطعه من رحمة الكنيسة ، فلم يتأثر مركز جريجورى بقرار هنرى في قليل أو كثير على حين أدى قطع هنرى من رحمة الكنيسة نتائج خطيرة في مصير إمبراطور عقد الأقوياء من رعيته عزيزيهم على إذلاله . وفي مجمع سياسى عقده الأمراء الألمانىون بمدينة تريبور على نهر الرين في أكتوبر سنة ١٠٧٦ م . قال الأمراء الألمانىون للإمبراطور هنرى الرابع إنه إذا لم يُغفر له غداة وصول البابا إلى ألمانيا في الربيع القادم ، فسوف يفقد عرشه إلى الأبد . غير أن هنرى رأى ألا ينتظر حكم البابا عليه في أرض ألمانية ملؤها الفتنة . فضرب بكبريائه عرض الحائط ، وجمع إليه شجاعته . وسافر عبر جبال الألب والشتاء على أشده . يبتغى المثل بين يدى البابا بمرتفعات كانوسا في تسكانيا . حيث أعلن الندم . وفاز بالغفران . ورجع إلى ألمانيا أوائل سنة ١٠٧٧ م ليخبر أعداءه بما أذهلهم ووقعهم في حيرة من أمرهم .

ذلك أن الأمراء الألمانىين بلغوا في فتنهم مبلغاً بعيداً يصعب منه الرجوع ، فانتخبوا رودلف دوق سوابيا ملكاً على ألمانيا أواسط سنة ١٠٧٧ م . بعد اجتماع كانوسا ببضعه أشهر . فلما مات رودلف قتيلاً في وقعة على نهر إستر أوأخر سنة ١٠٨٠ م . ألح الأمراء في النكاية بهنرى إلى أقصى الحدود ، واستعاضوا عن رودلف القتيلى هرمان دوق لكسمبرج . حتى إذا مات هرمان ، وأمسى هنرى الرابع شيخاً نصل الشيب رأسه . لم تهدأ نائرة الفتنة ، بل عمد الأمراء سنة ١١٠٤ م . إلى تحريض ابنى هنرى . على الثورة ضده . وفي جميع مراحل هذه الفتنة الألمانية التي هدفت إلى خلع ملك من شكيمة هنرى الرابع وصلابته ولباقته . حرص الأمراء الألمان من أول الأمر على استجلاب عطف جريجورى السابع . وما لبثوا إلا قليلاً حتى حصلوا على معونته الناشطة ، فاعترفت البابوية بقيام رودلف دوق سوابيا ملكاً على ألمانيا قبل مقتله بشهور . ورد هنرى على ذلك بأن عين في البابوية جويرت

رئيس أساقفة راغنا . وهكذا اشتعلت نيران الفتنة في ألمانيا وإيطاليا معاً مرة أخرى ، وانضم إلى جانب الإمبراطور جميع الفلاحين ورجال الدين من أهل الجنوب الغربي بألمانيا ، وجميع صغار الإقطاعيين في دوقيتي سوابيا وفرنكونيا ، فضلاً عن معظم سكان المدن الألمانية . غير أن سكسونيا - وهي أكبر دوقيات ألمانيا وأشدّها في الحروب إطلاقاً - هبت في وجه الإمبراطور هبة عنيفة بزعامة أوتو نوردهايم أشجع النبلاء الألمان في عصره ، ولم يستطع هنري أن يعبر جبال الألب إلى إيطاليا ، ليضع مواهبه الحربية تحت تصرف الموالين له من الإيطاليين ، إلا بعد أن طأطأت سكسونيا رأسها لحكمه سنة ١٠٨١ م .

غير أن إيطاليا لم تفد من مجيء هنري الرابع إليها أية فائدة ، إذ حاصر روما أربع مرات ، واضطر إلى القناعة بالخذلان في كل مرة . ولم يحصل جريجوري على شيء مما تحمد عقباه ، إذ لجأ إلى صقلية واستنجد بالدوق روبرت جريسكارد والدولة النورمانية بجنوب إيطاليا . لإنقاذ روما من محالب الإمبراطور ، ولما كانت الفرق الإسلامية التي استخدمها روبرت جويسكارد في جيشه لا تنقل عن الرومان الأقدمين مقلداً للمسيحية وأتباعها . وما اتصفوا به من الوداعة والصبر على المكاره ، فإن روما ذاقت الأمرين على أيدي أولئك المسلمين - وهم الذين جاءوا إليها للغوث وللنجدة - إذ لقوا من أهل روما مقاومة عنيفة أدت بهم إلى الانتقام من روما وأهلها أشد الانتقام . وبدا لجريجوري من فراش الموت بمنفاه البعيد في سالرنو بصقلية أن الله في خلقه شئناً لا تدركها الأفهام ولا تتذوقها العقول ، فإن القوطيين والوندال المفسدين في الأرض لم يحدّثوا بمدينة القديس بطرس من الخراب والدمار مثلما حدث بها بسببه . وهو الذي وهب حياته لإعلاء شأنها في العالمين .

وظلت حرب التقايد العلماني قائمة إلى ما بعد وفاة جريجوري السابع سنة ١٠٨٥ م . ووفاة هنري الرابع سنة ١١٠٦ م . ثم انتهت سنة ١١٢٢ م باتفاقية نصّفة سميت اتفاقية فورمز ، نسبة إلى المدينة التي عقدت بها .

وخلاصة تلك الاتفاقية أن ينزل الحاكم العلماني كائناً من كان عن تقليد الأساقفة خاتم الأسقفية وعكازها ، لأنهما رمز السلطة الدينية ، على أن يبقى مستحقاً ليمين التبعية والإخلاص عن الممتلكات الإقطاعية التي يتسلمها الأساقفة منه . ومما يدعو إلى الالتفات هنا أن كلا من الفريقين اعتبر تلك الاتفاقية نصراً له على صاحبه ، وحق لها ذلك ، فلا البابوية ولا الإمبراطورية خسرت شيئاً . وإنما وقعت الخسارة على ألمانيا وإيطاليا حيث أوديت نظم الحكم أذى بليغاً من جراء ذلك النزاع الطويل .

ثم إنه لم يكن ثمة جديد في فلسفة جريجورى السابع . فإن الصفات العفة والخضوع ، والمحبة والعدل ، طالما دعا إليها الداعون دون أن يحدوا أذنًا صاغية . يضاف إلى ذلك أن النظرية القائلة بأن الكنيسة الكاثوليكية من صنع الله . فهي أم المسيحيين على وجه الأرض ، وهي معصومة عن الخطأ في العقيدة ، عالمية السلطان ، وهي وحدها سبيل الرحمة للذين يضلون السبيل - كل ذلك لم يكن جديداً على غرب أوروبا ، بل لم يكن جريجورى السابع أول من قال بأن بابا روما هو الرئيس الأعلى والحاكم المطلق في الكنيسة الكاثوليكية . أما الجديد في ذلك الرجل الحارق ، فهو الحماسة والجرأة والمثابرة التي توسل بها في حربه ضد المفساد المتأصلة في عصره ؛ غير أن هذه الحرب لم تكن حرباً بين الدينيين والعلمانيين . فإن رجال الدين الذين طلب إليهم جريجورى السابع أن يفصموا عرى عائلاتهم ، أو يطلقوا زوجاتهم ، أو يهجروا محظياتهم ، غضبوا على البابا مثلما غضب عليه الأساقفة ورؤساء الأساقفة والكرادلة الذين أرهقهم مراقباته وهيمناته الدقيقة . وفي ألمانيا - حيث بلغ التدخل البابوي أقصاه - كره معظم رجال الدين تلك الحملة الدينية الحارة التي قام بها ذلك الأوتوقراطي المتطهر . ولا عجب . فإن التبتل فضيلة صعبة . والتغلب على طبيعة حب النساء تضحية بشرية صارمة تجعل نور الرجولة ظلاماً . والواقع أن الحرب التي أراد عليها جريجورى السابع رجال الدين في القرن الحادى عشر الميلادى تطلبت زمناً طويلاً واسماتة أطول . حتى إنها لم تنتصر إلا أواخر القرن السادس عشر الميلادى .

ومن المعقول أن نسأل هنا : أكان من الممكن أن تنتصر الكنيسة الكاثوليكية حتى في ذلك القرن السادس عشر ، لولا أن قام فيها عبقرى ذو خلق وسيطرة على موارد الكرسى البابوى . والكنيسة وقتذاك في أحلك عصورها ظلمة . ورجال الدين في أسفل دنيوية ورذيلة ، وذلك العبقرى نفسه — وهو البابا بيوس الرابع — من الشجاعة بحيث ألزم التبتل وصرامته على رجال الدين . دون أن يخشى هو أحداً . أو يحاى أحداً . متحدياً بذلك أكبر قوة سياسية بأوروبا في عصره .

ونشأ عن قضية جريجورى السابع جدل سياسى لا يزال محتدماً حتى العصر الحاضر ، إذ قال المؤيدون للنظرية البابوية إن العدالة فوق القوة المادية ، وإن السلطان السياسى مؤسس على مبدأ التعاقد . وإن الملك الذى لا يعدل خلعه صحيح شرعاً . وقال أصحاب النظرية الإمبراطورية عكس ذلك ، فجادلوا مبدأ العقد ، وأنكروا السمو البابوى المطلق . وادعوا أن للإمبراطورية سلطاناً مطلقاً موروثاً لا ينقض ولا ينسخ . وقلما يقرأ أحد في العصر الحاضر شيئاً من المؤلفات التى كتبت في هذه المواضع ، مثل رسائل الكاتب البابوى مانجولد ، أو رسائل المؤلف الإمبراطورى بطرس كراسس . على أن في هذه الرسائل الجافة ما سوف يظل نابضاً بما يثير الاهتمام ، مثال ذلك : هل الدولة هى الكل فى الكل ، أو هل القوة المادية هى الزعيمة وحدها بالتقديس ، أو هل المسيحية تشتر إخلاص المواطن شطرين ؟ وظلت هذه الأسئلة عالقة فى عقول الألمان خلال القرون حتى سنة ١٩٣٤ م ، حين طرحت على بساط البحث الحديث فى شكل أوضح . وإن كان أقل شجاعة من الشكل الذى جودلت به أثناء القرن الحادى عشر الميلادى .

وبينما يناقش المناقشون تلك الأسئلة بألمانيا فى القرن الحادى عشر الميلادى ، أهابت فئة من كبار الأساقفة والأمراء فى سكسونيا بالشعب الألمانى أن ثمة عملاً عظيماً يرتقب أيديهم العاملة ، ولو أنه جاء فى أوقات أحسن لكان مما نفع الملكية الألمانية أيما نفع . ذلك أن الأرض التى تقع

بين نهري الإلب والنيمن ، وتمتد في سهل طويل يشغى في العصر الحاضر بالزراعة الراجعة والمدن العامرة والقرى الجميلة ، كانت وقتذاك أرضاً باثرة تخنقها الغابات ، وتغمرها البحيرات والمستنقعات ، ويسكنها قبائل تتكلم لساناً سلافياً غريباً ، وتعبد آلهة وثنية أغرب ، مثل ترجلاف ذى الرؤوس الثلاثة ، ومثل رديجاست ، وسفانتوفيت الذى تطل بقايا معبده - في أركونا بجزيرة روجن - على مياه البحر البلطى الداكنة . واستمال غموض تلك المساحات الشاسعة أساقفة سكسونيا وأمراءها وفلاحها ، وأغراهم ما وراء نهر الإلب من أراض للزراعة ، وغابات للأخشاب ، ومستنقعات للردم ، ومواقع لبناء القرى ، وقبائل وثنية للتبشير والتنظيم وفرض الضرائب وجمع الزكاة العشرية ، فضلاً عن الإخضاع إلى أقصى درجات الإخضاع . ومصادق ذلك قول زعماء الأساقفة والأمراء السكسونيين - في وصف البلاد السلافية وأهلها : بأن « السلاف قوم ملاعين ، ولكن أرضهم تفيض عسلاً وسمناً ، ولحماً وحباً ، ومن الطير ألواناً وأشكالاً ، وتموج بكل ما تغل الأرض الحصيبة من الغلال التى لا تضاهيها أجود الغلال ، هكذا يقول العارفون . فيا أيها السكسونيون والفرنكونيون ، واللوثارنجيون ، وأهل الفلاندرز أصحاب الشهرة الواسعة ، انفروا خفافاً وثقالاً ، فإنكم سوف تنقذون أنفسكم بخدمة الدين ، وسوف تحصلون على أخصب الأراضى لتعيشوا فيها رغداً » .

والواقع أن استعمار تلك السهول الشمالية الشرقية كان أكبر ما قام به الشعب الألماني في العصور الوسطى ، حين أخذ في فتح أرض السلاف بالفأس والمسحاة والبال والخرث ، وتولاها بالزراعة والتجارة وبناء الكنائس والمدن .

ولم يخل الأمر من المقاومة ، لكن الألمان استطاعوا شيئاً فشيئاً أن يتوغلوا في تلك الأرض . وأن بينوا بساحل البحر البلطى قرى صغيرة لصيد السمك . وما عتّمت هذه حتى صارت مدناً تجارية كبيرة ، وتكونت منها العصبة الهنسية التى ملأت البحر البلطى بسفنها ، وجعلت من ذلك البحر ثانی الطرق التجارية العظمى في تلك العصور . وعلم الفريزيون والفلمنكيون

والوالونيون^(١) بتلك البلاد الحالية التي يستطيع الزارع أن يزرعها في أمن وسعة ويسر ، فهرعوا إليها ليشاركوا في تلك المزايا مع الرائدین الأولین من الألمان ، ويمثلوا أفواههم بأغنيات ألمانية^(٢) مرحة .

على أن تلك المغامرة الطويلة ، وما أدت إليه من رزق واسع ووفرة ، لم تخل من شرّ ليس بالقليل ، وهو أن الرائد السكسوني الذي أضفت عليه طبيعة بلاده شيئاً من غلظتها لم يخفّض للأبدوريين والونديين^(٣) السلافيين من جناح الرحمة ، ولا سيما حين تجرأ هؤلاء السلافيون على أرض الرائدین الألمان بين فينة وأخرى . ولم ينج من ذلك النوع من الرحمة إلا إقليم يومرانيا ، حيث تحول السكان إلى المسيحية في هدوء على يد مبشر من أحسن المبشرين الألمان ، وهو أوتو أسقف بامبرج شمالي نورمبرج الحالية ؛ وبذا طفق الألمان يزحفون إلى الأمام دون حاجة إلى عنف أو غلظة . غير أن حركة استعمارية كبيرة ، وما يترتب عليها من حاول القوى محل الضعيف ، لا يمكن أن تتم دون شيء من صارخ الظلم ، ولم يكن النضال بين المسيحية الألمانية والوثنية السلافية بمنأى من بعض الفظائع التي اضطبع بها استعمار الأجناس البيض — فيما بعد — للنصف الغربي من الكرة الأرضية ، فوقع كثير من المذابح والمقاتل ، والاعتقالات والمصادرات ، والاستعباد والاسترقاق ، ولم يخنع السلافيون دائماً

(١) تطلق هذه الأسماء في المصور الوسطى على أهالي البلاد التي هي هولندا وبلجيكا تقريباً ، في العصر الحاضر . (زيادة) .

(٢) أورد المؤلف إحدى هذه الأغنيات ، وهي في صورتها العربية هنا محاولة أمينة لمحاكاة ما في أصلها المترجم بالكتاب إلى الإنجليزية من قوة التصوير ، على قدر الإمكان ، ونصها :

إلى الشرق نركب ، وإلى الشرق نذهب
فوق الربى الخضراء والأسماء تلعب
وفي الشرق نلقى أطايب الحياة
ومرتعاً خصيباً وترحيباً ونطرب
حين في الشرق نزل قرب مقل الغفاه
ويقول الناس مرحى للمقاديم الغفاه

(٣) الأبدوريون والونديون فروع من السلاف التي استوطنت أواسط ألمانيا الحالية في المصور الوسطى . (زيادة) .

لجبروت المستعمرين ، بل ثاروا بين حين وآخر ، مثل ما حدث سنة ٩٨٣ ،
 ١٠١٨ ، ١٠٦٦ م ، حين أمتعوا في المستعمرات الألمانية السيف والنار .
 وشبيه بتلك الحركة الاستعمارية على مقياس أضيق ما قام به الألمان
 الجنوبيون في حوض الدانوب الأوسط وجوّه المعتدل ، حيث اصطدم الرائدون
 البافاريون بالشعب المجري العنيد ، فضلاً عن وعورة الغابات والتلال والقفور
 التي أعسرت جوانب زحفهم شرقاً . غير أن طبيعة المشكلة هي التي عينت
 سبيل الهجوم عليها . وذلك أن إقليم العواصم والثغور البافارية - وهو
 الإقليم الذي أنشأه شارلمان ضد الآفاريين ، وجدده أوتو لصد المجريين ،
 ومدده هنرى الثالث في حروب كثيرة - كان مستعمرة حربية مقسمة - منذ
 القرن التاسع الميلادي بين عدد من الأمراء والأساقفة ورؤساء الأديرة من
 البافاريين الذين أخذوا على عواتقهم حمايته ، ووكلوا إلى أقتانهم زراعته ،
 وهؤلاء وأولئك هم الذين استعمروا حوض الدانوب الأوسط . ومعنى ذلك أنه
 بينما استولى الألمان على السهول الشمالية الشرقية بفضل مجهود الرائدین من أهل
 سكسونيا دون خطة مرسومة . احتاج الأمر إلى تنظيم حربي واسع لتحويل
 حوض الدانوب الأوسط إلى النمسا الحالية . والسائح العابر الذي يسافر من
 حدود هولندا إلى حدود روسيا عبر شمال ألمانيا - في العصر الحاضر - يخترق
 بلاداً أهلها من الألمان الذين يتكلمون اللسان الألماني ، وتشيع فيهم
 الروح الألمانية ، ما خلا عدداً قليلاً من القرى الوندية^(١) . لكن المشتغل
 بعلم الأجناس البشرية ، أو المشتغل بعلم الآثار القديمة هو الذي يستطيع أن
 يدل ذلك السائح على بقايا السكان السابقين من الونديين الذين انغمروا أو أبعدوا
 في عتف ، منذ قرون . والأمر على خلاف ذلك في حوض الدانوب الأوسط حيث
 لم يندمج الألمان في السكان الأصليين ، فلا مغريات قينا التي غدت مركز
 لنور الألماني زمناً في تلك الناحية المتأخرة من أوروبا . ولا عظمة الإمبراطورية
 النمساوية . ولا جبروت الكنيسة الكاثوليكية . ولا سيطرة البيروقراطية الألمانية
 - كل ذلك لم يستطع أن يكسر من عناد التشكك . أو السلوفاك . أو

المجريين ، أو السلوفينيين . ولا يزال أولئك جميعاً يحملون بين جوانحهم قلوباً غير ألمانية . ويتكلمون لغات لا تمت إلى الألمانية بسبب . ولو أن ملوك ألمانيا في العصور الوسطى لم ينصرفوا عن شئونهم إلى شئون السياسة الإيطالية . لكان في استطاعتهم - فيما يبدو - أن يضمّنوا لأنفسهم زيادة في القوة إذا هم عُنُوا بتلك الحركات الاستعمارية . لكنهم لم ينتهزوا تلك الفرصة . فلم يصبح جزء من أجزاء البلاد التي انتزعوها من السلاف تابعاً لممتلكات ملك من الملوك الألمان . بل صارت كلها لأدواق الأطراف في براندنبرج وإقليم العواصم والثغور البافارية . وأولئك هم الذين جنوا الثمار التي لولا ظروف طارئة - مثل قبول أوتو الأول تاج الإمبراطورية ، وحرب التقليد العلماني ، ومقاومة السكسونيين محاولة هنري الثالث وابنه أن تصبح سكسونيا مقراً للمملكة الألمانية - لكان من المستطاع اجتناؤها للدولة الألمانية . وكان من أثر ذلك أن الزعامة الألمانية في العصور الحديثة صارت قسمة بين جاليتين ألمانيتين كبيرتين ، وهما بروسيا والنمسا ، ومع العلم بأنه لا علاقة بين نمو الحركة التي تكونت منها هاتان الدولتان وبين الحروب الإيطالية والحروب البابوية التي تملأ تاريخ ألمانيا في العصور الوسطى . ومع هذا ليس في التاريخ الألماني ما يمكن أن يكون أكثر أهمية من تاريخ تلك الهجرة العظمى التي جعلت من مجموعة ضخمة من العائلات الزراعية حدوداً متحركة حركة دائمة إلى الأمام نحو الشرق ، تقطع الغابات ، وتصاحب الأراضي ، وتردم المستنقعات ، وتزرع الأرض زراعة جيدة بفضل ما حملت معها من محارث كبيرة ، ومن ورائها يأتي الراهب والديار والقسيس . والتاجر والبناء ، واليهودي الجوال والصانع الماهر - سيل دافق من شعب ناشط خصيب ، مما خلف آثاراً باقية في تاريخ الجنس البشري .

ولأحد المؤرخين الفرنسيين موازنة سديدة بين جبهتي الإمبراطورية الألمانية في الشرق والغرب في العصور الوسطى : ففي الشرق أدواق الأطراف يحاربون على حوض نهر الدانوب الأوسط وفيما وراء نهر الإلب ، وفي الغرب رجال الدين يؤسسون للكنيسة على جانبي نهر الرين . وفي الشرق بدا الشعب

الألماني في أشق أعماله وأعنف صفاته وأقصى ما فيه من روح المغامرة ، على حين بدا الشعب نفسه في الغرب كأنما هدأت الحكومة الدينية والثروة المدنية من حدته ، حتى إنه كلما امتد المد الألماني نحو الشرق :وضح الجزر الألماني في الغرب . أما الأراضي المتوسطة التي صارت بحكم تقسيم الإمبراطورية الشارلمانية زمن لويس الثقي إلى لوثير^(١) وسرى عليها منذئذ اسم لوثرانجيا ، فإنها ظلت خليطاً مزعوماً لا يستقر على حال حتى استحال إلى عدد من الإقطاعات والإمارات والمدن ، بعضها لاتيني ، وبعضها جرمانى ، وكلها داخل في الإمبراطورية الرومانية المقدسة في القرن الحادى عشر الميلادى ، فضلاً عن الألزاس واللورين ، والأراضي التي يطلق عليها سويسرا وفراش كومنتيه والأراضي المنخفضة ، في العصر الحاضر . يضاف إلى ذلك أن الإمبراطور كتراد الثانى (١٠٢٤ - ١٠٣٩ م) ضم إليه عن طريق الإرث والفتح مملكة آرل التي اشتملت على بروفانس ودوفينييه بالجنوب الشرق من فرنسا الحالية ، كما ضم إليه ساقوا بشمال إيطاليا ، وهى من أعرق البلاد في الحضارة اللاتينية . غير أن حوزة الإمبراطورية الألمانية على ذلك الجزء من أراضيها الغربية المأهولة بعناصر لاتينية ظلت سطحية قلقة ، حتى إذا أخذت قوة الملكية الفرنسية تنمو ، بدأت الإمبراطورية الألمانية تتخلى عن بعض تلك الأراضي ، ولم يشرف القرن الخامس عشر الميلادى على الانتهاء حتى انتقلت أراضي حوض نهر الرون كلها - ما عدا مدينة آفنيون - من أيدي الألمان إلى أيدي الفرنسيين .

ووقعت تلك التغيرات دون أن تحدث شيئاً من الارتجاج ، لأن حرباً فرنسية ألمانية لم تكن في حيز الممكنات السياسية في العصور الوسطى ، ولأن الأباطرة الألمان كانوا إذا خلت أيديهم من قمع الفتنة ببلادهم لا يلبثون أن يُشغَلوا بإيطاليا أو الجهة الشرقية . والواقع أن عيون الألمان امتدت وقتذاك إلى الشرق ، حيث الأراضي الحالية والفتح الهين ، لا نحو الغرب حيث انعكست تلك الأحوال ، ثم إن الجيرة الجغرافية التي طالما أثارت الحروب

فى العصور الحديثة لم تكن حدثت بعد ، بل حجز بين فرنسا وألمانيا حاجز من الإمارات والدوقيات والكونتيات . واستطاعت الدولتان على ما بينهما من حب مفقود أن تتبادلا التحية والسلام . عبر ذلك الحاجز القائم على طول الحدود . يضاف إلى ذلك سبب يزيد فى القوة على ما تقدم ، وهو أن فرنسا انصرفت معظم العصور الوسطى نحو الغرب ، حيث اشتبكت مع إنجلترا فى حرب هى أعظم الحروب فى تلك العصور .

بعض المراجع لهذا الفصل

- Cambridge Mediaeval History. Vol. V.
 Fletcher (C.R.) : The Making of Western Europe. (1912-1914).
 Giesbrecht (W. Von) : Geschichte der deutschen Kaiserzeit. 1881.
 Hauk (A.) : Kirchengeschichte Deutschland 4 vols. 1904-1920.
 Milman (H.H.) : The History of Latin Christianity. 1867.
 Zeller : Histoire d'Allemagne. 1890.

الفصل التاسع

أسس الحكم في فرنسا وإنجلترا

أحوال فرنسا في القرن العاشر الميلادى - نهضة أسرة كاييه -
منايع سلطاتهم - فتح إنجلترا على يد النورمان - معنى ذلك
الحادث - دخول إنجلترا دائرة الحضارة اللاتينية . فضل وليم
الفاتح على إنجلترا - بقاء العادات السكسونية في إنجلترا
النورمانية - تقوية الملكية على عهد هنرى الثانى - انصراف
إنجلترا عن شئونها بسبب أطماعها في أرض الفرنسيين .

لم يكن في أحوال فرنسا - مدة القرن العاشر الميلادى - ما يدل على شيء
من القوة والوحدة التى اجتمعت للملكية الفرنسية فيما بعد . ففي شمال فرنسا
حيث سمي اللسان الفرنسى لانج دوا (Langue d'oïl) ، لم يعرف الناس
من لسان لانجدوك (Langue d'oc) ، وهو لهجة لإخوانهم من أهل
بروفانس وأقطانيا في الجنوب ، سوى أنه أقل أجنبية عنهم من لغة
الكلتيين في بريتانى ، ومن لغة الشماليين في بايو . ثم إن فرنسا استحال
إلى إقطاعات لا تحصى بسبب حروب الشارلمانين ، وباتت في حال
من شدة ما أزلت بها تلك الحروب من النهب والخلال وفقدان الأمن .
ولم يشذ الشمال عن تلك الحال ، حيث اصطدم الشارلمانيون بأفصا
وأتابع لا يقلون عنهم قوة ، ولا يريدون أن يعترفوا لهم بسلطان ، برغم
ما بقى على الملكية الشارلمانية من موهوم الاعتبار والشرعية ، وفي أقطانيا
وغسقونيا بالجنوب ، غدت قيمة أولئك الملوك الأطياف مثل الصفر على

اليسار في الحساب . لا أقل ولا أكثر . سواء في المحافظة على السلام أو التوجيه السياسي العام .

ثم تخلصت فرنسا من ذلك الشلل السياسي على يد أسرة ملكية امتازت — فيما امتازت به من الصفات الطيبة — بأنها استطاعت أن تمد العرش الفرنسي بسلسلة من الملوك الشرعيين . خلفاً بعد خلف ثلاثمائة من السنين . وتلك هي أسرة كاييه . وظهرت هذه الأسرة على غيرها من الأسر الإقطاعية — أواخر عهد شارلمانين — بما أدت من خدمة عامة في ساعة من ساعات الحرج . وفي جهة من أحرج الجهات ، إذ ظل عميدها روبرت الصنديد كونت باريس يقاتل الشماليين عشر سنين حتى خر صريعاً في حومة الميدان . وأشبهه في هذه البطولة الرائعة ابنه يود صاحب الفضل في الدفاع عن باريس ضد أساطيل الشماليين سنة ٨٨٥ — ٨٨٦ م . فكوفي على خدمته بدوقية فرنسا . وما كان من الكثير عليه في زمن كثرت به الأطماع الجاحمة ، لو أنه استعاض الملكية عن الدوقية ، وهو الذي أنقذ فرنسا كلها من خطر الشماليين إلى حين . ثم إن أبناء ذلك البيت امتازوا بالحرص امتيازهم بالشجاعة . فظلوا مائة من السنين وهم قانعون بخدمة المملكة الفرنجية الشارلمانية القائمة ، مع انتظار الفرصة . برغم ما اجتمع إليهم من قوة بالقياس إلى غيرهم من الإقطاعيين الفرنسيين . ثم حدث سنة ٩٨٧ م أن لقي لويس الخامس حتفه في الصيد . وهو آخر سلالة البيت الشارلماني ، فافترض هيو كاييه الفرصة ، واستعان برئيس الأساقفة أدالبرت في إقامة أسرته في الملك ، وأقسم جهد أيمانه يوم التتويج أنه سوف يحكم بين الناس الذين أسلموا إليه مقاليدهم بالعدل والقسطاس المستقيم .

وربما تبادر إلى الذهن أن طول إقامة هذا البيت على العرش معناه أن مركزها لم يتعرض لخطر ما ، والحقيقة غير ذلك . فعلى الرغم مما تمتع به آل كاييه من المزايا دون غيرهم من البيوت الإقطاعية المتنافسة . مثل التحكم في باريس وأورليان ، والتسلط على مياه السين واللور — لم يكن انتخاب هيو ملكاً بالإجماع ، وهو وقتذاك أقوى نبلاء الفرنسيين وأكرمهم عند

الكنيسة . بل امتنع كونت فلاندرز وكونت تولوز ودوق أقطانيا عن مبايعته . وبدت بذلك سحابة منذرة بما سوف يحوط العرش الفرنسى من الأطماع والمنافسات العنيدة . على أنه لم يكن فى فرنسا أواخر القرن العاشر الميلادى من يستطيع مضاهاة أملاكه بأملاكه هيو كاييه وما امتازت به من موقع مركزى وسيط . وعاصمة جزرية أهلة بالسكان . وهى باريس التى حماها لسين وقتذاك من جميع الجوانب . وإذ دلت باريس الجزرية على أنها مفتاح الغلبة على فرنسا كلها . فإن شجاعة آل كاييه وتدبيرهم جعلهم مالكين لذلك المفتاح .

ومزية أخرى اختص بها آل كاييه ، ووضحت فيهم معالمها وضوحاً مضطرباً على مر الأيام ، أنهم قاموا ملوكاً على فرنسا من أقصاها إلى أقصاها ، وأنهم استمدوا من ذلك قوة ليس فوقها قوة ، مع العلم بأنهم ظلوا أقل ثروة وأقل نفراً بالقياس إلى غيرهم من البارونات الإقطاعيين التابعين لهم ، وطالما تعرضوا لأعمال بعض أولئك البارونات فى أطراف أملاكهم ، بل طالما اضطروا إلى الكد فى سبيل العيش من مزارعهم . وسر ذلك كله أن الملك الفرنسى من تلك الأسرة ورث التقليد الإمبراطورى الرومانى بعد الشارلمانين ؛ وذلك فضلاً عن أنه سليل الملك كلوفس ، « أكبر أبناء الكنيسة » ، وأكثر الملوك تعلقاً بالمسيحية » ، وأنه رئيس المجتمع الإقطاعى الجديد ، وهو المجتمع الذى كره الملكية أولاً ، ثم صار بعد تنظيمه منبع امتيازات التاج مما لم تعهده العصور السالفة . وعلى هذه الأسس الثلاثة بنى النظريون بناء شاهقاً من الامتيازات الملكية ، فقال القانونيون الإقطاعيون إن الملك سيد على مجموعة من السادة . وإن أولئك السادة أفصال يدينون له بالتبعية والإخلاص والمساعدة الحربية . وإن الملك هو الذى يقطع الأرض للأفصال مباشرة أو فى غير مباشرة . وقال رجال الدين إن تنويع الملوك على يد الكنيسة هو « نسر القدس الثامن »^(١) وقال القانونيون الإمبراطوريون — فيما بعد — إن

(١) الأسرار القدسية فى الديانة المسيحية سبعة ، وانقول بأن تنويع الملوك على يد الكنيسة هو « نسر القدس الثامن لا يعدو — فيما يبدو — أن يكون إشارة لتعظيم شأن التنويع . (زيادة) .

الامتيازات الملكية ليست ذات حدود ، وأمن القانونى الشاعر فيليب دى ريمى - بارون بوڤواسيس بفرنسا الحالية على ذلك تأميناً واضحاً فى القرن الثالث عشر الميلادى ، حين ردد المبدأ الرومانى الشهير بأن كلمة الإمبراطور تقوم دائماً مقام القانون ، فى كتابه الذى عنوانه التقاليد المرعية فى بوڤواسيس (Coûtures de Beavoisis) .

على أن الأمر فى استحقاق الأربعة الأولين من ملوك آل كاپيه مكانهم بين أصحاب الفضل على فرنسا - وهم هيو كاپيه وروبرت التى وهنرى الأول وفيليب الأول - يرجع إلى أنهم كانوا ممن طال عمره وحسن عمله (٩٨٧ - ١١٠٨ م) ، وأنهم دأبوا على تنويع الابن فى حياة أبيه . ثم إنهم بقوا بمنأى من عاصفة الحروب التى نجمت عن مشكلة التقليد العلمانى ، بفضل إغضاء البابا جريجورى السابع عما يجرى على يدهم من سيمونية صارخة ، لئلا يدفع بفرنسا إلى صفوف أعدائه . وليس معنى ذلك أن أولئك الملوك لم يقوموا بما يوجب الاعتراف لهم بفضل ، فإنهم حفظوا مركزهم على الأقل . كما أنهم انتصروا فى جميع الحروب التى خاضوها خدمة للملكية ، ما عدا مرة واحدة ، وهذه حين تدخل الملك هنرى الأول بين دوق أنجو ودوق نورمانديا ، ومال إلى الجانب الضعيف ، وأنهزمت جيوشه فى وقعة مورتير سنة ١٠٥٤ م ووقعة فارافيل سنة ١٠٥٨ م ، وهما أول أدوار النضال الذى ظل ما يقرب من أربعة قرون بين الفرنسيين والإنجليز .

ولإذ يرجع تأسيس الملكية الفرنسية إلى معونة الكنيسة ، فإن مثل تلك المعونة أدى فى إنجلترا إلى قيام ملكية كادت تمزق فرنسا فى العصور الوسطى شراً ممزقاً ، مع العلم بأن وليم دوق نورمانديا - وهو صاحب تلك الملكية الجديدة - لم يوصف يوماً من الأيام بميله إلى رجال الدين ، بل دل على كرهه لسيطرتهم فى نورمانديا وإنجلترا سواء . ولكن وليم حرص على أن يفيد من أى جهة فيها تحقيق لأطماعه ، شأنه فى ذلك شأن جميع الفاتحين السياسيين ؛ وكانت البابوية غير راضية عن أحوال الكنيسة فى إنجلترا ، فعاهدها على تنفيذ رغباتها إن هى ساعدته على تحقيق مشروع طالما أعمل فيه فكره .

وهكذا تم فتح إنجلترا ونهبها على يد النورمان ، تحت لواء أرسلته البابوية إلى وليم علامة الرضا عما عقد هو النية على تحقيقه .

ولم يكن ذلك الفتح عسيراً على وليم ، فإن الأحوال السياسية والحربية في إنجلترا على عهد الملك إدوارد التي ساءت من كل ناحية إلى درجة جعلتها أقل قوة من نورمانديا ، حيث تركز السلطان كله في شخص الدوق ، على حين امتلأ المسرح في إنجلترا بتنافس إيرلات (Earls) وسكس ومرسيا ونورمبيريا وإيست أنجليا ، ولا سيما إرل هارولد بن جودون . ثم إن النورمان حاذقوا الحرب الراكبة والقس والنشاب ، على حين عجز الإنجليز عن استخدام تلك الأسلحة . لانصرافهم عنها إلى المنافسات الداخلية ، واستيلاء روح المحافظة البليدة على نفوسهم ، وهذا مما اختص به يومئذ خلقهم العام . أما نتائج ذلك الاختلاف في الاستعداد للقتال ، فهو مما يدعو إلى العجب العجيب ، لأن الجيش الذي جهزه وليم النورمانى ، لإخضاع أمة عدتها مليون ونصف مليون ، لم يزد عن اثني عشر ألف مقاتل على أقصى تقدير . ومع ذلك لم تنته وقعة هيستنجز سنة ١٠٦٦ م - وهى الواقعة التى انهزم فيها إرل هارولد ابن جودون ومات - حتى بدت إنجلترا جثة هامدة تحت أقدام الفاتح ، ما عدا قليلا من الثورات المحلية التى ساء تنظيمها وسهل التغلب عليها .

والواقع إن وليم فتح إنجلترا فتحاً ميبناً ، وأخضعها لسلطانه إخضاعاً تاماً . ولئن حسب الإنجليز أنهم يلقون من وليم مثلما لقوا من كانوت خمسين سنة قبله ، فسرعان ما تبينوا خطأهم . ذلك أن المغامرين الذين نفروا من نورمانديا وأنجو ، وبريتانى وفلاندرز ، تحت لواء وليم ، لم يأتوا إلى إنجلترا لقضاء حاجة فى نفس الدوق أو البابا ، بقدر ما أتوا لقضاء حاجة فى أنفسهم ، ثم إنهم لم يقاتلوا فى سبيل إقامة ملك نورمانى على عرش إنجلترا إلا بعد أن أطمأنوا إلى ما سوف يفيثون من أرض ومغانم إنجليزية . ولم يخيب وليم آمال أولئك السادة المغامرين ، بل عكف على إحلالهم فى أملاك الأنجلوسكسونيين وأرضهم كلما تم لهم فتح جزء من أجزاء الجزيرة . وهكذا تكونت بإنجلترا أرستقراطية جديدة ، ترطن باللسان الفرنسى ،

وتتميز بصفات هي - بالقياس إلى ما اتصف به سلفها من الأنجلوسكسونيين - أقصى ما يكون من العناد والعنف والقسوة والمداورة . وذلك فضلاً عن إرهابها الفلاحين البؤساء إشباعاً لغاياتها المتغطرسة ، وفضلاً عن تحكمها في البلاد والناس من معاقليها الشائخة ، مما غير الحياة العامة في إنجلترا تمام التغيير .

ذلك أن إنجلترا أضحت جزءاً من العالم اللاتيني كرة أخرى ، فحينما كان السادة النورمان ، سواء في معاقليهم ، أو في مجالس الحكم ، أو في ميادين الصيد والطرْد ، بل حينما اجتمع أولئك السادة في عمل أو لهُو ، لم تكن تسمع منهم إلا لسان الفرنسيين . ومعنى ذلك أنه لم يعد ثمة أمل في تطور الحياة بإنجلترا على أسس أنجلو سكسونية خالية من التخليط الأجنبي . كما لم يبق ثمة احتمال لانضوائها إلى إمبراطورية إسكندناوية شاملة للبلاد الشمالية ، بعد أن اجتذبتها الفتح النورمانى إلى دائرة الحضارة اللاتينية من جديد . وهى التى خرجت عن تلك الدائرة منذ القرن الخامس الميلادى ، وأكثر من هذا أن الفتح النورمانى جعل لإنجلترا شريكة الوارثين للحضارة الرومانية في فقههم وعمايتهم ، وأدبهم وقانونهم ، ونظامهم الاجتماعى والسياسى . كما جعلها على صلة بكل ما يجرى بالبلاط البابوى فى روما ، وفى مدرسة القانون بمدينة باثيا ، وفى أديرة نورمانديا وبرجنديا واللورين . فتولى إيطاليان عظيمان منصب رئاسة الأساقفة فى كانتربرى واحداً بعد الآخر ، وهما لانفرانك الباباى ، وأنسلم الأوسى ، وحمل إليهما كل منهما من العلم والنظام والفلسفة ما لم تذق إنجلترا طعمه منذ زمن بعيد ، ثم خفف من عنف الفتح النورمانى ما جاء به الفاتحون من ثقافة أنبتت كتدرائيات فسيحة سامقة ، على مقياس بدا فى عين الفلاح السكسونى مثلما تبدو ناطحات السحاب فى عين الصبى القادم على مدينة نيويورك من بطن الريف بالولايات المتحدة الأمريكية .

على أن الحكم الاستبدادى الذى أسسه وليم فى إنجلترا لم يكن سوى نعمة خافية ، برغم ما يبدو فى هذا القول من تناقض . وتفسير ذلك أن أوربا

كلها ابتليت منذ انهيار الحكومة الرومانية . وزوال الحكومة الشارلانية بعدها ، بأفة الفوضى والحروب الخاصة ، دون أن تجد لتلك الحال علاجاً حتى زمن الفتح النورمانى لإنجلترا . وبذلت الكنيسة ما استطاعت أن تبذل من نفوذ للتخفيف عن المجتمع الأوربى من جثام الحروب الدائمة ، فابتدعت فكرة التحالف على السلام المحلى بين الأقاليم ، ثم أعقبتها على مقياس أكبر بفكرة « هدنة الله » لتحريم الحروب أيام الأحد وأيام الأعياد الدينية الكبرى . غير أن النفوذ الكنسى شىء والحكومة المنظمة شىء آخر ، ولذا ظلت الفوضى والحروب الخاصة طاغية على أوربا مدة القرن الحادى عشر الميلادى ، بل العصور الوسطى جميعاً . ولم يكن ثمة سبيل إلى إعادة نسيم الحرية إلى أوربا إلا بعد استكمال ثلاثة من الأركان الرئيسية فى الحكم ، وهى قانون يحترمه الناس ويسـيروـن على هديه ، وحصيلة مالية معلومة المبلغ والمواعيد ، وقوة حربية كافية لشئون الدفاع عن البلاد .

واجتمعت تلك الأركان فى الحكومة التى تدين بها إنجلترا للملك وليم الفاتح ، ولئن بدت تلك الحكومة استبدادية ملؤها القسوة ، فإنها دلت آخر الأمر على ما فيها من محمـدة ، إذ أخذ وليم جميع العصاة الأنجلو - سكسونيين والمتمردة من النورمانيين أخذاً واحداً ، وقسم الإقطاعات الأنجلوسكسونية التى صادرها إلى أقسام كثيرة ، ثم وزع تلك الأقسام بين البارونات النورمانيين توزيعاً جعل ضياعهم أجزاء مبعثرة فى أنحاء البلاد بحيث قلل من أخطار مقاومتهم إلى درجة ملحوظة . وإذا كان معنى ذلك أن وليم دعم الإقطاعية فى إنجلترا . فعنـاه كذلك أنه حررها من أكبر شـورها فى أمور الحكم : لأن وليم جعل التملك على الإقطاعات فى إنجلترا - كما فى نورمانديا - من حقوق التاج مباشرة مقابل الخدمة الحربية فى جيش الملك ، ولم يسمح أن تغدو شئون الحكم فى الدولة وفقاً على الإقطاعيين يوماً من الأيام . بل حرص على أن تظل كلمة الملك هى العليا . وأن يدأب نوابه على التنقل فى مختلف النواحي ، وأن

يرأس رجاله المحاكم الكلية (County Courts) . ثم دل كتاب الروك النورمانى (Doomsday Book) الذى تم إنجازه سنة ١٠٨٦ م - رغبة فى تنظيم ضريبة الدانيين^(١) - على مبلغ الدقة التى بذلها عمال المالىة النورمانية فى الكشف عن كل مصدر من مصادر المال . ثم كان للنورمانيين من نظام المحلفين المحليين (Local Jury) الذى نقلوه عن الدولة الشارلمانية أداة ، لا لضبط الأمور المالية فحسب ، بل لتقرير الأمور القضائية كذلك . حتى إذا بدأت محكمة الملك (Curia Regis) فى استخدام المحلفين على عهد هنرى الثانى فى قضايا التملك ، وهى أغلب أنواع القضايا فى عصر ملؤه العنف وضياع الحقوق ، ألف الناس ذلك النظام واطمأنوا إليه ، لأنهم وجدوا فيه إنصافاً غير باهظ التكاليف . وحرصت محكمة الملك منذئذ أن تكون منبعاً لذلك الإنصاف حتى جمعت إليها معظم الأعمال القضائية فى البلاد ، وبذا وضعت أسس القانون العام (Common Law) الذى تسير بحسبه الشعوب الأنجلو - سكسونية على جانبي المحيط الأطلسي حتى العصر الحاضر .

وترجع أصول تلك الأسس إلى أعمق أعماق الحضارة الأنجلو - سكسونية . لأن الملك وليم النورمانى وأخلافه اتخذوا لأنفسهم جميع ما وجدوا فى إنجلترا من قديم التقاليد . كما تعمدوا المحافظة عليها كل المحافظة ، فاعتبر وليم نفسه الوريث الشرعى بعد إدوارد التقي ، وحرص على قيام مجلس الدولة (الويتان) بتتويجه ، واستخدام المحاكم الجزئية والكلية القديمة فى جميع شئونه بعد أن حولها إلى محاكم إقطاعية . ودل وليم بذلك كله على أن ما اشتهر به من قسوة وصرامة ليس إلا ناحية واحدة من شخصية ذات سجايا ومواهب سياسية عظيمة . إذ رأى ما بقواعد المواطنة التى درج عليها الأنجلو - سكسونيون من فائدة له . فسار على مقتضاها سيراً حقيقياً . مثل الدعوة العامة إلى حضور المحاكم . والمشاركة فى البحث عن الجرمين والخدمة فى النفي العام ، والإسهام فى تعمير القناطر والجسور والحصون . والواقع أن

إنجلترا النورمانية احتاجت إلى معاونة الأنجلوسكسونيين أهل البلاد في شئون الحكم ، وظلت القوانين والعادات الأنجلو - سكسونية مرعية رغم ما استحدثه النورمان من متجددات ، وذلك بفضل ما عكف النورمان أنفسهم على إدخاله في الحكم من نظام مركزي شديد ، مما أثر أكبر الأثر في حياة الأمة الإنجليزية .

وبما سهل قيام الحكومة المركزية على عهد النورمان أن إنجلترا بلد صغير المساحة ، وأن الغال وأسكتلندا وأيرلندا لم تدخل في ممتلكات ولیم ، وأن نورثمبريا غدت خراباً صنفصفاً عقوبة لها على ما شقت من عصا الطاعة ، فلم تعد مصدراً لأي خطر . ولذلك كله استطاع نواب الحكم من النورمان أن يقوموا على تنفيذ مشيئات الملكية في إنجلترا الصغيرة أحسن قيام ، وأن يجدوا من قرب المسافات بين بلادها وسيلة لتوكيد السلام العام .

كذا قامت الأسس التي بنيت عليها دولة نظيمة بإنجلترا بعد الفتح النورماني ، وتصاره^(١) النورمانيون مع الإنجليز ولا يمحض على ذلك الفتح سوى جيل واحد . وفي ظل تلك الدولة التي سخرت قوتها للحد من تنفيذ أبواب الإقطاعية ، بقيت طبقة المزارعين حافظة لكيانها ، فعاشت عيشة رغيدة محترمة على خشونتها ، ومنها تكونت الطبقة الوسطى التي امتازت بها إنجلترا على سائر جيرانها الأوربيين في العصور الوسطى ، حتى إذا جدد للحد بدت تلك الطبقة محوراً رئيسياً في الحكم الدستوري بالبلاد . على أن الدولة النورمانية لم تسلك سبيل التقدم دوماً ، فغلب عليها الطغيان مدة لیم الثاني ، وتردت في حمأة الفوضى على عهد ستيفن ؛ لكن طغيان ولیم الثاني وجحد من رئيس الأساقفة آنسلم عوداً لا يلين ، وانتهت فوضى ستيفن بتمام حكومة هنري الثاني . ثم لم ينته عهد هنري الثاني الذي بلغ بقوة عقله

(١) المعروف أن هنري الأول بن ولیم الفاتح - وهو ثالث ملوك إنجلترا من النورمان - هوج من أميرة إنجليزية ، من بنات إحدى الأسر الملكية القديمة . انظر ترجمتي لكتاب التاريخ الإنجليزي ، ص ٤١ ، وراجع شجرة الأنساب رقم ٦ ، في آخر الكتاب ، لمعرفة ترتيب الملوك ورده أسماءهم فيما يلي . (زيادة) .

إنجلترا النورمانية احتاجت إلى معاونة الأنجلوسكسونيين أهل البلاد في شئون الحكم ، وظلت القوانين والعادات الأنجلو - سكسونية مرعية رغم ما استحدثه النورمان من متجددات ، وذلك بفضل ما عكف النورمان أنفسهم على إدخاله في الحكم من نظام مركزي شديد ، مما أثر أكبر الأثر في حياة الأمة الإنجليزية .

وما سهل قيام الحكومة المركزية على عهد النورمان أن إنجلترا بلد صغير المساحة ، وأن الغال وأسكتلندا وأيرلندا لم تدخل في ممتلكات ولیم ، وأن نورمبيريا غدت خراباً صنفصفاً عقوبة لها على ما شقت من عصا الطاعة ، فلم تعد مصدراً لأي خطر . ولذلك كله استطاع نواب الحكم من النورمان أن يقوموا على تنفيذ مشيئات الملكية في إنجلترا الصغيرة أحسن قيام ، وأن يجدوا من قرب المسافات بين بلادها وسيلة لتوكيد السلام العام .

كذا قامت الأسس التي بنيت عليها دولة نظيمة بإنجلترا بعد الفتح النورمانى ، ونصاهر^(١) النورمانيون مع الإنجليز ولما يمحض على ذلك الفتح سوى جيل واحد . وفي ظل تلك الدولة التي سخرت قوتها للحد من تنفذ أرباب الإقطاعية ، بقيت طبقة المزارعين حافظة لكيانها ، فعاشت عيشة رغيدة محترمة على خشونتها ، ومنها تكونت الطبقة الوسطى التي امتازت بها إنجلترا على سائر جيرانها الأوروبيين في العصور الوسطى ، حتى إذا جدد الحد بدت تلك الطبقة محوراً رئيسياً في الحكم الدستوري بالبلاد . على أن الدولة النورمانية لم تسلك سبيل التقدم دوماً ، فغلب عليها الطغيان مدة ولیم الثاني ، وتردت في حماة الفوضى على عهد ستيفن ؛ لكن طغيان ولیم الثاني وجحد من رئيس الأساقفة آنسلم عوداً لا يلين ، وانتهت فوضى ستيفن بقيام حكومة هنرى الثاني . ثم لم ينته عهد هنرى الثاني الذى بلغ بقوة عقله

(١) المعروف أن هنرى الأول بن ولیم الفاتح - وهو ثالث ملوك إنجلترا من النورمان - تزوج من أميرة إنجليزية ، من بنات إحدى الأسر الملكية القديمة . انظر ترجمتى لكتاب التاريخ الإنجليزى ، ص ٤١ ، وراجع شجرة الأنساب رقم ٦ ، في آخر الكتاب ، لمعرفة ترتيب الملوك الواردة أسماءهم فيما يلى . (زيادة) .

ومضاه عزمته مبلغ العباقة ، حتى غدا القضاة الملكيون يروحون إلى دوائرهم في طول البلاد وعرضها للنظر في مختلف القضايا الكلية ، على غرار ما يفعلون حتى العصر الحاضر ، فعبروا بذلك عن سلطان الملكية وجلالة القانون ، وأحلوا المحلفين محل الوسائل البدائية في تحقيق الجنايات والدعاوى المدنية ، مثل امتحان المدعى عليه بالنار ، أو الاحتكام إلى السيف . وهكذا أضحى الملك مصدراً للعدل وحارساً للسلام العام ، وزالت العنصرية التي جعلت النورمانيين طبقة ممتازة ، وتغير تكوين الجيش تغيراً تاماً ، بحيث صار للملك قوة دفاعية أثبت له وأطوع من فئات الإقطاعيين ، وأقل نفقة عليه من جماعات المرتزقة . وبلغت الإدارة المالية من النظام على عهد هنري الثاني ما لم تبلغ في غيرها من البلاد ، ما عدا صقلية النورمانية ، فلم يذهب درهم واحد بغير حساب ، وبدأت الخزانة الإنجليزية مضرب الأمثال في الدقة بالقياس إلى النظم المالية الفاتية في ألمانيا وفرنسا في العصور الوسطى .

غير أنه يلاحظ أن وليم الفاتح لم يفقد دوقيته في نورمانديا عندما أصبح ملكاً على إنجلترا سنة ١٠٦٦ م ، ولم يكن ثمة تناقض في عين وليم وأتباعه وسلالته أن يظل ملوك إنجلترا أصحاب دولة أخرى عبر بحر المانش . ولئن ذهبت صقلية مع أبولية بجنوب إيطاليا للنورمان من آل جويسكارد ، فلا أقل من أن تذهب إنجلترا مع نورمانديا إلى آل وليم الفاتح . ولذا بقي ملك إنجلترا بحكم دوقيته النورمانية فصلاً إقطاعياً تابعاً للملكية الفرنسية ، وارتبط كذلك كثير من كبار الإقطاعيين في إنجلترا بإقطاعاتهم وذوى قرابتهم في نورمانديا ، ولم تستهو تلال غالة ومروج أسكتلندا أو غياض أيرلندا أحداً منهم إلى مغامرة حربية استهواء أراضي فرنسا التي درجوا على المعيشة فيها قبلاً ، وعرفوها تمام المعرفة . وظالما بقي جزء من فرنسا في أيدي ملوك إنجلترا ، بقي ذلك الجزء مثل المغناطيس في السياسة الإنجليزية ، كما بقيت هانوفر الألمانية على عهد جورج الثاني ، فيما بعد . وشاعت المقادير أن تمضي القرون قبل أن تصبح ملك إنجلترا ملكاً في إنجلترا فحسب ، لأنه حتى

بعد ذهاب نورمانديا ومعها آنجو ومين وتورين الفرنسية من يد الملوك الإنجليز ، بقيت إنجلترا مملكة على جبين وأوثرن وأقطانية بفرنسا ، وهي الأقاليم التي جاءت بها الملكة إليانور — مطلقة لويس السابع ملك فرنسا — إلى زوجها الحديد هنري الثاني ملك إنجلترا .

ونج عن ذلك التعاشق الجغرافي بين المملكتين الإنجليزية والفرنسية ، مضافاً إليه ما هنالك من تصادم دائم بين البحارة والتجار من أهل البلدين ، أن حالة من العداء تمكنت من ملوك إنجلترا وفرنسا تمكناً شديداً — عدا فينات متقطعة — حتى أواسط القرن الخامس عشر الميلادي . وبدأ ذلك العداء بحرب حول العرش الفرنسي ، ثم تطور الأمر حتى صار نضالاً بين قوتين ذاتي وعي متوثب وصفات متباينة . على أن ذلك النضال الطويل العقيم لم يستخدم جيوشاً ضخمة ، ولم يتطلب معارك حربية مطولة ، ولم تتمخض عنه فلسفات في الحكم والسياسة . ومرجع ذلك أن الحرب في العصور الوسطى ، ما لم تكن نابعة من حركة صليبية ، أو ناتجة عن كيد شخصي أو كرامة مثلومة ، لم تخرج عن أن تكون تقليداً من تقاليد المجتمع ، وسيلاً من سبل اللهو ، وأداة من أدوات المضاربة المالية . غير أنه مهما بدت حرب العصور الوسطى ضئيلة طفيفة بالقياس إلى مذابح الحرب الحديثة ومقاتلتها الشنيعة ، فلا شك أن الحروب التي ظلت ناشبة بين إنجلترا وفرنسا حتى أواسط القرن الخامس عشر الميلادي أدت إلى نتائج بعيدة في تاريخ البلدين ، إذ تولدت عنها أمتان ، بينهما من اختلاف البناء الاجتماعي وتضاد الأمزجة والطباع مثلما صار بينهما من عداء تقليدي مسموم . ذلك أن فرنسا خرجت منتصرة ، دون أن تفيد من انتصارها شيئاً مذكوراً لعدة قرون ، على حين أن إنجلترا انهزمت ، ففقدت روان سنة ١٢٠٤ م ، وبردو سنة ١٤٥٣ م ، وكاليه سنة ١٥٥٢ م ، بل نزلت عن كل شبر لها من أرض فرنسا ، وضحت بكل غرض من الأغراض التي كان من أجلها النضال . ولا تزال مقبرتا وليم الفاتح وهنري الثاني في أرض أجنبية . غير أن إنجلترا لم تأخذ طريقها المشددة نحو الأعمال العظيمة التي ارتقت نهضتها إلا بعد أن ذاقَت تلك الهزيمة الساحقة ،

فجعلت من الجزر البريطانية مملكة متحدة، وكونت لنفسها إمبراطورية فيما وراء البحار. والواقع أن إنجلترا لم تستطع أن تتبين طريقها الحقيقي نحو التقدم طالما هي منصرفة إلى النضال ضد فرنسا، إذا أهملت الفرصة بعد الفرصة. ولم تقو على إبرام أمر من أمورها في سرعة، فلم تضم غالة التي انتهى فتحها على يد إدوارد الأول في القرن الثالث عشر الميلادي إلا زمن هنري الثامن في القرن السادس عشر الميلادي، ولم تخضع إسكتلندا إخضاعاً حقيقياً للتاج البريطاني إلا بعد هزيمة آخر الإستواريين في وقعة كلدن سنة ١٧٤٥ م، ولا يزال الأيرلنديون على تحديهم وعنادهم حتى العصر الحاضر.

بعض المراجع لهذا الفصل

- Bainville : Histoire de France.
 Benedictus Abbas : Chronicles of .. (Rolls Series). 1867.
 Davis (H.W.C.) : England Under the Normans and Anjevins. 1905.
 Du Taillis (Petit) : La Monarchie Feodale en France et en Angleterre. 1899.
 Green (Mrs. J.R.) : Henry II, 1888.
 Lavisce (E.) : Histoire de France, Vol. II. 1903.
 Maitland (F.W.) : Memoranda de Parlamento. (Rolls Series). 1893.
 McKechnie : Magna Carta. 1905.
 Pollard, (A.F.) : Evolution of Parliament. 1926.
 Pollock & Maitland : History of English Law before Edward I. 2 Vols. 1898.
 Stubbs (W.) : Constitutional History of England, 3 Vols. 1880.
 Tout (T.F.) : Edward I. 1893.

الفصل العاشر

الحروب الصليبية الأولى والدولة البيزنطية والمسلمون

حروب الدولة البيزنطية زمن الأباطرة المقدونيين سنة ٨٦٧ - ١٠٥٩ م - مواضع الضعف في الحضارة البيزنطية - قيام السلاجقة - وقعة مانزكرت سنة ١٠٧١ م - استنجد الإمبراطور ألكسيس كومنين بغرب أوروبا - البابا إربان الثاني والأراضي المقدسة - انفصال الكنيسة البيزنطية عن الكنيسة الكاثوليكية - أهداف الملوك النورمانيين بصقلية - نتائج الانفصال في الكنيسة المسيحية - العوامل المساعدة على مشاركة غرب أوروبا في الحملة الصليبية المعروفة بالأولى - نجاح تلك الحملة الصليبية - ازدياد البغضاء بين البيزنطيين والفرنجة - نصيب المدن الإيطالية - الفرنجة والسوريون في فلسطين - سقوط الرها في أيدي المسلمين - الحملة الصليبية المعروفة بالثانية - فقدان الاتفاق بين الدولة البيزنطية ومملكة بيت المقدس الصليبية - فتوح صلاح الدين الأيوبي - الحرب الصليبية المعروفة بالثالثة - نتائج الحركة الصليبية حتى أواخر القرن الثاني عشر الميلادي .

بينما عملت الملكية الإنجليزية جهد أيمانها لحفظ لإنجلترا من إغارات النورمانين بغرب أوروبا ، بذل أباطرة البيت المقدوني (٨٦٧ - ١٠٥٩ م) معهم في الدفاع عن إمبراطوريتهم البيزنطية بالطرف الأوربي الآخر ، ضد حلقة من الأعداء الذين هددوا كيائها . وكادوا يقضون عليها قضاء جبراً . غير أن العوامل التي ساعدت المقدونيين على المضى فيما هم بصدد

الفصل العاشر

الحروب الصليبية الأولى والدولة البيزنطية والمسلمون

حروب الدولة البيزنطية زمن الأباطرة المقدونيين سنة ٨٦٧ - ١٠٥٩ م - مواضع الضعف في الحضارة البيزنطية - قيام السلاجقة - وقعة مانزكرت سنة ١٠٧١ م - استنجاد الإمبراطور ألكسيس كومنين بغرب أوروبا - البابا إربان الثاني والأراضي المقدسة - انفصال الكنيسة البيزنطية عن الكنيسة الكاثوليكية - أهداف الملوك النورمانيين بصقلية - نتائج الانفصال في الكنيسة المسيحية - العوامل المساعدة على مشاركة غرب أوروبا في الحملة الصليبية المعروفة بالأولى - نجاح تلك الحملة الصليبية - ازدياد البغضاء بين البيزنطيين والفرنجة - نصيب المدن الإيطالية - الفرنجة والسوريون في فلسطين - سقوط الرها في أيدي المسلمين - الحملة الصليبية المعروفة بالثانية - فقدان الاتفاق بين الدولة البيزنطية ومملكة بيت المقدس الصليبية - فتوح صلاح الدين الأيوبي - الحرب الصليبية المعروفة بالثالثة - نتائج الحركة الصليبية حتى أواخر القرن الثاني عشر الميلادي .

بينما عملت الملكية الإنجليزية جهد أيمانها لحفظ إنجلترا من إغارات الدانين بغرب أوروبا . بذل أباطرة البيت المقدوني (٨٦٧ - ١٠٥٩ م) وسعهم في الدفاع عن إمبراطوريتهم البيزنطية بالطرف الأوربي الآخر ، ضد حلقة من الأعداء الذين هددوا كيائها . وكادوا يقضون عليها قضاء مبرماً . غير أن العوامل التي ساعدت المقدونيين على المضي فيما هم بصدد

فاقت جميع ما استقام وقتذاك لغيرهم من ملوك الغرب . إذ بدت عاصمتهم القسطنطينية في القرن التاسع الميلادي أبهى وأكثر حصانة وأكثر سكاناً من باريس على عهد فيليب أغسطس . في القرن الثالث عشر الميلادي ، ولندن على عهد شارل الثاني في القرن السابع عشر الميلادي . وتوافرت لهم طبقة من الموظفين حاذقة ، وإدارة مالية حسنة . ونظام قضائي متين ، وجيش عماده الخيالة الثقيلة ذات الأطبار — أى الفئوس الحربية — وبحرية فيها من كل ما اجتمع بشرق البحر الأبيض المتوسط من فنون البحر . ونقد ذهبي أساسه البيزانط المعروف بجميع بلاد الأرض . على أن أهم ما امتازت به الإمبراطورية البيزنطية على دول الغرب الناشئة هو المهارة والخبرة بالدبلوماسية . حيث عرف الساسة البيزنطيون نفسية الشعوب المتبربرة أحسن معرفة ، وأتقن ديوان الإنشاء (وزارة الخارجية) نهج الملوك المتبربرين وشعوبهم أعظم إتقان ؛ ولذا امتلأت القسطنطينية التي جمعت بين آسيا وأوروبا بحركة دبلوماسية واسعة لم توجد في غيرها من عواصم الأرض . وللمبشرين من رجال الكنيسة البيزنطية فضل يفوق فضل القادة العسكريين في إعلاء شأن الإمبراطورية . لأنهم هيمنوا على عقول المتبربرين . لا بالعقائد التي ألقوا بها في أذهانهم فحسب ، بل بجلال العادات الكنسية البيزنطية وما فيها من بخور وشموع . وموسيقى وملابس كهنوتية رائعة . وخطبت الإمبراطورية ودّ الملوك التابعين بمختلف الوسائل ، فألطفتم لهم الهدايا السنية والأموال الوفيرة . وزوّجت بعضهم من عقيلات البيوت البيزنطية الكبيرة . وأسبغت على الكثيرين ألقاباً إمبراطورية ضخمة ، وتوخت أن يكون الآيين (البروتوكول) الإمبراطوري من الهيبة والجلال والإكرام . حتى يبدو الإمبراطور في أعين الوافدين على القسطنطينية — زيارة أو سفارة أو تأكيداً للولاء — كأنه شخصية مؤثرة فوق البشر . والواقع أن أعظم ما امتازت به تلك الإمبراطورية العريقة في الحضارة هو القدرة التي مكنت لها أن تحوط نفسها بشبكة من الصداقات والمودات القريبة والبعيدة ، فضلاً عن المعرفة التي تمت لها بشعوب السهوب الآسيوية وأحوالها . والسرعة التي استطاعت بها أن تدعو حليفاً ليس في الحسبان ضد أعدائها في أخرج مراحل القتال .

ثم إنه لما كانت الإمبراطورية البيزنطية وريثة للرومان وتقاليدهم الشائعة ، لم يكن لها بد أن تطمح الأطماع الواسعة كلما صارت حكومتها إلى إمبراطور قوى شديد ، مثل أربعة المقدونيين — باسل الأول ونقفور فوقاس وحنا شمشق وباسل الثاني^(١) — الذين توافرت لهم من الصفات العسكرية والخلق الإمبراطري والإرادة العتيدة ما جعلهم أصلح الأباطرة لتلك العصور الصارمة . وآية ذلك ما أمعن فيه أولئك الأربعة من هجوم على طول جبهات الإمبراطورية ، حتى امتدت أطرافها في زمنهم امتداداً لم تعهده منذ أيام جستنيان العظيم ، إذ خلّص نقفور فوقاس جزيرة إقريطش ومدينة أنطاكية من أيدي المسلمين ، واجتاح شمشق قليقية وسورية وفلسطين ، وأعاد باسل الثاني جنوب إيطاليا وأرمينية إلى حظيرة البيزنطيين . على أن جميع ما ظفرت به الإمبراطورية على عهد المقدونيين لا يقاس من حيث أهميته بما اتفق لها من القضاء على الدولة البلغارية زمن باسل الثاني ، بعد ثلاثين سنة كلها حروب دامية وديبلوماسية أربية بارعة ، حتى إذا توفي باسل هذا سنة ١٠٢٥ م ، وهو الذي سماه المعاصرون جزّار البلغاريين (Bulgaroctonos) بدت الدولة البيزنطية أعظم ثروة ، وأكبر صولة ، وأقوى منعة ، من أية دولة في أوروبا .

غير أن معظم التاريخ البيزنطي خليط من المتناقضات الحادة الباعثة على الاكتئاب ، ففترات من القوة الحربية والنصر المبين تعقبها فترات من الاضطراب الداخلي والتآمر السافل ، وعلم غزير وأدب جم يجتمعان إلى وحشية صارخة وغضب عن الإجرام — وكل ذلك في شخصية واحدة . وإنك لتقرأ سيرة إمبراطور من الأباطرة ، فيروك نشاطه وعلمه وتشجيعه الفنون والآداب ، ثم يُخلف هذا البيزنطي المهدّب ظنك حين تعلم أنه نظم الأشعار البذيئة ، الأمر بكتابتها على جباه ثلاث من المهرطقة بعود من الحديد المحمى في النار . ثم بعد ذلك مؤلفات أميرة بيزنطية ملمة بمعظم الآداب اليونانية القديمة ، فيعجبك أنها أحبت أباهما حب العباداة ، وأنها كتبت تاريخاً رائعاً تمجيداً . ثم تعلم أنها شاركت في مؤامرة لاغتيال أخيها . وأدهى من ذلك أن الدولة

(١) انظر شجرة الأنساب رقم ٤ ، في آخر الكتاب . (زيادة) .

البيزنطية التي نقش صناعتها أبدع النقوش والفسيفساء بكنائس رافنا والبندقية .
 ونشأ أرباب السياسة فيها من اللاهوتيين ، ونشأ اللاهوتيون فيها من أرباب
 السياسة ، وردد شعراؤها أصداء ملياجر وكاليماخوس في الشعر ، واستظل
 علماؤها بظل هوميروس ، هي التي أنبتت بعاصمتها دهماء من أعنف أنواع
 الدهماء في أوروبا ، وتدنت إلى أدنى ألوان المثلة والتشويه في عقاب المحرمين
 والمخالفين السياسيين - مثل فقء العيون . وقطع الأيدي ، وصلم الآذان .
 وجدع الأنوف .

ولذا يرى الباحث الحديث كثيراً مما يستوجب اللائمة في تاريخ الدولة
 البيزنطية ، وهو لا يلبث أن يرى ما بحكومتها كذلك من عيوب . كافتقار إلى
 النظم المعتدلة التي تشجع في الناس روح الابتكار والاعتماد على النفس . وعجزها
 عن ضبط إغراء الفلاحين بحياة المدن والأبغاديات . ورزوحها تحت ضغط
 قاصف من ناحية الرهبان والديارين والدهماء . ومع هذا كله بدت القسطنطينية
 في القرنين التاسع والعاشر الميلادى ربة الثقافة الأوروبية ولا منازع . وبدت
 مجتمعها مبرزاً في الفنون والعلوم والحضارة بالقياس إلى سواء بأية مدينة من مدن
 الغرب . حتى القرن الحادى عشر الميلادى . حين أخذ الغرب يلاحق البيزنطيين
 في الميدان . ثم إن الدولة البيزنطية قامت مقام الرقيب على مجموعة هائلة من
 الشعوب التي اشتهر بعضها بالخسة والفساد والقدر . فأدت بذلك خدمة
 جليلة . ولذا كان من الكارثة أن يعقب وفاة الإمبراطور باسل الثانى سنة ١٠٢٥م
 مدة طولها سبع وخمسون سنة . كلها ضعف في الحكم . وفتنة بين الناس .
 وانكماش في الجيش بسبب الإهمال . وترتب على ذلك نتائج خطيرة .
 إذ فقدت الدولة كل ممتلكاتها بجنوب إيطاليا للنورمانيين . وانهزمت على يد
 أعداء جدد . هم الأتراك السلاجقة .

ففي أواخر القرن العاشر الميلادى خرجت من سهوب تركستان فئة من
 غزاة الترك ، يحملون أقواساً قصيرة وسيوفاً مقوسة . يطلبون الرزق من وراء
 الحروب والمغانم ، وعلى رأسهم أبناء زعيم من زعمائهم اسمه سلجوق . واعتنق
 أولئك الأتراك دين الإسلام . وتحمسوا له حماسة الحديث العهد بالدين .

ولازمهم التوفيق في كل أعمالهم ، ففتوروا من فئة إلى قبيلة ، ومن قبيلة إلى أمة ، وخطوا نحو القوة خطوات بالغة في السرعة ، ففتحوا خراسان وإيران ، وقام زعيمهم طغرل بك سلطاناً في بغداد سنة ١٠٥٥ م ، وأغدقت عليه الخلافة العباسية العاجزة جميع ألقاب التعظيم الدالة على الصدارة السياسية في العالم الإسلامي . وظل تيار الفتوح السلجوقية يجري مجراه الدافق بفضل ألب أرسلان بعد طغرل بك ، فامتد إلى الشام وفلسطين التي انتزعت من يد الخلافة الفاطمية في مصر . ثم ما لبث الغزاة أن ولوا وجوههم شطر الدولة البيزنطية الباقية بآسيا الصغرى . فانتصروا عليها انتصاراً ليس كمثل انتصار ، حيث حصد ألب أرسلان زهرة البيزنطيين في وقعة مانزكرت ، شمالي بحيرة وان بأرمينية سنة ١٠٧١ م ، وأسر الإمبراطور رومانوس ، ديوجينيس ، وباتت آسيا الصغرى هامة خامدة لا حراك بها تحت أقدام عدو لا يرحم .

وكثيراً ما غلب البيزنطيون على أيدي أعدائهم من المسلمين وغير المسلمين ، ولكنهم لم يغلبوا يوماً من الأيام كغلبهم في مانزكرت ، إذ اعتمدت الإمبراطورية كل الاعتماد على أقاليمها الآسيوية التي ولت عنها إلى المسلمين بعد هذه الوقعة الحربية الواحدة ، فمن تلك الأقاليم جند الأباطرة خيرة الجند ، ومنها جاء إليهم أمهر القادة العسكريين ، ومن سواحلها أتت معظم قوات الأسطول . ثم إن الأقاليم الأخرى لم تكن على شيء من روح النشاط والمغامرة التي طفحت بها أقاليم الأطراف الآسيوية ، ولم يوجد بين باروناتها من تقاليد الجند والخدمة الحربية مثلما افتخر به بارونات آسيا الصغرى ، الذين جعلوا من جيوشهم المسلحة بأحسن سلاح ، ومن مواردهم المادية الواسعة أداة ماضية للدفاع عن الإمبراطورية ، ما داموا غير منصرفين إلى فتنة أو عصيان . وكل ذلك راح مع الريح ، ولم يبق للدولة البيزنطية منه بقية ، ثم حجز السلاجقة بين البيزنطيين وأبني أقاليمهم الآسيوية حين اتخذوا من نيقية أولاً - ومن قونية ثانياً - عاصمة لدولتهم .

ولم تنهض الدولة البيزنطية لمقابلة ذلك التحدي الهائل بشيء ما مدة

عشر سنين ، لأن شأناً سياسياً أعقب ما تزكرت ، فضعف ما بالدولة من شلل سابق بسبب الفتنة الداخلية والتهاون الأحمق في قوات الجيش . ثم قذفت ثورة من الثورات الحميدة إلى العرش البيزنطى سنة ١٠٨١ م رجلاً على جانب من المقدرة ، وهو ألكسيوس كومنين الذى اتصف بصفات جعلته قميناً بإنقاذ الدولة من وهبتها العميقة . ذلك أن ألكسيوس جاء من أسرة من أكبر الأسرات العسكرية بآسيا الصغرى . وامتاز بسعة الحيلة والثقافة والشجاعة ، وامتزج فيه حب الجدل الدينى بحماسة المصلح فى شئون التربية والتعليم . ووجد ألكسيوس أن الفوضى ضاربة فى كل دائرة من دوائر الحكم ، وأن اليونانيين يهددون الإمبراطورية من ناحية الغرب تهديد العناصر السلافية لها من ناحية الشمال ، فعكف على معالجة تلك المشاكل التى واجهت عهده بما أوتى من فتوة وبصيرة ورصانة ، وسلط عليها من ذكائه قدرًا كفيلاً بحلها أوفق الحلول ، حتى إذا تغلب عليها بتنظيم الجيش والبحرية . وإخراج روبرت جويسكارد ملك النورمانيين من دالماشيا ، ومطاردة العناصر السلافية عبر الدانوب ، أخذ على نفسه مدافعة الخطر السلجوقى الداهم . وعقد الإمبراطور النية على طلب النجدة من الغرب اللاتينى ، لإنقاذ الإمبراطورية وأهلها - والمسيحية وكنائسها - قبل فوات الأوان ، فإن بيت المقدس وأنطاكية والرها صارت فعلاً للمسلمين ، ولا غرو أن تصير هم القسطنطينية فى العاجل القريب . بهذا كله أرسل ألكسيوس إلى البابا إربان الثانى كتاباً هو فى الواقع مفتاح العمل الذى أدى إلى الحملة الصليبية المعروفة بالأولى فى التاريخ العام .

ولعشرين سنة خلت فكر البابا جريجورى السابع ، فى مثل ذلك العمل وأضفى عليه من معهود همته وشدته ، استجابة لدعوة إمبراطور بيزنطى سابق ، ومنه يتضح أن فكرة الحروب الصليبية نبعت ، لا من القسطنطينية بل من روما . والواقع أن ألكسيوس كومنين أراد الحصول على جيوش من غرب أوروبا لاستعادة ممتلكات الدولة البيزنطية فى آسيا فحسب ، على حين أهتم إربان الثانى اهتمامه المعروف من أجل استعادة بيت المقدس والأراضي

المقدسة ، وجعل من ذلك محور بيانه في الخطبة التي ألقاها بمجمع كليرمونت
الديني بفرنسا الحالية سنة ١٠٩٥ م ، وفي سائر الخطب التي استنهض بها
الفرنسيين أبناء جنسه . ولم يكن بين هذين الهدفين من تناقض أو خطر
سوى أنه لما كان من المستطاع تحقيق كل منهما على حدة صار من
المحتمل منذ البداية أن يتغلب حب إنقاذ الأراضي المقدسة على فكرة الدفاع
عن إمبراطورية البيزنطيين ، لما في إنقاذ الأراضي المقدسة من روعة في
أخيلة الفروسية الأوروبية .

وزاد في ذلك الخطر أن الكنيسة البيزنطية انفصلت عن الكنيسة الرومانية
الكاثوليكية انفصالا رسمياً ، وانقطعت علاقتها بها تمام الانقطاع ، لثماني
عشرة سنة قبل وقعة مانزكوت ، بسبب ما قام بينهما من خلاف مذهبي .
غير أنه من الخصائص العامة في الخلافات التاريخية العظمى أن أقوى أسباب
الفرقة لا تكون أوضح الأسباب أو أكثرها ذيوياً بين الناس ! وتفصيل ذلك
هنا أن الخلاف بين الكنيستين الشرقية والغربية بدا في مظهره خلافاً مذهبياً ،
فبينما اتفقت الكنيستان في العقائد والأصول التي قررتها المجامع المسكونية
(Ecumenical Councils) احتج البيزنطيون على اللاتينيين أنهم أضافوا
إلى نص العقيدة المسيحية ألفاظاً تجعل روح القدس صادراً من الإله
الابن صدوره من الإله الآب ، وأنهم استعملوا الخبز الفطير في القداس ،
وأنهم عكفوا على صيام السبت ، وأباحوا لقساوسهم خلق اللحى . على
أن مواضع الخلاف لم تقتصر على تلك المسائل التي ملأت ما لا يحصى
من المقالات والمؤلفات ، بل تعدتها إلى مسائل أخرى جذورها الأطماع
السياسية والدينية القديمة ، فضلاً عن المزاج القوي والخصائص الخلقية التي
ساعدت على تسميم الخلاف وإحباط جميع المساعي لإصلاح ذات البين .
ذلك أن احتقار اللاتينيين للبيزنطيين ، وهو مما يرجع عهده إلى القرن
الثاني الميلادي أيام جوفنال وأهاجيه اللاذعة في أخلاق اليونان الأقدمين ،
بقي إلى ما بعد القضاء على الدولة الرومانية في الغرب ، وظل ماثلاً في
أزدراء الكريم للمترمت واستخفاف العريق بمحدث النعمة . أما البيزنطيون

فإنها اعتدوا أنفسهم لا ورثة اليونان القديمة فحسب ، بل الدولة الرومانية كذلك ، واعتبروا الفرنجة والنورمان والألمان فروعاً من شجرة البرابرة ، كما اعتبروا إمبراطورية شارلمان اغتصاباً أضفى عليه البابوات من سلطانهم ما لا يليق . ومع هذا رضى البطارقة البيزنطيون أن يتمتع الكرسي البابوي بشيء من الصدارة عليهم ، وأن يفقد القصاد البابويون إلى القسطنطينية على الرحب والسعة ، وأن يكون البابا حكماً فيصلاً عند الحاجة ، ولكنهم لم يرضوا أن يذعنوا لخطة واحدة لما ادعته روما لنفسها من السلطان والتصرف في شئون الكنيسة البيزنطية بالنقض والإبرام . وليس في ذلك الموقف ما يصعب على الفهم ، فإن القرنين التاسع والعاشر الميلادى شهدا تدهور البابوية وضعفها ، على حين بدت الكنيسة البيزنطية في عزّ أيامها وقوتها ، إذ نقلت الكتب المقدسة إلى اللغة السلافية اثنان من المبشرين البيزنطيين وهما كيرلس ومثوديوس ، وبفضلهما صارت الكتب المقدسة في متناول السلافيين ، وتأسست الكنيسة البيزنطية في روسيا ، وتغلّبت العقيدة الأرثوذكسية على العقيدة الكاثوليكية في بلغاريا — كل ذلك في غضون هذين القرنين . والواقع أن الكنيسة البيزنطية كسبت من وراء الفتوح التي أتمها الأباطرة المقدونيون مكاسب دينية واسعة ، حين اقتنى القساوسة والرهبان أثر الجيوش الإمبراطورية إلى أبولية وقلقية ، وجبال أرمينية وحوض الدانوب . وبرغم ما أعقب الأسرة المقدونية من سنوات كلها فوضى سياسية ونكبة ، ظل الروح الإمبراطورى شاعراً في نفوس البطارقة الأرثوذكسيين ، حتى إذا قام البابا ليو التاسع يفتخر بنهضة البابوية في القرن الحادى عشر الميلادى ، انبرى له البطريق ميخائيل كريلولاريوس سنة ١٠٥٤ م يفتخر باستقلال كنيسته عن روما وفسادها البغيض .

والحاصل أن الإمبراطورية البيزنطية بدت في عين الغرب اللاتينى ذات صفتين متباينتين ، فهى دولة مسيحية قبالة أعداء غير مسيحيين ، وحقاً على اللاتينيين مساعدتها ، وهى كذلك دولة ملوثة بالهرطقة ، متحدية روما أشد التحدى ، معادية لكل محاولة تبشيرية كاثوليكية في الجنوب

الغربي من أوروبا . ثم إنه على الرغم من اعتراف رجال الدين من الكاثوليكين والأرثوذكسيين بأن انفصال الكنيستين جاء وبالا على الطرفين ، وعلى الرغم من قول هؤلاء وهؤلاء بوجوب اتخاذ الخطوات الكفيلة بانتهاء القطيعة ، فإن أحداً لم يظهر شيئاً من الميل للتزول عن قليل من رأيه المتبسر أو كرامته الجوفاء . على أن اللاتينيين رأوا أن ثمة سبيلين لإقرار السلام ، أولهما الاتفاق وهو سبيل وعمر ولكنه غير مستحيل مع شيء من الضغط السياسي ، وثانيهما سبيل الحرب والاستيلاء وهو ما ذهب إليه النورمانيون منذ البداية ، إذ قالوا إن أقرب السبل وأسهلها في معالجة البيزنطيين هو خلع الإمبراطور ، وفتح القسطنطينية ، وإخضاع الإمبراطورية البيزنطية بالقوة لحكم اللاتينيين . ذلك ما قال به روبرت جويسكارد ، وابنه بوهمند ، وقريباه رجار الثاني ووليم الثاني ملوك صقلية ، وهو بعبارة أخرى قول تلك الزمرة من المغامرين الشماليين الذين أخرجوا البيزنطيين من جنوب إيطاليا ، وعاشوا في خشية أن تنتقم الدولة البيزنطية منهم انتقاماً حريصاً ، فرأوا أن يعاجلوا قبل أن تغفل منهم الفرصة . وصادف ذلك القول هوى في نفوس الكثيرين ، ولا سيما تجار البندقية الذين وجدوا في الدولة البيزنطية مجالا واسعاً للتجارة والهيبة ، فضلا عن غلاة السياسيين ورجال الدين أمثال سوجر والقديس برنارد ؛ بل حدث أكثر من مرة (سنة ١١٠٨ م ، سنة ١٢٨١ م من باب التمثيل) أن البابوية نفسها أبدت استعدادها للمشاركة في هدم الإمبراطورية المسيحية بالشرق .

ولا سبيل إلى المبالغة في هول النتائج التي ترتبت على تلك العداوة التي نفّرت بين شطرى العالم المسيحي ، فإن خيبة الصليبيين في استرجاع الشرق الأدنى من المسلمين لا يعود إلا إليها ، وكفى . وإلى تلك العداوة وما امتزجت به من الشعبية والخلاف المذهبي ، فضلا عما ارتكضها من الطموح السياسي والمنفعة المادية ، يرجع تحول الحملة الصليبية المعروفة بالرابعة عن غرضها الصليبي إلى هدم الإمبراطورية البيزنطية ، مما أدى إلى فتح القسطنطينية ونهبها سنة ١٢٠٤ م ، وتمزيق أكبر الدول الأوربية وأغناها حضارة في

العصور الوسطى . ثم استعاد البيزنطيون عاصمتهم سنة ١٢٦١ م ، بعد خمسين سنة تقريباً من الحكم اللاتيني ؛ وإذا لم يكن بينهم وبين اللاتينيين قبل تلك الحملة سوى حب مفقود ، فليس من العسير علينا أن نتصور ما تأجج في نفوسهم بعدها من بغض شديد لأولئك الذين أذاقوهم مرير الذلة ، وأضاعوا عليهم ديارهم عشرات السنين . لذا راحت هباء جميع المحاولات التي بذلت لتوحيد القوى المسيحية ضد الخطر العثماني الزاحف ، ورفض رهبان القسطنطينية وقساوستها أن يقبلوا ما جادت به قرائح رجال الدين من الاقتراحات في المجمع الكنسي بمدينة ليون سنة ١٢٧٤ م ، أو في المجمع الكنسي بمدينة فرازا سنة ١٤٣٨ م . ولم يكن من سبيل إلى التغلب على تلك المعارضة العنيفة إلا أن يجيء اللاتينيون بانتصارات حربية كبيرة على العثمانيين ، لكن تلك الانتصارات لم تيسر وقتذاك ، فبقيت الهوة التي حفرتها منافسات البابوية والبطريرقية سنة ١٠٥٤ م فاغرة فاهها ، ومهد انقسام العالم المسيحي على نفسه للعثمانيين أن يثبتوا أقدامهم في أرض أوروبا ، فلم يلبثوا أن زحفوا بجيوشهم نحو الدانوب ، وفتحوا بلاد اليونان وجزائرها ، وحققوا منتهى آمالهم السياسية حين استولوا سنة ١٤٥٣ م على مدينة القسطنطينية نفسها ، حيث بقي العثمانيون بفضل تلك المنافسات إلى العصر الحاضر .

على أن تلك السحب القائمة لم تظهر في الأفق حين بدأت الحروب الصليبية بدأها الصاحب المحمود ، لأن عاطفة الأخوة المسيحية تغلبت على المنافسات والكراهات التي صدع أشباهها وحدة الكنيسة بعض أحيان التاريخ ، ولأن المسيحيين تركوا ذكريات انقساماتهم جانباً وضربوا مواضع الريبة بينهم عرض الحائط في سبيل المشاركة في حرب عامة من أجل قضية مقدسة . والأدلة كثيرة على تلك الحال العاطفية التي غمرت فروسية غرب أوروبا ، وهي تعد العدة للذهاب إلى الشرق ، استجابة لنداء البابا إربان الثاني ، إذ آن الأوان لأوروبا التي طالما تعرضت لإغارات المغيرين عليها من كل جانب أن تشن هي عليهم الحرب في عقر دارهم ، ولا سيما بعد أن ذهب المسلمون عن صقلية وإقريطش ، وسيطرت أساطيل البندقية وجنوة وبيزا

على البحر الأبيض المتوسط ، وغدا الطريق البرى من غرب أوروبا إلى القسطنطينية مفتوحاً للأسفار منذ تحول المجريون إلى المسيحية واندمج البلغاريون فى الدولة البيزنطية . يضاف إلى ذلك أن المسيحيين استولوا على طليطلة إسبانيا من الأمويين ، وأن النورمانيين هاجموا إفريقيا الإسلامية من صقلية ، وأن السيل الألماني الدافق نحو شرق أوروبا ظل يدفع السلافيين وآلتهم إلى الراء دفعا لا رجعة فيه ، على حين تفهقرت إسكندناوة إلى غداثر التاريخ ، فلم تعد مصدراً لخطر ما ، بعد أن خلت من سكانها الأشداء الذين طالما دوخوا أوروبا وهزوا أركانها هز العاصفة للهشيم ، بل بقيت لا حراك بها ولا هى تريم ، حتى نهض ملكها جستاف أدولفس لنصرة البروتستانتية الألمانية ، بروعة سيفه وقوة شخصيته فى النصف الأول من القرن السابع عشر الميلادى .

وما يجدر ذكره كذلك أن الكنيسة فى فرنسا أضفت على طبقة الفرسان شتبا من طموحها الروحى ، ولذا امتازت نظم القروسية الفرنسية أواخر القرن الحادى عشر الميلادى — أى غداة الحروب الصليبية — بتقديرها لواجبات القوى نحو الضعيف ، واصطبغ الإعداد لرتبة فارس بكل مظاهر القداسة التى ابتكرتها التقوى المهيمنة على ذلك العصر ، فيغتسل المتأهل للقروسية بماء تباركه الكنيسة ، ثم يحجى ليلته بالصلاة ، حتى إذا أقبل الصبح قصد إلى الكنيسة ، حيث يعترف بذنوبه وخطاياها ، ويتناول العشاء الربانى ، ويتلو عليه القس واجبات طبقته ، وهى الدفاع عن الدين ، وإيواء الأرملة واليتيم والبائس والمحرور والمظلوم ، أى أن الفارس يضحي صليبيًا بمعنى الكلمة وذلك قبل أن تبدأ الحروب الصليبية بدأها المعروف .

وأهمية ذلك هنا أن فرنسا قامت فى الحروب الصليبية مقام الروح من الجسد بالقياس إلى غيرها من الدول ، وأن فرسانها غدوا نموذجاً لغيرهم من الفرسان الأوروبيين . على أن أول الجموع الصليبية التى تمخضت عنها أوروبا المتحدة لم تكن على شىء من النظام ، بل امتاز الصليبيون الذين خرجوا من ديارهم جامعين إلى الشرق فى فورة من الحماسة — بالخلو من جميع

ما احتاجوا أشد الحاجة إلى معرفته ، فلم يفقهوا شيئاً من جغرافية البلاد التي اختاروا السفر عن طريقها ، ولا شيئاً من جوها أو أهلها . ثم لأنهم أعوزتهم المؤونة الكافية ، وعطلت سبيلهم أفواج تلو أفواج من غير المحاربين ، البهايلين بأمور الصحة ، الساخرين من الترتيب والنظام . يضاف إلى ذلك أن أولئك الصليبيين المتحمسين الذين جاء معظمهم من أقاليم الشمال الغربي من فرنسا - واللورين وألمانيا - اتخذوا الطريق البري إلى القسطنطينية على وعورته ، دون أن يتخذوا الزعيم الحشودهم على كثرتهم وحاجتها إلى الزعامة ، فعاثوا بالبلاد التي مروا عليها أشد العبث ، وجزأهم أهلها أقصى الجزاء ، فهلكت منهم أعداد عظيمة عبر بافاريا والمجر ، ولم تكذب بقيتهم تنزل بالشاطئ الآسيوي قبالة القسطنطينية حتى أبادهم السلاجقة عن آخرهم ، ومن بينهم بطرس الناسك الشهير . وتوافرت تلك النقائص على صورة أصغر في الجيوش الإقطاعية الضخمة التي يمتد نحو القسطنطينية من غرب أوروبا في أغسطس سنة ١٠٩٦ م على أربعة طرق مختلفة ، إذا افتقرت إلى القيادة الموحدة ، وأطبق عليها جهلها بالجغرافية ، وأثقلت حركاتها إرسالاً من الصعاليك والحرافيش الذين أساءوا إلى الحروب الصليبية واسمها بما اقترفت أيديهم من السلب والنهب في أشتات البلاد . غير أن تلك الجيوش - وهي التي اصطلح المؤرخون على تسمية مجموعتها باسم الحملة الصليبية الأولى - احتوت على فئات من الجند الخبيرة بالحرب الراجلة والراكبة تحت قيادة رؤساء على جانب من المهارة والسطوة ، مثل جودفري بويون وأخيه بولدون وعساكرهم من اللورين ، وبوهمند وتانكرد ابن أخيه زعماء النورمانيين من أبولية ونورمانديا ، ورايموند صاحب تولوز الذي كانت عساكره أبهى تلك الجيوش وأحسنها سلاحاً وعدة . ول هذه الفئات يرجع الفضل في إحراز ما أحرزته الحملة الصليبية المعروفة بالأولى من نتائج عظيمة ، وهي أنها حققت غايتها ، إذ استطاعت الجيوش الأربعة أن تصل إلى القسطنطينية بعد أن تحملت خسائر غير قليلة ، وأن تعبر البوسفور إلى آسيا الصغرى ، وأن تستولى بمساعدة البيزنطيين على نيقية عاصمة السلاجقة ، وأن تعيد إلى الدولة

البيزنطية لا شواطئ آسيا الصغرى فحسب ، بل كثيراً من أقاليمها الداخلية ، وأن تخترق الطريق إلى قونية وأنطاكية دون أن يقتلها الظمأ والتعب ، أو يعييبها الزرد الثقيل ، أو يغلبها هجوم الأعداء عليها كلما استطاعوا إلى الهجوم سيلا . ثم استطاعت تلك الجيوش أن تحاصر أنطاكية الشهيرة بخصونها المنيعة ، وأن تستولى عليها عنوة ، وأن تحبط محاولة إسلامية عنيفة لاستردادها ، وأن تتوج تلك الأعمال بالاستيلاء أخيراً على بيت المقدس نفسها . ومن الواضح أن حملة صليبية أخرى لم تستطع أن تحقق ما حققته تلك الحملة ، وكفى أن جيوش جودفرى وبوهمند هي التي أسست الإمارات اللاتينية بالشرق ؛ ولئن زالت هذه الإمارات من مسرح التاريخ منذ سبعة قرون ، فلا تزال ذكرها باقية للقارئ في مؤلفات تاسو وسكوت ، وللسائح في آثار القلاع الهائلة التي تشخص صامته شاحخة بين تلال فلسطين .

وللضربات المتتابة التي كالتها الفروسية الأوربية للأتراك السلاجقة خاصة ، وللمسلمين عامة ، تدين الدولة البيزنطية بطول سلامتها مدة ثلاثة قرون آخر . غير أنه بندر في حرب من الحروب — حتى لو انتهت تلك الحرب بالظفر والتوفيق — أن يشعر الحلفاء بعد الحرب بشيء من الاعتراف بالمساعدات التي بذلت أو الرضى بالنتائج التي تحققت . فما لا شك فيه أن اللاتينيين مدينون بكثير من الفضل للإمبراطور ألكسيوس . فلولا الحرسية البيزنطية ، والأمداد البيزنطية ، والأدلاء البيزنطيون ، ما استطاع اللاتينيون أن يتغلبوا على رحلتهم الطويلة من البلقان إلى الشام . غير أنه يساوى ذلك — إن لم يزد عنه — ما يدين به ألكسيوس للجيوش الغربية التي طردت السلاجقة من عاصمته لهم (نيقية) هي أدنى إلى القسطنطينية من قاب قوسين ، وأعادت إلى الدولة البيزنطية عدداً من أقاليمها الغنية ، وحلت عقدة الخوف التي ساورت الناس من استيلاء السلاجقة على تراقيا الأوربية . ومع هذا كله لم يرض أحد الفريقين عن أخيه ، فشكا اللاتينيون أن الإمبراطور البيزنطي استغل مركزه — على رأس دولة غنية عتيدة — في حمل زعمائهم على حلف يمين التبعية له قبل مغادرتهم القسطنطينية . واهتموه بالنكت في تأدية ما وعدهم

به من أمداد ومعونة حربية كفاء أيمانهم . وأكدوا تأكيداً لم يخل من الصحة أنه لولا وصول المؤونة إليهم من أوروبا عن طريق البحر لما انت جيوشهم المظفرة جوعاً وهى على حصار أنطاكية . ثم إنهم نسبوا جميع ما تم من نصر إلى شجاعة جيوشهم ، وردوا كل هزيمة أو خطأ حربى إلى غدر الجيوش البيزنطية ، وأشاعوا بين الناس بغرب أوروبا أن البيزنطيين ملأوا طريق الصليبيين إلى الشرق بالمصاعب والمخاطر إشباعاً لما التاعت به قلوبهم من خوف ومقت للغريين ، وازدادت الإشاعة رواجاً وقوة كلما نزلت كربة بأحد الجيوش الصليبية . أما الإمبراطور ألكسيوس ، فلم تعوزه الدلالات المثيرة فى نفسه ألوان الريية والغبط ، إذ حارب أول حروبه ضد النورمانيين الذين احتلوا ثغر دوازو ، وأعلنوا عزمهم على تقويض عرشه خمس عشرة سنة قبل وصول الصليبيين إلى الشرق ، ولم يكن من المعقول أن تغير أهداف الحروب الصليبية شيئاً فى قلوب النورماندين وزعيمهم بوهمند حال قدومهم مع القادمين إلى القسطنطينية سنة ١٠٩٧ م ، بل وضع من سلوكه وسلوك أغلبية رفقاءه أن غايتهم تكوين الدول لأنفسهم ، لا استعادة المدن للإمبراطورية . ولذا كان طبيعياً أن يعمل ألكسيوس جهده فى الحصول على التأكيدات التى تستطيعها الأيمان والمعاهدات بإعادة ما سوف يفتح الصليبيون من سالف البلاد البيزنطية إلى البيزنطيين . لكن الصليبيين أقسموا تلك الأيمان مكرهين ، ووقعوا المعاهدات التى طلب إليهم توقيعها كذلك مكرهين ، ثم ما لبثوا أن أنكروا أيمانهم ومعاهداتهم تمام الإنكار حين استولى بوهمند على أنطاكية لنفسه ، وتعين جودفرى حاكماً على بيت المقدس نزولاً على رغبة أتباعه أهل اللورين : ولم يحلم أحد من الصليبيين المتحمسين للدين أن يمد البيزنطيون يد المساعدة لدول قامت على هذه الصورة .

ومن المعلوم أن جرأة المحاولة لتأسيس دول صليبية — على نمط أوربى تحت سماء شرقية لافحة — لم تلق ما لقيت من التوفيق إلا بسبب ما تردت فيه القوى الإسلامية وقتذاك من شقاق . ثم إنه لم يكن باستطاعة تلك الدول الصليبية أن تعمر طويلاً لولا شىء واحد ، وهو أن الجمهوريات الإيطالية

الكبرى اهتمت كل الاهتمام بنشر تجارتها في الشرق ، فاشتركت أساطيل من البندقية وجنوة وبيزا في حصار الموانئ السورية . وبفضل هذه الأساطيل تم الاستيلاء على تلك الموانئ . ومع هذا ظلت الدول الصليبية في حال غير آمنة ، لأن اهتمام الجمهوريات الإيطالية لم يتعد بلاد السواحل ، ولأن الحجاج المسيحيين الذين وفدوا من وراء البحار إلى الشرق لم يهتم من الأمر سوى طريق مأمون إلى الأماكن المقدسة . ثم إنه يبدو أن زعماء الصليبيين أنفسهم لم يدركوا أهمية الاستيلاء على الشام كلها حتى أطرافها الطبيعية من المسلمين ، وما كان باستطاعة ما لديهم من جند أن تنهض بذلك العمل الكبير دون أمداد متواصلة من أوروبا . لكن أمداداً كهذه لم تأت ، واضطر ملوك الدولة الصليبية بيت المقدس أن يتركوا أطرافهم الشرقية في أيدي أعدائهم ، وأن يبيتوا عرضة لهجوم دائم على طول تلك الأطراف المفتوحة التي خلفوها عارية من وسائل الدفاع .

وأسس ملوك بيت المقدس وأمراء أنطاكية والرها وطرابلس حكوماتهم الجديدة حسب قواعد الإقطاعية الحربية التي درجوا عليها في فرنسا ، ولكنهم أضافوا إليها شيئاً من الصرامة التي استلزمها ضرورات اليقظة الحربية في محيطهم الجديد ، وتدل قوانين بيت المقدس (Assizes of Jerusalem) التي رتبها القانوني القبرسي حنا إيلين - في القرن الثالث عشر الميلادي - على ما اتصف به المجتمع الصليبي من استعداد حربي يشبه استعداد إسبارطا القديمة ، وليس في العصور الوسطى كلها هيئة من هيئات الحكم أو أداة من أدواته تشرح أسس المجتمع الإقطاعي والواجبات المترتبة على التملك الحربي مثلما تشرح تلك القوانين . غير أن القوانين إنما تستمد من روح أهلها عند التطبيق ، ولم تلبث روح الصرامة التي امتاز بها الصليبيون أن وهنت تحت السماوات الدافئة ومغرياتها ، بعد أن استهوت النساء الشرقيات والأطعمة الشرقية أولئك المغامرين ، بعد أن خففت حياة الشرق من خشونتهم ونعصهم ، إذ وجدوا بالشام مجتمعاً غريباً عليهم كريهاً إلى حد ما ، بنسائه المكنونات في الحجاب ، ولكنه من نواح كثيرة مجتمع أكثر وجاهة وثقافة



نتائج الحملة الصليبية المعروفة بالأولى

الكبرى اهتمت كل الاهتمام بنشر تجارتها في الشرق ، فاشتركت أساطيل من البندقية وجنوة وبيزا في حصار الموانئ السورية . وبفضل هذه الأساطيل تم الاستيلاء على تلك الموانئ . ومع هذا ظلت الدول الصليبية في حال غير آمنة ، لأن اهتمام الجمهوريات الإيطالية لم يتعد بلاد السواحل ، ولأن الحجاج المسيحيين الذين وفدوا من وراء البحار إلى الشرق لم يهتمهم من الأمر سوى طريق مأمون إلى الأماكن المقدسة . ثم إنه يبدو أن زعماء الصليبيين أنفسهم لم يدركوا أهمية الاستيلاء على الشام كلها حتى أطرافها الطبيعية من المسلمين ، وما كان باستطاعة ما لديهم من جند أن تنهض بذلك العمل الكبير دون أمداد متواصلة من أوروبا . لكن أمداداً كهذه لم تأت ، واضطر ملوك الدولة الصليبية ببيت المقدس أن يتركوا أطرافهم الشرقية في أيدي أعدائهم ، وأن يبيتوا عرضة لهجوم دائم على طول تلك الأطراف المفتوحة التي خلفوها عارية من وسائل الدفاع .

وأسس ملوك بيت المقدس وأمراء أنطاكية والرها وطرابلس حكوماتهم الجديدة حسب قواعد الإقطاعية الحربية التي درجوا عليها في فرنسا ، ولكنهم أضافوا إليها شيئاً من الصرامة التي استلزمها ضرورات اليقظة الحربية في محيطهم الجديد ، وتدل قوانين بيت المقدس (Assizes of Jerusalem) التي رتبها القانوني القبرسي حنا إبلين - في القرن الثالث عشر الميلادي - على ما اتصف به المجتمع الصليبي من استعداد حربي يشبه استعداد إسبارطا القديمة ، وليس في العصور الوسطى كلها هيئة من هيئات الحكم أو أداة من أدواته تشرح أسس المجتمع الإقطاعي والواجبات المترتبة على التملك الحربي مثلما تشرح تلك القوانين . غير أن القوانين إنما تستمد من روح أهلها عند التطبيق ، ولم تلبث روح الصرامة التي امتاز بها الصليبيون أن وهنت تحت السماوات الدافئة ومغرياتها ، بعد أن استهوت النساء الشرقيات والأطعمة الشرقية أولئك المغامرين ، بعد أن خففت حياة الشرق من خشونتهم وتعصبهم ، إذ وجدوا بالشام مجتمعاً غريباً عليهم كريهاً إلى حد ما ، بنسائه المكنونات في الحجاب ، ولكنه من نواح كثيرة مجتمع أكثر وجاهة وثقافة

عما عهدوا في بلادهم ، فتولدت بين الكثيرين من زعماء العرب والصليبيين أنواع الصداقات ، وهدأت شجاعة المسلمين ودمائهم من نائرة التعصب الديني في قلوب المسيحيين ، حتى إن الإسبتارية (Hospitallers) والداوية (Templars) ، وهى الهيئات الديرية العسكرية التى أنشئت خاصة لحماية الأراضى المقدسة ، لم تستطع أن تنجو من آثار الشرق ، وتدل سيرة الأمير العربى أسامة ابن مئذ - الذى قلد الداوية منهاجه - على سعة الهوة بين ليونة الصليبي المتوطن وسخريته وحماسة أخيه الصليبي وصرامته غداة قدومه من الغرب .

على أن الدول الصليبية الأربع استطاعت برغم قلة مواردها من الرجال والمال أن تبقى على حالها بالشام ما دام الأمراء المسلمون المحيطون بها في استقلال بعضهم عن بعض . غير أنه لم يكن لتلك الحال أن تدوم والشرق الأدنى يتمخض عن ثلاثة من أقلر الرجال الذين غيروا موازينه وأوضاعه في مدة لا تتجاوز نصف قرن من الزمان ، إذ استولى زنكى أمير الموصل على حلب سنة ١١٢٨ م ، والرها سنة ١١٤٤ م ، وامتدت مملكة ابنه نور الدين إلى دمشق سنة ١١٥٤ م ، والقاهرة سنة ١١٦٨ م ، حتى إذا توفى نور الدين سنة ١١٧٣ م حل محله صلاح الدين الكردي الذى جعل الشرق الأدنى كله - من دجلة إلى النيل - مملكة واحدة ، بفضل ما اجتمع فيه من خصائص الزعامة المطبوعة .

وأدى سقوط الرها في أيدي المسلمين سنة ١١٤٤ م - وهو أول حلقة من سلسلة الحوادث التى أخذت تلحق بالصليبيين - إلى حركة هائلة من نائر الشعور في أوروبا ، إذ تراءى للناس في ذلك الحادث لا كارثة مروعة بذاتها فحسب ، بل كارثة نذيرة بما هو أشد ترويعاً ، لأن للرها ما يقرب ما لبيت المقدس نفسه من القداسة في أخيلة العالم المسيحى ، ولأنها تمت بأصولها إلى المسيحية الأولى ، وهى أول الدول الصليبية ، وترس الصليبيين من ناحية الشرق . وفي حرارة ذلك الشعور الذى ألهبت نيرانه بلاغة القديس برنارد ، اعتزم كرناد الثالث إمبراطور ألمانيا ولويس السابع ملك فرنسا الذهاب في حملة صليبية ، وسارت جيوش كل منهما

عبر الطريق البرى إلى الشرق ، فتعثرت بما احتوت عليه من غير المحاربين ، ولو اقتصر الأمر على ثلة طيبة من الفرسان تحملهم سفن البنادقة عن طريق البحر لكان أجدى على الصليبيين من تلك الجيوش الحارقة بقيادة ملكين هما أكبر ملوك الغرب فى القرن الثانى عشر الميلادى . والدليل على صحة ذلك أن الجيوش الألمانية إلا قليلا منها بادت بآسيا الصغرى قبل أن تصل إلى الشام ، وأن الفرنسيين الذين لزموا الطريق الساحلى الطويل اجتناباً للسلاجقة لم يلبثوا أن هزموا على يد هؤلاء بإقليم فيرجيا ، فلم يصل منهم إلى الشام سوى الفرسان الراكبة من أضايا عن طريق البحر . وهكذا خابت الحملة الصليبية المعروفة بالثانية خيبة تامة منذ البداية ، إذ ضيعت معظم جيشين من أحسن الجيوش الأوروبية قبل وصولها إلى الشام ، ثم تحولت عن غرضها - وهو استعادة الرها - إلى حصار دمشق حصاراً ضعيفاً رفعه بلدوين الثانى ملك بيت المقدس بعد بضعة أيام ، مما أحنق كثراد الثالث ولويس السابع ، وأذى قضية الصليبيين أذى لا يدرك مداه .

ومن الطبيعى أن يتطلع ملك بيت المقدس إلى طلب المساعدة من القسطنطينية بعد أن أخفق الغرب إخفاقه الذريع فى إصلاح الموقف . غير أن الإمبراطور الجديد مانويل كومنين (١١٤٣ - ١١٨٠ م) لم يهتم أن تصبح مملكة بيت المقدس فى دعة من الخطر ، وما دام فى استطاعته أن يسترد أنطاكية التى دار عليها محور أطماعه فى الطرف الجنوبى الشرقى من الإمبراطورية البيزنطية فلا عليه إذا ظل ملك بيت المقدس مهدد الجانب من ناحية المسلمين ، بعد أن زوجه هو من إحدى قريباته تغطية لموقفه . ولذا لم يغمر الأوساط اللاتينية المتوطنة بالشرق مثلما غمرها من الخيبة حين زحف ذلك الإمبراطور الطرير بجيش ضخم نحو بلاد الشام ، صيف سنة ١١٥٩ م ، ثم ارتد عنها مثلما ذهب إليها دون أن يشتبك مع المسلمين فى وقعة واحدة ، وربما كان سر إثاره محالفة نور الدين على محاربته وقتذاك أن أنطاكية التى أراد استردادها صارت إليه قبلاً عن طريق التسليم .

وعلى الرغم من ذلك كله ظلت صداقة البيزنطيين للصليبيين أمراً ليس

من الحكمة أن يفضى عنه ، حتى إذا اعتلى أمورى الأول عرش بيت المقدس سنة ١١٦٣ م ، وتحولت سياسة المملكة عن التفكير فى فتح حلب ودمشق إلى فتح مصر ، استطاع هذا الملك أن يحصل على تأييد الأسطول الإمبراطورى فى إحدى الحملات الأربع التى أنفذها لغزو البلاد المصرية . وحوصرت دمياط فعلا سنة ١١٦٩ م . ولهذا الحصار الفاشل أهميتان ، وهما أنه آخر عمل تعاونى بين اللاتينيين والبيزنطيين فى الحروب الصليبية ، وأنه أول نصر حربى لصالح الدين بعد أن صارت له الوزارة بالقاهرة .

ثم صار صلاح الدين سلطاناً على مصر والشام وأعلى العراق حتى الموصل ، فناصر الصليبيين حرباً لم تهدأ ناراها إلا بعد ظفروه بهم فى وقعة حطين . والذي يدعو إلى الانتباه هنا أن قطرة واحدة من الدم البيزنطى لم تهرق فى تلك الوقعة التى ختمت على مصير مملكة بيت المقدس ، والسبب فى ذلك أنه منذ أواخر عهد مانويل كومنين والدولة البيزنطية مرة أخرى فى محنة بعد عز طالما نعمت به تحت حكم الكومنينيين على العموم ، إذا غلبت جيوشها فى آسيا الصغرى غلباً جمّاً الحسائر سنة ١١٧٤ م على يد قلعج أرسلان سلطان قونية ، وساءت علاقتها بالبندقية سنة ١١٧٥ م سوءاً ينذر بالشر ، حتى إذا توفى مانويل وصارت أرملته الإمبراطورة مارى الأنطاكية وصية على ابنها القاصر ، لم تلبث القسطنطينية أن كرهت مارى وبطانتها من الفرنسيين والإيطاليين ، وأنزلت بهؤلاء وأولئك مذبة شنيعة سنة ١١٨٢ م ؛ وذلك على حين استولى النورمانيون على سالونيك سنة ١١٨٥ م ، وهددوا القسطنطينية نفسها بالغزو القريب ، اعتقاداً منهم بنظريتهم القديمة أنه لن يستطيع مقاومة المسلمين إلا دولة لاتينية تحل محل البيزنطيين فى عاصمتهم على البوسفور . تلك حال الدولة البيزنطية وسحب الجهاد الذى أعلنه صلاح الدين ترعد وتبرق فى سماء الشام ، فلا عجب إذا لم يوجد من البيزنطيين جنود فى حطين ، بل العجب أن الدولة الصليبية لم تستطع أن تجمع من جنودها سوى ألف وثلاثمائة فارس وخمسة عشر ألفاً من العسكر الراجلة لمنازلة الجيش اللجب الذى أعده المسلمون لذلك اليوم . وما عسى أن تجدى

الشجاعة الرائعة ضد العدد الكثير ؟ فأيد الصليبيون عن آخرهم إلا قليلا ، واستولى المسلمون على صليب الصليوت ، وصارت كنيسة القيامة في أيديهم سنة ١١٨٧ م .

وإذا وصلت تلك الأخبار المروعة إلى أوروبا ، هب ثلاثة هم أكبر ملوك الغرب وقتذاك - لا البابا وحده - لتنظيم حملة صليبية تكفل إعادة الأمور إلى نصابها ، أولئك هم فردريك برباروسا إمبراطور ألمانيا ، وفيليب أغسطس ملك فرنسا ، ورتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا . غير أن عتاد الملوك الثلاثة على ضخامته وامتيازه بالاتفاق الفنى بعد قرن من الاتصال بين الشرق والغرب ، لم يأت بشيء يذكر ، ما عدا استيلاء الصليبيين على عكا ، وموافقة صلاح الدين على هدنة تضمن للحجاج المسيحيين حرية الوصول إلى كنيسة القيامة ببيت المقدس . ومن هذه النتيجة الضئيلة تتضح شناعة الخاتمة التي حلت بما عقد على تلك الحملة من آمال ، كما تتضح فداحة الدليل على عجز أوروبا عن توحيد المسيحية الغربية وتوجيهها نحو هدف عام . وربما قيل هنا من قبيل الدفاع أن الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة صدمت أشد صدمة في أول أمرها ب وفاة فردريك برباروسا غريفاً في نهر سالف بقلبية ؛ فلو عاش ذلك القائد الألماني الذي استحق لقب الجندي الأول بغرب أوروبا في عصره ، ودلّ على مدى مقدرته حين عبر ببحوشه آسيا الصغرى في مهارة حرية فائقة وقلة في الخسائر واضحة - بالقياس إلى تجارب ما تقدمه من جيوش - لوجد صلاح الدين من يستطيع معارضته سيفاً بسيف وقوة بقوة ، ولاختلفت النتائج اختلافاً تاماً أكبر الظن . لكن ذلك لم يكن ، واقتصرت الحملة على كشف ما بين إنجلترا وفرنسا من حسد قوى ، وما بين جنوة وبيزا من دخن وسوء سريرة ، فضلاً عن مؤامرات كونراد مونفرات وجاى لوزجنان كل منهما ضد الآخر ، في سبيل التاج الذى لم يوجد إلا رمزاً بعد ذهاب مملكة بيت المقدس وأرضها إلى صلاح الدين . وفي ذلك المحيط القائم بما فيه من صغار الحقد والكيد ، سطعت قوة رتشارد قلب الأسد وطبيعته الكريمة سطوعاً لا فائدة منه .

ولم يبق للصليبيين حينذاك سوى عدد من الموانئ السورية أهمها عكا ، وهذه يرجع فضل المحافظة عليها إلى المطامع التجارية الإيطالية بالشرق ، حتى إذا بدأ ماركو بولو الإيطالي رحلته الشهيرة إلى الصين ، واقترب من سواحل الشام ، ألقى علم الصليبيين خافقاً على بعض القلاع ، وسمع جرس النواقيس المسيحية من بعض الكنائس . ولو قيض للصليبيين أن يتعرفوا بحاسن ما أنتجت آسيا في تلك العصور ، وأن يتشربوا ما تصل إليه أيديهم من تلك المحاسن ، لدخلت رباعيات عمر الخيام — وهو أكبر قادة الفكر في القرن الحادي عشر الميلادي إطلاقاً — في التراث الفكري الأوروبي بدلا من بقاءه خلواً منها إلى أيام فيتزجيرالد^(١) . لكن الصليبيين لم يوغلوا في البلاد حتى يتصلوا بأرقى الشعوب الآسيوية وأعلاها ثقافة ، فلم يحتكوا بالفرس أو أهل الصين والهند ، بل اقتصر علاقتهم على شعوب السهوب والصحارى من الترك والعرب ، وعلى أبناء شرق البحر الأبيض المتوسط الذين طالما خضعوا لحكومات الترك والكرد من الأيوبيين والمماليك . وعلى الرغم من ضيق هذه الحدود اتسعت خبرة الصليبيين وثروتهم المادية اتساعاً عظيماً ، فوقفوا على فنون الشرق وصناعاته وما فيها من رونق وفن ودقة وغناء ، وعرفوا بلاداً وشعوباً غريبة عليهم وعلى مجتمعاتهم الأوربي الذي بربرته سلسلة من الكوارث العظمى ، ولم تخرج من مضارب القوضى والخوف إلا حديثاً . ثم ما عتمت الثروة المتدفقة من الشرق أن ملأت مدن إيطاليا ، فانتشرت منها إلى الشمال الغربي من أوروبا حيث سرت في المدن روح جديدة من القوة والعزة . ولم يقف الأمر على الناحية المادية الاقتصادية فحسب ، بل تجاوزته إلى الدين وغيره من المعنويات ، إذ تولد بالدول المسيحية شعور بالاتحاد لم يزل باقياً حتى العصر الحاضر ، وتحركت عناصر الابتداع في لغة الأدب القومي ، واستخدم الناس شيئاً من الطب العربي والكيمياء والحساب التجاري . واتسعت معرفتهم بما في العالم من غير المسيحيين ، كما اتسعت معلوماتهم

(١) عرفت أوروبا رباعيات الخيام لأول مرة حين ترجمها الشاعر فيتزجيرالد إلى الإنجليزية ،

منتصف القرن التاسع عشر الميلادي . (زيادة) .



نتائج الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة

في الجغرافيا سواء بسبب الحروب الصليبية نفسها ، أم نتيجة الرحلات التبشيرية التي أعقبت الحروب الصليبية : وربما قيل كذلك إن شئون الحكم صارت أحسن حالا ، بذهاب كثير من العناصر الإقطاعية المشاغبة في تلك الحروب الصليبية ، لكن ما الذي عاد على المسيحية من تلك الحروب ؟ وهنا تحمل الصراحة على الاعتراف بأن أعظم ما نتج عن تلك الحركة الهائلة التي اختلطت المغامرة فيها بالتقوى ، حب الاستطلاع بالأطماع ، لم يكن ازدياد معرفة الإنسان بالله ، بل تأسيس إمبراطورية البندقية في البحر الأبيض المتوسط .

بعض المراجع لهذا الفصل

Cambridge Mediaeval History. Vol. IV.

Chalandon (F.) : Histoire de la Domination Normande en Italie et en Sicile. (1907).

Delarc (O.) : Les Normands en Italie. (1883).

Derenbourg (H.) : Ousama ibn Mounkidh : Un Emir Syrien au Premier Siècle des Croisades. (1886).

Finlay (G.) : History of Greece, B.C. 146 to A.D. 1004 ed. H.F. Tozer. (1887).

Gay (J.) : L'Italie Méridionale et l'Empire Byzantin. (867-1071 A.D.). (1904).

Haskins (C.H.) : The Normans in European History. (1915).

Heyd (W.) : Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age. (1885).

Oman (C.) : A History of the Art of War in the Middle Ages. (1924).

الفصل الحادى عشر

الإمبراطور فردريك برباروسا

صدمة الوحدة الألمانية بانتخاب لوثير الثالث ملكاً على ألمانيا -
أصل القطيعة بين الجولفيين والجليليين - توحيد الأسرتين في
شخص فردريك برباروسا - ضعف أثر ذلك في تقوية الوحدة
الألمانية - حروب فردريك ضد البابوية والمدن اللمباردية - حربه
ضد هنرى الأسد - تكوين اتحاد ألماني على قاعدة القانون الروماني -
غربة القانون الروماني على الإقطاعية الألمانية - توحيد ألمانيا
وصقلية سنة ١١٨٦ م - أطماع هنرى السادس - وفاته .

لم يكن من حسن الطالع للملكية الألمانية ومستقبلها أن يعتلى لوثير الثالث
- وهو لوثير سبيلنبرج - عرش ألمانيا بالانتخاب سنة ١١٢٥ م ، بعد وفاة
هنرى الخامس دون أن يخلف ولداً . فنذ أوائل القرن العاشر الميلادى تولى
العرش الألماني أربعة أجيال من السكسونيين ، وأربعة مثلهم من الفرنكونيين^(١) ،
وكل ينادى به ملكاً منتخباً في حياة أبيه ، والرؤساء الناجبون راضون ، والكنيسة
كذلك راضية ، مما مهد لمبدأ التوريث في الملكية الألمانية أحسن تمهيد .
وبينا أصبح من المنتظر أن يظل مبدأ التوريث ثابت الأوتاد في ميدان
السياسة الألمانية في العصور الوسطى ، حدث سنة ١١٢٥ م ما برهن برهاناً
واضحاً على غير ذلك ، ودل دلالة أكيدة على أن مبدأ الانتخاب هو
الأثبت ، وأن التاج الألماني رهن مشيئة الرؤساء القبليين الناجبين في ألمانيا ،
ومن ثم غدا تيار الحوادث يجرى نحو المبدأ الانتخابي ، حتى صار أولئك

(١) انظر ما سبق هنا ، ص ١٣٧ ، حاشية ١ . (زيادة) .

الرؤساء سنة ١١٥٦ م ركناً هاماً في دستور الملكية الألمانية .

وأعظم من ذلك نكبة ما اشتعل من عداء بين أسرتين من الأسر الألمانية الكبرى ، وهما أسرة الجولفيين وأسرة الجبلتينين^(١) - أي الهوهنشتاوفن - مما ظهر دخانه على عهد لوثير الثالث نفسه ، واحتدمت نيرانه على عهد خلفه كونراد الثالث . وهذا العداء الذي امتلأت به ألمانيا وإيطاليا ، واختلطت به مسائل وأصول سياسية هامة ، لم يكن له من سبب سوى خيبة الأمل الإمبراطوري في نفوس الهوهنشتاوفن . ذلك أنهم كانوا عشيرة جرمانية قوية من سوايا في الجنوب ، وكان من أملهم أن يصير التاج الألماني - بعد وفاة هنري الخامس - إلى رئيسهم فردريك هوهنشتاوفن^(٢) ، قريب الملك المتوفى ووصيه ، ووريث أملاكه . ثم ما لبث ذلك الأمل أن تهدم حين فضل النახبون على فردريك غريمه لوثير سبلنبرج ، وهو سكسوني مغموور إلا من

(١) يملأ هذان الاسمان تاريخ ألمانيا وإيطاليا في العصور الوسطى ، وهما صيغتان إيطاليتان (Guelfs & Ghibellines) لاسمين ألمانيين (Welf & Gaiblingen) ؛ وألها اسم دوق من دوقات سكوليا بشمال ألمانيا أواسط القرن الثاني عشر الميلادي ، ثم أضفى علماً على دوقات هذا الإقليم كائنة ما كانت أسماءهم الشخصية ؛ وثانيهما اسم معقل من الماقل الإقطاعية التابعة لأسرة الهوهنشتاوفن (Hohenstaufen) دوقات سوايا بالجنوب الغربي من ألمانيا ، منذ أوائل القرن الثاني عشر الميلادي . ثم أضفى كذلك علماً على دوقات هذه الأسرة فضلاً عن اسمهم العائلي - أي الهوهنشتاوفن واقتصر استعمال اسمي الجولفيين والجبلتينين بصيغتهما الألمانية في تاريخ ألمانيا وحوادث التنافس عن التاج الألماني بين البيوت الألمانية الكبرى ، حتى إذا كان عهد الإمبراطور فردريك برهباروسا - وهو الجبليني الهوهنشتاوفن الذي جرى في عروقه دم الجولفيين (انظر ما يلى هنا ، ص ١٩٧) ، واصطدمت سياسة فردريك الإمبراطورية في إيطاليا بمصالح البابوية وسياستها ، انتقل اسم الجبلتينين إلى إيطاليا حتى صار مرادفاً للإمبراطوريين أعداء البابوية ، كاصار اسم الجولفيين مرادفاً للبابويين أعداء الإمبراطورية . ثم انتهى النزاع والتخاصم فيما بين البابوية والإمبراطورية من ألمانيا وإيطاليا ، بإعدام آخر الهوهنشتاوفن سنة ١٢٦٨ م . غير أن الاسمين بقيا في إيطاليا ، للتدليل على الحزبية والحروب الداخلية الناشئة بين المدن الإيطالية ، في القرن الرابع عشر الميلادي . واقرن استعمالها بعد ذلك - على المعنى القديم تقريباً - حين استولى لويس الثاني عشر ملك فرنسا على مدينة ميلان أوائل القرن السادس عشر الميلادي ، إذ قامت بسبب ذلك حروب صار الفرنسيون ومؤيدوهم فيها بإيطاليا حزب الجولفيين ، كما صار الإمبراطور مكسليان ومؤيدوه حزب الجبلتينين . وامتد هذان الاسمان كذلك إلى ميادين الشعر السياسي ، فكان دافني مؤلف الكوميديا الإلهية من الجبلتينين ، كما كان بترارك الشاعر المشهور من الجولفيين . (زيادة) .

(٢) انظر الحاشية السابقة ، وكذلك شجرة الأنساب رقم ٥ ، في آخر الكتاب . (زيادة) .

ورابط الصداقة القديمة بين الجولفيين والزواج من ذلك البيت سنة ١١٠٠ م . واحتجاجاً على ذلك قرر فردريك هوهنشتاوفن وأخوه كُنْراد الاحتكام إلى السيف والقوة ، ولم يخش أحدهما أو كلاهما ما سوف يحلّ بألمانيا من فواجع الفتنة الداخلية في سبيل أطماعهما . ثم نجح الملك لوثير الثالث في إقناع هذين العاصيين بتجنّب البلاد ويلات الحرب ، بعد أن هلكت على أيديهما مدينة أوجزبرج وأهلها رجالاً ونساء وأطفالاً ؛ وبذا نعمت ألمانيا بأعوام من السلام . غير أن لوثير لم يلبث أن توفى سنة ١١٣٨ م ، فتجدد التضال بين الأسرتين ، لكن مع اختلاف الكفتين ، إذ صار الهوهنشتاوفن أرباب الحكم في شخص كُنْراد الثالث ، والجولفيون أرباب المعارضة بزعامة هنرى المتكبر دوق سكسونيا وبافاريا معاً . ومن المعقول والحالة هذه أن تكون الغلبة لأصحاب التاج وما يصاحب التاج من وسائل البطش والنفوذ ، لولا أن وجد كُنْراد الثالث غريباً مساوياً في هنرى المتكبر ؛ ولذا لم يترك كُنْراد فرصة إلا اقترصها لإضعاف ذلك التابع العنيد ، ولم تكن وسيلة إلا توسل بها لإذلاله ، فجرّده من بافاريا ، وحاول أن يتزع عنه دوقية سكسونيا . لكن عقبة كؤوداً عجز كُنْراد عن اقتحامها برغم ما هو معروف من جسارة الهوهنشتاوفن ، وتلك العقبة هي أهل سكسونيا الذين لم يحبوا السوابيين يوماً من الأيام ، بل ثبتوا على إخلاصهم للأسرة الجولفية ثباتاً لا عوج فيه ولا أمت ، حتى إذا توفى هنرى المتكبر فجأة ، ولم يخلف سوى صبي في العاشرة من العمر - وهو الذى سُمّي هنرى الأسد فيما بعد - وقف السكسونيون وقفة رجل واحد لحفظ الدوقية للجولفيين . لذا اضطر كُنْراد الثالث إلى الاعتراف بأن عدوه أقوى من أن يُقهر ، وأن السبيل إلى إنقاذ البلاد من بلايا الفتنة الداخلية هو الصلح النصفة ، بإعادة سكسونيا - دون بافاريا - إلى الجولفيين ؛ وتمّ ذلك الصلح سنة ١١٤٢ م . غير أن الضغائن بقيت على حالها ، ترمى بالشرر على ذلك العهد المنكود ، وتندربتمزيق المملكة الألمانية شذر مذر ، إلا إذا تدخلت حكمة عليا قبل فوات الأوان .

ثم توفى كُنْراد الثالث سنة ١١٥٢ م ، وأُنقل المملكة الألمانية من الخطر

المحقق بكيانها أن دم الأسرتين الجبلينية والجولفية امتزج في عروق فردريك برباروسا ابن أخى كثراد الثالث ووريثه ، لأن الأميرة 'جوديث' أم فردريك هى أخت هنرى المكتبّر ، وعمه ابنه هنرى الأسد . ولهذا بدا كأن المقادير أعدت فردريك برباروسا لإصلاح ما بين الأسرتين من ذات البين ، نجح فردريك فى ذلك لعدة سنين ، إذ آخى ابن خاله هنرى الأسد زعيم الجولفيين ، وأعاد عليه دوقيتى سكسونيا وبافاريا ؛ وتعالّت الأصوات بمدح الملك الجبلينى ذى اللحية الصهباء ، لأنه خلّص ألمانيا من شر الفتنة التى أنزلت بكثير من المدن الألمانية أفضع ألوان الحراب .

وحاطت مدائح المعاصرين فردريك برباروسا طول حياته ، ولا تزال أصدااء تلك المدائح تردّد فى نغمات حماسية متفاوتة القوة فى أجيال المؤرخين . وكيف لا يكون ذلك وجميع الشيم التى افتخرت بها فروسية ذلك العصر مجتمعة فيه ، من شجاعة فائقة وهمة خارقة ومرح مفرط ، فضلا عن شغف بالقتال والنزال ، ولولوع بالمغامرة ، وحب للعدل بين الناس عدلا عرفيا مصدره حسن الإدراك - لا القانون ، وموانسة منبعها صحة جسمية رائعة . والواقع أنه لم يعتل عرش ألمانيا - منذ شارلمان - ملك تم فيه من الخلال المؤهلة لحكم الألمانين مثلما تم فى برباروسا ، إذ كان باستطاعته أن يخيف العقول ويسحرها بلطفه فى آن واحد ؛ ولس رجال الدين والأمراء الإقطاعيون والفلاحون تلك الناحية من شخصيته الممتازة ، واعتبروه مثال الفارس الكامل .

غير أنه مما يحار له الباحث الحديث أن يتولى ملك مثل فردريك برباروسا - وهو فردريك الأول كذلك فى تاريخ ألمانيا - حكم دولة عظيمة قريبة العهد بالفتنة الداخلية ، وأن يبدأ حكمه أحسن بداية ، ثم يسمح لنفسه أن تغويها مطامع بعيدة مخوفة بمصاعب هائلة لا يعرف مداها ، وليس من المحتمل أن تربح رعيته بسببها أى ربح على أية حال . لكن الألمان أنفسهم لم يفكروا مثل ذلك التفكير ، ولم يدر بخلدكم أن يلوموا ملكاً يذهب عنهم إلى روما ، لكى يضع التاج الإمبراطورى على رأسه ، ثم يعود إليهم إمبراطوراً ؛ ولم يروا فى الحملات الحربية التى أنفذها فردريك إلى إيطاليا - برغم ما تكلفت من

نفقات في الرجال والأموال - إلا ما رأوا حين قام فردريك نفسه . وهو في سن الشيخوخة ، للاشتراك في الحملة الصليبية التي أدت إلى وفاته غريقاً في قليقية^(١) سنة ١١٩٠ م . ولم يقل أحد من الألمان إن الإمبراطور تغيب عن ألمانيا كثيراً ، أو إنه حكمها حكماً قليلاً ؛ ولم يرتفع صوت ناقد بكلمة احتجاج على توضيحته المصلحة العامة . بمنح الأمراء الألمانين أفدح الامتيازات والإعفاءات بغير حساب ، في سبيل الحصول على معونتهم له في حروبه الإيطالية ، مثل تأسيسه دوقية النمسا ، وسماحه لدوقها بامتيازات خارجة عن حد المعقول . وأكثر من هذا أن فردريك ظل حياته يسبح في عالم القديم ومجده ، ويتغنى بالشعر اللاتيني ورسائله ، ويحسب أن باستطاعته إعادة الدولة الرومانية القديمة ، وينسى أن يدرك ما أعدته القومونات^(٢) للمباردية الجديدة - والبابوية الناهضة ، والمملكة الصقلية العفية - من قوة مثله ضده . وشاركه الألمان في ذلك كله مشاركة تامة ؛ بل أعجبوا بفروسيته أشد الإعجاب ، وأولوه تقهم إلى النهاية ، ولم يقبلوا عنه بديلاً ، ولو كان ذلك البديل أعظم العاقرة على وجه الأرض

أما الإيطاليون فلم يروا في مجيء الجيوش الألمانية إلى بلادهم نعمة غير مشوبة ، وربما خفي ذلك المعنى على فردريك برباروسا نفسه ، اعتقاداً منه أنه يؤدي واجباً يمليه عليه مركزه حين ذهب إلى روما ، لتخليص البابا - هادريان الرابع^(٣) ، من صخب جمهوريتها الجديدة ، أو حين جاء إليها كيما يتوّج إمبراطوراً ، أو حين زحف على شمال إيطاليا ليقضي على أعدائه

(١) انظر ما سبق هنا ، ص ١٩١ . (زيادة) .

(٢) هذا اللفظ ترجمة حرفية لكلمة (commune) . وكان استعمالها في العصور الوسطى للدلالة على المدن الإيطالية - وكذلك الفرنسية - التي استطاعت بفضل ثروتها الاقتصادية الجديدة أن تحصل على براءات (charters) تخولها الهيمنة على شئونها الداخلية ، وأن تصبح الحكومة فيها بيد غير أرباب الإقطاع ، أي طبقة التجار وأرباب المهن ، مع ملاحظة ما لهذا اللفظ في العصور الوسطى من معنى مخالف لمعناه في العصور الحديثة . أما صاحب هذه الترجمة الحرفية فهو القلقشندي (صحيح الأعشى ، ج ٨ ، ٤٦) ، حيث ورد أن ديوان الإنشاء المملوكي بالقاهرة استعمل هذا اللفظ في مكاتباته للمدن الإيطالية . انظر كذلك Extrait de (Lammens : Corresp. Diplom. etc. p. 26 la Revue de l'Orient Chrétien. 1904 . (زيادة) .

(٣) هذا هو البابا الإنجليزي الوحيد في تاريخ البابوية . (زيادة) .

ويأخذ بيد أصدقائه ، أو حين عاد إلى شمال إيطاليا مرة أخرى لاسترداد الحقوق الإمبراطورية التي ذهبت بسبب إهمال سلفه ، ولئن اعتقد فردريك أن هذه الأهداف في متناوله دون صعوبة أو مقاومة ، فإن رحلته الأولى إلى روما سنة ١١٥٥م ما لبثت أن خيبت ذلك الاعتقاد ، وسرعان ما أدرك بنفسه قلة احترام الجمهوريين من أهلها للإمبراطور الذى خان زعيمهم المختار آرنولد البريشى ، وللبابا الذى أمر بإعدام ذلك الزعيم المحبوب حرقاً بالنار ، فإنه لم تكد حفلة التتويج الإمبراطورى تنتهى حتى هوجم الجيش الألمانى - المرافق للإمبراطور - مهاجمة عنيفة اضطرت فردريك إلى الانسحاب .

غير أن الزيارة الإمبراطورية الثانية ، سنة ١١٥٨ م ، هى التى أثارت النضال الطويل مع القومونات اللمباردية ، وهو النضال الذى افتتح بمرسومات مجمع رونساليا تلك السنة ، ولم يختم إلا فى صلح البندقية بعد ذلك بسنين^(١) ، حين اعترف الإمبراطور مكرهاً بهزيمته أوضح اعتراف . ومن عادة المؤلفين المتحمسين للقومية الإيطالية أن يعدوا ذلك النضال الشهير خطوة من خطوات الإيطاليين نحو الحرية ، ولا مشاحة فى ذلك ، فإن نفحات رائعة من الشجاعة والعزم ظهرت فى أثناء النضال ، لا فى ميلان فحسب - وهى المدينة الآهلة بلناس بالقياس إلى غيرها من المدن الكبيرة بشبه جزيرة إيطاليا - بل فى كثير من المدن الإيطالية الصغيرة ، التى وقفت وقفة المستميت للجيش الإمبراطورى وأسلحتها ومعداتها الحربية الهائلة . فلما أن وقعت هزيمة فردريك وجيوشه على يد أهل ميلان فى وقعة لينيانو - وهى خاتمة النضال بين فردريك والمدن اللمباردية^(٢) ، كان ذلك نذيراً لأوروبا بمطلع عصر جديد سوف يحسب السياسيون فيه كل حساب للقوة الحربية فى الطبقة الوسطى . ثم بدا جديداً كذلك أن يصبح عدد من المدن الإيطالية عصابة تعقد الاتفاقات مع الهيئات المجاورة ، كما فعلت عصابة القومونات اللمباردية مع البابا والنورمانيين والبيزنطيين والبنادقة ، لأن هذا التكتل - على فرض إخفاقه - دل دلالة منبئة بأهمية المدن وسكانها فى السياسة الأوروبية . ولكن من الخطأ

أن يقال بأن هذا النضال الطويل غدا في نظر المعاصرين نضالاً بين الأمتين الإيطالية والألمانية ، فإن الإيطاليين أنفسهم لم يكونوا لبياً واحداً ، بل ظل كثير منهم - ولا سيما الأرستقراطية الألمانية في لمبارديا - متعلقاً بأصله الألماني القديم ؛ ووقفت بعض المدن الإيطالية إلى جانب الإمبراطور ، على حين انحاز بعضها الآخر إلى جانب البابا . ثم إنه ليس من العدل أن يقول أحد بأن فردريك ادعى لنفسه حقوقاً ليست له ، إلا أن يكون ملكاً يأخذ كل حقوقه غضباً ، إذ أفتى علماء القانون بجامعة بواونيا بأن مطالبته من العصبة اللمباردية وغيرها من القومونات الإيطالية - حسبها ورد في مرسومات ونساليا - لم تعد أن تكون حقوقه الموروثة ، على قاعدة أنه وريث الأباطرة الرومان .

واختلط نضال العصبة اللمباردية ضد الإمبراطور بمشكلة النزاع والتخاصم فيما بين الإمبراطورية والبابوية ، وهي مشكلة لا سبيل إلى تجنبها ما دامت آراء هلدبراند ^(١) باقية على حالها ، وفي العرش الإمبراطوري رجل يهوى أن يحكم إيطاليا حكماً حقيقياً ، كما أنه لا سبيل إلى تعديلها أو تحويلها مهما تنوعت الأسباب المباشرة والمراحل المتعاقبة ، لأنها تدور حول مسألة السمو ، و « هل الإمبراطورية أو البابوية هي الأسمى ؟ » أو على قول المصطلح الإقطاعي في ذلك العصر : « هل يمتلك الإمبراطور وظيفته كأنها إقطاع من البابا ؟ » غير أنه من باب الحكمة في السياسة أن يتجنب السياسي طرح الأسئلة الواسعة ، لأنه لم تكد تلك المشكلة تأخذ صورتها النهائية في حلبة الجدل حتى تولدت عنها حشود من الخلافات الصغرى تولدت الذباب في حرارة الصيف ، كالقانون وإجراءاته ، والإدارة ومقتضياتها ، والكنيسة وسياستها الراهنة . فهل من واجب الإمبراطور أن يقود فرس البابا ، وأن يمسك بركاب السرج حتى يركب ؟ وهل في استطاعة الإمبراطور قانوناً أن يعين الأساقفة ، أو يستولى على موجود ^(٢) الأسقفيات الشاغرة ؟ وهل من حقه أن يأخذ مقرر ^(٣) الإقامة لجيوشه ، فضلاً عن مقرر ^(٤)

(١) انظر ما سبق ، ص ١٤٧ . (زيادة) .

(٢ ، ٣ ، ٤) تطلب النقل إلى العربية هنا شيئاً من الاستعانة بمصطلح التاريخ المصري في العصور الوسطى . لإيجاد المرادف لبعض الألفاظ الإقطاعية الواردة في الأصل الإنجليزي . (زيادة) .

الضيافة لقصاده من مختلف الأقاليم ؟ والبحث في تلك الأسئلة لا ينتهى ، ما عدا السؤال الأول منها . إذ المعروف أن الأمراء الألمان لم يختلفوا فيه أى اختلاف ، بدليل ما حدث بمجمع بيزانسون بفرنسا فى أكتوبر سنة ١١٥٧ م ، حين وقف الكردينال رولان يسأل فى جرأة - وهو القانونى الصليح الذى ناب عن البابا هارديان الرابع فى ذلك المجمع - « ممن يتسلم الإمبراطور إمبراطوريته إذا هو لم يتسلمها من البابا ؟ » ، فكاد يفقد حياته على يد الأمراء الألمان ، لولا أنه لاذ بالهرب .

وبعد سنتين من ذلك الحادث مات هادريان الرابع ، فانتخبت فئة من هيئة الكرادلة هذا الكردينال رولان للكرسى البابوى ، لما عُرف عنه من قوة الحجة فى الدفاع عن النظرية البابوية ، واعترافاً بفضلها فيما تم من صداقة بين روما وصقلية ؛ وتلقب البابا الجديد إسكندر الثالث . غير أن الكرادلة الآخرين انتخبوا الكردينال الإمبراطورى أوكتافيان للبابوية - إما نزولاً على رغبة الإمبراطور ، أو خوفاً من رولان وأصدقائه الصقليين - وتسمى هذا البابا فكتور الرابع . ثم اشتكى الباباوان إلى فردريك ، فدعاهما إلى عرض شكائهما على مجمع يعقد خصيصاً فى پاڤيا برياسته .

وهنا برهن إسكندر الثالث للعالم أن روح هلدبراند لا تزال نابضة ، إذ رفض الدعوة إلى مجمع پاڤيا ، وأبى أن يعترف بحضوره أن للإمبراطور حقاً فى رئاسة مجلس من مجالس الكنيسة ، أو تصريح شأن من شئون الكرسى البابوى . فأجاب فردريك على ذلك بإعلان إسكندر الثالث عدواً للبابوية ، وردّ إسكندر الثالث بقطع الإمبراطور من الكنيسة ، وإحلال رعيته من واجب التبعية ، وأهاب بفرنسا أن تنصف البابا وتلجئه .

وجرتْ النجوم فى مسالكها ، وهرعت إلى نجدة هذا البابا الداهية المتين ؛ فثار اللمبارديون فى وجه الإدارة الألمانية الظالمة . بعد خضوعهم لجبروتها بضع سنين ، وشجعهم البندقية وصقلية والدولة البيزنطية بالمال ، فبنوا أسوار ميلان التى سوى فردريك بها الأرض قبلاً ، وأعادوا إليها أهلها الذين تفرقوا

بأشقات^(١) البلاد . ثم حلت بالكنيسة رحمة عليا صيف سنة ١١٦٧ م ، بعد أن هبط فردريك على إيطاليا للمرة الرابعة^(٢) بجيش كبير ، وفي عزمه أن يهدم مراقد الثورة ضده ، وهي روما التي اتخذ منها إسكندر الثالث بعد عودته إليها من فرنسا مركزاً لتوجيه حلفائه ، وصقلية التي غدت أكبر مصدر لما احتاجت إليه الثورة من مال . غير أن الحظ بسم أولا للإمبراطورين ، إذ انهزم جيش البابا هزيمة كبيرة ، وانهك الجيش الإمبراطوري حرمة كنيسة القديس بطرس ، ولذا البابا إسكندر الثالث بالفرار ، وتتوج فردريك إمبراطوراً مرة ثانية على يد البابا فكتور الرابع ، ودخل أسطول من پيزا نهر التيبر معلناً قرب الاستيلاء على صقلية . وبعد ساعات من ذلك الإعلان قلب الحظ ظهر المحن ، وانتقمت حرارة الشمس للبابا إسكندر الثالث من الإمبراطور فردريك برباروسا أشد انتقام ، إذ اشتعل بالجيش الألماني وباء مفاجئ لم يبق ولم يذر ، واضطر فردريك إلى النجاة بنفسه عبر جبال الألب ، بعد أن شهد زهرة الفروسية الألمانية طريحة الموت الوجيع الألم ، في ربي روما وسهولها المترامية .

ولم يستطع فردريك أن يفيق من تلك الضربة التي سدتها إليه المقادير ، حتى إذا جاء إلى إيطاليا للمرة الخامسة — سنة ١١٧٤ م — لم يكن لديه سوى جيش ألماني صغير لا يكفل إعادة الأمور إلى نصابها . فلم يقو الإمبراطور على مغالبة أعدائه الذين أفادوا من شغله عنهم بألمانيا وشؤونها سبع سنين . ثم دنت خاتمة النضال حين تهدم الجيش الألماني الصغير أمام جيش كبير من أهل ميلان ، عند بلدة لنيانو ، فأدرك فردريك أنه لم يبق في قوس الأمل منزع ، وعقد النية على مفاوضة البابا وإجابة طلباته . وتمت المقابلة بين فردريك وإسكندر الثالث في اليوم الرابع والعشرين من شهر يولية سنة ١١٧٧ م . بمدينة البندقية ، حيث توجد حتى العصر الحاضر ثلاثة ألواح من الرخام

(١) حملت هذه الأخبار فردريك على الهجاء للمرة الثالثة إلى إيطاليا سنة ١١٦٣ م في حاشية صغيرة ، حيث أصاح بأذن صماء لشكاة المدن الإيطالية من ولاتها الإمبراطورين ، ثم لم يلبث أن قفل راجعاً إلى ألمانيا في السنة التالية . انظر (A History of Europe p. 445) : Brook . (زيادة)

(٢) انظر الحاشية السابقة .

الأحمر بمدخل كندرائية القديس مرقس ، تخليداً للبقعة التي رقع عندها
الإمبراطور أمام البابا ، ليحظى منه بقبلة الصلح والسلام . على أن
المنظر خلف بالعقول ما هو أبقى من ألواح الرخام الأحمر ، إذ أيقنت
الأجيال البشرية - لا أهل البندقية فحسب - أن القوة الحربية متاع
الغرور ، وأن النصر للمبادئ الروحية في شئون الإنسان . ومع هذا ،
فالحقيقة التي لا ريب فيها أن فردريك فاز فوزاً عظيماً ، بالحصول على
الصلح دون أن ينزل عن سبب واحد من أسباب الخلاف ، وأنه استطاع
بعد هذا الصلح أن ينصرف لشئون ألمانيا وما جد عليها من عداة قريبه وتابعه
هنرى الأسد (١) .

ذلك أن هنرى الأسد ظل يحكم دوقيتى سكسونيا وبافاريا أربعاً وعشرين
سنة ، دون أن يتدخل فردريك في قليل أو كثير من شئونه في الدوقيتين .
ثم بدا في أفق العلاقات بين الرجلين سحابة خلاف لم يتبين أحد أصلها ،
على وجه التحقيق : هل كان أصلها أن فردريك اشترى ضياعاً وأراضى
جولفية في تسكانيا وبافاريا ، وأن هنرى انتهى تلك الأراضى لنفسه ؟
أو أن هنرى عاف الحروب والمغامرات الإيطالية بعد أن شبع منها ، فرفض
مرافقة الإمبراطور في حملته الخامسة إلى إيطاليا ، رغبة منه في الانصراف
إلى مشاغله الجسيمة في الشمال ، حيث اقترن اسمه بتطهير الونديين (٢) من
الوثنية ، وصار له من الأثر في توجيه حياتهم الجديدة ما لا تمحوه الأيام ؟
وكيفما كان أصل ذلك الخلاف فوضع الأهمية هنا أن هنرى الأسد - دوق
سكسونيا وبافاريا - رفض مرافقة قريبه الإمبراطور فردريك برباروسا في
حملته الخامسة إلى إيطاليا ، فذاق فردريك مرارة الهزيمة في وقعة حاسمة ،
على حين كان هنرى من الغائبين عن ميدان القتال .

ثم أعقبت سحابة الخلاف فترة تراكت فيها سحب العداوة تراكماً
أدى إلى نتائج خطيرة في تاريخ الألمانيين ، إذ كان بين الأمراء ورجال

(١) انظر ما سبق ، ص ١٩٧ - ١٩٨ . (زيادة) .

(٢) انظر ما سبق هنا ، من ١٥٤ ، حاشية ٣ . (زيادة) .

الدين في سكسونيا من يكره هنرى الأسد وخطرسته أشد الكره ، ويتمنى لو حانت الفرصة للتشفي منه والإلقاء به إلى الأرض . ولم يلبث أولئك الكارهون حتى وجدوا ثغرة ينفذون منها إليه ، فاتهموه تهماً معينة ، ولكنه لم يشأ أن ينزل إلى مذلة المثل بين قضاة يضمرون له سوء ، بل آثر أن ينزل ميدان القتال والفتنة الداخلية والعصيان . وما زال هنرى يحارب الإمبراطور حتى حلت به الهزيمة كما هو منتظر ، وجاء إلى فردريك خاضعاً ، فعاقبه عقاباً صارماً ، إذ نفاه عن ألمانيا وأرضها ، وصادر أملاكه كلها ما عدا مدينتي برزويك ولونبروج . ثم قسم فردريك دوقيتي سكسونيا وبافاريا بين بضعة من الإقطاعيين ، فخص أتو وتلسباخ جزء من بافاريا ، حيث تأسست أسرة ظلت قائمة حتى الثورة الألمانية سنة ١٩١٨ م ، عقب الحرب العالمية الأولى ، وهي أسرة هوهنزولن .

ولتورخ أمريكى هنا وقفة بكاء واستبكاء على مقبرة الدوقية السكسونية التي كانت ، إذ تراءت له سكسونيا نواة لاتحاد ألماني يجمع الدوقيات القبلية الكبرى في دولة واحدة مزاجها البساطة والانسجام ، فتظل كل دوقية على سجيتها وقانونها التقليدي العام (land recht) الشامل لحقوق الحاكم فيها كائناً من كان ، أى أن تثبت العصور الوسطى سلفاً - في قلب أوروبا الإقطاعية - نظم الولايات المتحدة الأمريكية ومبادئها الجمهورية ، برغم ما في ذلك من تحميل الشيء ما ليس منه ، وبديى أن مثل تلك النظم والمبادئ لم توجد ألبتة على عهد هنرى الأسد ، أو فردريك ذى اللحية الصهباء ، أو أحدهما من الإقطاعيين . بل كيف توجد تلك النظم والمبادئ في رأس هنرى الأسد ، وهو الإقطاعي الألماني الذي ملأت عظمته الأصماع ، وتحدثت بحبروته الألسنة ، حتى إذا هدأت ثورته وحروبه ، وسمح له فردريك بالعودة من منفاه ، صار في شيخوخته من المشغوفين بالفن والأدب والمعمار ، فبنى كندراثة القديس بليز (St. Blaise) التي حرص أن يكون بناؤها تحفة الناظرين ؛ وهي لا تزال فتنة الزائر لمدينة برزويك في العصر الحاضر .

خير أن هنرى الأسد لم يرع يوماً حقوق الغير في معاملاته . كما لم يرع

أعداؤه الذين هدموا شامخ عظمته شيئاً من حقوق الغير في معاملاتهم . وشبيه بذلك فردريك ذو اللحية الصهباء ، فهو برغم ما انتصف به من الشدة على المجرمين والمفسدين ، وبرغم ما امتاز به عهده من القوانين الجنائية الصارمة ، لم يظهر أى موهبة فى إنشاء شىء مما ينفع الناس ، حتى إذ خلا مسرح الحوادث من شخصيته الرائعة وضح أن عهده الطويل . وما تخلله من وافر الإنعام على أصدقائه وبالعكس القسوة على أعدائه ، لم يكن سوى مدخل نحو الفوضى الإقطاعية .

غير أن هالة من المجد أضاعت أواخر عهد فردريك إضاءة رائعة ، بزواج ابنه هنرى (السادس ^(١) فيما بعد) أواخر يناير سنة ١١٨٦ م من الأميرة كونستانس وريثة المملكة الصقلية ، إذ غدت الجزيرة وما فيها من ثروة وقوة جزءاً من متاع الهوهنشتاوفن ، بموجب عقد مكتوب وزيجة هائلة ، وهى الجزيرة التى تمنى فردريك الاستيلاء عليها قسراً بأى ثمن . والواقع أن تلك الزيجة التى نزلت من سماء الديبلوماسية - على غير انتظار - عوضت جميع ما لقي فردريك من مذلات على أبدى أهل روما ولبارديا والبندقية ، فضلاً عن البابا . وكيف لا يكون ذلك بعد أن أصبحت ألمانيا الشمالية - وزعمائها الإقطاعيون العسكريون - طوع إشارة الإمبراطورية ، وبعد أن أمست صقلية وأموالها الوفيرة - وأسطولها العتيد وجيشها المؤلف من المسلمين - رهن مشيئة الإمبراطور ، مما سوف يجعل الجالس على العرش الإمبراطورى يملئ إرادته على البابوات والقومونات الإيطالية ، فى غير خشية أو حساب . لكن البواعث التى جعلت من اجتماع هذه النعم صورة زاهية الألوان فى عين الهوهنشتاوفن الإمبراطورين ، هى البواعث التى حملت البابوية أخيراً على إبادة تلك الأسرة من الوجود ، حتى إذا بدأ النضال بين البابوية والإمبراطورية مرة أخرى ، لم يستطع ذلك النضال إلا أن يكون طويلاً مريراً ، وبذا حقق البابوات غرضهم باستئصال الهوهنشتاوفن ، وجذورهم وفروعهم . غير أن البابوية اشترت ذلك الانتصار بثمن باهظ ، وهو الخضوع لفرنسا ، مما أدى

— أثناء سنوات « الأسر البابلي » في آفينون — إلى تدهور اسم البابوية ، وإلى تطور الكنيسة نحو الإصلاح الديني والروتستانتية^(١) .

على أن موضع الأهمية هنا أن اتحاد دولتي ألمانيا وصقلية خلق سلسلة من المشاكل ، لما بين الدولتين من الاختلاف السياسي ، فضلاً عما بينهما من قطيعة جغرافية طولها شبه جزيرة إيطاليا ، فالملكية في صقلية وراثية ، على حين هي في ألمانيا انتخابية ؛ وفي صقلية اعتبر الملوك أن البابوية صاحبة السيادة الإقطاعية في البلاد ، على حين أن ألمانيا رفضت كل الرفض أن تستمع لدعوى البابوية بأن البابا صاحب السيادة الإقطاعية على الإمبراطور . وفضلاً عن ذلك صار من المتفق عليه أن رئيس أساقفة كولونيا هو الذي يتوج الملك في ألمانيا ، على حين جرى العرف التقليدي أن رئيس أساقفة بالرمو هو الذي يتوج الملك في صقلية . ثم إنه إذا كره الصقليون قيام ملك ألماني في مملكتهم ، فلم يكن الألمان أقل كرهاً لما عسى أن تأتى به الأيام حين يستبدل ملك من ملوكهم بمدينة آخن وأجوائها القاسية مدينة بالرمو ونخيلها وأعنانها وحدائقها الوارفة الظلال ، بل حين تصبح شئون الإمبراطورية في أيدي طائفة خليطة من المسلمين واليونانيين والإنجليز وخصيان البلاط ، وتغدو المصالح الألمانية في المرتبة الثانية بعد مصالح الجزيرة الصقلية الضئيلة . ولا ريب أن معظم هذه الصعوبات تراءى لبصيرة الإمبراطور هنري السادس (١١٩٠ - ١١٩٧ م) ، بدليل ما أتى ذلك الإمبراطور الذكي إلى الأمراء والبابا سلسنتين الثالث من اقتراحات توجب الالتفات ؛ وخلاصتها أن يوافق الأمراء والبابا على أن يكون العرش وراثياً في أسرة الموهنشتاوفن خالفاً عن سالف . وأن يتوج البابا فردريك بن هنري السادس وكونستانس الصقلية ملكاً على إيطاليا . وفي مقابل ذلك يقرر هنري السادس للأمراء

(١) اجتاز المؤلف في هذه الأسطر القليلة مرحلة عرضها قرنان من الزمان تقريباً ، وهي زاخرة بالحوادث التي غيرت مجرى التاريخ الأوروبي . ولا حيلة للمترجم هنا إلا أن يظل مربوطة إلى عربة المؤلف ، فيجتاز هذه المرحلة الشاسعة اجتياز المؤلف لها ، وينصح القارئ بالرجوع إلى كتاب واسع من كتب العصور الوسطى ، ليقراً فيه تفصيل تلك الحوادث ، إذا شاء هو أن يستجلى لنفسه ما لم تتسع له هذه الأسطر القليلة . (زيادة) .

الألمان أن يجعل لإقطاعاتهم وراثية في ذوات الأرحام وفي الفروض ، وأن ينزل للكنيسة عن موجود^(١) رجال الدين (fas spoli) المندرجين بالوفاة ، وهو شيء غير قليل من الدخل الإمبراطورى . وأن يعترف للبابا أن الإمبراطورية إقطاع للإمبراطور من لدن البابوية خليفة المسيح في الأرض . غير أن البابا والأمراء الألمان رفضوا تلك الاقتراحات ، وبذا انهار مشروع إدماج المملكتين الألمانية والصقلية في تاج واحد انهياراً لا انجبار له .

والمؤرخ حين يستعرض حياة هنرى السادس لا يستطيع إلا أن يقف موقف الإعجاب والاشمئزاز - في آن واحد - من شخصية ذلك الإمبراطور الماكر الكدود ، الذى خاله المعاصرون من زمرة العلماء المنصرفين عن الدنيا إلى العلم . ذلك أن هنرى السادس توفى سنة ١١٩٧ م ، ولم تزد مدة حكمه عن سبعة أعوام ، وقام في تلك المدة على قصرها بكثير من الأعمال التى ينبئ بعضها عن عقل راجح وحكمة ، وبعضها الآخر عن وضاعة بالغة وقسوة . ويبدو هنرى السادس كذلك - في سعة أطماعه السياسية وأساليب حملاته الحربية - من عباقرة السياسيين المجددين ، على أن موضع الأهمية في حوادث حكمه لا يقف عند استيلائه على صقلية وشروعه في الاستيلاء على القسطنطينية ، ولا عند تهديته خواطر الجوارحيين ، ولا عند استغلاله أسر ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا ، من أجل الحصول على المال والسلطان . ولا عند جهوده في مصادقة البابا ودعوته إلى حملة صليبية ضد المسلمين ؛ بل ينحصر موضع الأهمية في أن هنرى السادس مات في مقتبل العمر ، وأنه ترك ابناً صغيراً وهو فردريك هوهنشتاوفن ليخلفه ، وأن وجه العالم الأوروبى تغير تماماً في المدة الواقعة بين وفاة هذا الإمبراطور الداهية وبلوغ هذا الابن الصغير الرشد .

(١) هذا اللفظ مأخوذ من مصطلح التاريخ المصرى فى العصور الوسطى، إذ تستعمله المراجع العربية ، مثل ابن واصل وبيبرس الدردار والمقرئى وابن إياس ، بمعنى المتاع الخاص الذى يتركه الأمير الأيوبى أو المملوكى مثلاً بعد وفاته ، وهو المعنى المقصود هنا . (زيادة) .

بعض المراجع لهذا الفصل

Cambridge Mediaeval History. Vol. V.

Freeman (E.A.) : Historical Essays (Frederic Barbarossa). 1892.

Giesebrecht (W. von) : Geschichte der Deutschen Kaiserzeit. (1881-8).

Gregorovius : History of Rome in the Middle Ages. Tr. A. Hamilton.
(1894-1900).

Poole (A.L.) : Henry The Lion. Lothian Historical Essay. 1912.

Stubbs (W.) : Germany in the Early Middle Ages.

Thompson (F.W.) : Feudal Germany. 1928.

Tout (T.F.) : The Empire and the Papacy. 1903.

الحركة الفكرية والحركة الديرية فى العصور الوسطى

النهضة الفكرية فى القرن الثانى عشر الميلادى - الدراسات الطبية
فى سالرنو - إحياء القانون الرومانى - القانون الإنجليزى العام -
جامعة بولونيا - جامعة باريس - أصول جامعة أكسفورد -
الحركة الجامعية فى العصور الوسطى الأديرة والحركة الديرية .

بينما أثرت الحروب الصليبية فى أحوال التجارة والسياسة ما أثرت فى
غرب أوروبا . وهو شئ ليس بالقليل ، بدت الحياة الفكرية على أبواب
تأثير من نوع أكثر عمقاً فى نتائجه مما حدث فى ميادين التجارة والسياسة ؛
إذ شهد القرن الثانى عشر الميلادى نهضة هى - برغم ضيق نطاقها - أشبه
ما تكون فى حيويتها وإبداعها بحركة النهضة الأوروبية الكبرى ، التى تفصل
العصور الحديثة عن العصور الوسطى . وذلك بما أحدثت من توسعة فى
الأوضاع والتقاليد . ذلك أن التعطش للمعرفة - وهو أحد الميول الغريزية
فى الإنسان - أخذ مرة أخرى فى الظهور بغرب أوروبا منذ القرن الحادى عشر
الميلادى . أى منذ بدأت الأحوال السياسية العامة فى الاستقرار . وغدا التنقل
آمناً بين البلاد . وبانت كماليات العيش أسهل منألا من ذى قبل . ولذا دب
الحياة من جديد لدراسة القانون والطب والمنطق واللاهوت ، وعمرت السبل
والمسالك المؤدية إلى البلاد التى اشتهرت بوجود مدرسين ممتازين فى هذه
العلوم . وامتألت تلك السبل بأصناف الطلاب من شباب لم يبلغوا سن الحلم
إلى رجال فصل رءوسهم الشيب . ثم تكوّنت نقابات من المتعلمين فى بولونيا
وغيرها من المدن بإيطاليا ، وتكوّنت نقابات من المدرسين فى باريس وغيرها
من المدن بفرنسا . واستنبط كل من هاتيك وتلك مجموعة من القواعد واللوائح

لتنظيم شئونها . ومن هذه النقابات نشأت فكرة الجامعة ، التي جعلها بعض كتاب العصور الوسطى في مرتبة البابوية والإمبراطورية ، من حيث الأهمية ، ولم يتردد بعض آخر من أولئك الكتاب في اعتبارها قوة عالمية قيضها الله لهدى الإنسان وترقيته .

ومن غريب التناقض الظاهري أن إيطاليا مقر البابوية والكرسي البابوي ظلت — طوال تاريخها في العصور الوسطى — أكثر البلاد الغربية إمعاناً في دنيوية ، حتى إذا كان عهد تنشئة الجامعات في أوروبا في القرن الثاني عشر الميلادي ، نشأت الجامعات في إيطاليا بفضل عوامل وهيئات دنيوية ، وصرفت معظم نشاطها — لا كله — في تنظيم دراسات دنيوية كذلك ، على حين تولدت الجامعات بالشمال الغربي من أوروبا عن مدارس تابعة مكتدرائيات ، ووجهت جهودها الرئيسية نحو دراسة اللاهوت ، والفلسفة اللاهوتية . وأول الجامعات التي نشأت في إيطاليا جامعة سالرنو التي يرجع أصلها إلى العصور القديمة ، والتي اشتهرت في العصور الوسطى بدراسة الطب من مؤلفات أبقراط وجالينوس ، مضافاً إليه ما جد من تجارب طبية في مؤلفات أبي يعقوب إسحاق بن سليمان الإسرائيلي الأندلسي المتوفى سنة ٩٢٣م^(١) . ومن السهل علينا أن نسخر من هذا الطب الذي عرفته العصور الوسطى ، وأن نهزأ نخلوه من أدنى معرفة بعلم التشريح ، فضلاً عن اختلاطه بالتنجيم ، وإصرار أصحابه على اعتبار مؤلفات أرسطو مدخلاً ضرورياً للدراسة الطبية . غير أن ذلك الطب — على الرغم من هذا كله — هو الأصل الذي نبتت منه علوم النهضة الأوروبية الكبرى ، وليس من المقبول عقلاً أن يكون منهجه خلواً من جميع القيم التعليمية ، وهو المنهج الذي أضفى على دانتى تبعه العميق في الفلسفة الأرسططالية، وأثار في جاليليو ولعه المشهود بدراسة الكواكب والنجوم . وأهم من ذلك الطب ودراسته — من حيث النتيجة والأثر في نهضة العصور الوسطى ما كان من إحياء لدراسة القانون الروماني وشرحه على يد إرنريوس ،

(١) انظر (Camb Med. Hist. Vol. VI. p. 562) ، لمعرفة ما كان المؤلفات العربية التي كتبها أبو يعقوب هذا — في القرن العاشر الميلادي — من أثر في تطوير الدراسات الطبية في أوروبا مسيحية . (زيادة) .

أوائل القرن الثاني عشر الميلادى . مع العلم بأن تلك الدراسة لم تندثر أو تختف بإيطاليا يوماً من الأيام . غير أن دراسة أهل العصور الوسطى لكتاب شرح الأحكام الرومانية^(١) - مع دلالتها على كثير من التعمق واللباقة - لم تستند إلى قواعد علمية أكثر مما استندت إليه دراسة الطب في تلك العصور . وذلك لأنها لم تعتمد على أسس تاريخية في الشرح والتعليل . وعلى الرغم من ذلك تسنى للشريعة الرومانية من قوة التأثير في السياسة والمجتمع خلال العصور الوسطى ما لم يتسن لغيرها من العوامل الفكرية في تلك العصور . لا بسبب امتداد أصولها إلى القانون الكنسى الآخذ وقتذاك في النمو . ولا بسبب الإصلاح الذى تم بفضلها في تعديل النظم القانونية في ألمانيا وفرنسا ، بل لأنها زخرت كذلك بطائفة كبيرة من المبادئ الاستبدادية الأوتوقراطية التى لم يحجم كبار الفقهاء في القانون بمدينة بواونيا عن الاستمداد منها . رغبة في إحاطة المنصب الإمبراطورى - في الدولة الرومانية المقدسة في الأمة الألمانية - بمثل السمو المطلق الذى أحاط به رجال القانون - في الدولة الرومانية القديمة - منصب الإمبراطور ، على عهد دقلديانوس وقنسطنين . وفى أثناء النزاع والتخاصم فيما بين الإمبراطورية والبابوية أيد القانونيون المدنيون موقف الأباطرة من البابوات تأييداً منبعه أصول الشرائع الرومانية ، وقلما تردد ملك من ملوك أوروبا في التزود من تلك الأصول المبررة للحكم المطلق عن طريق علماء القانون المدنى ، وأولئك لم يبخاوا يوماً من الأيام بما توافر لديهم من نصوص وشروح مواتية .

غير أن الفقه الرومانى - على فحولته وقوة تأثيره - لم يستطع أن يبلغ من الأثر في إنجلترا ما بلغه في غيرها من سائر غرب أوروبا . ففي إنجلترا لم يتلق المشتغلون بالقانون علومهم في الجامعات . حيث توافرت دراسة القانونين المدنى والكنسى ، بل تلقوها في مدارس مهنية اسمها دور الحقوق (Inns of Court) وهو اسم لصق بها منذ تنشئتها لأول مرة في لندن على عهد الإدوارديين في القرن الرابع عشر الميلادى ، وظل لاصقاً بها حتى العصر الحاضر . ولدهذه الظاهرة

(١) انظر ما سبق هنا ص ٥٤ . (زيادة) .

- فيما يبدو - يرجع السبب الذى جعل القانون العام فى إنجلترا محتفظاً بكيانه الواقعى الحسى ، وجعل ذلك القانون قوة تجنب دوماً نحو الحرية ، لا نحو الاستبداد .

وفى جامعة بولونيا التى غدت كلية الحقرق بها أشهر الكليات الأوربية لدراسة القانون ، فى القرن الثانى عشر الميلادى ، قامت نقابة من الطلاب على شئون الإدارة ، فهى التى تختار الأساتذة وتدفع رواتبهم ما استطاعت ، وتتوقف عن دفعها إذا لم تستطع ، حتى بات الأساتذة أحياناً كثيرة - على قول الدكتور راشدال^(١) - « فى حال أذل من الذلة » . ذلك أن هذه النقابة فرضت غرامة على الأستاذ إذا تأخر عن محاضراته دقيقة واحدة ، أو تجاوز الوقت المحدد للانصراف ، أو عبر نصاً صعباً ، أو فشل فى إنها ما شرطت الجامعة تدريسه من النصوص القانونية فى الوقت المحدد لتلك النصوص . وكانت لجنة من الطلاب اسمها لجنة تحذير الأساتذة (denunciatores doctorum) هى التى تراقب سلوك الأستاذ ، وتحيط المديرين علماً بكل مخالفاته ، فإذا أراد الأستاذ أن يتزوج سمحت له اللجنة فى شىء من التلطف أن يتغيب يوماً واحداً ، لا شهراً كاملاً كالمعتاد . ثم أنقذت السلطات المحلية جامعة بولونيا من ذلك النظام المتناهى فى السماجة ، فأنشأت حكومة المدينة كراسى لأساتذة اختارتهم وأجرت عليهم الرواتب ، وما لبث أولئك الأساتذة - بعد أن صارت رواتبهم نظيمة وفيرة - أن يحتكروا التعليم المدنى تمام الاحتكار ، ثم ما لبثت الجامعة أن غدت أمراً مألوفاً وجزءاً لا يتجزأ من الحياة المدنية بأنحاء إيطاليا ، حتى إنه لم يبق من الدول الإيطالية الكبيرة أواخر العصور الوسطى دولة بغير جامعة .

أما جامعة باريس العظيمة . وهى الجامعة التى صارت نموذجاً لسائر الجامعات بشمال غرب أوروبا ، فاختلقت فى طابعها ونظامها تمام الاختلاف عن جامعة بولونيا . ففى جامعة باريس سادت دراسة اللاهوت لا القانون .

(١) ألف الدكتور راشدال كتاباً كبيراً فى تاريخ الجامعات . وهو مثبت بقائمة المراجع فى دبل هذا الفصل . ومنه جاء الاقتباس الوارد هنا بالمتن . (زيادة)

وبدأت الإدارة في يد نقابة من المعلمين لا الطلاب . وإذا نشأت تلك النقابة من المدرسة الكاثدرائية بباريس ، وعاشت في ظل الكاثدرائية نفسها — أي كثدرائية نوتردام — فإنها بقيت موضع الريية مدة طويلة ، واعتبرتها الهيئات الكنسية المحلية هيئة غير مشروعة تريد القضاء على سلطات الأسقف ووكيله ورجال أسقفية . وأيد تلك الريية في بعض النفوس ما امتلأت به بباريس من فورة فكرية جامحة ، بسبب الحركة الجدلية الحرة التي أثار نازها بطرس أبيلارد . (١٠٧٩ — ١١٤٢ م) ، وهو الأستاذ البريتوني العظيم الذي مكن لباريس أن تصبح مركزاً للفكر الحر والبحث العلمي .

وما كان للكنيسة الكاثوليكية — وهي الهيئة الدينية الكبرى — أن تخشى خاشية وقتذاك من جدل الفلاسفة الجامعيين ، أو توجس خيفة من صوت هرطقة ما كاد يظهر حتى اختفى زمن القديس برنارد (١٠٩٠ — ١١٥٣ م) . حين أرغم أبيلارد على النزول عن آرائه ، والذهاب إلى دير من الأديرة . ليقتضى بقية حياته في أحضان السكون . وعندما صارت مؤلفات أرسطو في متناول الدراسات الجامعية في باريس — منتصف القرن الثالث عشر الميلادي — بذلت طائفة من رجال الدين جهداً جهيداً خالصاً ، لتطويع ما اشتملت عليه تلك المؤلفات الضخمة من واسع المعرفة القديمة والفكر القديم . إلى أداة صارمة ماضية لتأييد المذهب الكاثوليكي وترسيخه في القلوب .

ومن جامعة باريس تفرعت جامعة أكسفورد سنة ١١٦٨ م ، ومن أكسفورد نبتت كمبردج سنة ١٣٠٩ م . وإذا أردنا أن نستحضر الحياة الصاخبة التي درجت فيها الفئات الأولى من الطلاب والمعلمين الذين تمخضت عنهم الجامعات في إنجلترا ، فعلينا أن نستبعد عن أذهاننا مجموعة الأبنية الرائعة ، والكليات والمكتبات وحجرات المحاضرات ، وغيرها من المظاهر المعمارية التي تضاف على الجامعة الحديثة صفة الاستقرار والثبات . ذلك أن الطالب الإنجليزي — في القرن الثاني عشر الميلادي — كان أشبه شيء بالجندي الصليبي ، كلاهما حاج على سفر يحمل ما يخف حمله فحسب . وكلاهما ساع في طلب العلم من منابه ولو طال السفر والسعي . وإذا كان

التعليم وقتذاك بالمشافهة . وكانت اللاتينية اللغة المشتركة بين المتعلمين بأنحاء غرب أوروبا ، ولم يوجد من الرواتب والأرزاق الجارية ما يربط أحداً إلى بلد دون غيره من البلاد . أخذ المعلمون والطلاب في التنقل من مدينة إلى أخرى ، ومن إقليم إلى آخر . تارة فرادى ، وتارة فئة قليلة العدد . وتارة فئة كثيرة شاملة لقوم من المعلمين والطلاب بنى جلدتهم جميعاً ، تنفيذاً لأمر ملكي يصدر إليهم . أو إعلاناً باحتجاج أو سخط على حيف نزل بهم . شأنهم في ذلك شأن إضراب نقابة من النقابات الحديثة - ضد أصحاب الأعمال ورعوس الأموال - ما عدا أن المعلمين والطلاب كانوا يهجرون البلد بقضهم وقضيضهم ، وكثيراً ما كان مثل هذه الهجرة نواة لجامعة جديدة .

تلك على الأقل - فيما يبدو - هي الحالة التي أدت إلى تكوين جامعة أكسفورد ، وإن لم ينهض الدليل التاريخي التام على صحة ذلك ، لأن أقصى ما نعلم لا يعدو أن طائفة كبيرة من المعلمين والطلاب الإنجليز رحلوا عن باريس سنة ١١٦٧ - ١١٦٨ م ، بناء على أمر أصدره إليهم هنري الثاني ملك إنجلترا ، بسبب نزاعه مع لويس السابع ملك فرنسا ، وأن نقابة من الأساتذة الإنجليز - على غرار نقابة باريس - قامت سنة ١١٨٥ م في أكسفورد ، حيث درس جيرالد الكامبرنسي (Giraldus Cambrensis) كتابه الخطط الأيرلندية (Topographia Hibernica) في تلك المدينة . وإذا كان من الجلي أن قيام نقابة الأساتذة في مدينة من المدن بغرب أوروبا دليل على قيام المنظمة التعليمية (Studium Generale) التي هي الجامعة . فليس لدينا دليل مباشر على أن المعلمين والطلاب الذين أعيدوا إلى إنجلترا من باريس استقروا في أكسفورد بالذات . على أنه من المحتمل أن ذلك هو ما حدث ، وأن المطابقة الدقيقة الملحوظة بين نظام الجامعتين في أكسفورد وباريس ترجع لذلك السبب . ففي أكسفورد نشأت الجامعة تحت إشراف وكيل الأسقف ، مثلما حدث في باريس ؛ وفي أكسفورد قامت الجامعة على نظام الأروقة الأربعة والعمداء الأربعة . مثل باريس ؛ بل نشأت في أكسفورد على مر الأيام كليات معدة للسكنى والدراسة ، على نمط كليات باريس . يضاف إلى ذلك أن

الجامعتين اشتهرتا دون غيرهما من الجامعات الأوروبية الأخرى بعاو الكعب في الفلسفة المدرسية ، واجتذب كل منهما إليه الطلاب من أنحاء أوروبا . أما جامعة كمبردج^(١) الإنجليزية التي سلخت من أكسفورد . وجامعة أورليان الفرنسية التي اشتهرت بدراسة القانون . وكذلك جامعة مونبلييه التي اشتهرت بدراسة الطب في فرنسا . فتبدو كلها في المحل الثاني من الأهمية بالقياس إلى ما للجامعتين العملاقتين في باريس وأكسفورد من حظ في الحياة الفكرية في أوروبا خلال العصور الوسطى .

غير أن الحياة الفكرية في أوروبا الوسيطة اختلفت عن نظيرتها في العصور القديمة . من حيث أصناف المتعلمين ، ففي العصور القديمة اقتصر التعليم على طبقة النبلاء ، حتى صارت الثقافة والنبالة صفتين متلازمتين . ثم كان من سوء الحظ في أوروبا الوسيطة أن افترقت هاتان الصفتان المحمودتان في الإنسان افتراق النقيضين ، فغدت مهنة الفارس للحرب والصيد والقتل والطرد ، وغدا واجب المتعلم التعليم والصلاة . لأنه كان في العادة من رجال الدين . ولذا لم تنشأ الجامعات في العصور الوسطى لتهديب الأرستقراطية العنيفة - بعد أن صارت إليها شئون الحكم في أوروبا عقب غزوات المتبربرين - بل نشأت طوعية لحركة تلقائية تحت حماية الكنيسة وفي ظل إرشادها . تلبية لمسييس حاجة المجتمع إلى أطباء ومحامين ومثقفين من رجال الدين . وتمخضت تلك الحركة عن جدل وضجيج ونقاش فلسفي بين المثقفين حول الواقعي والاسمي في الوجود ، والعام والخاص في الحياة . دون أن يحفل بها الفارس النبيل المشغول بفروسيته ونبله ومقتضياتهما من الحروب والصيد . ولذا جاء الطلاب الذين هرعوا آلافاً إلى مختلف الجامعات الأوروبية من الطبقة الوسطى ، وما وليها من الطبقات في المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى . إذ رأى الفقير الطموح طريقاً مفتوحاً لمواهبه العقلية . وهنا لا يسع الباحث إلا أن يسأل مستفهماً : كم كان عدد الطلاب الذين استطاعوا متابعة خمسة

(١) هذا اللفظ نسبة لاتينية مشتقة من كلمة كامبريا (Cambria) . وهي الاسم اللاتيني لإقليم الغال . (زيادة) .

أعوام أو ستة في الآداب ثم اثني عشر عاماً أو ثلاثة عشر في اللاهوت ،
وهي الأعوام المطلوبة للتخرج ؟ والجواب أن ساقطى الأستاذية في الآداب ،
وساقطى الدكتوراه في اللاهوت ، في العصور الوسطى ، ضارعوا في كثرتهم
عدد ساقطى البكالوريوس في الآداب بالجامعة كلكتا في الهند زمن الحكم
البريطاني . وعلى الرغم من ذلك لم تخذل الحال الثقافية العامة في العصور الوسطى
من بعض الريح ، فبفضل الحركة الجامعية التي استنبطتها تلك العصور تكونت
في غرب أوروبا قشرة رقيقة من الثقافة مزاجها قليل من اللاتينية وقليل من المنطق .
ثم كان من طبيعة الحركة الجامعية أن تأخذ في النمو المضطرد ، من حيث
الأهمية في الدوائر الرسمية ، فضلاً عن الاتساع في التعليم ؛ فصار من المتواضع
عليه أن البابا أو الإمبراطور لا غير هو الذي يمنح إجازة التدريس العام
(Jus ubique docendi) ، وهي الإجازة التي أضحت سمة للمنظمة التعليمية
أو الجامعة . وتبع ذلك أن حل عصر الهبات والأوقاف محل عصر التقشف
الرسولي ؛ ففي سنة ١٢٥٢م أسس روبرت دي سوربون — إمام لويس التاسع
ملك فرنسا — الكلية الأولى من الكليات الستين التي تأسست في العصور الوسطى
لإيواء الطلاب الجامعيين في باريس ، وحذا حذوه واتر مرتون في أكسفورد ،
بعد بضع سنوات من ذلك التاريخ . ويستطيع زائر باريس في العصر الحاضر
أن يرى شارع دي فوار — على الضفة اليسرى لنهر السين — حيث عاش
دانتى عيشة الطلاب بين المحاضرات وحجراتها في كلية من تلك الكليات .
بل يستطيع هذا الزائر أن يدخل كنيسة القديس يولييان الفقير
(St. Julienle Pauvre) وهي الكنيسة الصغيرة المتعة التي اتخذها الرعيل الأول
من المتخرجين في الآداب من جامعة باريس مكاناً لاجتماعهم . أما الكلية
التي بناها روبرت دي سوربون فلم يبق منها إلا اسمها ، يطلقه الباريسيون
على أبنية حديثة ليس فيها مسحة من جمال المعمار ، وهي جامعة باريس
الحالية التي لم يبق من قديم كليتها الستين التي أنشئت في العصور الوسطى
سوى الذكرى . وهنا كانت إنجلترا أحسن حظاً من فرنسا ، فلا تزال
أبنية الكليات قائمة شامخة في أكسفورد وكمبردج ، لتشهد بما انطبعت

عليه العصور الوسطى في إنجلترا وغيرها من البلاد بغرب أوروبا من السخاء والتقوى .

تلك صورة عامة للحياة الفكرية بغرب أوروبا في العصور الوسطى . وهي تصف في الواقع ناحية واحدة فحسب من نواحي المجتمع الأوروبي الوسيط . كما تصف الديرية وهيئاتها في تلك العصور ناحية أخرى . وكانت الأديرة منذ نشأتها في العصور الوسطى موضع النقد والإصلاح أحياناً غير قليلة ، وتعاقبت الهيئات الديرية في غرب أوروبا بعضها تلو بعض . فظهرت شارتررو بعد كلوني (Cluny) وجاءت سيتو بعد شارتررو . ثم حلت بريمونترية (Prémontré) محل سيتو . وكلها بفرنسا وجميعها من حيث البداية والنهاية على وتيرة متناسقة واحدة . وتلك أن كلا من هذه الأديرة بدأ في فورة من الغيرة الدينية والحماسة ، وانتهى في غمرة من النقص والانحلال . غير أنه مما يدعو إلى الالتفات أن أحداً في تلك العصور التي اعتبرت العزوبة — على صرامتها — أفضل الفضائل الإنسانية ، لم يتعرض بكلمة واحدة لما يحدث للمجتمع من خسارة في الرجال والنساء بسبب العزوبة التي تطلبها الديرية . ولم يدر بخلد أحد منذ أيام روتيلديوس ناماتيانوس — الشاعر الروماني الوثني في القرن الخامس الميلادي — أن يجادل في قيمة الديرية . أو يقول بأنها مدعاة للرجس والرديلة في الإنسان بعض الأحيان .

ويوضح السبب في ذلك تمام الإيضاح أن الأديرة — فضلاً عن إيوائها أهل التقوى والنسك والهدوء من عواصف الحياة القاسية في العصور الوسطى — أدت من الخدمات للمجتمع في تلك العصور ما أضحي المجتمع الحاضر مستغنياً عنه . أو قادراً على الوصول إليه من مصادر أخرى . فالدير كان في كثير من الأحوال مركزاً لأعمال التبشير بالمسيحية في بلاد وثنية ، ومصرفاً لإيداع الأموال ، ومنذلاً لراحة أصحاب الأسفار . ومالكاً للأراضي المفتقرة إلى الإصلاح والزراعة ، ومقرراً للتعليم والتوفر على العلم . ومجمعاً للفنون والحرف والصناعات التي تتطلبها مؤسسة كبيرة مستقلة بشؤونها وحاجاتها الكثيرة . والدير كان فضلاً عن ذلك كله ملتقى الأخبار السيارة وسجلها ، ومخزن المخطوطات

النادرة وحافظها . وهو كذلك مودع المسائل السياسية الخارجية منها والداخلية ، وأداة استصلاح الأراضي البور ، وسبيل إيصال المدنية إلى قفار الهمجية والوثنية . وما الخدمات التي قامت عليها الأديرة العظيمة في فولدا وكورثيه بأطراف ألمانيا في العصور الوسطى . والأعمال التي اضطلع بها الديرينون (Cistersians) في إسبانيا وشمال إنجلترا ، إلا من ذلك النوع ، إذ اجتمعت فيها صفات التبشير والتعليم وتملك الأراضي . والواقع أن امتداد المدنية وانتشارها في شرق ألمانيا - وإسبانيا وشمال إنجلترا - يرجع فيما يرجع أولاً لاندفاع تلك الطوائف المنظمة من الرجال والنساء المنقطعين للهييرة نحو تلك الأقاليم ، في شيء من القوة والجرأة والصبر على المكاه . ثم إننا ندين بكثير مما نعرف عن أوائل العصور الوسطى إلى كتب الحوليات التاريخية التي ألفها الديرينون في اللغة اللاتينية ، حتى إذا طلع القرن الثالث عشر الميلادي انتقل التأليف في التاريخ من الديرين وأديرتهم إلى العلمانيين الذين أخذوا يضعون في لغاتهم القومية ما يرون بأعينها من الأشياء ، ويسجلون ما يسمعون بآذانهم من الناس ، ومن ذلك النوع العلماني التاريخ الرائع الذي كتبه قلهرديون في حوادث الحملة الصليبية المعروفة بالرابعة . والترجمة الممتعة التي ألفها جرانفيل في سيرة القديس لويس التاسع ملك فرنسا في القرن الثالث عشر الميلادي ، ثم الحوليات الفياضة التي جمعها فرواسار الفلمسكي في تاريخ إنجلترا وفرنسا ، وفيلاني الفلورنسي في تاريخ فلورنسا في قرن الرابع عشر الميلادي . ثم إذا شاء قارئ بعد ذلك مزيداً من تراث القرن الرابع عشر الميلادي ، فليقرأ في سجلات القوانين المعروفة باسم التقارير السنوية الإنجليزية . حيث يجد أكداً من أسفار فوق أسفار - لا مثيل لها في الكمية - من لغة التخاطب الشائعة وقتذاك بين المتقاضين أمام المحاكم من الإنجليز . وهي لغة فرنسية محلية . على أن أهل الأديرة هم الذين دونوا أخبار القرون الواقعة بين الغزوات الجرمانية وقيام الجامعات في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي ، حين كانت مكتبة الدير (Scriptorium) دون غيرها آمن الأمكنة للدرس ، وكان الدير الكاتب دعامة أساسية

للعلم . وإذا بدا كثير من عمل هذا الديرى ردىء الخط . أو قليل القيمة التاريخية ، أو طافحاً بالغباء . فإن بعض الأخبار التى دونها لم تخل من الحيوية وجودة الإسناد . بل لم تعجز الأديرة عن أن تنجب مؤرخاً بمعنى الكلمة بين حين وحين . وقمين بالأجيال المتتالية منذ القرن الخامس الميلادى ألا تنكر ما تدين به لأديرة العصور الوسطى مثل مونى كاسينو وبوبيو بإيطاليا . وريخندو وسانت جال بسويسرا الحالية . وكورقيه وفولدا بألمانيا وبيك وميرنت سان ميشيل بفرنسا . وجارو ، وسانت ألبانز بإنجلترا ، لأن الفضل فى كثير مما لدينا من معرفة . وفى غير قاييل من معلوماتنا التاريخية كذلك . يرجع إلى دأب أولئك الديرين الكاتبين الذين جهلت بطون المخطوطات أسماءهم ، مع أنهم هم الذين عكفوا على نسخ تلك المخطوطات المغلفة العسيرة القراءة تحت ضوء شمعة خافتة ، فى قلاية ملؤها البرد والزمهرير ، يتغنون أن تحظى جهود أعلامهم بمرضاة الله .

ثم تطورت المدنية الأوروبية إلى مرحلة هى المرحلة الحاضرة ، حيث تغيرت أوضاع الأديرة فى المجتمع الأوروبى تمام التغير ، مع بقاء ما بقى منها على حاله القديمة ووظيفته . ذلك أن أوقف الأمراء والنبلاء على الأديرة لم تعد وسيلة كفيلة بالنجاة من عذاب الآخرة ، فانقطعت هذه الأوقاف وأشباهاها عن الأديرة والديرين ، وبطل ذهاب الناس إلى الأديرة لسماع الأخبار . بعد أن كفتهم الصحف اليومية وآلات الإذاعة مؤونة ذلك ، كما بطل ذهابهم إليها استجماماً أو طلباً للراحة والسكون ، بعد أن توافرت لديهم الفنادق والمستشفيات . أما التعليم فاضطلعت به الجامعات والمدارس . وانتهت وظيفة المكتبية ، بعد أن أخذت المطابع فى طبع الآلاف من الكتب . وقامت المكتبات . على حفظها وصيانتها . وانتهت كذلك أعمال المواسة وتوزيع الإحسان على الفقراء من الأديرة ، وتحول أرباب الحكم إلى يتابع جديدة ينشدون منها النصيحة والشورى فى الأمور السياسية . وصفوة القول أنه يصعب على السائح فى ريف إنجلترا مثلاً أن يصور لنفسه وهو يحيل النظر فى أطلال دير من الأديرة القديمة بين المراعى الإنجليزية الجميلة — كيف كان ذلك الدير

الذى لم يبق منه قائماً إلا أطلاله الموحشة قطب دائرة الحياة الاجتماعية في إقليمه ، وحلقة هى أقوى حلقات الاتصال بين ذلك الإقليم والعالم الخارجى ، حين كان المجتمع على وجه التعميم أقل تعقيداً وأقل فى عدد السكان من المجتمع الحديث .

ومهما يكن من موقف المجتمع الحديث من الأديرة ، فسوف يظل هذا المجتمع حريصاً على الإفادة مما تقوم به الراهبات بالحجان من الخدمة الاجتماعية ، ولا تزال طوائف الراهبات فى البلاد الكاثوليكية تؤدي كثيراً من العمل الإنسانى الذى وجب عليها تأديته فى العصور الوسطى ، مثل خدمة المرضى ومواساة الفقراء ، وتعليم الصغار مبادئ القراءة والكتابة والدين ، وتلقين المشرفين على الموت أثناء احتضارهم صلاة استقبال الآخرة ولا يزال معظم تعليم البنات كذلك فى أيدي الراهبات ، ومعنى ذلك أن أولئك النساء الزاهدات لازلن يقمن فى العصر الحاضر - بما هو أعظم ما قامت به الديرية فى أوربا العصور الوسطى .

مراجع لهذا الفصل

- Coulton (G.G.) : Five centuries of Religions 1923-27.
 Coulton (G.G.) : Monastic Schools in the Middle Ages. 1913.
 Coulton (G.G.) : The Mediaval Scenes. 1930.
 Coulton (G.G.) : Mediaeval Studies. 1905-21.
 Haskins (C.H.) : The Renaissance of the Twelfth Century. 1927.
 Haskins (C.H.) : Studies in Mediaeval Culture. 1929.
 Mallet (C.) : History of the University of Oxford. 1924.
 Mullinger, (J.B.) : The University of Cambridge from the Earliest Times. 1873-84.
 Poole, (R.L.) : Illustrations of the History of Mediaeval Thought and Learning. 1920.
 Rashdall (H.) : Universities of Europe in the Middle Ages. 1895.
 Waddell (Helen) : The Wandering Scholars 1927.

الفصل الثالث عشر

نمو المدن وحكوماتها في العصور الوسطى

عادت حركة التجارة والصناعة في أوروبا الغربية - منذ أوائل القرن الثاني عشر الميلادى - إلى شىء من النشاط بعد الفتور الذى لزمها لعدة قرون . بسبب المسلمين وسالف حروبهم في النهر والبحر . ولذا لم تلبث بعض المدن في غرب أوروبا أن نهضت نهضة مباركة ، مؤذنة بنمو الحريات البلدية في حكومتها ، فاستعادت المدن الرومانية القديمة بعضاً من ماضى عظمتها وثروتها ، بعد أن ظلت زمناً كالحالية من أهلها ، نتيجة انهيار تجارتها الخارجية ؛ وتطورت القرى إلى مدن مسورة ؛ وانتشرت ضواحي التجار ، وأرباب المهن والحرف . حول القصور الإقطاعية والقلاع ؛ وظهرت في فرنسا أسماء جديدة مثل فيل نوف (Villeneuve) أى المدينة الجديدة ، وسوفتييه (Sauveté) أى المعقل . وباستيد (Bastide) أى المدينة النموذجية ؛ وهى مسميات تدل على حركة تجمعية لتكوين مدن جديدة ، في طول البلاد الفرنسية وعرضها . ونتج عن هذه التطورات أمران على جانب من الأهمية كبير : إذ انتظم التجار والصناع في مختلف المدن طوائف (نقابات) عكفت على المطالبة بشروط تضمن تسمير الأموال ، عن طريق التجارة والصناعة في شىء من الاطمئنان . كالسماح بتضمين ما هو مقرر من ضرائب المدينة (Firma burgi) نظير مبلغ معلوم . والإذن بتشريع ما يلزمها من قوانين محلية لتنظيم المعاملات ، والإعفاء من السخرات الإقطاعية الثقيلة ، والاعتراف بحق النظر في القضايا غير الجنائية أمام المحكمة الخاصة بالمدينة داخل أسوارها ، فضلاً عن حق اختيار الموظفين الإداريين . وتحرير الأتقان الذين تتجاوز إقامتهم في البلدة أو المدينة مدة سنة ، ولو لم يبلغ هذا التجاوز سوى يوم واحد . تلك على وجه التعميم خلاصة تقريبية للحريات والامتيازات التى امتلأت بها عهود المدن وبراءاتها الإعفائية (Charters) . في القرن الثاني عشر الميلادى ، مع الفوارق المتنوعة في التفاصيل

والتحاميل . على أن البحث في الوسائل التي حصلت بها المدن على تلك البراءات . سواء بالنضال والثورة كما حدث في لاءُون بشمال فرنسا ، أو عن طريق الشراء بالمال كما وقع في لندن ، أو نتيجة التطور السلمى الناجم عن عملية النمو الطبيعى كما صار لكثير من المدن ، لا يساوى من الأهمية شيئاً ، بالقياس إلى معرفة ما استقام بغرب أوروبا لجميع المدن الكبيرة — ومعظم المدن الصغيرة — في مدارج الامتيازات والإعفاءات ، أواخر القرن الثانى عشر الميلادى . وأقصى هذه الامتيازات والإعفاءات وأعظمها الجمهورية المدنية التي حصلت عليها البندقية ومرسيليا ، ثم لندن على مقياس أصغر ؛ وأقلها ما حصلت عليه بعض المدن الريفية الصغيرة من السماح لها بتضمين الضرائب المقررة على أهلها . ودفعها مرة واحدة بدلا من تحصيلها من أفراد السكان .

غير أن الإنسان مخلوق يحب التقليد والمحاكاة ، ولذا غدت الامتيازات والإعفاءات التي حصلت عليها بعض المدن الكبيرة — في غير ضمانة أو تقتير من ناحية المالك وأمثالهم من أرباب الدول — موضع المطالبة لدى مدن أخرى تقل عنها مقاما وثروة . وهكذا أخذ سلطان الطبقة الثالثة^(١) طريقه في النمو الدائب ، منذ أخذت هذه الطبقة في الظهور والتأثير في الشؤون العامة .

ثم اقتضت ضائلة المساحة وقلة الأمن في مدن العصور الوسطى أن يكون للمدينة في تلك العصور قلعة ، لحمايتها من المعتدين ، والدفاع عنها من المغيرين . كذا كان الحال بمدينة لندن التي لم يزد سكانها وقتذاك عن عشرين ألف نفس^(٢) . وكذا كان الحال بسائر المدن الإنجليزية التي لم تبلغ واحدة منها عشر معشار ذلك العدد من السكان ، وكذا كان الحال في الأراضي المنخفضة — أى هولندا وبلجيكا الحالية — حيث جرت العادة حتى أواخر العصور الوسطى أن تنفق المدينة — على تقدير المؤرخ بيرن — ما لا يقل عن خمسة أثمان ميزانياتها العامة في حفظ الأسوار وإعداد المعدات للحرب والدفاع .

(١) المقصود بهذا التعبير الاصطلاحي في التاريخ العام طبقة الناس من أرباب التجارة والمهن المختلفة ، دون رجال الدين الذين هم الطبقة الأولى ، ودون النبلاء الذين هم الطبقة الثانية . (زيادة) .
(٢) يبلغ عدد سكان لندن في العصر الحاضر حوالى عشرة ملايين نسمة ، وتبلغ مساحتها بإضافة ضواحيها إليها سيمائة ميل مربع . (زيادة) .

وفي إيطاليا كذلك عكفت المدن الكبيرة على إقامة الحصون وتنظيم الحيوش .
لأن الحروب لم تنقطع . بين المدن الإيطالية المختلفة ، على الرغم مما غدا لشبه
الجزيرة من زعامة مطلقة في مختلف الصناعات والتجارة الدولية ، إذ قاتلت
المدينة جارتها بسبب الخلاف على الحدود الإدارية والحقوق الإقطاعية ، أو بسبب
الأسواق وضرائب الطرق والجسور . أو بسبب التنافس على الأراضي الزراعية
وغير الزراعية المجاورة (Contando) . أو بسبب المشاركة في العداوات القديمة
والضغائن المتوارثة بين البهوت الكبرى ، حتى أضحت البحيرة في حد ذاتها من
أقوى العوامل في إثارة الأحقاد الطويلة الآماد . ويكفي أن تكون فلورنسا في طرف
من نزاع قائم ، لتكون بيزا وسبيينا وجنوة في الطرف الآخر من ذلك النزاع .
وإذا تحالفت ميلان مع بعض المدن ، فلن تكون هذه المدن كريمونا وباثيا
أبداً ، لأنه لم يكن من المعقول أن تحالف ميلان عدوة الإمبراطورية مدناً
ضالعة مع الإمبراطورين . وشبيه بتلك الحال ما كان بين بيزا وجنوة من
التنافس الذي ظلّ على أشده ، طالما ظل استغلال قورسيقا وسردينيا بينهما
موضع الخلاف الشديد . ولهذا كله لم يكن هدف من الأهداف السياسية
الجليلة الشأن هو الذي عين أغراض المدن الإيطالية المختلفة من التدخل في مسألة
النزاع والتخاصم فيما بين الإمبراطورية والبابوية ، فحسبُ فلورنسا أن تغدو
من حزب البابوية والجلوفيين ^(١) ، لتغدو جارتها سبيينا في جانب الإمبراطورية
والجلبتيين ^(٢) ، وإذا أضحت مدينة كريمونا جبلينية ، فلا بد أن تضحي مدينة
كريمونا جولفية . ومعنى ذلك أن النزاع والتخاصم فيما بين الإمبراطورية والبابوية
هيج العداوات الداخلية القديمة بين المدن الإيطالية ، دون أن يخلقها ألبتة .
لأن تلك العداوات — التي كان منها على سبيل المثال لا الحصر انتقامات
العصبة اللومباردية (Consorteria) من مدن الإمبراطورين ، وحروب التوسع
والمنافسة على المجال التجاري بين الجنوية والبيازنة ، فضلاً عن حروب الكرامات
والحزازات الفردية بين مختلف المدن — بدت كلها متأججة هائجة بين ربوع
إيطاليا قبل أن تبدر بادرة من النضال العام بين الإمبراطورية والبابوية . والواقع

أن ذلك النضال السياسى الهائل لم يكن له من الأثر فى المدن الإيطالية سوى أنه صيغ ضغائن قديمة بصيغة جديدة . وسعر نيراناً كان سعيها القديم لهيباً ، بدليل أن كل مدينة من تلك المدن استطاعت أن تجعل من سكانها جنداً من الخيالة والرجالة المنظمة ، غداة دخولها ذلك النضال .

وعلى الرغم من ذلك خطت التجارة والصناعة بمختلف المدن الإيطالية — فى القرن الثانى عشر الميلادى — خطوات متواصلة . فأخرجت دار الصناعة فى كل من البندقية وجنوة أساطيل بحرية للحرب وحمل المتاجر . وبلغت هذه الأساطيل من ضخامة العدد وسرعة الإنجاز ما لو شهده أحد من الجيل السابق للحملة الصليبية المعروفة بالأولى ، لامتلأت عينه تعجباً ودهشة . ولم يقتصر ذلك التقدم على إيطاليا فحسب . بل تعدّاه إلى غيرها من البلاد ؛ ففي فرنسا أصبحت الأسواق السنوية الستة بإقليم شامپانيا مراكز رئيسية لتبادل السلع وتسوية الديون الدوائية ، وغدت تلك الأسواق ملتقى التجار من أنحاء غرب أوروبا ، منذ أواسط القرن الثانى عشر الميلادى . وفى سنة ١١٢٧ م حصلت مدينة سانت أومر بإقليم الفلاندرز عن براءتها الإعفائية ، فكانت هذه أول حلقة فى سلسلة طويلة من البراءات الدالة على مبلغ الثراء الذى نعمت به المدن الفلمنكية جميعاً . وفى القرن الثانى عشر الميلادى كذلك أخذت أقمشة إقليم فريزيا وأقمشة مدينة أوجزبرج — والأصواف الخام من إنجلترا ، والمنسوجات الحريرية من باريس . تحرز شهرة دوائية ، بقدر ما لكلمة الدوائية من معنى فى العصور الوسطى .

وبلغ أدواق الفلاندرز من المهارة والحذق — فى تلك العصور — ما جعلهم يدركون قيمة النقد الثابت والعيار الواحد فى الموازين والمكاييل ببلادهم ، وذلك حين كان علم الاقتصاد السياسى فى طيّ الغيب البعيد . ومن ثم أخذت بعض المدن مثل غنت وبروج بالفلاندرز — وكولونيا وهمبرج بألمانيا — تشق طريقها نحو العظمة والظهور ؛ وتأسست ميناء لوبيك بشمال ألمانيا على البحر البلطى . سنة ١١٤٣ م ؛ وأضحيت مدينة لندن من ضخامة الثروة — فى عهد الملك ستيفن منتصف القرن الثانى عشر الميلادى — ما جعل زائراً إيطالياً يشيد بما صار إليه تجارها من وافر المال . فضلاً عن شامخ السلطان . ونتيجة

لذلك كله غدت أنهار الدانوب والراين ، والرون والسين ، سبلا سابلة للنشئة
العلاقات التجارية بين أنحاء العالم المتمدنين . وتوضحت مبادئ النظام
الاقتصادى الذى ثبتت على معاملة أوروبا حتى كشف القارة الأمريكية .
أى حتى أوائل العصر الحديث .

غير أن المدن الأوروبية التى خطت تلك الخطوات الرائعة فى طريق
الحياة ، بفضل ما امتازت به من قوة الاعتماد على النفس وحرية التنظيم النقابى .
أثناء القرن الثانى عشر للميلادى ، لم تتشابه فى مصائرهما النهائية ، بل اختلف
مصير كل منها عن الأخرى تمام الاختلاف . ففي إنجلترا اندججت المدن فى
نظام برلمانى قوى حدد من استقلالها ، ولكنه زاد من فائدتها ، وفى فرنسا بدأت
المدن بحركة قومونية^(١) ، وانتهت بالرضوخ لسلطان الملوك . أما فى ألمانيا وإيطاليا ،
فلم توجد حكومة مركزية تستحق الذكر ، فلا ملك مهيمن على شئون المدن .
ولا برلمان ضابط لنواحي النشاط المدنى ، وهذا هو السبب الذى أدى بالمدن
أن تبلغ — فى ألمانيا وإيطاليا — أقصى ما تستطيع من قوة واستقلال فى العصور
الوسطى ، حتى صار عدد منها دولاً داخل الإمبراطورية ، وألف بعضها
اتحادات للتجارة والحرب ، وأنزل بعضها الآخر بالإمبراطورية نفسها هزيمة
ساحقة . ومن هذه الصور وما تحتها من ألوان الحياة التى امتلأت بها المدن
الإيطالية ، ومن أنواع النشاط الذى أسهمت به عصابة المدن الهنسية^(٢) فى
التجارة وفن العمارة بشمال ألمانيا ، من ذا الذى يقول بعد هذا كله بأن انهيار
المركزية وحكومتها الإمبراطورية — الشاملة لإيطاليا وألمانيا — كانت كارثة على
الجنس^(٣) البشرى ؟

أما عصابة المدن الهنسية فأيام عظمتها هى القرن الرابع عشر الميلادى ،
حين كانت نقابات التجار وسيطرتها فى مدن البحر البلطى لا تزال بنجوة من
عوامل الفتنة الداخلية ، وذلك قبل أن يغير كشف العالم الحديد طرق التجارة

(١) انظر ما سبق هنا ، ص ١٩٩ ، حاشية ١ . (زيادة) .

(٢) انظر ما يلى هذه الصفحة ، وما بعدها . (زيادة) .

(٣) يشير المؤلف هنا إلى ما سبق أن أشار إليه فيما سبق (ص ١٤٠ - ١٤٢) من عقم
المحاولات الألمانية فى توحيد ألمانيا وإيطاليا ، تحت تاج إمبراطورى ألماني واحد . (زيادة) .

الأوربية ، وقبل أن ينشئ الإنجليز لأنفسهم أسطولا تجارياً . ففي القرن الرابع عشر الميلادى سنحت الفرصة للتاجر الألماني — دون غيره من التجار — أن يصبح وسيط المبادلة والمتاجرة بين بلاد الشمال الغربى من أوروبا ، وكثر عدد التجار الألمان الذين أيسروا من حمل الأصواف الخام من إنجلترا ، والأقمشة الصوفية من إيطاليا ، والغلل من شمال فرنسا ، والأنبذة من غسقونيا ، والفراء الثمينة من البلاد السكندنافية ، والمنسوجات الرفيعة من الأراضي المنخفضة ، والأسماك من مياه البحر البلطى . والواقع أن التجار الألمان وأشباههم من تجار البلاد الأوربية الواقعة شرق إنجلترا — وهم الذين أطلق عليهم الإنجليز اسم إيسترلنج (Easterling) أى الشرقيين ، غدوا عاملاً هاماً فى تجارة إنجلترا الخارجية ، بل أصبحوا شخصيات مألوفة فى لندن قبل بداية القرن الرابع عشر الميلادى . وبلغ أولئك التجار من الثراء والاستقرار بنقايتهم (Hans) الخاصة بهم فى لندن ، وبالغرفة التجارية (Guild Hall) الخاصة بالعاصمة الإنجليزية نفسها ، أن صيغة مختزلة من لفظ إيسترلنج — أى إسترلنى (Sterling) — صارت علماً على الوحدة الذهبية فى النقد الإنجليزي ، حتى العصر الحاضر .

غير أنه لا ينبغي أن يتبادر للذهن أن التجارة كانت آمنة أو سهلة لدى التاجر الألماني فى تلك العصور ، فالبهار لم تكن خالية من القراصنة ، والطرق لم تكن خالية من اللصوص ، وهؤلاء وأولئك بالإضافة إلى النبلاء الإقطاعيين ، أصحاب المكوس والمقررات الباهظة على الجسور والمعادى التى يمر عليها التاجر بتجارته . وفضلاً عن هذه المعائر الكثيرة سيطر الدانيون بشبه جزيرتهم (الدانمرك) على مضيق السّوند الواصل بين بحر الشمال والبحر البلطى . وجعلوا من وضعهم الجغرافى العاصف شجئاً فى حلق ألمانيا ، ومصدراً لإيذاء السفن الألمانية المستخدمة فى التجارة وصيد الأسماك . ولذا وجب على التجار الألمان أن يأخذوا الدانيين المزعجين بشيء من السياسة ، وأن يحيطوا محطات التجارة الألمانية فى إنجلترا وإسكندنافيا بشيء من الامتيازات عن طريق الشراء بالمال ، وأن يؤمنوا سفن التجارة وصيد السمك ببعض وسائل التأمين . غير أن القيام على تلك الواجبات لم يكن فى مقدور مدينة من المدن الألمانية بمفردها ، بل تعين عليها جميعاً أن تتحد ، وأن تعتمد على اتحادها كل الاعتماد ، لأن الإمبراطور

كان معظم الأحيان في شغل بشئون الإمبراطورية في إيطاليا البعيدة ، ولأن دوقية سكسونيا بشمال ألمانيا - وهى الدوقية التى طالما حمت المتاجر والمصالح الألمانية عموماً من عادية الدانين وغير الدانين بحكم وضعها الجغرافى - لم تعد فى شىء من سالف قوتها وهيبته بعد موت هنرى الأسد^(١) . ومع هذا كله لم تستجب طوائف التجار إلى نداء المصلحة إلا بعد تردد طويل ، ومفاوضات أطول ، فاتحدت لوبيك وهمبرج أخيراً سنة ١٢٤١ م ، وأخذ ذلك الاتحاد يتسع رويداً رويداً حتى شمل محيطه جميع المدن الهامة من نوفجورود فى روسيا إلى بروج ببلجيكا الحالية . غير أنه ظل اتحاداً من التجار فحسب ، ولم يكن لنيل من التلاء الإقطاعيين أو صاحب مهنة من المهن الصناعية الناهضة شىء من السلطان فى هذه الجمهوريات المدنية التجارية ، ولم يظهر من برلماناتها رجل ذو عبقرية سياسية كبيرة ، بل لم يصبح تجارها من أهل السياسة إلا صدقة واضطراً لحل المشاكل الخاصة بالتجارة . ثم إنه لا يوجد لدينا ما يحمل على الظن بأن أولئك التجار فكروا يوماً من الأيام فى تكوين اتحاد سياسى دائم ، يشمل البلاد الواقعة على البحر البلطى ، وينهض بأعباء شئونها العامة ؛ بل قنعوا بمعالجة الشئون التجارية التى تعرض لهم ، دون أن يجعلوا لاجتماعاتهم أوقاناً معينة ، أو يلتزموا عدداً معيناً لعقد تلك الاجتماعات ؛ بل لم يقيم أولئك التجار بدور حاسم فى سياسة البلاد الأوروبية الشمالية إلا مرة واحدة ، حين اضطدمت مصالحهم بمصلحة فالديمار الثالث ملك الدانمارك ومطامعه ، وخاضت جيوشهم ضده حربين شهيرتين فى تاريخ العصبة الهنسية . ثم انتهى القتال بين الفريقين المتحاربين سنة ١٣٧٠ م ، بمعاهدة سترالسند ، وهى المعاهدة التى جعلت للعصبة المظفرة حق الإشراف على مضيق السوند ومضايد الأسماك فى البحار المجاورة ، فضلاً عن حق التدخل فى اختيار الملك بالدانمارك ، وبدا كأن إمبراطورية تجارية مركزها مدينة لوبيك توشك أن تنأسس على شواطئ البحر البلطى . وكانت لوبيك زعيمة بتلك المكانة لو أن إمبراطورية حلت محل العصبة الهنسية بشمال أوروبا ، بدليل ما كتبه السائح الإيطالى الموهوب

(١) انظر ما سبق ، ص ٢٠٤ - ٢٠٥ . (زيادة) .

إنياس سلقينوس سنة ١٤٥٨م. «إن لوييك بلغت من وفرة الثروة والقوة ما جعل كلا من الدانمارك والسويد والنرويج يرى من الطبيعي أن يكون تعيين ملوكها أو عزلهم رهن مشورتها المحلية». غير أن حلم الإمبراطورية أو ما يشبه الإمبراطورية بشمال أوروبا لم يتحقق، لأن العصبية الهنسية لم تستطع أن تنجب عبقرية من بناء الدول مثل روبرت كليف الذي أنجبته شركة الهند الشرقية، ولأن روح التعاون في ألمانيا العصور الوسطى لم تستمر في مستوى ثابت أو مثمر، بأية جهة من الجهات الألمانية يوماً من الأيام.

وفي النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي أخذت عصبية المدن الهنسية تمشي في طريق الانحلال تدريجاً. حتى ذهب عنها سلطانها ومغناها؛ إذ حولت الأسماك أنوفها الموقنة عن شواطئ البحر البلطى إلى شواطئ بحر الشمال، فغدت مصايد الجزر البريطانية مصدر العيش الحلال لأجيال وأجيال من الصيادين الإنجليز والإسكتلنديين، واختفى التجار الإيسترنج من ميادين التجارة البريطانية. وحل محلهم تجار بريطانيون. وفي أواخر ذلك القرن تطورت الأوضاع السياسية تطوراً غير ملائم لمصالح الشركة العامة للتجار الألمان (General Company of German Merchants). وهو الاسم الرسمي لعصبية المدن الهنسية. فظفت سلطات الملكيات السكندناوية - وغيرها من الملكيات الشمالية - على سلطات أرباب المدينة من تلك المدن. بل تبين أن ولاء الواحدة من تلك المدن للمملكة التابعة لها أقوى بكثير من ولائها لاتحاد لم يكن في الواقع ونفس الأمر إلا شركة تجارية. متحادة متنافساً أعضاؤها بين بعضهم وبعض، برغم ما بينهم من مصالح متعددة ومنافع مشتركة. ثم ما لبث كل من براندنبرج وبرجنديا والسويد أن قضى على عصبية المدن الهنسية ونفذها في إقليمه، حتى إذا انتهى القرن الخامس عشر الميلادي أمست تلك العصبية ومدنها في حال بعد حال.

ولو كان بين الممالك السكندناوية وحدها شيء من الرابطة في اتحاد متين، لاستطاعت أن تناهض التقدم التجاري بشمال ألمانيا في العصور الوسطى مناهضة خطيرة. لكن اتحاداً حقيقياً بين الممالك السكندناوية

لم يوجد ألبتة ، اللهم إلا اتحاد كالمار (١٣٩٧ - ١٥٢٣ م) ، حين غدت الدانمارك والسويد والترويج كلها تحت التاج الدانمركى . ومع هذا لم يكن حكم الدانمرك نافذاً أو خالياً من المقاومة فى السويد ، بل تطورت المقاومة السويدية ضده إلى حركة ثورية عنيفة ، وألقى السويديون نير التبعية الدانية عن عواتقهم وسط حوادث جعلتهم يبغضون الدانيين بغضاً لا تمحوه الأيام . ذلك أن الملك الطاغية كرسثيان الثانى - ثالث الملوك من أسرة أولدنبرج الألمانية التى حكمت فى كوبنهاجن منذ سنة ١٤٤٨ م - ظن أنه يؤسس للحكومة الدانية فى السويد - وهى حكومة أعوزتها مبادئ الثقة والمهابة - إذا هو دبر لأعدائه السويديين مذبحاً تجهز عليهم أجمعين ، فى غير شفقة أو هوادة ؛ فكان له ما دبر فى يوم شهدته مدينة أستوكهلم وهى فى بحر من الدماء . غير أن السويد لم تلبث أن انتقمت لنفسها من تلك الجريمة الشنيعة ، إذ قام شاب من شبانها - وهو جستاف إريكسون الذى عُرف فيما بعد باسم جستاف فازا - على رأس مواطنيه من الفلاحين السويديين لطرد الأجنبي عن البلاد . وكانت قيادة هذا الشاب السويدي حرب التحرير (١٥٢٠ - ١٥٢٣ م) هى التى جعلت منه مؤسس أسرة قومية مالكة ، وأذنت للسويد بعصر البطولة فى تاريخها . مثلما أذنت أعمالاً شبيهة للزعيم وليم ولاس بعصر الكفاح الإسكتلندى ضد الإنجليز^(١) .

بعض المراجع لهذا الفصل

- Ashley (W.J.) : Economic Organisation of England. 1914.
 Gross (C.) : The Gild Merchant. 1890.
 Lodge (R.) : The Close of the Middle Ages. 1923.
 Pirenne (H.) : Histoire de Belgique. 1909.
 Pirenne (H.) : Mediaeval Cities, their Origin and the Revival of Trade.
 Tr. H.P. Halsey. 1925.
 Schaefer (D.) : Die Hanse. 1903.
 Sismondi (J.C.L.) : History of the Italian Republics. (Everyman's Library). 1907.
 Zimmern (H.) : The Hansa Towns. 1889.

(١) انظر الفصل التاسع عشر ، فيما يلى بالقسم الثانى من الكتاب . (زيادة) .

الفصل الرابع عشر

البابوية والبابا إنوسنت الثالث

بلوغ البابوية أوج سلطانها زمن البابا إنوسنت الثالث - الإحياء الإنجيلي - القديس فرنسيس - تحدى الألبيجنسيين سلطان البابوية - القديس دومنيك - الفرنسيسكانيون والدومنيكانيون - هرطقة يواقيم الفلورى وسيجر البرابانتى - انتصار الكنيسة على نقادها :

شهدت مطالع القرن الثالث عشر الميلادى حلم السيادة على العالم يبعث بعثاً جديداً فى سياسة أحد البابوات ، بعد أن خيل للناس أن ذاك الحلم ذهب بذهاب الإمبراطور هنرى السادس^(١) سنة ١١٩٧ م . وهذا البابا هو إنوسنت الثالث ، الرومانى المعتز برومانيته العريقة المتكبرة ، والقانونى الضليع فى القانون الكنسى ، وهو الذى اقتعد الكرسي البابوى منذ السابعة والثلاثين من عمره ، واستغل ما غشى نجم الإمبراطورية من أفول مؤقت ، فرفع من شأن البابوية وسلطانها إلى أعلى عليين . هذا هو البابا الذى فرض الكنيسة الرومانية الكاثوليكية فرضاً على القسطنطينية وكنيستها الأرثوذكسية ، ولم يتهيب أن ينزل الحرمان الدينى بإنجلترا وفرنسا ، أو أن يبدأ أعظم الحروب الصليبية الإسبانية نجاحاً ضد دولة المسلمين الموحدين^(٢) ، أو أن يحصل من ملوك إنجلترا وأراجون ونبرغال على الاعتراف بأنهم يتولون حكم بلادهم إقطاعاً من الحضرة البابوية . وهذا هو البابا الذى لم يحجم عن إصدار القرار بحرمان حنا ملك إنجلترا من رحمة الكنيسة ، حتى إذا أقرّ الملك بخطيئته وأمسى خاضعاً للبابوية ، التفت البابا

(١) انظر ما سبق ، ص ٢٠٧ - ٢٠٨ . (زيادة) .

(٢) يشير المؤلف هنا إلى نجاح البابا إنوسنت الثالث فى إثارة ملوك أوروبا لمساعدة ألفونس الثامن ملك قشتالة ، فى حملة صليبية أوربية ضد الموحدين أصحاب إسبانية الإسلامية وقتذاك ، هى الحملة الصليبية التى انتهت بهزيمة الموحدين فى وقعة لاس نافاس دى تولوزا ، سنة ١٢١٢ م .

(Orton : A History of Europe. Methuen. p. ١5٥) . (زيادة) .

إلى البارونات الذين ثاروا ضد حنا حتى استكتبوه العهد الأعظم ، فضرب أولاً بالعهد الأعظم عرض الحائط ، ثم أصدر قراراً بحرق أولئك البارونات كذلك من رحمة الكنيسة ، في غير وجل أو خشية . وهذا هو البابا الذي طرد الألمان من أواسط إيطاليا وصقلية ، وحفظ حقوق وصيه فردريك بن هنرى السادس في مملكة صقلية ، وأثار حرباً أهلية مروعة في ألمانيا ، وأخذ من ثمّ يعين الأباطرة ويعزلهم وفقاً لشروط ملائمة للكنيسة ، وما زال يعمل في القضاء على الهرطقة الألبيجينية (١) التي انتشرت بجنوب فرنسا حتى هدمها وأهلها ، وهدم بذلك حضارة شعب ذي همة ونشاط (٢) .

وهذه الأعمال الدينيوية المتشعبة توحى بأن بابوية إنوسنت الثالث ثيوقراطية استبدادية ، تقبلها الناس في ذلة وخنوع . غير أن هذا القول ليس من التاريخ في شيء ، لأنه مع التسليم بأن الحقوق التي ظل إنوسنت يدعيها لمنصبه السامي لم تعرف حداً ، فالسرّ في ذلك الادعاء أنه اعتقد اعتقاداً حرفياً أن البابوية خليفة المسيح في الأرض ، وأن البابا ملك في أمور الدين والدنيا ، مثل ملكي صادق (Melchisedec) الذي جاء ذكره في سفر التكوين بكتاب العهد القديم (٣) . ومعنى ذلك عند إنوسنت الثالث أن للبابا السلطة المطلقة في كل شيء ، (plenitudo potestatis) ، ومن حقه أن يكون اختيار الأباطرة وفقاً على مشيئته ، مثله في ذلك مثل البسا با ليو الثالث الذي نقل الإمبراطورية من البيزنطيين إلى الفرنجة في شخص شلمان .

(١) الألبيجينية حركة دينية ظهرت بجنوب فرنسا أوائل القرن الحادى عشر الميلادى ، وهى تنكر على الكنيسة الكاثوليكية ورجال الدين ما انغمسوا فيه من مبادئ ومقاسد وقتذاك . واشتقت هذه التسمية من كلمة (Albi) ، وهى مدينة بأقصى الجنوب من فرنسا الحالية ، لانتشار الحركة منها إلى غيرها من البلاد الفرنسية الجنوبية . وهذه الحركة تسمية أخرى ، وهى الكاثارين (Catharists) أى المتطهرين ، لأن أتباعها دعوا إلى التطهر والتخلص من الشر والخطايا الناجمة عن التعلق بالدينيوية والاستسلام للماديات ، وحرمو على أنفسهم التملك والزواج وأكل لحوم الحيوان وسفك الدماء . (انظر ما يلى ، ص ٢٣٨ - ٢٣٩) . (زيادة) .

(٢) عمد المؤلف هنا إلى إحصاء أعمال البابا إنوسنت الثالث كلها في عبارات مختصرة سريعة . مما سوف يشرح بعضه فيما يلى بهذا الفصل ، مثل الهرطقة الألبيجينية (ص ٢٣٧ - ٢٣٨) هنا ، وفى ص ٢٤٩ كذلك . على أن معظم هذه الأعمال البابوية يتعلق بتاريخ إسبانيا وألمانيا وفرنسا ، (٣) انظر العهد القديم : سفر التكوين الإصحاح الرابع عشر ، ١٨ - ٢٠ . (زيادة) .

ولم ير أحد من معاصري إنوسنت في هذه الآراء شيئاً استبدادياً أو خارقاً
 لنمأوف . إذ جرى العرف منذ القديم أن السلطة الروحية تسمو على
 السلطة الزمنية ، وأن البابا في المسيحية هو الملاذ الأعظم والموئل النهائي في كل
 الأمور المتعلقة بالعقيدة والنظام الكنسى . ولا قبل لكائن من كان أن ينكر
 ما للبابا من قدرة على حرمان الملوك من رحمة الكنيسة : فضلاً عن ذلك
 المجتمع ونظامه في أية دولة من الدول ، بإحلال أهلها من واجب الولاء والطاعة
 للملوكهم ، أو بتطبيق عقوبة الحجر الصارمة على بلادهم . ذلك أن أهل القرن
 الثالث عشر الميلادى توافقوا على أنه لا بد من سلطة مركزية في الدين ،
 بحيث تكون تلك السلطة هى الفيصل الروحي الأعلى في الشئون الدينية ،
 والمصدر الذى تنبع منه القدسية والعدل ، والمحكمة العليا التى يرفع الناس إليها
 ظلاماتهم . ولا جرم أن المحكمة البابوية أشبعت تلك الحاجة الأخيرة تمام
 الإشباع وقتذاك ، بدليل الكثرة الهائلة في عدد الدعاوى التى رُفعت إلى المقام
 البابوى ، منذ أضحي من المعروف أن روما — على عهد إنوسنت الثالث —
 هى الملجأ لكل ذى مظلمة أو شكاية مهما كان مصدرها .

غير أن هذا التوافق الظاهر أخفى تحته ألواناً كثيرة من العقيدة والخبرة
 بأساليب الحياة ، لأن العصور الوسطى لم تكن من التقوى والفضيلة والاستقامة
 في الدين — ولا من الغناء والبلادة — مثلما يتبادر إلى أخيلة الكثيرين من
 الناس ، بل نبت بالمجتمع الوسيط من الفساد والرذيلة الأخلاقية والاعوجاج
 مثلما نبت به من الزهد الشديد ، وتكوّن فيه من الهرطقة مثلما تكوّن بأرجائه
 من الإذعان والإيمان بما جاءت به الكنيسة . وظهر به من التقدم الفكرى
 ما لو تسلط وقتذاك على أسرار الطبيعة بالفحص لاhtدى إلى العلم الحديث
 وما فيه من الفوائد منذ قرون ، لا منذ القرن التاسع عشر الميلادى فقط .

والواقع أن المشكلة التى واجهتها البابوية في القرن الثالث عشر الميلادى ،
 هى مشكلة العثور على أضمن الوسائل التى تكفل لها السيطرة على مجتمع
 أضحي وافر المعرفة من أثر الحروب الصليبية . كما أضحي على شىء من
 الخبرة ، بفضل ما شاع به من حب الأسفار والرغبة في التملك والجرى وراء

الذات ، وهو بالإضافة إلى هذا كله مجتمع غدا مبلى الأوضاع ، بسبب ما تفتح له من واسع الآفاق بالشرق الأدنى وما وراءه من البلاد ، وما استتبعه ذلك من تطور هائل في الأهداف السياسية . فضلاً عن النشاط الفكرى في الحياة العقلية . ومن الدليل على هذا وذاك أن عصر البابا إنوسنت الثالث يوافق عصرًا باهرًا في نمو الشعر القومى في اللغتين الألمانية والفرنسية ، وهو شعر يدين بدوافعه ومؤثراته في غير شك إلى روعة الحرب الصليبية ، وإن استوحى مادته من أحداث قومية سابقة لتلك الحروب . واستمد مثله العليا من عواطف الفروسية التى سادت وقتذاك في أوساط العلمانيين من الإقطاعيين . وهذا هو العصر الذى أنتج فيه النظامون المعروفون باسم المينسينجرز (Minnesingers) في ألمانيا ، والتروبادور (Troubadours) في بروفانس بفرنسا الحالية ، أبدع ما أنتجوا من القصص الغنائى المنظوم ، مثل قصة باريسفال التى ألفها ولفرام إشبناخ ، وقصة ترستان وإيزولده التى كتبها جوتفريد سالزبرج ، وقصة نيبلجنلند التى أحياها مؤلفها روح التاريخ الألمانى البعيد .

على أن ظهور الروح العلمانية الجديدة - فى الآداب القومية لم يكن سوى الناحية الأولى من نواحي الشعور بالحرية التى أدركت أوروبا ، فى ذلك القرن . وكانت حركة الإحياء الإنجيلى هى الثانية ، وحركة الهرطقة الإيجابية القوية هى الثالثة . أما حركة الإحياء الإنجيلى التى بدأها القديس فرنسيس الأسيسى والقديس دومنيك القشتالى . فهى إحدى الحركات التى تصدر من أعماق القلوب ، وتتسم بسمة التضحية الخالصة . فتظل حتى بعد اختفاء أصولها ومقاصدها النقية ذات أثر دائم فى نفوس الناس ، على مرّ الأجيال والعصور . وأما القديس فرنسيس فولده سنة ١١٨١ م - أو سنة ١١٨٢ م - ببلدة أسيسى الصغيرة فى إقليم أمبريا بأواسط إيطاليا . حيث كان أبوه تاجرًا غنيًا من تجار الأقمشة . وغدا فرنسيس شابًا مرحًا عارمًا معطاءً . يتعشق الفروسية ويهوى حياة الجندية . ثم طرأ على حياته ما غيره تغييرًا كليًا ، إذ اشترك ذات يوم فى معركة بين بلدته وبلدة بيروجيا المجاورة ، فوقع أسيرًا فى أيدي البيروجيين . وظلّ فرنسيس فى أسر مدة مرض أثناءها مرضاً كشف عن صفات العبقريّة

الدينية التي انطوت عليها نفسه ، من حب خالص ، وبساطة متناهية ، ولطف ومرح ، مع سرعة الاستجابة لآلام الغير ، فضلاً عن النجدة والدماثة والرمزية الرفيعة ؛ وهى الصفات التي جعلت من القديس فرنسيس تميعة ساحرة تجمع دائماً بين المسيحيين ، على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم . ففي يوم من الأيام لقي فرنسيس القديس رجلاً أبرص ، فتزل عن بخلته ، وقبل الرجل دون أن يتحرّج أو يتصوّن . واستمع فرنسيس مرّة لصوت يهتف به أن يقوم بإصلاح كنيسة خربة قرب أسيسى ، وهى بلدته الأصلية ، فتنسك وانقطع عن أهله جميعاً ، وعاش على صدقات المتصدقين ، وعمل بيديه فى ترميم الكنائس المهجورة بالجهات المجاورة لبلدته . واستمع ذات مرة أخرى فى ٢٤ من فبراير سنة ١٢٠٨م إلى واعظ - بكنيسة پورتيونكولا (Portiuncula) فى بلدته أسيسى - يقرأ الإصحاح العاشر من إنجيل متى ، ونصه « وفيما أنتم ذاهبون اكرزوا قائلين إنه قد اقترب ملكوت السموات ، اشفوا المرضى ، أبرئوا الأبرص ، وأقيموا الموتى وأخرجوا الشياطين ، مجاناً أخذتم مجاناً أعطوا ، لا تقفتم فى مناطقكم ذهباً ولا فضة ولا نحاساً ، ولا تتخذوا مزوداً للطريق ، ولا ثوبين ولا خفين ولا عصاً ، لأن الأجير مستحق لأجره » ! فأصابته هذه الكلمات هوى فى قلب فرنسيس ، فانطلق على وجهه فى العالم عارى القدمين يدعو إلى التوبة .

والننى فرنسيس ذلك العالم بحاجة كبيرة إلى التوبة ، فالأحوال الدينية على أشد ما تكون من القلق والاضطراب : والمؤسسات الديرية العظيمة التى نشأت فى جرامون وكليرفو وپريمونترية بفرنسا ، مدة القرن الثالث عشر الميلادى ، غدت - بعد حماسها الأولى - راضية بالانغماس فى إدارة ممتلكاتها ، وبيع أصواف أغنامها ، والاضطلاع بمختلف المسئوليات التى تنجم عادة عن امتلاك الأراضي . وأدهى من ذلك أن أعظم البابوات نفوذاً وسلطة - وهو إنوسنت الثالث نفسه - أخذ يجرى وراء مشاريع دينوية ضخمة ، دون أن يأبه لما راح فى سبيل تلك المشاريع من دماء^(١) . وحارت عقول كثيرة

(١) يشير المؤلف هنا إلى الدور الذى قام به إنوسنت مدة التنافس على الإمبراطورية بين اتو الرابع وفيليب أخى هنرى السادس ، مما أدى إلى فتنة داخلية دامية فى ألمانيا ، من سنة ١١٩٧ إلى =

من هول الاختلاف بين ما كانت عليه المسيحية الأولى ، وما أصبحت فيه الكنيسة من غنى ودعة وعافية وطموح ! وذاعت التنبؤات بين الناس باقتراب عصر جديد عماده المحبة ، وقوامه روح القدس ، لإزالة ما انغمر فيه العالم من استهتار بالقانون والرحمة الإلهية . وانتشرت الهرطقات بين الطبقات الفقيرة التي لم يمسه شيء من التربية أو التعليم ، وكان انتشارها احتجاجاً على ما ناءت به تلك الطبقات من المطالب الدينية ، وسخطاً من المادية التي خالها الناس من عمل الشيطان ، حتى قيل إنه كان في ميلان وحدها سبعة عشر مذهباً هرطقياً . وفي إيطاليا بالذات — وهي البلد الذي خربته الحرب الأهلية والكراهية والأحقاد — أخذ الناس يتلمسون من البابوية شيئاً يستطيعون الركون إليه في حياتهم المضطربة القلقة ، دون أن تستطيع البابوية أن تمدهم بشيء ، لأنها — وهي مصدر الفطنة والدراية بالقانون الكنسي ، ومصدر العدل الخالص والقسطاس المستقيم — عاشت بعيدة كل البعد عن الفقير والبائس والمحروم .

ولذا كان إنوسنت الثالث حكيماً كل الحكمة حين أقرّ بعد شيء من التردد طريقة القديس فرنسيس . وحين أجاز لهذا القديس أن يصبح قسيساً داخل الهيئة الكنسية ، فاندججت بذلك في سلك الكنيسة قوة دينية هائلة لو لم تندمج في صفوفها لكانت خسارتها فادحة . هذا هو أصل الفرنسيسكانيين إخوان القديس فرنسيس . وهم الذين أطلق عليهم اسم الإخوان الفقراء (Fratres Minores) أو الفقراء الرماديين (Grey Friars) إشارة إلى لون طبايسهم ، أو الفقراء (Minorites) من غير صفة ما^(١) . ولم يلبث أولئك الإخوان أن انتشروا في أرض إيطاليا . يعظون بالإيطالية بين قوم هم قومهم وعلى شاكلتهم في البساطة ، ويدعون إلى التقشف والتوبة حيثما وجدوا إلى الدعوة سبيلاً . بمختلف القرى الصغيرة على بعد مزارها ، وفي الأحياء الفقيرة بالمدن الكبيرة رغم هرطقها . وما زاد في قوة تلك الحركة أن دعائها الأوائل لم يكونوا من رجال الدين أو من

= سنة ١٢٠٩ م ، وهو ما أشار إليه المؤلف إشارة عابرة فيما سبق هنا ، بأول صفحات هذا الفصل ، ص ٢٣١ - ٢٣٢ . انظر كذلك (Camb. Med. Hist. Vol. V. pp. 49-71) (زيادة) .

(١) يسمى الإخوان الفرنسيسكانيون كذلك باسم الكورديليين (Cordeliers) ، إشارة إلى الزنار الذي يشدون به أوساطهم . (ريادة) .

المدرسين المتمرسين بأساليب الجدل والحوار والإقناع . لأن الدعوة الحالية من المحسنات اللفظية والتزويق أدخلُ إلى قلوب الطبقات الأمية وعقوبها حين يلقونها إليهم - في لغتهم الدارجة - رجال ونساء اتخذوا من جمال التقشف والقناعة والمحبة والتواضع شعائر لأنفسهم . وجعلوا من تلك الشعائر أساساً لمواعظهم . وبفضل تلك القوة الدينية الدافقة انقلب الذين لم يكن هم من الإيمان فيما مضى إلا الاسم . فأصبحوا متمسكين بالدين . وأخذ الذين هترطقوا في التخلي عن هرطقاتهم . والخلاصة أنه ليس من المبالغة في القول أن تعجيب إيطاليا ويلات حملة صليبية - على غرار الحملة التي أنزلت بالألبيجنسيين في فرنسا ما أنزلت من الخراب - إنما يرجع إلى القديس فرنسيس وتلاميذه ، الذين أشبعوا الإيطاليين من طعام رطب سوغته الكنيسة ، بعد أن بدا أن الإيطاليين لن يجدوا شعباً إلا عن طريق الثورة الجاحمة والعصيان .

أما القديس دومنيك مؤسس الطريقة الدومنيكانية ، فيختلف عن القديس فرنسيس في أنه تعلم بمدرسة من المدارس اللاهوتية التي تؤهل أبناءها لوظائف الكنيسة . بل كان دومنيك من كبار الموظفين الكنسيين في إحدى الكندرايات الإسبانية . حين طرأ عليه ما غير من حياته تمام التغيير . ذلك أن هرطقياً من هراطقة مدينة تالوز صادف دومنيك وهو يعمل في الحملة الصليبية ضد الألبيجنسيين . وجادله جدالاً جعل غايته الكبرى طوال حياته أن يحمي الإيمان الصحيح من دعاة الهرطقة الألبيجنسية - أو الكاثارية^(١) - التي اجتاحت جميع ما خالفها من عقائد قديمة بجنوب فرنسا . وظل دومنيك خلال السنوات الإحدى عشرة (١٢٠٥ - ١٢١٦ م) . التي ناضلت فيها البابوية ضد الألبيجنسية . يناضل هو تلك الحركة في ميدانها ، بالقيام بين الألبيجنسيين بتفسير العقيدة الصحيحة ودحض الهرطقات ، حتى جمع حوله طائفة على شاكلته من الواعظين المتوقدين حماسة للدين .

واقنع ذلك القديس الإسباني ، منذ المرحلة الأولى من هذا النضال ، بأن السبيل إلى التغلب على الألبيجنسية لا يتأتى إلا عن طريق مقارعة

(١) انظر ما سبق ص ٢٣٢ ، حاشية ١ . (زيادة) .

الحجة بالحجة ، ومقابلة القوة الخلقية عند الأليجنسيين بقوة مساوية . وتفصيل ذلك أن أولئك الأليجنسيين اعتنقوا طريقة متطرفة في الزهد . وراضوا عليها أنفسهم إلى حد كبير ، وجعلوا من لزوميات الداخل في طريقهم أن يتخذ في حفل ترسيمه (Consolamentun) خطاً مقدساً . كما يفعل براهمة الهند ، وأن يتبرأ من أعمال الشيطان الرجيم والكنيسة الكاثوليكية . ونزولاً على الاعتقاد بأن المادة في ذاتها شرّ وبلاء ، حرم الأليجنسيون الزواج . وعاشوا على الخضراوات ، وأنكروا سفك الدماء ، في السلم أو الحرب سواء . غير أن بلوغ مرتبة الكمال في هذه المدرسة الصارمة – القائمة على مبدأ التصوف وتهذيب النفس بالتقشف – لم يكن منتظراً أو مستطاعاً لدى جميع الأليجنسيين . بل اقتصر على الذين يطبقون بلوغ هذه المرتبة ، وهم قليلون ؛ وأولئك إذا ماتوا استحالوا – على قول الأليجنسيين – إلى أجسام روحانية دون توقف أو حساب ، وتعين على الكنيسة أن تجعل أرواحهم المصطفاة الطاهرة موضع القديس والإجلال . وتلفت دومنيك حوله ، فأبصر أن الأليجنسيين ينجون فرنسا سوف يتغلب بتقشفه وروحانيته على المبعوثين البابويين والرؤساء الديرين الذين أفسدتهم نعومة الحياة ، وسوف يعجز هؤلاء وأولئك عن إرجاعه إلى حظيرة المسيحية . ومن أجل ذلك أخذ دومنيك على نفسه – وهو القشتالي الذكي – أن يعيش طوعاً عيشة المتقشف ، ودعا إخوانه ومريديه أن يحذوا حذوه ، لاحقاً في التقشف والروحانية ، بل ابتغاءً لوسيلة من وسائل التأثير في الناس . ثم التقى دومنيك بفرنسيس في إيطاليا ، حيث تحقق لديه في صورة واضحة أن الإعراض عن متاع الدنيا ليس أداة للتضال ضد الهرطقة الأليجنسية المتطهرة بجنوب فرنسا فحسب ، بل مصدراً فياضاً بالقوة الروحية لكل مكان وزمان . ولذا عقد دومنيك النية على تأسيس هيئة للوعظ والإرشاد^(١) يكون الفقر عروتها الوثقى ، وتكون طاعتها لرئيس هيئتها وللبابوية مطلقة . وبارك

(١) أطلق على أتباع هذه الهيئة اسم الإخوان الواعظين (Preaching Friars) ، والإخوان السود (Black Friars) ، إشارة إلى لون طيايهم ، كما أطلق عليهم على الفرنسيين كذلك اسم الإخوان المتسولين (Mendicant Friars) ، إشارة إلى اتخاذهم الفقر والتسول والسؤال وسيلة للعيش والاتصال بالناس . (زيادة) .

لنوسنت الثالث ذلك المشروع سنة ١٢١٥ م ، كما بارك لمشروع القديس فرنسيس من قبل . وبات بيد البابوية جيش كبير من المخلصين للدين .

ومن الواضح أن ذلك الجيش الذى صار فى خدمة البابوية اختلف عن أى جيش سبق انضواؤه إلى لوائها ، لأن الإخوان الفرنسيسكانيين والدومنيكانيين كانوا على أهبة الذهاب إلى كل مكان ، والقيام بجميع ما يطلب إليهم أن يقوموا به من أعمال بعيدة الأسفار ، أو كبيرة الأخطار ؛ لأن الأسفار والأخطار لم تكن شيئاً عند أولئك الرجال الذين وهبوا أنفسهم للخدمة فى سبيل الدين ، وعاشوا خارجين عن سلطة الأسقفيات . مستقلين عن كل أسقف ما عدا أسقف روما ، وهو البابا . ولذا قلّ أن كان بأوروبا إقليم لم يتسرب إليه أخ من أولئك الإخوان ، وفى قلبه نفحة من نفحات الخدمة فى سبيل الدين . ولذا قلّ كذلك أن قام من المبشرين فى مختلف العصور بمثل ما قام به الفرنسيسكانيون والدومنيكانيون فى البلاد الخارجة عن دائرة المسيحية . إذ تنقلوا بين مراکش وتونس ، وارتحلوا إلى فارس والهند وأقصى أجزاء الصين . ووعظوا أخلاط العامة فى موانئ الشام . على أن جهودهم لم تقتصر على الخدمة الدينية والتبشير . لأن القديس دومنيك أراد أن تهتم طريقته وأهلها بالعلم ، بعد أن وضع له أن الوقت حان للدفاع عن الإيمان ضد خصومه من العقلين ، فاستعاض شرط التعليم — وهو شرط غير مألوف وقتذاك — عن شرط العمل اليدوى الذى تطلبتة الديرية البندكتية ، فى القرن السادس الميلادى .

ومن ثمّ غدا فرضاً على الدومنيكانيين أن يعدوا أنفسهم للكفاح العقلى والعمل المتواصل . فى ميادين المهرطقة والخطر على الدين . ثمّ لم يلبث الفرنسيسكانيون كذلك حتى طرحوا كراهية زعيمهم فرنسيس للتعليم من باب التقوى . ووردوا مناهل العلم والمعرفة التى سبقهم إليها الدومنيكانيون ، فلأوا الجامعات . وأسهموا فى علوم اللاهوت . وإذا فخر الدومنيكانيون على الفرنسيسكانيين بالعبقريين ألبرت العظيم وتوماس أكوينياس ، فأعظم عباقرة العصور الوسطى كان فرنسكانياً من أكسفورد ، وهو روجر بيكون الذى اتسمت نظرياته وتجاربه بالجرأة البالغة ، وامتناز عقله بالعمق وسعة الأفق ، حتى أضحى من العسير على الباحث أن يعرف من عسى يكون أكثر مقناً لذلك العملاق الجبار — هل يكون القديس

فرنسيس الذى خشى العلم وما يؤدى بصاحبه من الكبرياء العقلى ؟ أو يكون
 القديس دومنيك الذى مقت التحقيق فى طبائع الأشياء كل المقت ؟
 وكيفما يكن الأمر فى هذه المسألة الصغيرة . فالبحث فى تاريخ
 الفرنسيسكانيين والدومنيكانيين يتطلب التعريف بموضوع التملك عند أولئك
 الذين وهبوا أنفسهم لخدمة الدين ؛ وخلاصته من الناحية النظرية أن الإخوان
 لا يملكون على شىء من متاع الدنيا . ولكن الفرنسيسكانيين والدومنيكانيين فى
 الواقع تملكوا على كثير من الأراضى والبيوت والأموال ، مما وقفه الواقفون باسمهم
 على البابوية ، أو على مدينة من المدن ، أو على فرد من الأفراد . غير أنه مهما
 أنكر الروحانيون من الفرنسيسكانيين والدومنيكانيين على أنفسهم وحركتهم
 مبدأ التملك ، فمن الواضح أن قيام الإخوان على أعباء واجباتهم الرسولية فى
 صورة مجدية أو متصلة — ولا سيما فى المدن — أوجب شيئاً من الأوقاف .
 للصرف من دخلها على حاجاتهم الضرورية . ثم لم يلبث الفرنسيسكانيون
 والدومنيكانيون أن أصبحوا من أهل الثروة ، فجزّ عليهم ذلك ما تجرّه الثروة
 على أصحابها من أخطار ؛ ولم ينته القرن الثالث عشر الميلادى حتى أضحى
 الإخوان موضع الاتهام بالترف والبخل والجشع . ولم تكن هذه هى التهم الوحيدة .
 لأن وعظ الجماهير — مع اشتهاى الواعظ وطائفته بالثروة — جعل الإخوان عرضة
 لاتهامات أخرى . والواقع أن بعض متأخرى الواعظين من الإخوان الفرنسيسكانيين
 والدومنيكانيين عمل ما لا يعمل من قلة الحشمة ، وقلة الإدراك ، وقلة العلم ، فى سبيل
 التأثير فى جماهيره وتسليتها ، حتى غدا الإخوان فى نظر الناس من أهل القرى طائفة
 من المتشردين الفضوليين المهرّجين . بالقياس إلى الرهبان مهما بلغوا من حب
 العافية والحمول ، وإلى القساوسة المحليين مهما بلغوا من التزمت والجمود .

بعض المراجع لهذا الفصل

- Cambridge Mediaeval History. Vol. VI.
 Gebhart, (E.) : L'Italie Mystique. 1906.
 Lea. (H.C.) : History of the Inquisition of the Middle Ages. 3 vols. 1906.
 Renan, (I.E.) : Etudes d'Histoires Religieuses. 1858.
 Sabatier : Vie de. St François d'Assise. 1931.

الفصل الخامس عشر

الحملة الصليبية المعروفة بالرابعة

إنوسنت الثالث وسياسته الصليبية — نجاح البنادقة في تغيير اتجاه الحملة الصليبية المعروفة بالرابعة — فتح القسطنطينية على يد الصليبيين — ضعف الصليبيين — التنافس بين البندقية وجنوة — تضييع الفرصة السانحة لنشر الثقافة البيزنطية — انحلال الدوافع الدينية والأفكار الثيوقراطية

ليس في تاريخ القرن الثالث عشر الميلادي ما يمكن أن يدل على حقيقة السلطة البابوية — في ذلك القرن — مثلما يدل الإخفاق الذي أصاب إنوسنت الثالث في سياسته الخارجية . ذلك أن معظم ما تمتى هذا البابا العظيم هو استرجاع الأراضي المقدسة من المسلمين ، في حملة صليبية يكون له — وهو خليفة المسيح في الأرض — الفضل كل الفضل في إعدادها وتوجيهها . ولتحقيق تلك الأمنية رأى إنوسنت أنه لا بد من تسوية المنازعات السياسية بين ملوك أوروبا ، وإزالة الانقسامات الدينية الضاربة في ممالكهم . فضلاً عن توحيد الكنيستين البيزنطية الأرثوذكسية والرومانية الكاثوليكية . ليكون منهما إلباً كفيلاً بالقضاء التام على دولة المسلمين .

غير أن إنوسنت الثالث لم يفلح في إنجاز شيء مما حواه هذا البرنامج الضخم . مع دأبه على تنفيذه خلال بابويته : فلم تتحد أوروبا ألبتة ، وظلت الأرض المقدسة في أيدي المسلمين ، وحوّل البنادقة جيوش الحملة الصليبية الهائلة التي تجهزت لاسترجاع الأراضي المقدسة عن وجهتها الأصلية إلى الاستيلاء على القسطنطينية ، برغم تحذير البابا .

على أن المسألة التي تدعو إلى الالتفات هنا ليست إخفاق أقوى البابوات في تحقيق ما تمناه من هذه الحملة الصليبية المعروفة بالرابعة ، بل انحلال الدافع الديني الذي دلّ عليه ذلك الإخفاق الذريع . ومن الدليل على ذلك

الانحلال قول رتشارد الأول ملك إنجلترا مخاطباً فولك دى نبيّ داعى دعاة هذه الحملة الصليبية ، فى شىء من اسخرية المرة ، « تنصحنى بالإقلاع عن خلالى الثلاث - الكبرياء ، والشراهة ، والشهوانية . هأنذا أهبها إلى أعظم الناس استحقاقاً لها ، فالكبرياء لهيئة الفرسان الداوية ، والشراهة لرهبان سيتو^(١) ، والشهوانية لكبار الكنيسة » . وكيفما كان الأمر لم يستطع فولك دى نبيّ أو غيره من دعاة هذه الحملة الصليبية أن يغرى رتشارد الأول ملك إنجلترا ، أو فيليب أغسطس ملك فرنسا ، أو زعيمى الجويلفيين والجليليين^(٢) المتنافسين على الإمبراطورية فى ألمانيا ، بأن يستبدلوا بشئونهم الداخلية هذه المغامرة البعيدة . ولذا انتقل أمر هذه الحملة - بعد سلسلة من الحوادث المفاجئة - إلى جمهورية البندقية التى اعتمد على سفنها نبلاء فرنسا والفلاندرز وغيرهم ، ممن لبوا دعوة البابا فى السفر عبر البحر الأبيض المتوسط . غير أن جوّ الريالتو (Rialto) - وهو مقرّ الحكومة البندقية - اختلف كل الاختلاف عن جوفاتيكان ، إذ جمع البنادقة من الثروة والمال بفضل نشاطهم التجارى بين بلاد الشرق الأدنى وأهلها ما صرفهم عن التفكير فى إلتلاف قوة المسلمين ، وامتزجت قلة اهتمامهم لأموال الدين ، وكثرة أطماعهم فى التجارة ، بكبرياء جمهورية أضحت حديثاً فى حلّ من نير البيزنطيين . وغدت غير حريصة على قبول أى إملاء من روما . ولم تقنع البندقية بهذا الموقف الخطير ، بل رأى أنريكو داندولو دوجها العجوز حاجة الصليبيين إلى المال . لدفع نفقات عبورهم إلى الشرق ، فافترضها فرصة لخدمة مواطنيه . وعرض على الصليبيين أن تقوم البندقية بنقلهم على مراكبها إلى الشرق دون مقابل ، على شرط قيامهم لها أولاً بخدمة أصرّ البنادقة على تأديتها لهم قبل كل شىء .

وفكر الصليبيون أول ما فكروا فى الهجوم على مصر . اعتقاداً منهم أنهم إذا فتحوها أصبح استرجاع فلسطين أمراً مقضياً . لأن مصر مركز القوة الإسلامية فى الشرق الأدنى . غير أن البنادقة رأوا عكس ذلك . لأنهم لم يريدوا

(١) انظر ما سبق ، ص ٢١٨ . (زيادة) .

(٢) انظر ما سبق ، ص ١٩٦ . (زيادة) .

حرب مصر ، بل عقدوا مع سلطانها الملك العادل أخى صلاح الدين حلفاً يحوى عدداً من الامتيازات الهامة فى الأسواق المصرية ، ولذا بذلوا كل جهد فى تحويل الصليبيين عن ذلك الهدف . ونخال البنادقة أن الهدف الذى تفيد منه البندقية أكبر الفائدة ، يكون فى حملة ضد الإمبراطورية البيزنطية وإمبراطورها ألكسيوس الثالث أنجليوس ، الذى ضيق على البنادقة وجاليهم التجارية بالقسطنطينية أشدّ تضيق ، على حين أغدق الامتيازات على منافسيهم من البيزانة^(١) البغيضين . ومن حسن حظ البندقية أن الحوادث ساعدت على تصوير ذلك المشروع فى صورة خالصة لسداجة الصليبيين ، مع العلم بأنه لم يكن مشروعاً للانتقام من ألكسيوس الثالث وسياسته نحو البنادقة ، بقدر ما كان محاولة - فى الواقع - للقضاء على مدينة بيزا ومنافستها للبندقية وقتذاك ، فى تجارة البحر الأبيض المتوسط . أما تفصيل ذلك كله فهو أن ألكسيوس الثالث أنجليوس عرض نفسه لسخط الساخطين حين اغتصب الإمبراطورية من أخيه إسحاق ، بعد أن أمر بحبسه وسمل عينيه ، ولم يخفف من هذه الفعلة فى نظر الناس أن الإمبراطورية البيزنطية كانت متخبطة على عهد إسحاق المخاوع فى أقصى مهاوى الضعف والانحلال . ثم انطلق ابن إسحاق هذا - واسمه ألكسيوس كامم عمه المغتصب - فى رحلة إلى غرب أوروبا ، وراح يطلب العون والنجدة لإعادة أبيه إلى العرش ، ولم يلبث أن اجتذب إليه عديله فيليب سوابيا زعيم الجبلينيين فى ألمانيا ، وقريبه بونيفاس مونتفرات قائد الحملة الصليبية الجاثمة بإيطاليا ، فى انتظار ما سوف يكون من أمر البندقية وأسطولها الذى لابدّ للصليبيين من الاعتماد عليه ، فى الوصول إلى الشرق . على أن الأمير البيزنطى الجريح لم يتكلف شيئاً حين وعد رجال الحملة وعوداً تروى ظمأ الظامى إلى المغامرة والأسفار . وتثلج صدر التقى الراغب فى الرحلة إلى الأراضى المقدسة خدماً للدين . ذلك أنه تعهد بأن ينفق على الحملة مائتى ألف مارك من الفضة . وأن يشترك فى أعمالها بنفسه ، وأن يقدم عشرة آلاف رجل لإعادة فتح فلسطين . وأن يعدّ جيشاً مكوناً من خمسمائة فارس لحماية الهيئات المسيحية

(١) البيزانة أهل بيزا بإيطاليا . راجع القلقشنى : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤١١ . (زيادة) .

في الشرق . واغتر الصليبيون بهذه الوعود العريضة ، فوافقوا على مشروع البندقية . وبيتوا النية على خلع الإمبراطور المعصب ، دون أن يفكروا فيما عسى أن يتمخض عنه التدخل في شئون الدولة البيزنطية على هذه الصورة .

وبسبب الحوادث أول الأمر للبندقية وأسطولها الهائل في البوسفور . إذ سقطت القسطنطينية في أيدي الصليبيين في يوليو سنة ١٢٠٣ م ، بعد حصار قصير ؛ ولذا ألكسيوس الثالث أنجليوس بالفرار ، واعتلى إسحاق وابنه عرش الدولة البيزنطية من جديد . وكان من المأمول أن ينصرف الصليبيون إلى الغرض الأصلي من حملتهم ، بعد أن أعادوا الإمبراطور إسحاق إلى عرشه ؛ وبعد أن حققوا للبندقية أهدافها على هذه الطريقة . غير أن ذلك المأمول لم يتحقق ، إذ أخطأ الصليبيون حين ظنوا أن البيزنطيين سوف يلتفون حول إسحاق وابنه ، مع أن أولهما أعمى البصيرة والبصر ، وثانيهما صاحب فضل عظيم فيما لحق الدولة البيزنطية وعاصمتها من هوان ، وكلاهما صنيع أولئك الصليبيين الذين غدوا موضع البغض الشديد بين البيزنطيين . والواقع أنه لم يكن من المعقول أن يرضى البيزنطيون عن إمبراطورهم إسحاق أو ابنه ألكسيوس ، أو أن يقفوا مكتوفي الأيدي أمام الصليبيين وغطرتهم . بل كان من المعقول أنهم قاموا بثورة عنيفة ضد إمبراطورهم والصليبيين معاً . وتطلب لإخماد تلك الثورة حصار الصليبيين مدينة القسطنطينية ، والاستيلاء عليها مرة ثانية سنة ١٢٠٤ م ؛ ومن ثم أضمحى تأسيس دولة صليبية لاتينية على شواطئ البوسفور أمراً لا محيص عنه . ولواستطاع الصليبيون أن يضيفوا على الدولة اللاتينية التي خلقوها بالقسطنطينية

شيئاً من خالص الجدد الذي أضفاه النورمان على إنجلترا وصقلية بعد استيلائهم على كل منهما ، لظل الهدف الأساسي للحملة الصليبية في حيز الإمكان . غير أن سادة القسطنطينية الجدد لم يملكوا من العزم على تأييد السياسة الصليبية إلا نزرأً مشابهاً لعزم البعض من البيزنطيين الخثثين ، الذين رضوا أخيراً بما حلّ بهم من عنف على أيدي اللاتين . والواقع أن سادة القسطنطينية الجدد لم يعجزوا فحسب عن الاشتراك في تخليص فلسطين ، بل لم يستطيعوا الاحتفاظ بكيانهم القلق داخل الإمبراطورية البيزنطية وهيكلها المنهار إلا ببذل الجهد الجهميد ، وذلك

لقلة عددهم وكثرة انقساماتهم بعضهم على بعض ، فضلاً عن الضغط الشديد الواقع عليهم من البلغاريين في الشمال ، ومن البيزنطيين أنفسهم في إيروس بأقصى الجنوب ، وكذلك من الدولة السلجوقية الإسلامية بآسيا الصغرى ، ومن الإمبراطوريتين البيزنطيتين في نيقية وإطرابزون . ولذا عاشت الدولة اللاتينية الصليبية بالقسطنطينية مزعزعة الأركان والجوانب ، وظلت حياتها متوقفة على الحملات الأوربية التي كان من الأجدى إنفاذها - لو أمكن - إلى فلسطين ، بل وصل الحال من الخطورة في تلك الدولة أن هنرى فلاندرز - وهو ثاني أباطرة اللاتينيين بالقسطنطينية - حالف السلاجقة بآسيا الصغرى ضد الإمبراطورية البيزنطية في نيقية سنة ١٢٠٩ م .

وشبهه بتلك الحال السيئة ما زعم اللاتينيون لأنفسهم من المقدرة على إتمام الاتحاد بين الكنيستين الأرثوذكسية والكاثوليكية ، مع العلم بأن ذلك الاتحاد لم يصادف هوى إلا عند البابوية التي أشبع من كبريائها أن نبياً من نبلاء البندقية صار بطريقاً بالقسطنطينية ، وأن شعائر الكنيسة الكاثوليكية غدت قائمة بكنيسة أيا صوفيا . ثم إن ذلك الاتحاد لم يستند إلى وفاق حقيقى ، بدليل أن رئيس أساقفة أثينا وكبار رجال الكنيسة البيزنطية أنفوا الاعتراف بسلطة البابا ، وآثروا النزول عن مراكزهم الكنسية والمزب إلى الإمبراطور تيودور لاسكاريس في نيقية ، حيث تلقاهم البلاط الإمبراطورى بالترحاب ، ومن ذلك المنفى القريب من القسطنطينية ، عمل أولئك الرجال على تعضيد إخوانهم الأرثوذكسيين في كراهيتهم ونضالهم وتعصبهم ضد سادتهم الكاثوليكين .

أما البندقية صاحبة الفكرة في تحويل الحملة الصليبية المعروفة بالرابعة عن غرضها الصليبي ، فهي التي رجت أعظم الأرباح الناجمة عن ذلك التحويل ، إذ خصتها من الغنيمة ثلاثة أثمان القسطنطينية ، فأنشأت إلى جانب الإدارة الحكومية المرهقة بمطالب السادة البندقيين إدارة تجارية امتدت عناكبها إلى أنحاء البلاد ، وجعلت على هاتين الإدارتين حاكماً ذا سلطة استبدادية وسيادة مطلقة ، في ربع ونصف ربع من مساحة الإمبراطورية البيزنطية ، على قول المصطلح الجارى وقتذاك . ثم ما لبثت الجمهورية أن

استولت بفضل أعيانها للمغامرين على أهم الثغور البحرية المسيطرة على الطرق التجارية إلى شبه جزيرة القرم في الشمال ، وإلى مصر في الجنوب ؛ فاستولت على زاننا وكيفالونيا ومودون من جزر بحر الأرخبيل ، وكورون بشبه جزيرة المورة ، كما أخذت جزائر سيكلاديز بمدخل بحر الأرخبيل ، وغاليبولي بمدخل الدردنيل ، وكريت بشرق البحر الأبيض المتوسط . ويستطيع السائح بين الجزائر اليونانية - في العصر الحاضر - أن يشهد بنفسه ضخامة الاستحكامات الدالة على حكومة العنف والجمود الذي طبقته البندقية على تلك الجزائر . واستحقت البندقية من أجله أن تكون أول دولة استعمارية في العصور الوسطى .

ومن ذلك يتضح أن مفتاح تاريخ الشرق الأدنى - في العصور الوسطى - لا يعدو مسألة النضال بين المدن الإيطالية على السيطرة التجارية ، في شرق البحر الأبيض المتوسط ، وإذا كان البنادقة هم الذين أقاموا الدولة الصليبية اللاتينية بالقسطنطينية لأغراض تجارية بحتة ، فإن هذه الأغراض بعينها هي التي قوّضت تلك الدولة بعد خمسين سنة تقريباً ، حين عاد البيزنطيون إلى عاصمتهم سنة ١٢٦١ م ؛ بفضل المساعدة الكبيرة التي أمدتهم بها جنوة عدوة البندقية وسيادتها التجارية .

غير أنه مما يدعو إلى الالتفات هنا أن احتلال اللاتينيين مدينة القسطنطينية - وأثينا وكورنثة وطيبة - لم يؤدّ إلى شيء من النهضة في ميادين العلوم ، وأن مخطوطاً يونانياً واحداً لم يصل إلى غرب أوروبا نتيجة لتلك السيادة السياسية التي فرضها اللاتينيون على البيزنطيين . والعلة في ذلك أنه لم يدر بخلد أحد من الصليبيين - شأنهم في ذلك شأن الأتراك العثمانيين بعد احتلالهم القسطنطينية - أن في الآداب اليونانية القديمة كنوزاً من المعرفة والنور ، وبذا ضاعت على غرب أوروبا فرصة الاتصال بروائع الآثار الباقية من الشعر اليوناني والحياة الفكرية عند اليونان الأقدمين . على أن شعاعاً من ذلك النور العظيم اتخذ سبيله إلى أوروبا خلال القرن الثالث عشر الميلادي ، لا عن طريق اللاتينيين أو البيزنطيين أنفسهم ، بل على طريق المسلمين أصحاب إسبانيا الإسلامية .

وكيفما كان الأمر في حوادث الحملة الصليبية المعروفة بالرابعة ، ونتائجها

السالبة والموجبة ، فالمعروف أنه ليس أسهل عند الناس من احتذاء المثل السيئ بعد وقوعه ، ولا سيما إذا لم يترتب على ذلك المثل من العواقب ما يدعو إلى الخشية من احتذائه . والواقع أن سيطرة البنادقة على الحملة الصليبية المعروفة بالرابعة ، وتسخيرها لمنافعهم الخاصة . علم أوروبا درساً مغرباً خلاصته أن من الممكن توجيه الحملات الصليبية ضد الدول المسيحية الأوروبية ، على غرار توجيهها ضد المسلمين . واتى ذلك الدرس رواجاً سريعاً في الأوساط البابوية ، فقال قائلها إن المسلمين في مصر وفلسطين ليسوا وحدهم هم الذين أقلقوا مضاجع إنوسنت الثالث ، بل إن من أعداء الدين والبابوية أهل بروسيا الوثنيين ، وطوائف المسلمين بإسبانيا ، وجماعات الهراطقة الألبجيسيين بجنوب فرنسا ، فضلاً عن أعداء إنوسنت السياسيين ، أمثال حنا ملك إنجلترا الذي رفض تعيين استيفن لانجتن لمنصب رئيس الأساقفة في كانتربري . ورأى إنوسنت الثالث أن يدعو إلى حملة صليبية هنا وهناك ضد هؤلاء وأولئك من أعداء الشيوعية الرومانية ، وأخذ في توزيع صكوك الغفران في غير حساب على جميع الذين لبوا دعوته . غير أنه لو كانت قوانين النقد التي اكتشفها الاقتصاديون في العصور الحديثة معروفة في القرن الثالث عشر الميلادي ، لما فات هذا البابا الذكي أن الإسراف في منح صكوك الغفران — كالإسراف في إصدار البنكنوت — يؤدي إلى التضخم وما يتأتى مع التضخم من المساوئ ، وأن الوعود المكتوبة — كالسندات والقراطيس المالية — تفقد من قيمتها كلما ازدادت كميتها بين الناس .

ثم غدا واضحاً للعيان بعد ذلك بقليل أن أوروبا لن تقبل الرضوخ لحكومة ثيوقراطية ولو كان مركزها روما ، لأن تيار الحوادث أضحي متجهاً نحو فكرة الحكومة القومية ، لا حكومة بابوية عليا . ومصدر ذلك أن انتصار فرنسا على إنجلترا والإمبراطورية الألمانية في وقعة بوفين (٢٧ يولية سنة ١٢١٤ م) — وهو الانتصار الذي مكن لإنوسنت الثالث أن يسحق الإمبراطور الجولفي أوتو الرابع الذي انقلب جبليينياً^(١) — ناكث الوعد للبابوية — ساعد على تقوية الحكومة القومية الناشئة في فرنسا ، كما أفاد التقدم الدستوري في إنجلترا ، حيث أفسد

(١) انظر ما سبق ، ص ١٩٦ . (زيادة) .

على الملك حنا مشروعه لاسترداد ممتلكاته الفرنسية الضائعة .

وهنا يبدو أن البابا انتصر على الإمبراطور والإمبراطورية في تلك الجولة التي سقط فيها أوتو الرابع سقطه ليس بعدها نهضة ، إذ قهرته فرنسا ، وبذته ألمانيا ، وأجلست على العرش الألماني مكانه الصبي فردريك هوهنشتاوفن الذي نشأ في كنف البابا إنوسنت الثالث ، وذلك بعد أن حصل إنوسنت من فردريك على جميع التعهدات التي اعتاد الحصول عليها من المرشحين للعرش الإمبراطوري ، وهي الامتيازات الهائلة التي تجعل إدارة الكنيسة الألمانية رهن مشيئته البابوية ، والاعتراف بانفصال صقلية عن ألمانيا . غير أن هذه الظواهر البراقة أخفت تحتها شيئاً من اللغظ والقلق ، إذ تساءل بعض الألمان عن غرض البابا من التدخل في أمورهم الخاصة إلى هذا الحد البعيد ، وقام بعض الإنجليز للدفاع عن العهد الأعظم الذي ضرب به البابا عرض الحائط تأييداً للملك حنا ، ولم يخشوا خاشية البابا ، ولا حسبوا للملك حنا مواقفه المتقلبة أي حساب ، كما قام بعض الفرنسيين لمساعدة أولئك الإنجليز ضد ملكهم برغم ما تولد عن بوئين من تباغض . يضاف إلى ذلك لغز الموقف الذي ترتب على إقامة فردريك هوهنشتاوفن إمبراطوراً سنة ١٢١٥ م ، فهو فضلاً عن منصبه الإمبراطوري ملك على ألمانيا وصقلية ، ووريث للتقاليد الصقلية والجبلينية معاً . فهل كان من المنتظر عقلاً أن يسلك هذا الأمير الصقلي الجبليني معاً مسلك الجواني الخاضع للبابا ؟ أما فردريك ، فإنه ما عثم حتى أجاب لإجابة سريعة حاسمة مليئة بالنتائج الهامة في التاريخ الأوربي كله .

بعض المراجع لهذا الفصل

- Bréhier (L.) : L'Eglise et l'Orient au Moyen Age. 1907.
 Cambridge Mediaeval History. Vol. VI.
 Luchaire (A.) : Innocent III. 1905-1908.
 Miller. (W.) : The Latins in the Levant. 1908.
 Pears. (E.) : The Fall of Constantinople. 1885.
 Villehardouin. (G. de) : La Conquête de Constantinople. Ed. Bouchet,
 2 vols. 1891.

الفصل السادس عشر

سقوط أسرة الهوهنشتاوفن

فردريك الثانى هوهنشتاوفن — عظمته وأثره فى عصره — معارضة البابا جريجورى التاسع والبابا انوسنت الرابع للإمبراطور فردريك — حملة فردريك الصليبية — حكومته فى صقلية — دعايته ضد البابوية — خلع فردريك عن الإمبراطورية بأمر البابا انوسنت الرابع — انهيار أسرة فردريك — نتائج النزاع والتخاضم فيما بين الإمبراطورية والبابوية فى القرن الثالث عشر الميلادى — فترة الشغور فى ألمانيا — ضياع الهيبة البابوية — تحدى البابا بونيفاس الثامن مملكتى فرنسا وإنجلترا — العلاقة بين هدم أسرة الهوهنشتاوفن على يد البابوية ووقوع البابوية فى الأسر البابلى .

من خلال السحب التى أثارها مذمات المعاصرين يبدو فردريك الثانى — آخر أباطرة العصور الوسطى — شخصية ملؤها التقلب والحيلة والتحدى . فى صورة تهر عظمتها العقول والأبصار . والحقيقة أن فردريك الثانى اتصف بصفات قل أن تجتمع فى رجل واحد ، إذ أجاد الكتابة والكلام فى ست لغات ، ونظم الشعر العاطفى فى نغم دافئ دفء أنغام الصقليين الذين نشأ بينهم ، وأغدق من ماله وعنايته لتشجيع العمارة والنحت والتعليم ، وهو إلى جانب ذلك جندى بارع وسياسى لبق إلى أقصى درجات الالباقه ، مع الجسارة التى لا تخشى خاشية ، والنزعة الفكرية الجانحة إلى ميادين الفلسفة والفلك والهندسة ، والخبر والطب والتاريخ الطبيعى . وألف فردريك فى البيزة^(١) كتاباً هو أصل من أصول العلوم التجريبية فى غرب أوروبا ، واصطحب فى أسفاره مجموعة من الفيلة والهجائن وعجائب المناطق الاستوائية الحارة من أنواع الحيوان . ولم تكن الكواكب

(١) البيزة علم تربية الطيور الجوارح وتدريبها على الصيد والقنص . (زيادة) .

والتقاليد المسيحية التي التزمها أمثال ملك فرنسا القديس لويس في ذلك العصر ، مما يأبه له فردريك الذى نشأ في صقلية ، حيث ملتقى الأجناس والأديان : بل اصطنع فردريك للمسلم واليهودى ، وعرف لكل منهما قدره ومقامه ، مع أنه سلك مسلك الرهبان الدومنيكانيين في الصرامة الدينية . فلم يتردد يوماً ما في إعدام هرطيق من الهرطقة المسيحيين حرماً بالنار ، على شرط أن يكون من وراء ذلك منفعة سياسية . ودهش المعاصرون لإمبراطور مسيحي يتكلم العربية إلى رعاياه من المسلمين ، ويقتنى الجلم من الجوارى المنشآت في القصور ، وينأى عن التعصب الذى طفع به اعتقاد ذلك العصر من أن اليهود يأخذون أولاد المسيحيين ويذبحونهم أضاحى بعض الأحايين . وكيف لا يكون فردريك موضع دهشة المعاصرين ؟ أليس هو الذى كتب - على ما قيل - كتاباً عنوانه الأدعياء الثلاثة (De Tribus Impostoribus) ، حيث اعتبر موسى وعيسى ومحمداً من الكاذبين ؟ الواقع أن ثمة صفات خارقة اجتمعت في ذلك الإمبراطور الذى عالج شئونه السياسية في نشاط هائل وواقعية بصيرة ، واشتهر بدقة الذوق الفنى ، وبدا كالشرقى في عاداته وحياته الخاصة ، كما اشتهر بالتصوف والتشكك في آن واحد ، مع الجرأة والثورة على القديم في جميع مناهجه وآرائه . وإذا فلا غرو أن ينعت المعاصرون فردريك بأنه « أعجوبة العالم » (Stupor Mundi) ، وأن يظل ذلك الإمبراطور كذلك على مرّ القرون ، وثمة صفة أخرى انتصف بها فردريك دون سائر عظماء التاريخ ، وهى أن حياته وأعماله لم تكن مأكلاً لبلد من البلاد الأوروبية أو غيرها ، فبينما تعتزّ ألمانيا بالإمبراطور برباروسا ، وفرنسا بالقديس لويس ونابليون ، وإنجلترا بسيمون دى مونتفرت ، لا تستطيع أمة من الأمم الادعاء بأن فردريك جزء من تراثها التاريخى . فلا ألمانيا ذاتها تستطيع أن تدعيه لنفسها ، مع أن الأسس التي قام عليها النفوذ الألماني بين البروسيين أصحاب الروح الألمانية الحديثة ترجع إلى أوائل عهده ، أى سنة ١٢٢٩ م ؛ ولا صقلية كذلك تستطيع أن تدعيه لنفسها . مع أنه هو الذى طرد المسلمين من تلك الجزيرة . على أن أعمال فردريك الثانى كلها تهدمت وذهبت مع الريح ، كما ذهبت أسرته بعده ، أى أن أعظم شخصيات العصور

الوسطى لم يكبد يظهر على مسرح التاريخ حتى اختفى ، كالشهاب لم يومض حتى خبا ، اللهم إلا تأثيره ذو الأهمية الباقية في حلبة الأدب . ذلك أن المغنين البروفنساليين (التروبادور) - وهم الذين لجأوا إليه فراراً من الاضطهاد الدينى في بلادهم الفرنسية - لقوا كل ترحيب في بلاط بالرمو وتسامحه المشهور ، فأخذ النظامون الصقليون في مباراتهم قصيداً بقصيد ، وغدت دائرة الشعراء الذين حاطوا الإمبراطور الشاعر مصدراً لنبع من الشعر الصقلى الرقيق . ولم يلبث ذلك النبع حتى ازداد مجراه عمقاً وسعة ، ولا سيما بعد ملتقاه شمالاً بلهجة التوسكانيين ، وما زال حتى أضحى نهراً فحلاً دائق الأنغام ، في دانتي والكوميديا الإلهية . أما سبب إخفاق فردريك في حلبة السياسة ، فرجعه معارضة اثنين من مشهورى البابوات له ، وهما جريجورى التاسع وإنوسنت الرابع ، وأولهما شخصية متعصبة مترمة ، وثانيهما نبيل جنوى ضالع في القانون الكنسى ماهر في الأمور المالية ، لا تؤوده عظمة عند اشتداد الخصومات . ذلك أن فردريك هدف إلى إدماج إيطاليا وصقلية في مملكة متحدة داخل الإمبراطورية ، وأن البابوية تؤيدها عصبة المدن الاومباردية - بعد نهضتها وازدياد قوتها - هدفت بدورها إلى إفساد ذلك المشروع ، في دأب لا هوادة فيه . غير أن البابوية هى التى كسبت المعركة النهائية في ذلك النضال ، وتلاشى فردريك أمام هيئة ذات شخصية معنوية ، وتلاشت معه آخر فرصة لبناء إمبراطورية رومانية متنفذة في وسط أوربا ، كما تأجل تكوين مملكة إيطالية متحدة لعدة قرون .

وبدأ ذلك النضال حول حملة صليبية أقسم فردريك - في حماسة الشباب - أن يقوم بها إرضاء للبابوية ، ثم عكف على تأجيلها مرة بعد مرة . والعقل الحديث لا يستطيع إلا أن يرى شيئاً من الغرابة في موقف البابوية التى توقعت من إمبراطور - حديث السن - أن يقوم بحملة كثيرة التكاليف عبر البحار ، غداة اعتلائه عرش إمبراطورية مزقتها الفوضى في أثناء وصاية طويلة . وتراءت تلك الغرابة كذلك لفردريك ، فلم يبحر إلى فلسطين إلا بعد أن نظم الحكومة في صقلية ، حيث أخضع المسلمين والنبلاء الصقليين والمدن الصقلية . وأنشأ جامعة نابولى الحكومية . وفى أثناء ذلك أصدر البابا جريجورى التاسع

قراراً بحرمان فردريك من رحمة الكنيسة ، بسبب تأجيلاته المتكررة ، حتى إذا أبحر فردريك فعلاً إلى فلسطين سنة ١٢٢٨ م ؛ أصدر هذا البابا قراراً ثانياً بحرمانه من رحمة الكنيسة بسبب إبحاره ، بل دعا إلى حملة صليبية لمحاربتة في أوروبا ، وهو غائب بفلسطين عنها . ثم عاد فردريك إلى أوروبا ليصطلي بغضب الكنيسة ، مع روعة ما حققه على الرغم من المعارضة البابوية التي تعقبته من إيطاليا إلى الشام ، إذ عقد فردريك البعيد النظر مع صديقه السلطان الكامل ابن العادل الأيوبي معاهدة تتيح للحجاج المسيحيين زيارة الأماكن المقدسة مدة عشر سنوات ، وذلك دون أن يضيع وقتاً ، أو ينفق مالاً أو يهدر دمًا . تلك هي ثمار المهارة السياسية ، حين تحل الإنسانية والإدراك السليم محل الحقد الأعمى الذي ينجم عن التعصب الديني والكراهية بين أجناس البشر .

ثم أراد فردريك أن يقيم في إيطاليا حكومة استبدادية مستنيرة ، على نسق الحكومة التي أقامها قبلاً في مملكته الصقلية ، حيث جعل لنفسه الإشراف التام على القضاء الجنائي ، وحدّ من حريات النبلاء ورجال الدين والمدن ، وبنى نظاماً ملكياً لا نظير له إلا في مملكة إنجلترا على عهد الأنجوين^(١) . والواقع أن مملكتي صقلية وإنجلترا تشابهتا في منعة السلطة المركزية ، ودقة الإدارة المهيمنة على جمع الضرائب ، ونظام الدوائر القضائية الملكية المتنقلة ، واستخدام القائمين على وظائف الحكومة من مختلف الطبقات التي امتزجت في كل من المملكتين امتزاجاً طيباً ، وذلك كله فضلاً عن أن برلمانات فردريك الثاني — وهي المجالس العامة التي جمعت نواب النبلاء ورجال الدين وأهل المدن — سبقت التطورات البرلمانية التي حدثت فيما بعد بإنجلترا . غير أن ثمة farkاً ملحوظاً كان بين المملكتين اللتين امتازتا بأبدع ما في الإمكان من أنواع الحكم في القرن الثالث عشر الميلادي ، وذلك fark هو أن قوة الملكية في إنجلترا استندت إلى جيش من الإنجليز ، على حين اعتمد فردريك على جيش من المرتزقة المأجورة من المسلمين والألمان .

غير أن مزايا الحكومة الراقية التي أقامها فردريك في إيطاليا لم تستطع أن تبدو مقبولة لدى الإيطاليين ، وهم في نضالهم ضد الإمبراطور ؛ إذ عرفت

(١) انظر الفهرس ، في آخر القسم الثاني من الكتاب . (زيادة) .

المدن اللومباردية في فردريك عدوًّا لحرياتها ، واعتبره البابا صابئاً غايته تقويض سلطة الكنيسة . إذ رأى فردريك أن قمع اللومبارديين يتطلب جيشاً قوياً ، فإنه رأى أن حرب البابا تتطلب ولا بد سلاحاً مذهبياً مضاداً للمذهب البابوية ، واستوحى في سبيل ذلك ما امتلأت به رأسه من أحلام المتنبئ وتنبؤات المنجم ، بالإضافة إلى القانون الروماني . ثم ما لبث فردريك حتى دلته سجيته السياسية النافذة على أنه ليس أمضى سلاحاً من مذهب التقشف عند الفرنسيسكانيين ، لمحاربة الدعاوى الدنيوية التي أضحت ديدن البابوية ، فسلط من طلاوته وعمقه في الجدل ما شاء أن يسلط ، وكتب سنة ١٢٢٧ م « إن الكنيسة المسيحية الأولى قامت على الفقر والبساطة في تلك الأيام التي كانت فيها أمماً رَعوماً لجميع القديسين ، وایس لأحد أن يشرع للناس قواعد غير التي شرعها السيد المسيح » .

وبینما یمتد النزاع وتشتد حرارته ومرارته عاماً بعد عام ، فيسيطر الإمبراطور على مجلس ليون الديني بمنشوراته سنة ١٢٤٥ م ، ويتآمر البابا — على ما قيل — لاغتيال الإمبراطور ، أعلن فردريك في عبارات غامضة عن قرب إقامة كنيسة إمبراطورية جديدة تحل فضائلها محل مفاصد روما . ولم لا يستطيع الإمبراطور أن يقيم تلك الكنيسة الجديدة ؟ أليس لمولده بمدينة عيسى (Jesi) بصقليا مغزى ديني ، أليس وزيره الأول بطرس دلافيني (Pierre de la Vigne) وبطرس هو الصخرة الحقيقية ، وهو الذي جاء في الإنجيل أنه الصخرة التي تقوم عليها كنيسة المسيح^(١) ؟ وأليس في لقب دلافيني — ومعناه صاحب الكرمة — إشارة إلى قول المسيح عليه السلام « أنا الكرمة وأبى الكرام^(٢) » ؟ . غير أن كنيسة تقوم على الفقر والبساطة ، وتقوم عليها إمبراطورية أوتوقراطية استبدادية ، لم تكن مما يستهوى عقول الناس في العصور الوسطى . ثم أصدر البابا إنوسنت الرابع من مدينة ليون سنة ١٢٤٥ م قراراً بخلع خصيمه اللدود فردريك ، وأخذ يصب جام كراهيته الشديدة على الإمبراطور المخلوع ، فعرض تاجه على روبرت أخى القديس لويس التاسع ملك فرنسا ، وعلى هاكون ملك النرويج ،

(١) انظر ما سبق ، ص ١٠٧ . (زيادة) .

(٢) إنجيل يوحنا : الإصحاح الحادى عشر ، السطر الأول والخامس . (زيادة) .

فضلاً عن أمير من أمراء الدانمارك ؛ ثم عرضه أخيراً على هنرى الثورنجنى قبله سنة ١٢٤٦ م ، وسط سخط الساخطين على البابوية من الأمراء ورجال الدين فى ألمانيا . وأخذ إنوست الرابع فى الدعوة للاعتراف بهنرى الثورنجنى ، بمختلف الوسائل الدينية وغير الدينية . فلما توفى هنرى هذا سنة ١٢٤٧ م ، رشح البابا لتاج ألمانيا صنيعة أخرى^(١) من صنائع البابوية ، وهو وليم الهولندى ؛ ورضى هذا المرشح الثانى بالمشاركة فى هدم الهوهنشتاوفن ، وإشباعاً لأطماعه الخاصة . غير أن بيت الهوهنشتاوفن ظلّ عظيم القدر فى ألمانيا ، إذ بقى الأمراء ورجال الدين الألمانين - برغم نشاط الوكلاء البابويين - على الولاء لذلك البيت ، وللاُميرين الصغيرين هنرى وكتراد اللذين جىء بهما إلى العرش مكان أبيهما فردريك ، كفاءً لما أغدق فردريك على أولئك الأمراء ورجال الدين من وافر الإعفاءات والامتيازات التى أنذرت بالخطر على السلطات الملكية وكيانها . ومما يدلّ على سابق الولاء للهوهنشتاوفن وفردريك قبل تلك السنوات ، أنه حين شق هنرى - وهو الابن الناقص العقل - عصا الطاعة على أبيه ، ألنى فردريك الجزء الأكبر من المملكة الألمانية مؤيداً له فى إخضاع هذا الثائر المأفون وإيداعه السجن أخيراً سنة ١٢٤٢ م ؛ فى أحد قلاع أبواية بالجنوب الشرقى من إيطاليا . حيث كانت وفاته . يضاف إلى ذلك أنه على الرغم من تصديق المجلس الدينى العام بمدينة ليون على خلع فردريك ، لم يتحرك من رجال الكنيسة الألمانين إلا عدد قليل لتأييد هنرى الثورنجنى ووليم الهولندى اللذين رشحتهم البابوية ، وتولى كل منهما بدوره عرش المملكة الألمانية .

غير أن النضال ظلّ محتدماً حتى توفى فردريك سنة ١٢٥٠ م ، بعد أن خلف اسماً لا يقلّ - فى عظمتة واختلاف الناس فى تقديره - عن اسم نابايون فى العصور الحديثة . ومثال ذلك أن فردريك الذى يعتبر « مطرقة الكنيسة الرومانية » اعتبرته فئة من الإخوان الفرنسيسكانيين - وهى فئة الفراتيسلى (Fraticelli) - بطلاً من الأبطال . لأن أولئك الإخوان المتحمسين المخلصين للقديس فرنسيس ومبادئه الأصلية ، لم يذكروا لفردريك أنه كان

(١) انظر تفصيل ذلك كله فى (Camb. Med. Hist. Vol. VI. pp. 105-109) (زيادة) .

إمبراطوراً باذخاً يعيش عيشة نصف شرقية . وتسندة ثلثة من الجند المرتزقة من المسلمين في الجنوب ، وثلثة من الطغاة الأنكاد من الإيطاليين في الشمال ، ولم يذكروا له أنه كان ظنينا في الدين ومنجماً وشاعراً عاطفياً حارّ العاطفة ، بل رأوا فيه داعياً خالص الدعوة إلى المسيحية الأولى . أما المتمسكون بحرفية العقائد الدينية ، فجعلوا فردريك المسيح الدجال ، وأودعه دانتى أعماق الجحيم .

ومن المعلوم أنه مهما أوتى إنسان من خارق الموهبة والذكاء ، فلن يستطيع أن يسبق معاصريه في كل شيء . ولذا عاش فردريك حبيس عصره ، من حيث الموارد والاتجاهات الفكرية ، ورغم ما امتاز به على سائر الملوك في العصور الوسطى ، من حرية الفكر وسعة الأفق . ذلك أن أكبر جيش من جيوشه — وهو على أية حال أصغر من فرقة حربية إنجليزية في العصر الحاضر — لم يكن كفؤاً لأية مدينة لومباردية حصينة ، فامتنت عليه مدينة فاينزا مدة ثمانية أشهر ، وهى مدينة من الدرجة الثانية ، ونجحت ميلان في إفساد خطته لتوحيد إيطاليا . وبرغم ادعاءاته وأحقباته التى لا تعرف حدوداً جغرافية ، وبرغم سعة أغراضه وأهدافه ومراميه التى جعلته زعيماً بلقب «الأوربي الأول» ، لم يستطع فردريك أن يسيطر على السهل اللومباردى سيطرة حربية تامة . ثم إنه ورغم ما اتصف به من صفات عقلية توجب الالتفات في كل عصر — مثل البعد عن التعصب للون أو جنس ، وهو التعصب الذى يشين الكثيرين من المحدثين أبناء العصر الحاضر ، ومثل حب الاستطلاع الدائم في أسرار الطبيعة ، وقوة الإيمان بأن كل امرئ ميسر لما خلق له — ، فإنه جمع في نفسه بين هذه الصفات النادرة والخرافات المألوفة في عصره — مثل الاعتقاد في المنجمين ، والإذعان الأحق لمشورات العرافين والكهان ، والعجز عن التمييز بين الأسئلة التى تؤدى إلى إجابات علمية دقيقة . ذلك أنه على حين أدت بعض أسئلة فردريك إلى كشف شيء من الحقيقة ، لم يكن في استطاعة أحد أن يجيب عن بعض آخر منها إلا أن يكون شاعراً متديناً ذا خيال واسع ، ومثال ذلك : كم عدد الجهنمات ؟ وما الأرواح التى تسكنها ؟ وما أسماؤها ؟ وأين جهنم ؟ وأين المطهر ؟ هل تعرف روح الإنسان روحاً ثانية

في الحياة الأخرى؟ وهل يمكن أن تعود الروح إلى الحياة الدنيا لتتحدث وتظهر لأحد من الناس؟ على أن دانتي استطاع فيما بعد عصر فردريك أن يجيب عن تلك الأسئلة وأشباهاها إجابات عريضة ، لم يتخلجها فيها شك أو ريب :

ولثماني عشرة سنة بين وفاة فردريك أعجوبة العالم وانقراض أسرته بمقتل حفيده الشاب كترادين ، غداة وقعة تاليا كوزو سنة ١٢٦٨ م ، ظلّ النضال مستعراً بصقلية وسائر إيطاليا بين الجولفيين والجبليين ، أو بعبارة أخرى بين الإمبراطوريين والبابويين ، كما ظلّ الشقاق والانقسام قائماً بين المدن والطبقات والأسرات ، وكل ذلك لتحقيق ما هدف إليه البابوات من إتلاف الهوهنشتاوفن ، وإزالة الخطر الذي يخلقه أمثالهم لتعويق اتساع الدولة البابوية. غير أن المملكة الصقلية على عهد مانفرد — وهو ابن غير شرعى لفردريك — وانقسام الإيطاليين أنفسهم بين الجولفيين والجبليين ، اضطرت البابوية إلى الاعتماد على الأجنبي لإنهاء النضال بنصر بابوي ، إذ عرض البابا إربان الرابع — وهو أول فرنسي جلس على الكرسي البابوي — تاج صقلية على شارل أنجو أصغر إخوة القديس لويس التاسع ملك فرنسا ، وذلك بعد فشل جيشين بابويين كان الفضل في تكوينهما لأموال إنجليزية سنة ١٢٦١ م . ولم يكن تاج صقلية في ذاته هو الذي حمل ذلك الأمير الفرنسي للغنى الطموح على قبول العرض البابوي ، بل كان سرّ قبوله أنه اعتبر المملكة الصقلية خطوة لفتح الإمبراطورية البيزنطية. وأخيراً تم الاتفاق بين شارل أنجو والبابا كلمنت الرابع — وهو كذلك من الفرنسيين — ، وجاء إلى صقلية جيش فرنسي يفوق في عدته ودربته ونظامه وقيادته ما أعدّ مانفرد وكترادين بعده من عدّة للقتال . فأحرز ذلك الجيش الفرنسي للبابوية نصرها النهائي سنة ١٢٦٨ م ، كما أحرز للجولفيين الغلبة على غرماهم الجبليين ، وضمن لشارل الأنجوي عرش المملكة الصقلية .

وهنا يستطيع الباحث أن يلخص لنفسه نتائج ذلك النضال الطويل وهي أن إيطاليا ضاعت من الإمبراطورية الألمانية إلى الأبد ، وأن الحضارة النورمانية الصقلية التي كانت إحدى مفاخر أوروبا في العصور الوسطى تهدمت تحت معاول الاستبداد الفرنسي الذي ضربه شارل أنجو على مملكته ، والذي بلغ

من كراهية الناس له ما حملهم على الثورة المريعة المعروفة باسم الصلوات الصقلية (Sicilian Vespers) ، في ٣٠ من مارس سنة ١٢٨٢ م ؛ وهي الثورة التي أدب بعدئذ إلى انفصال جزيرة صقلية عن مملكة نابول الفرنسية ، وإلى ذهاب صقلية من موازين السياسة الأوروبية . ذلك أن القوات الفرنسية ، التي دعاها البابا للقضاء على أواخر الهوهنشتاوفن ، طاردت إلى شمال جبال الألب جميع الموظفين والجنود المرتزقة من الألمان الذين أقاموا النظام الإمبراطوري في إيطاليا . غير أن ذلك العمل — على ما فيه من خدمة حقيقية لإيطاليا — لم يساعد على تقدم الحرية بين الإيطاليين . إذ تطلبت مطاردة الألمان حروباً متواصلة ، ولم ينجم عن تلك الحروب التي كانت وبالاً — ومشغلة ولمهاة — للمدن الإيطالية سوى نوع غريب من الحياة السياسية انفردت به إيطاليا ؛ سُدَّاه استبداد محلي ولحمته قسوة وظلم في أغلب الأحيان ، مع امتيانه برعاية مستنيرة مشجعة للآداب والفنون .

أما أثر ذلك النضال الطويل في ألمانيا ، فهو أن وحدتها ذهبت إلى غير رجعة ممكنة ، لأن طول غيبات فردريك وتكرارها ، وسخاء الامتيازات التي اضطر أن يمنحها للأمراء الألمان — من العلمانيين والدينيين — سنتي ١٢٢٥ ، ١٢٣١ م ، فضلاً عن عنف الحروب الأهلية التي دأب البابا على تحريكها ، في صورة جعلت أواخر أيام فردريك وبالاً في وبال ، — كل ذلك قطع الأمل في عودة الحكم الإمبراطوري الفعلي إلى ألمانيا . ولعل أكبر دليل على انصراف الأمراء الألمان عن الإمبراطورية — والحكم الإمبراطوري — ما حدث من الحوادث بعد مقتل ولیم^(١) الهولندي ، في بعض حروبه سنة ١٢٥٦ م . ذلك أن أموراً لا تزال غير تامة الوضوح حتى العصر الحاضر ، جعلت اختيار الإمبراطور — أو ملك الرومان على قول المصطلح السامى في العصور الوسطى — في أيدي سبعة من الناخبين ، ثلاثة من الدينيين ، وأربعة من العلمانيين . ولم يطلب هؤلاء الناخبون من المؤهلات في المرشح الإمبراطوري بعد ذهاب الهوهنشتاوفن إلا أن يكون هذا المرشح غنياً أجنبياً غير ألماني لا تهمه الإقامة في ألمانيا ، على أن يكون عليماً بقيمة الأصوات السبعة الناخبة ، مستعداً لدفع

(١) انظر ما سبق هنا ، ص ٢٥٤ . (زيادة) .

أثمانها . غير أن الناحيين انقسموا فريقين سنة ١٢٥٧ م . إذ أقرت الأغلبية ترشيح رتشارد أمير كورنوال وأغنى رجل في إنجلترا وقتذاك . وانحازت الأقلية إلى جانب ألفونسو أمير قشتالة وهو سليل الهوهنشتاوفن من ناحية الأم ، وحبيب فرنسا والبابوية . ثم أعلن أنصار كل من هذين المرشحين صحة انتخاب صاحبه إمبراطوراً ، أى ملكاً على الرومان . وأقل ما يقول عن المرشح الإنجليزي أن رشاويه بلغت مبلغاً هائلاً ، وأنه أنفق المال عن سعة تتفق مع المنتظر منه ، وأنه جعل نفسه موضع الترحيب في مدن نهر الراين . أما المرشح القشتالي ، فاقنع بحكمة البقاء في قشتالة . وأما ما دلّ عليه الانتخاب ، فهو لإصرار الأمراء الألمان ألا يتولى أمرهم ملك قوى ، وألا تكون هيمنتهم على أعظم سلطة زمنية في أوروبا سوى فرصة لاربح الفردى والمؤامرات الدوابة . غير أن الفوضى المريعة التي سادت البلاد - في ظل الحكم الاسمي لإمبراطور إنجلیزی غائب - أدت إلى التشكك فيما تفيده ألمانيا من تكاليف علاقتها الدائمة بالإمبراطورية الرومانية المقدسة ، فلما مات رتشارد كورنوال سنة ١٢٧١ م أتاحت الفرصة للألمان أن يختموا الإمبراطورية ، وأن يبدؤوا في تأسيس دولة ألمانية قوية ، على غرار جيرانهم الفرنسيين والإنجليز . لكن حال دون ذلك ما اتصف به النخبون من محافظة وكبرياء ، وإيثار للمنفعة الشخصية ؛ بل إن مسألة الإمبراطورية عموماً لم تعرض ألبتة على بساط البحث بعد وفاة الإمبراطور رتشارد كورنوال . ولذا ظل العرش الإمبراطوري الألماني شاغراً مدة ستين ، حتى وقع اختيار الناحيين على رودلف هايسبرج ، وهو نبيل سويسرى من مقاطعة أرجاو ، أجمع المعاصرون على وداعته وقلة خطره ، وشاءت له المقادير أن يكون مؤسس الأسرة الإمبراطورية الشهيرة التي يعزو الساسة البروسيون إلى أخطائها السياسية انفصال هولندا وسويسرا عن الرايخ الألماني ، وكارثة حرب الثلاثين سنة ، ووقوع الحرب العالمية الأولى في القرن العشرين ، وهى الحرب التي هدمت الإمبراطوريتين البروسية والنمساوية معاً .

والحاصل أنه ليس في هذه الحقبة المظلمة المضطربة من التاريخ الألماني سوى شعاعين اثنين من النور : أحدهما الاتحاد الذي تكون من مدن نهر الراين سنة ١٢٥٤ م للمحافظة على السلام ، والاتحاد الذي تكون من مدن

البحر البلطى سنة ١٢٥٩ م لتشجيع التجارة^(١) ، وثانيهما زحف الحضارة الألمانية زحفاً دائماً إلى شرق أوروبا صوب سيليزيا وبوهيميا ، بفضل العنصر البرومى وجلادته وسداجته .

أما البابوية ، فإنها دفعت ثمن انتصاراتها غالياً . ذلك أن المطالبة بأموال إجبارية للإنفاق على هيئة عالمية - مهما عظمت شئونها - لا تلبث أن تصبح موضع القيل والقال . وإذا كان من الواضح أن إمداد البابوية بالأموال اللازمة لواجباتها اليومية لم يكن أمراً هيناً ، فمن الأوضح أن الحصول على الأموال الضرورية لإدارة حرب بابوية كان موضع التذمر والبغضاء . ثم إن البابا إنوسنت الرابع (١٢٤٣ - ١٢٥٤ م) - وهو المالى الجنوى الضليع - لم يحجم عن اتخاذ أية وسيلة تخطر له في سبيل أغراضه المختلفة ، فاشترى نفوذه في إيطاليا بأن عين على كثير من الوظائف الدينية - في إنجلترا - بعضاً من الإيطاليين الذين استمروا بالجمع بين الوظائف في أيديهم ، مع التغيب عنها بأشخاصهم ، كما حصل على الأموال الكثيرة بأن أثقل كواهل رجال الدين في إنجلترا وفرنسا بأعباء باهظة . وليس من العسير على قارئ حوليات المؤرخ ماثيو باريس أن يستشف علامات السخط الذى أثارته تلك المطالبات التعسفية في بلاد اشتهرت دون غيرها بطاعة الكرومى البابوى المقدس ، حتى إن ملك فرنسا القديس لويس التاسع الذى اختصت البابوية مملكته بشيء من حسن المعاملة والرفق ، اضطر إلى تنبيه البابا في رسالة احتجاجية خطيرة : « أن الذى يشدد في إدراك الأضرار لابد أن يصيب الدم من حلماها » واستغاث رجال الدين من الإنجليز من المطالب البابوية ، وشكوا حالهم سنة ١٢٤٦ م إلى المجلس الدينى العام المنعقد في مدينة ليون . ومع أن السلطان البابوى ظل فوق الشبهات ، فالواضح أن روحاً من الغضب وسوء الظن حلت محل روح المحبة القديمة والإجلال^(٢) . ثم إن مواقف الهلندبراندية القديمة لم تعد مصدراً للمعجزات كشأنها القديم ، حتى إذا عمد بونيفاس الثامن (١٢٩٤ - ١٣٠٣ م) إلى تكرارها

(١) هذا هو اتحاد العصبة الهنسية الذى تقدمت الإشارة إليه ص ٢٢٦ ، وما بعدها .

(زيادة) .

(٢) انظر تفصيل ذلك في (Camb. Med. Hist. Vol., VI. p. 269) . (زيادة) .

— وهو البابا الذى بلغ به الإلحاح فى المنفعة العائلية إلى توجيه حملة صليبية على بيت كولونا خصماء عائلته — لم تلق البابوية من إنجلترا وفرنسا سوى مقاومة شديدة ؛ إذ دلّ كل من إدوارد الأول ملك إنجلترا ، وفيليب الجميل ملك فرنسا ، أنه لن يحفل لحظة واحدة بنظرية لا تجيز للملك أن يفرض من الضرائب على رجال الدين فى مملكته سوى المقررات الإقطاعية ، وهى نظرية المنشور البابوى المسمى « الدينيون والعلمانيون » (Clericos Laicos) الصادر فى السنة الثانية من بابوية بونيفاس الثامن ، كما دلّ كل منهما على أنه ليس من الضرورى أن يخضع الملك للبابا لكى يحظى بالحنّة فى الآخرة . وأعلن كل من الملكين بكل ما استطاع من وضوح أنه نوى أن يكون سيداً فى مملكته ، وأن شعبه يؤيده فى هذه النية تمام التأييد . ومما يدعو إلى الالتفات هنا أن أحداً لم يحتاج بكلمة واحدة حين أرسل فيليب الجميل — وهو فى سكرة الغضب — مندوبه نوجاريه إلى روما ، ليختطف البابا بونيفاس الثامن الذى بلغ من السن عتياً ، ويأتى به أسيراً إلى فرنسا سنة ١٢٩٩ م . وبعد ست سنوات من ذلك التاريخ — أى سنة ١٣٠٥ م — اتخذ الكاردينال الغسقوى برتران دى جوت — وهو كلمنت الخامس — بعد انتخابه للكرسى البابوى بمساعدة فرنسا ، مقره بمدينة آفينيون الفرنسية ، وبه تبتدئ المرحلة المخجلة فى تاريخ البابوية ، إذ أصبح البابوات يعملون وفقاً لمشئته الملوك الفرنسيين .

بعض المراجع لهذا الفصل

- Boase (T.R.) Boniface : VIII. 1933.
 Boutaric : (E.) La France sous le règne de Philippe le Bel. 1891.
 Bréholles : (Huillard) Histoire Diplomatica Fredredici II. 1852-1861.
 Kantorowicz : Frederic II. E.O. Lorimer. 1931.

(نهاية القسم الأول)

رقم الإيداع	١٩٧٦/٢٦٦١
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ - ٢٤٦ - ١٨٩ - ٧

١ / ٧٦ / ٤

مطابع دارالكتاب بمصر
١٩٧٦



هذا الكتاب

استطاع هذا الجزء الأول من كتاب « تاريخ أوروبا في العصور الوسطى » أن يشتمل على معالم التاريخ الأوروبي منذ أيام سقوط الإمبراطورية الرومانية القديمة في غرب أوروبا ، وأواخر القرن الخامس ، إلى أيام عظمة البابوية المسيحية والبابا إنوسنت الثالث ، أوائل القرن الثالث عشر للميلاد .

وهذه المرحلة التاريخية المستطيلة هي التي يسميها المؤرخون مرحلة التاريخ الأوروبي في العصور الوسطى الأولى ، وتحتوى هذه المرحلة على جميع الأصول التكوينية للتاريخ الأوروبي ، وهي نشأة الدول الجرمانية الجديدة في جوف الدول الرومانية قبل سقوطها ، وعصر جستنيان في حوض البحر الأبيض المتوسط ، وظهور الإسلام في الشرق والغرب ، وقيام دولة الفرنجة المير وفنجيين والكارولنجهين ، وانتشار الكنيسة الكاثوليكية ، والحركات الرهبانية والديرية ، وغزوات الساليين ، وأسس الحكم في فرنسا وإنجلترا ، والحروب الصليبية وزعامة البابوية ، ونمو المدن وحكوماتها في العصور الوسطى ، وهذا الموضوع الأخير هو بداية النهاية لهذه المرحلة الأولى من تلك العصور .

والميزة الواضحة لهذا الكتاب أنه اشتمل على كل هذه الموضوعات التاريخية الهامة في ترتيب زمني دقيق ، وبعبارة علمية صافية واضحة سهلة على القارئ العربي الفاحص .